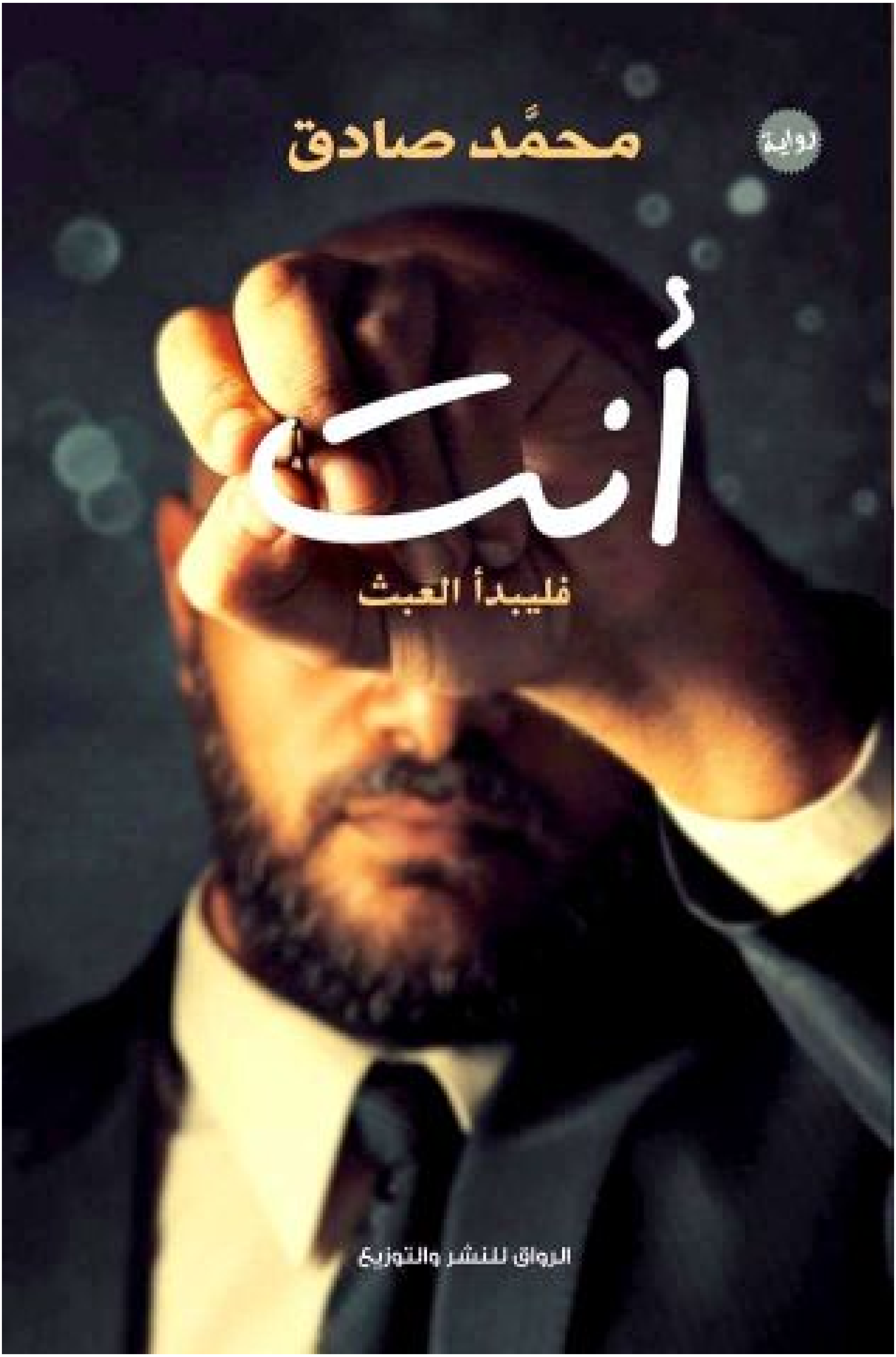

رواية
محمد صادق
أنت
فليبدأ العبث
الرواق للنشر والتوزيع


رواياتي
ابحث عن رواياتي
Rwaiaty ~~ رواياتي
Closed group
والضم للجروب
لتحميل اجدد الروايات
حصريا
Pdf


Rwaiaty
Rwaiaty ~~ رواياتي
Closed Group ·
Gero
Joined
Add Members
Search
Info

انت فليبدا العبث

محمد صادق

أنت

فليبدأ العبث

أنت

فليبدأ العبث

رواية

محمد صادق

الرواق للنشر والتوزيع

أنت ـ فليبدأ العَبَث (رواية)

محمد صادق

■ الطبعة الأولى .... يناير 2017

تصميم وتصوير الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: مُحمد صبري

رقم الإيداع: 26206 / 2016

الترقيم الدولي: 0 - 003 - 824 - 977 - 978

186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

للنشر والتوزيع

لولا الجُنون
ما كان الشغَف

مُفتتَح

وضعتُ تخيُّلات كثيرة لصوت الرصاص، لكن صوت رصاصته كان أعلى مما توقعت.

انتفض جسدي مع الصوت الذي دوَّى كانفجار صغير. سمعت صوت تهشُّم زجاج الأباجورة بجواري، مسكينة، اخترقَتها رصاصة تحذيرية هدفها إثبات وجهة نظر!

تأملت فوهة مُسدسه الصغير التي تصاعد منها دخان خفيف، نظرت لعينيه اللتين تلتمعان بغضب عاتٍ.

قال بصوت قاسٍ، جاعلًا فوهة المسدس تشير إلى صدري مباشرة:

- خليك فاكر إني مش خايف، وإنك لأول مرة من ساعة ما قابلتك...

وأكمل بشراسة ليث مُتحفز للانقضاض:

- تحت رحمتي أنا.

أعجبني أنه يحاول أن يبدو قويًّا متماسكًا، يجتهد أن يبث الرعب في قلبي حتى أطيعه، لا يعلم أنني أحتقر معظم المشاعر البشرية ولا أسمح بعبثها داخل عقلي!

دوائر العَرق تحت إبطيه، يده المهتزة برعشة خفيفة لم تفت على عينَيَّ الخبيرتين، قطرات العَرَق التي بدأت تظهر ببطء على جبينه، لغة جسده المتحفزة، هل رأيت قطًّا خائفًا من قبل يتقوس ظهره ويقف شعر فروته؟ هكذا كان أمامي رغم كل ما يحاول إثباته من تماسك.

مسكين!

قطعت الصمت اللزج بصوتي الواثق وابتسامتي العابثة:

ـ ممكن آخد سِيلفي بس قبل ما نبدأ؟

لمحت الدهشة في عينيه، أعلم أنه لن يطلق رصاصة ثانية، نهضت من جلستي خلف المكتب وأعطيته ظهري، رافعًا يدي بهاتفي المحمول وأنا أبتسم، ظهر هو على شاشة الهاتف، يقف خلفي كالأبله وينظر لما أفعل بعدم تصديق، ضحكت وضغطت على زر التصوير لأسجل أغرب لحظة في تاريخ الصور.

لحظة مواجهة بين بطل الرواية..

وكاتبها..!

لحظة تستحق ـ من نشوتها ـ أن أموت بعدها ولا أبالي!

* * *

الجزء الأول

جزء مُجبر أن أكتبه، ومُجبر أنتَ أن تقرأه

استهلال

أطول استهلال في تاريخ الاستهلالات أجمعها☺

اليوم: ٢٧/ ٧/ ٢٠١٧
١:٠٠ بعد منتصف الليل

تصاعدت نغمات الأغنية الكئيبة «Hallelujah» من حاسوبي الجديد، لم أقصد أن يلعب الحاسوب تلك الأغنية بالذات، لكن أتى دورها بشكل عشوائي في قائمة الأغاني الخاصة بالكتابة..

نظرت لصفحة «الوورد» الخالية في ملل، يتصاعد دخان سجائري الخفيفة التي أكرهها من السيجارة القابعة بين أصابع يدي اليمنى، تحرق ما تبقَّى من روحي مع شُعلتها الصبورة..

أغشت كثافة الدخان ما تبقى من مكتبي الخالي على عروشه الآن..

أخذتُ حبة من أقراص الدواء بجانبي، بلعتها على الفور دون ماء، لا بد أن تصمت آلامي الآن حتى أستطيع الكتابة..

لا أصدق أنني سأكتب كل هذا ثانية..

ذلك الطفل العنيد داخلي يرفض أن يصمت، يزعجني بكاؤه المستمر ورغبته في كتابة هذه الرواية..

حاربته كثيرًا حتى لا أكتب هذه الرواية بالخصوص..

لكنه لا يتركني أهدأ ولو قليلًا، يحارب قراراتي فأخسر راضيًا مهما زادت مقاومتي..

استسلمتُ له بعد شهور من المقاومة، رغم كراهيتي لإعادة حرف واحد مما كتبت. في المعتاد أكتب الرواية مرَّة واحدة فقط وأترك مشاعري لما تسطره روحي، وعندما أخط كلمة «تمَّت» لا أنظر للرواية ثانية، مهما رجوني أن أعدل فيها ولو قليلًا، أشعر أنه حق القارئ ـ أنت ـ أن ترى العمل بأخطائه وهفواته وسذاجته وصدقه وإحساسه؛ حتى تستطيع أن تُقيم كاتبك المفضل بإحساسه هو، لا بإحساس تم تعديله آلاف المرَّات..

ربما لهذا السبب أجلسُ الآن على الأرض، وحيدًا تمامًا بوجه مشوَّه،

لا يوجد رجل في مثل عمري يستسلم لطفل داخله وينصاع له صاغرًا في كل مرّة..

ولهذا تجدني الآن أكتب هذه الرواية على الحاسوب الجديد للمرة الثانية، وبيدٍ واحدة فقط، يدي اليمنى التي بدأتْ تئن من كثرة استخدامي المفاجئ لها، تشكو إليَّ حالها بآلام ربة بيت مستنزَفة في واجبات منزلية، أسمعها ترجوني أن أعود ليدي اليسرى التي اعتمدت عليها طَوال حياتي..

لكن اليسرى ذهبت ولن تعود..

عزيزي القارئ..

أعرفك بي يا صديقي، أنا «حازم كَتْخُدَا».. لا تفهم الاسم؟ ابحث عنه ولا تُزعجني بتفاصيل مرهقة..

أنا في المحطة الثالثة والأربعين من قطار العمر البارد، ولم يؤذن لي بالنزول بعد..

كتبت كل شيء أعشق كتابته، وصلت لكل الأحلام التي يتمناها أي كاتب في عمري، لي أربعة أفلام ومُسلسلان وثلاث مسرحيات، كلها بأسماء رواياتي، أكثر من أربعة ملايين متابع على صفحتي الرسمية يعشقون ما أكتب، رويت كل الأفكار العنيفة التي تصارع ذرات عقلي، كتبت عن آلامي، وعن الآخرين كما أراهم، طرحت فلسفتي الخاصة التي يهاجمني عليها الجميع.

ويبقى لي دائمًا السؤال الأبدي الذي يجعل من كل إنجاز جديد همًّا سخيفًا:

ماذا بعد؟

يقولون إنني طويل، لكني أرى أنني طبيعي وهم مَن لم يكتمل نموهم بعد. يقولون إنني ضخم، قمحي البشرة، عيون بُنية في ضوء الشمس وسوداء في ضوء القمر، أحلق شعري بالموسى لأنني أصلع، وأكره المجهود الذي يجعلني أذهب للحلاق كل شهر، كنت أطلق شاربي ولحيتي وقتما كانا ينموان، تعطيني اللحية وقار عمري الأربعيني بشيبتها وتناثر الشعر الأبيض فيها..

هذه صفاتي الجسدية، ولن أخبرك صفاتي الشخصية، سيتحول الأمر إلى إعلان زواج سخيف، تخيل معي لو قلت لك: «أحب الحياة وأعشق الكتابة»، منتهى الابتذال وأنت تعلم هذا جيدًا، ستتعرف عليَّ في صفحات هذه الرواية، فلا تتعجل..

أمامك وقت كافٍ لتكرهني فيها بعد..

مرحبا بك في روايتي العاشرة يا رفيق..

لماذا أحدثك إذن؟

لأنني الكاتب الحقيقي، وبطل الرواية أيضًا! أرويها لك بصيغة الراوي المتكلم وأحدثك أنت، لأجعلك - رغمًا عنك - جزءًا من روايتي!

وقع رماد شعلة السيجارة على يدي وأنا أكتب، ليُذكرني بآلامها ويُجبرني أن أكفَّ عن الاستطراد وأبدأ في الرواية دون تطويل..

لا بأس، لا بأس..

سأجدُ الوقت الكافي لأجعلك تفهم كل شيء..

لكن الآن، فلنبدأ من جديد..

* * *

تاريخ يوم البداية الحقيقية، أو بداية نهايتي أنا، كان ٢٧/ ٧/ ٢٠١٦.

منذ عام كامل..

الفكرة ببساطة يا صديقي وباختصار، أنني فكَّرت في فكرة رواية جديدة، وهي أن أستخدم أبطالًا حقيقيين هذه المرة، كيف هذا؟ ستعرف في السطور القادمة لا تقلق. ما يهمك أن تعرفه أنني كتبت منشورًا على الـ«facebook» فيه إعلان لمن يريد أن يتطوع. حددت يومًا للمقابلة وبدأت في تنفيذ الفكرة..

كنتُ قد انتهيت من المقابلات المبدئية، واخترت ستَّة أسماء فقط من وسط مائة وعشرين متقدمًا، ليكونوا أبطال روايتي الجديدة: «آلاء أبو العينين» ٢٥ سنة، «رامي محمود راضي» ٣٦ سنة، «خالد عبد السلام» ٣٥ سنة، «شيماء صالح» ٢٧ سنة، «طه أحمد» ٣٠ سنة، «سارة محمد عبد المنعم» ٣١ سنة..

حددت مع كل واحد منهم ميعادًا مختلفًا عن الآخر حتى أستطيع أن أشرح لهم كل شيء كما أريد.

لذلك كنت أجلس وقتها أمام «آلاء» وأنظر لقلمي في هدوء..

نقلت «آلاء أبو العينين» عينيها بيني وبين «ديما» الواقفة عاقدةً ذراعيها ومُستندة على المكتبة تنتظر حديثي في ملل. كانت «آلاء» جالسةً على المقعد النبيتي الوثير، جلستُ أنا خلف مكتبي وتعمدت الصمت حتى أثير ضغتها أكثر، كان مكتبي لحظتها في صورته التي أعشقها: مفروش بأثاث راقٍ ولا توجد تفصيلة واحدة فيه لا تخصني أنا و«ديما»..

بقدميَّ الحافيتين ـ اللتين لا يراهما أحد من خلف المكتب ـ جلست واثقًا، مرتديًا سترة صيفية رمادية اللون في أحلك درجاته، يطلقون عليها «بليزر»، و«تيشرت» رماديًا «فاتح خفيف» على بنطلون جينز كحلي، هذا ما أرتديه دائمًا بنفس الألوان منذ فترة طويلة، لديَّ من نفس الملابس أكثر من عشرين قطعة، لا أحب أن أضيع وقتي في أي شيء آخر سوى رواياتي.

ممسكًا بقلمي الذي لا أتركه إلا نادرًا، أعبث في لحيتي الثقيلة، أنظر لـ«آلاء» التي تهز أصابعها في توتر..

صمتٌ مشحون..

تأملت «آلاء» وتفاصيلها ليسجل عقلي كل همسة، أعتقد أنها كانت ممتنة أنني سمحت لها بارتداء ملابسها هذه المرة، صوت التكييف الرتيب يحاول أن يكسر حالة الصمت، قلت أخيرًا بصوتي الهادئ، بادئًا كلَّ ما سيأتي:

ـ في أي أسئلة عاوزة تسأليها قبل ما أبدأ؟

تنحنحتْ هي، ثم قالت وهي تبتسم ابتسامة لبقة:

ـ أنا بقالي أسبوع عايشة في نكد وتأنيب ضمير زي الزفت، في دماغي سؤال واحد بس..

ومالت بجسدها وسألت:

ـ أنت ليه خليتنا نقلع؟

ابتسمتُ لأنني توقعت سؤالها، وأجبتها مدققًا في تفاصيل مشاعرها:

- مش باحب أقول أسبابي لحد.

ظهر الإحباط على وجهها، فقلت بعادتي في العبث بشعيرات لحيتي الغزيرة:

- بس عشان أنتِ أول واحدة قلعتِ، هاقولك.

أشعلتُ سيجارة لأجعلها تنتظر أكثر، وأخذت نفسًا عميقًا منها، وقلت بعد أن زفرته مُطلِقًا سحابة من الدخان:

- أنا عارف إن أصعب حاجة أي حد ممكن يعملها في مجتمعنا الشرقي إنه يقلع.

ونظرت لعينيها الواسعتين مباشرة حتى أقرأ إذا كانت تؤمن بها أقول أم لا، وأكملت فلسفتي الخاصة جدًّا:

- القلع بالنسبالي أهم وأسهل حاجة تكشفلك البني آدم اللي قدامك على حقيقته، أنا مش باعرف أثق في أي بني آدم - مهما كان - إلا لما أشوفه عريان! كلنا شفنا وعرفنا ناس مركبين وشوش كتير، ناس مزيفة ومصدقة زيفها، مستحيل تتخدعي في واحد شفتيه على طبيعته زي ما اتخلق، مستحيل يعرف يمثل عليكِ وهو في أضعف حالاته الجسدية والنفسية.

وراقبت ملامحها مراقبة نورس لصفحات الماء بحثًا عن وجبة دسمة:

- زي ما قلت، العري هو التجرد التام، محتاج اللي يبقى معايا في الرواية ينسى كل القوانين والقواعد اللي اتعلمها برَّة، ويبدأ معايا بقوانيني أنا!

وقتها لم أكن أبالي بأي شيء لتحمُّسي للفكرة، أومأت «آلاء» برأسها في عدم اقتناع..

ربما كانت تريد إجابة ملهمة أكثر من هذه، ربما صدقت الفكرة لكن لم تفهمها بعد، في الحقيقة لا أبالي..

قلت مباشرة بنفس النبرة الجامدة، منهيًا فترة الراحة:

- وأنتِ عديتِ بالاختبار ونجحتِ، عشان كده أنتِ هنا.

بدأت تهتم، فأكملت أنا ما تنتظران سماعه أنتَ وهي:

- أنا قررت أكتبك.

تساءلت عيناها الواسعتان، وقالت:

- تكتبني؟!

قلت بهدوء، مسيطرًا على كل شيء في الغرفة حتى ذرَّات الهواء:

- كل كاتب في الدنيا بيضطر يخلق شخصيات كاملة عشان يقول اللي هو عاوزه في الرواية، وبعد كده بيحرك الأبطال دول في الحبكة عشان يخلق عمل متكامل: بداية، منتصف، ذروة، نهاية.

* * *

قال «رامي محمود راضي» ببلاهة، في جلسة أخرى وموعد آخر:

- لسة مش فاهم قصدك.

قلت بغضب مفاجئ:

- مش مسموحلك تقاطعني وأنا باتكلم!

ونظرت له بصرامة، فاعتدل في جلسته وابتسم ابتسامة ودودة. زفرت في ملل وأكملت:

- أنا داخل مسابقة ثقافية كبيرة جدًا في عالم الكتب، شايف إن المسابقة دي لازم أقدم لها حاجة ما اتقدمتش قبل كده، فكُرة مختلفة.

هل كان هذا هو السبب الحقيقي؟ بالطبع لا، قلتُ ما أعرف أن عقولهم البسيطة ستفهمه..

استطردتُ كعادتي، بروح الحماس التي كانت تتملكني وقتها، شارحًا ما لا أحد يريد أن يفهمه:

- من حق الكاتب إنه ياخد قصة حقيقية يكتبها، ومن حقه يكتب قصص من خياله تمامًا، بس يستخدم تفاصيل شخصيات قابلهم قبل كده، من حقه إنه يعمل كل اللي هو عاوزه بس يطلَّع عمل حلو في الآخر.

* * *

قال «خالد عبد السلام» متظاهرًا باهتمام ما:

- أنا عارف طبعًا، أنا كتبت كده في روايةْ «ذبذبة النفوس».

لم أعلق وكتمت سخريتي بصعوبة، وأكملت:

- أنا بقى قررت إني أكتبك، مش هاكتب قصتك زي ما هي وخلاص، الصراحة ما يهمنيش إطلاقًا قصتك وظروف حياتك، أنا مش جايبك وعامل كل ده عشان آخد الحكاوي زي ما هي، حكاياتك أكيد تقليدية وقمة في الابتذال!

هبَّ واقفًا كأنما يُسجل اعتراضًا غاضبًا، لكنني أكملت متجاهلًا انفعاله الطفولي:

- أكيد مش هاستفيد من قصة حياتك وتعليقك للبنات والستات المتجوزة حتى وأنت متجوز ومخلف، هاستفيد بس من اللي أنا عاوز أستخدمك فيه.

ثم قلت بنظرة آمرة، لكن بابتسامة هادئة:

- ويعدين أقعد، أنا ما سمحتلكش تقف.

نظراته النارية حدقت في عينيَّ الباردتين الواثقتين، فانطفأ لهيب نظراته في ثوانٍ، وجلس دون حرف، أكملت كأن شيئًا لم يكن:

- بس الحاجات دي أنا مش باقولها عشان أضايقك، أنا باقولها عشان صفاتك دي، هي اللي خلتني أهتم إني أكتب واحد زيك أصلًا!

ثم نظرت للسقف مقلدًا إياه وقلت بتأمل ساخر، وباللغة العربية الفصحى مثله:

- المهم أن تتأكد يا عزيزي أنني لن أكتب قصة ذبذبة نفسك البلهاء في الحياة.

* * *

قالت «شيماء صالح» بحرص من حقها أن تشعر به:

- طيب هتعمل إيه؟

قلت مستمتعًا بما أقول:

- أنا هاتحكم فيك.

وصمتُّ تمامًا لأتركها تستوعب كل حرف، ثم أكملت وأنا أعتدل في جلستي:

- بيقولوا دايمًا الروائي هو رب العمل، هو رب الشخصيات، وعلى هذا المنطلق هاقولك إني لمدة ٣ شهور هاكون أنا اللي باحركك، كل حاجة هاقولها هتتعمل، كل اختيار القدر بيحطه قدامك أنا اللي هاختاره لك، كل أوامري ليكِ هتتعمل زي ما هي بالضبط، من غير نقاش، ومن غير تساؤل ولا حتى جدال، أنتِ تحولت لجزء من رواية، أنا باحركها حسب الحبكة اللي أنا مختارها، وعمر الروائي ما بياخد رأي أبطاله في اللي بيعمله.

* * *

قال «طه أحمد» بتركيز شديد:

- يعني هتخدني في مكان زي برامج التلفزيون زي «ستار أكاديمي» والـ«big brother»، وتشوف ردود أفعالي والهبل ده؟

أومأت برأسي أنْ لا، وفي استمتاع حقيقي قلت:

- لأ طبعًا.

وأشعلت سيجارتي الخفيفة التي أمقتها:

- دي متعة الموضوع، أنا هاتحكم فيكو في وسط حياتكم الطبيعية، زي ما أنتم عايشين تمامًا دلوقتي.

قال «طه» بتركيز شديد:

- طب والاستفادة؟

هززت كتفي ورددت عليه بنفس المباشرة:

- مش مهم بالنسبالي أنتو هتستفيدوا إيه، الفكرة بالنسبالي هي الرواية والأحداث اللي هتفيد الرواية.

واعتدلت بهدوء وسألت بفلسفتي وابتسامتي التي لا يُتقن الشيطان خبثها:

- أنا هاشيل منك مسئولية الاختيار، أنا اللي هاحدد كل تفصيلة في حياتك، أنا اللي هاشيل مسئولية كل اللي بيحصلك مش أنت، بذمتك مش حاجة أريح من كل الصداع والحيرة اللي أنت فيهم؟

* * *

قالت «سارة عبد المنعم» في قلق غامض يجتلها:

ـ كلامك فيه حاجات تقلق كتير.

هززت رأسي نافيًا وقلت بنفس الابتسامة الجانبية:

ـ القلق بييجي لو أنتِ مش مؤمنة بالكاتب اللي هتسلميله نفسك، بس لو عارفة كويس إنه عاوز يطلَّع منك قصة حلوة ويخليكِ تعيشي تجربة مختلفة، عُمرك ما هتقلقي.

نظرتها غير المقتنعة جعلتني أزفر في ملل، قلت وأنا أضغط على مؤخرة القلم ليصدر صوت تكتكة يُريحني:

ـ أنا ما عنديش وقت أقنع فيه حد.

وعُدت بظهري على المقعد، وقلت السؤال الذي سألته لهم جميعًا وأسأله لك أيضًا يا صديقي:

ـ والاختيار في النهاية بالقبول أو الرفض يرجع ليك أنت، قدامك دلوقتي آخر اختيار حر تمامًا وماليش أي دخل بيه.

وأضفت مشيرًا بأصبعي أن يصمت، وأنا أكتب رقمًا مكونًا من خمس خانات على الورقة أمامي:

ـ وقبل ما تختار، ده هيبقى المبلغ المادي اللي هتستلمه بعد الـ ٣ شهور، شكر على مجهودك معايا.

ثم قلت بقوة وهدوء، وأنا أضع العَقْد أمامه على الشيك:

ـ معايا في الرواية ولّا لأ؟

* * *

لأحصل في النهاية على ستة عقود مذيلة بتوقيعهم..

كان كل بطل يظن أنه بطل الرواية الوحيد ولا يعرف شيئًا عن تواجد الآخرين معه..

لا أدري هل وافقوا بسبب المبلغ الضخم، أم بإيمانهم التام بكاتبهم المفضل؟! أو أنني في النهاية عبقري في فَهْم الشخصيات الفائزة وتحليل

دواخلها! لن أتعجل أي استنتاج لأنني قريبًا جدًّا سأعرف وحدي، عندما أدخل في عقولهم وحياتهم.

بعد توقيعهم للعقد في صمت، ابتسمت وأنا يجتاحني شعور بالزهو غريب، ها أنا ذا لديَّ أبطال روايتي الجديدة أمامي من لحم ودم، شعور مختلف.. للحظة ساورني الشك أنهم من خيالي، طوال عمري اعتدت تخيل أبطالي، لأول مرة أرى بطلًا لي يتنفس ويضحك ويتكلم.

طلبت منهم الطلب الأخير والأسوأ:

ـ قدامك تختار رقمًا عشوائيًّا من ١ لـ ٣٦، تختار أي رقم؟

أسعدني أنهم لم يسألوا سؤالًا عن الأرقام في المقابلات الست، قالت «آلاء» دون تفكير: «٢٥». في حين قال «رامي» بعد تفكير: «٣٦». وقال «خالد» عاقدًا حاجبَيْه: «١٢». وقالت «شيماء» ببسمة صافية: «١٠». «طه» قال كأنما يتذكر ذكرى ما في حياته: «٤». وقالت «سارة» بتوتر: «١٨».

انصرفوا باختلاف مواعيدهم، لأنظر للساعة بعد انصراف «سارة» وأجدها التاسعة مساءً.

لم أستطع منع ابتسامة خبيثة من الظهور على شفتيَّ..

كم أعشق جهلهم!

لو يعلمون ماهية تلك الأرقام لركضوا خوفًا وما عادوا..

نعمة الجهل هي ما تجعل كل الاختيارات سهلة، نختار أولًا ثم ننتظر في بَلادة النتائج أيًّا ما كانت. تأتي النتيجة فنبكي وننوح في القصائد والروايات عن ظلم الزمن وصعوبة الظروف.

سمعت طرقات رقيقة ليد أعشقها، فتحتْ «ديما» الباب ونظرت لي بعين حنون تُنسيني إرهاقي في ثانية، قالت باسمة:

ـ كفاية عليك كده النهارده، تعالَ نريَّح.

لم أجادلها وتركتها تأتي برقتها المعتادة وتسحبني من يدي في نعومة..

أنا أسكن في فيلّا مِلكي مكونة من دورَيْن، أعيش في شقة كبيرة، ولا

يوجد في الفيلا غيري، شقتي مكونة من ٤ غرف وصالة تطل على الحديقة في الدور الأرضي، غرفة مكتبي لها ممر خاص يدخل الناس منه على مكتبي مباشرة، هل تريد تفاصيل أخرى؟ حسنًا، يمكنك أن تقول إنها شقة فخمة وكفى، تخيل معي قليلًا ولا تتعبني معك لأنني مرهق بما فيه الكفاية.

وجدت فنجان القهوة ينتظرني على كومودينو جانب الفراش، أعشق اهتمامها بتفاصيلي دون أن أطلب، أحيانًا أتخيل حياتي بدونها فلا أجد إلا طاقة سلبية قد تبتلع الحياة نفسها، هي لا تعرف قيمة كل شيء تفعله في قلبي، من وسط كل نساء العالم سأختارها دائمًا وأبدًا.

إنها «ديما»..

ولن يوجد غيرها في الحياة ثانية..

استندت عليها كعادتنا حتى وصلنا للفراش، وبدون هدف احتضنتها وربت على ظهرها، لتُقبلَ رأسي العاري من الشعر وتهمس لي:

- بحبك.

قلتُ مبتسمًا، بكلمة لا يفهمها سوانا:

- عارف.

فردت ظهري مُطلِقًا أنّات شخص جلس على مقعد طوال اليوم، ابتسمتُ لها عشقًا بسبب كل الدفء الذي تنشره بروحها، تأملتها وعقلي يشرد تمامًا، كم مر علينا ونحن معًا؟ ثلاث عشرة سنة تقريبًا أو أكثر، لا أدري! يا له من رقم كبير مرَّ دون حتى أن ألاحظ.

لم يختلف فيها شيء، شعرها الناعم الذي يصل لكتفيها، نظارتها الرقيقة البسيطة وأنفها الحاد، عيناها الواسعتان رائعتا الجمال، رموشها الطويلة الساحرة، فمها الدقيق الناعم الذي يجعلني أذوب في عالم آخر.

جلستْ بجانبي في الفراش لتقطع تأمُّلي في تفاصيلها، قالت ضاحكة ضحكة تنير عالمي كله:

- سرحان في إيه؟

كذبت وقلت وأنا أنظر للسقف:

ـ في الرواية الجديدة.

قبّلتني في وجنتي وهي تهمس:

ـ روايتك في مكتبك، لكن هنا، أنا بس.

واعتلتني في رشاقة لأبتسم وهي تحتل كياني بقُبلة طويلة يتبعها حضن أطول بكثير.

أمامي أيام طويلة في سماع قصص أبطالي الجدد وتدوينها، أمامي أيام أكثر حتى أنسق الأحداث كما أريد، لكن كل تلك الأفكار تبّخرت من عقلي تمامًا و«ديما» تحتضنني بابتسامتها الرائعة.

أعلم أنك تريد أن تفهم البدايات أكثر، وتشعر بالارتباك يا صديقي، رغم أنني أكره البدايات وأرى أنْ ليس لها أهمية، لكنني أعدُك يا صديقي أنك ستفهم كل شيء فيما بعد. الأكثر أهمية الآن أن نبدأ الرواية على الفور..

أنا لا أطيق صبرًا حتى أنتهي منها..

الأولى

القاعدة الأولى - وكل القواعد الآتية - إجبارية
ارفض كل ما تعلَّمته عن نفسك وعن الحياة، اكرهه، بل امحُه إن استطعت..
أنت معي صفحة بيضاء، لا تُجاوب فيها إلا عن سؤال واحد:
«مَن أنت؟».

وكما يبدأ كلُّ شيء في الحياة بِقِطَع صغيرة تتجمع لتصبح كيانًا واحدًا، بدأتْ قصة «سارة عبد المنعم» في آخر مكان تتوقع أن تبدأ روايتها فيه!

قالت لي إنها كانت في المستشفى كأي يوم روتيني آخر، فارق وحيد هو أنها كانت في حالة شرود تملَّكتها..

جلسَتْ بمعطف الأطباء الواسع، وحجابها الأبيض الرقيق المُحكم، عيناها دائريتان، واسعتان، تُعطيانك انطباعًا بأنهما جاحظتان قليلًا، أنفها جميل يزين شفتيها الممتلئتين عكس جسدها الرفيع. جلست على مكتب صغير في غرفة الطوارئ بعد أن انتهت من الكشف على معظم الحالات.

كأن الدنيا اتفقت على عقلها المرتبك، لتقسو عليه بيوم هادئ في الطوارئ، وتجبره على الشرود والتذكُّر الدائم..

«سارة» طبيبة باطنة صغيرة السن؛ في الواحدة والثلاثين. في تلك المرحلة من مهنتها -رغم تفوقها- إلا أنها تُعامَل معاملة التروس، يضعونها في أي مكان وفي أي وقت؛ لذلك كانت مسئولة اليوم عن الطوارئ، وردية الليل..

كان عقلها في عالم آخر، هناك دمعة محبوسة في عينها جعلت كل الزملاء والممرضات يسألونها إذا كانت بخير أم لا، كذبَت عليهم وطمأنتهم. كان وقع السؤال مؤلمًا في قلبها، يؤلمها أنها لا تجد شخصًا واحدًا في حياتها تستطيع أن تبوح له بما في داخلها..

حتى الآن لم تقل لأي إنسان إلا ذلك الكاتب المخبول..

أنا..

* * *

السؤال الثالث في المقابلة (أعلم أن هناك سؤالَيْن قبله، سأخبرك بهما فيما بعد): أنت جيت ليَّ هنا ليه؟

كانت «سارة» مرتبكة في المقابلة، تنظر حولها دائمًا وتداري جسدها العاري قدر استطاعتها، لم تستكِنْ أو تَرْتحْ للحظة واحدة، مشدودة كوتر عود جديد يرتعش من يد عازف ماهر، لكن ما إن سألتها هذا السؤال

حتى تعلّقت عيناها بعينيّ وهدأت تمامًا للحظات، ثم قالت جملة واحدة بثبات غريب ونبرة تقريرية احترفَتها:

ـ عشان هاموت.

* * *

عندما عرفت «سارة» بمرضها، لم تشعر بالخوف أو بأمل الإيمان أو حتى الحزن..

لم تشعر بأي شيء..

طبيعتها كطبيبة جعلتها تدرك كل الحقائق وتتيقن أنه لا أمل في الشفاء، حتى لو دخلت في مرحلة العلاج، لن يفعل شيئًا سوى أن يؤخر موتها قليلًا. تقبَّلَت المرض وتعاملت مع الأمر كأنها مجرد مريضة لا تعرفها، فأصبحت روحًا باردة..

تأملَتْ حركة العاملينَ بالمستشفى حولها..

المرضى الفَزِعين بأهلهم الأكثر فزعًا، الأطباء والمُمرضين الذين يتحركون في الحياة دون أن يُلقوا بالًا لما يحمله المستقبل لهم..

وأدركَتْ أنها بلا حياة..

أنها الوحيدة التي توقف الزمن بها تمامًا..

معظم الأصدقاء تزوجوا وابتعدوا، هناك مَن يُعامِلنها كأنها تهديد على أزواجهن، وهناك من انشغل بالعالم الجديد ولا يستطيع التواجد من أجلها في هذا الوقت، أهلها طيبون ولن يحتملوا خبرًا كهذا..

واحد وثلاثون عامًا وبلا حياة خاصة بها..

حاولت أن تتذكر آخر مرة شعرت بإحساس سعادة صافٍ، آخر وقت فعلت فيه شيئًا من عقلها فقط، لتدرك أنها لم تفعل ذلك طَوال عمرها!

في نفس اليوم الذي عرفت فيه نتائج التحاليل، لم تفكر في شيء طوال رحلة العودة إلا أنها ستموت دون حتى أن تعيش! عادت لبيتها وفتحت الحاسوب في شرود لتنظر في الـ«facebook» كعادة أصيلة، أصبحت في حياة معظم البشر.

ووجدت إعلانًا غريبًا من ذلك الكاتب الذي تعشقه..

«حازم كَنْخُدَا»..

في فترة مضت، كانت ستتحمس قليلًا وتتخيل نفسها بطلة الرواية، ثم تستنكر حماسها وتلغي الفكرة، كانت ستعتبرها دربًا من الجنون.

لكنها لأول مرة في حياتها تفعل عكس ما يقوله عقلها..

وذهبت للمقابلة دون حتى أن تدرك ما الذي ستفعله..

«دكتورة «سارة»»

انتفض جسدها بقوة من ندائه، نظرت له نظرة لائمة جعلت الممرض يتراجع للخلف في دهشة. قال لها الممرض بسرعة:

- «سرير ٤» مريض بيقول إن عنده أعراض أزمة قلبية!

قالت بروتينية وهي تأخذ ملف المريض:

- طيب أنا جاية حالًا.

ذهبت بهدوء وفتحت الستار، ووجدت أمامها شابًا ثلاثينيًا نائمًا على الفراش والعَرَق يتصبب من جبينه، من كل جسده إن أردنا الدقة.

بدين هو بدانة لا تستطيع وصفها، كروي الجسد لكنه ليس مفرط البدانة لدرجة صارخة، وجهه جميل، منذ فترة لم ترَ رجلًا بهذا الجمال، تلك الملامح الطفولية المريحة، وجه بريء تحب أن تنظر إليه كثيرًا، عين شفافة تنطق بحزن مرير، لم ترَ عينًا تشف المشاعر بهذا الصفاء من قبل.

تنحنحت عندما أدركت أنها أطالت النظر له، تعجبت من سماع صوت أغنية أجنبية يُدوي بصوت خفيض، فقال المريض وهو ينظر لها مشيرًا لهاتفه المحمول:

- أنا باحاول أهَدِّي نفسي.. باسمع مزيكا..

اقتربت من الفراش مُبتسمة وهي تسأل حتى تزيد من اطمئنانه:

- أغنية إيه بقى؟

قال باهتمام كأنما نسي كل شيء عن مرضه:

- دي أغنية «send me an angel» لفريق قديم اسمه «scorpions».. بعشقها..

ابتسمت ابتسامة مُجاملة وبدأت في عملها، فتحت الملف لتقرأ ما يشكو منه وبعض المعلومات عنه..

نظرتْ له وقالت بحنان لم تعتد أن تكلم مرضاها به:

- حضرتك بتشتكي من إيه؟

قال بصوت مبحُوح وقد عاد خوفه يظهر عليه فجأة:

- أنا مدخن شره جدًا، حاسس بحرقان في صدري، في وجع في كتفي الشمال وضهري، وكل ما آخد نفسي قلبي بيوجعني.

فكرت «سارة» أنه في الأغلب لا شيء، حموضة عنيفة أو قولون عصبي، لكنها لن تستطيع أن تُطمئنه الآن دون أن تُجري الإجراءات اللازمة.

قالت بهدوء له:

- إحنا هنعمل لحضرتك رسم قلب وتحليل إنزيمات الدم، وإن شاء الله خير ما تقلقش.

بدا على وجهه الصافي قلق أكثر، وسأل:

- هي دي أزمة قلبية؟

قالت بحنان استنكره عقلها بشدة:

- بنسبة كبيرة لأ، بس أي مدخن بيشتكي من وجع في صدره، يبقى لازم أتأكد تمامًا إن مافيش حاجة..

وتحركت يدها دون أن تدري وربتت على كتفه وهي تقول بابتسامة:

- ما تقلقش.

كانت لا تصدق أنها تفعل كل هذا، في المعتاد تضيق ذرعًا بقلق المرضى وأسئلتهم المكررة، تتعامل معهم كأجساد مريضة ولا تهتم بما داخلهم على الإطلاق، كما أنها لا تلمس أي مريض إلا في حدود الكشف فقط.

خرجت من الغرفة في حالة من الشرود التام، ما الذي فعله الكاتب

بها؟ هل عندما تخلت عن عقلها وخلعت ملابسها، تجردت من شيء آخر داخلها لا تعرفه؟ نفضت رأسها عن أفكارها وقالت للممرض بصرامة مُبالَغ فيها، محاوِلة إخفاء ما بداخلها:

ـ هات لي جهاز رسم القلب.

ليس من المعتاد أن يترك طبيب الطوارئ مهامه ويُجري تلك الإجراءات بنفسه، الممرض هو المسئول عن هذا، تعلم أن ما تفعله ليس مهنيًا، لكنها تفعله دون تفكير، عين ذلك الرجل جعلتها تريد أن تُطمئنه، عيناه الحزينتان، ملامحه الطفولية البريئة، شعور مختلف داخلها يجبرها أن تظل جانبه..

أتى الممرض سريعًا بجهاز رسم القلب وأدخله ثم ترك الغرفة، لتبتسم هي ابتسامة هادئة وتقول للمريض:

ـ أستأذنك ترفع القميص.

مقررة ـ لأول مرة في حياتها ـ أن تستسلم لما تشعر دون أن تفكر أو تتردد.

* * *

شعرت براحة ما وأنا أهاتف فتاتي المفضلة، التي أتفاءل بها لأنها أول مَن تعرَّى أمامي، «آلاء أبو العينين»..

كلَّمتها في الهاتف لترد هي عليَّ بصوت متلهف، قائلة مقلدة أسلوب فتوَّات الشوارع:

ـ أبو الكتاتيب كلهم، كنت مستنياك..

شعرت بسخافة ما قالت لكني لم أُعلق، وأنا أُلاحظ محاولتها الدائمة أن تُظهر تميزها عن أي شخص آخر، حتى لو في تحية بسيطة على الهاتف!

«آلاء أبو العينين» كانت مختلفة حقًّا..

«آلاء» شمال!

«آلاء» هي الملهمة، الـ«ميوز» كما يطلق عليها الغرب، أسطورة الفتاة التي ما إن تظهر في حياتك حتى تُلهمك بكل ما هو مثير، تُخرج منك

الشيطان القابع داخلك! تعبثُ بكل أفكارك وتحتل بروحها عقلَك كله، كرمها الله بملامح رائعة الجمال، أنف دقيق وعين زرقاء، شعر بُني صَبغت هي بعض خصلاته ليعطي لونًا ذهبيًّا مختلطًا بالبُني في مزيج رائع، مع جسد من أبدع ما يكون.

ابتسمت أنا في هدوء وصمتُّ قليلًا متجاهلًا أفكاري التحليلية، كان أول يوم في الأسبوع الثاني من بداية الرواية، لذا كان الحماس يسيطر على مشاعري دون أن يظهر هذا على صوتي الهادئ كعادتي، قلت بنبرة آمرة:

ـ النهارده مش هتقولي لأ على أي حاجة، كل حاجة هتتعرض عليكِ هتقولي إجابة واحدة بس: «حاضر»، وتعمليها مهما كانت.

صمتت لحظات تفكر ثم قالت بمرح:

ـ أنا أول مرة أعمل كده، بس أنت تؤمر.

اتسعت ابتسامتي ثُم قلت:

ـ وما ينفعش تفضلي في البيت، لازم تنزلي، اتفقنا؟

قالت بحماسٍ على الفور:

ـ اتفقنا.

قد يكون «شمال» هذا هو تعريف المجتمع لها، لكنني لا أُصنفها بهذا الشكل، أراها إنسانة طبيعية جدًّا، مثلي ومثلك، دعك من أنني أرى البشرية جميعها «شمال»، ويحترفون التبرير فقط! لكن تعريفها بالنسبة لي هو أنها إنسانة تعرف نفسها جيدًا، بل تعرفها إلى درجة مخيفة!

أنهينا المكالمة، ذهبت هي على الفور لارتداء ملابسها، لم تفكر كثيرًا في ابنتها لأن لديها مربية ماليزية تثق فيها، من الجميل أن تلد طفلة ولا تتحمل أيًّا من التفاصيل المزعجة لوجود كائن غير مفكر في البيت.

بعد أن ارتدت ملابسها أدركت أنها لا تعرف إلى أين تذهب، حاولت التفكير في أي مكان ترغب الذهاب إليه، حتى تبدأ دورها كبطلة في رواية «حازم كَتَخُدَا» الجديدة.

كلما تذكرت هذه الحقيقة سرَت قشعريرة استمتاع في جسدها، لا تصدق أنها بطلة في رواية لكاتب تعشق تفاصيله.

نفضت الفكرة عن رأسها وشعرت بإحباط لأنه لا يوجد مكان واحد في عقلها تبدأ أحداث الرواية فيه، فتحت الـ«facebook» آملة أن تجد أي فكرة جديدة أو مكان جديد..

ولمدة ساعة كاملة لم تجد شيئًا واحدًا مثيرًا للاهتمام، تركت حقيبتها وجلست وهي تزفر في إحباط شديد، إنه ملل الواقع يا صديقي حيث للزمن قيمة عكس عالم الروايات، لو كانت «آلاء» في رواية حقيقية كنا سننتقل على الفور للحدث الآخر، لكن ما يجعل عالم الرواية جيلًا هو قُبح الواقع ولُزوجتِه وبُطئه..

خلعت حذاءها ذا الكعب العالي، نظرت لصورتها الكبيرة على الحائط مع «هاني» زوجها وهو يحتضنها ويحتضن ابنتهما مُبتسمًا في سعادة صافية، شردت قليلًا في ذكريات مبهمة، ثم أمسكت هاتفها وأخذت تبحث عن أي شيء تفعله في رواية «حازم كَنْخُدَا»..

روايتي..

* * *

بعد أن أنهيت المكالمة مع «آلاء»، هاتفت «خالد عبد السلام» لأعطيه الأمر الخاص به، مُعلنًا بداية قصته بالتوازي مع «آلاء»..

بعد أسبوع واحد من بدايتنا في الرواية، كلمته في الهاتف وقلت له بلهجة آمِرة:

- روح «بينوس» اللي في مكرم عبيد.

صمتَ لحظات، لاحظت حماسًا ما في صوته؛ دوره قد بدأ، قال دون تردد:

- حاضر.

كنت أجلس في مقهى في الشارع المقابل يتميز بأنه ثلاثة أدوار كاملة، فيجعلني أرى كل شيء من أعلى كما أحب، أنهيت المكالمة ونظرت لـ«بينوس»

كافيه مُنبسيًا في نفقة، بدأت الرواية في التحرك؛ مما يجعلني أشعر بلهفة رؤية النهاية، رشفت من القهوة رشفة طويلة باستمتاع منتظرًا قدومه..

«خالد عبد السلام» هو المثال الحي لكل ما أبغضه..

هو كاتب مثلي لكنه شاب وله روايتان فقط، لا يملك أي موهبة، سواء في أفكاره أو سرده، يحفظ بعضًا من الكلمات الرّنانة الصعبة ويملأ بها رواياته كي يُداري على ضعف حَبكاته..

نضج فكره بعد الجامعة وعرف ما الذي يريده في الحياة، شذَّب لحيته واهتم بملابسه وانطلق عابثًا في الدنيا يُدندن شعارات ثورية ليبرالية فارغة، ليبهر بها النساء.. هدفه الرئيسي..

أدرك مَواطن وسامته وملامحه النبيلة التي تخدع النساء فيه، ادَّعى الحرية والعذاب المرير الذي يجعل الفتيات ينجذبن له. ينتهي من عمله كمدرس لغة عربية في الصباح، ليذهب ليلًا لمجتمع «وسط البلد» المزيف، ويجلس في مقاهي المثقفين، يمارس خداعه لنفسه ولمن حوله..

بالنسبة لي، من المنطقي أن تكون هذه هي النتيجة لكل ما حدث له في حياته من سخرية وإحباط. طفل ضعيف الشخصية ومَثار سخرية المدرسة، طالب جامعي ربَّى ذقنه وأخذ يهدي الرجال والنساء ويقول عليهم كافرين ساعيًا للتحكم في كل مَن حوله، تخرجه في الجامعة ليصبح ثوريًّا وصائدَ نساء، كلها محاولات ليتقبله المجتمع، وأصر المجتمع أن يرفض قُبحه النفسي..

حتى عندما قرر أن يصبح كاتبًا عظيمًا، اكتشف أن التافهين أمثالي - من وجهة نظره - هم مَن ينجحون.

لذا من الطبيعي أن ينظر لكل شيء بطريقة مختلفة، أن يعيش دور الضحية مرارًا وتكرارًا ويَصْبر بمواساة غروره، ويقنع نفسه أنه فارس مغمور، لا بد أن كل الناجحين فاسدون ولا يستحقون أي نجاح، هو وحده العبقري المظلوم لأنه نظيف!

«خالد» هو الراقص على كل الحبال، هو الادعاء والزيف كما أُنزِلا، نتاج القذارة الفكرية في كل شيء في البلد.

لكن ميزته الوحيدة هي إصراره على تحقيق ما يريد مهما كلفه هذا الأمر من تضحيات. يجود بكل شيء من أجل أن يصل لهدفه، يعشق أن يكون عبدًا لكل ما يريده فقط..

لكن رغم كل شيء هو مهم لي في الرواية..

* * *

السؤال الثالث: أنتَ ليه جيت وعاوز تبقى بطل رواية؟

ومع «خالد» فقط أضفت:

ـ رغم أنك بتكرهني ونفسك تولَّع في اللي باكتبه؟

ليرد هو بعينين تلمعان:

ـ عشان هاعمل معاك صفقة، حاجة قصاد حاجة...

وأكمل وهو يعتدل في جلسته رغم عُريه:

ـ أنا هاعمل كل حاجة أنت هتطلبها مني مهما كانت، قصاد حاجتين بس تعملهم أنت ليَّ!

* * *

«خالد» هو الوحيد الذي سيعطيني الحرية لأفعل ما أريد، سأستخدمه استخدامًا كبيرًا في روايتي كي أحرك الأحداث.

أخرجني من تأملي ظهور عربته القديمة النوع، جاء في أقل من ساعة وأوقف عربته أمام المقهى ونظر حوله في لهفة وترقب، ابتسمت ساخرًا عندما وجدته ارتدى بذلة فخمة، كأنه ذاهب لحفل زفاف وليس لبدء دور في رواية، ملامحه حادة قليلًا، شعره كثيف في الرأس، لحية نابتة خفيفة، رفيع الجسد وملامحه سينمائية، رغم حدة ملامحه إلا أنه وسيم جدًا وهناك نُبل خادع في هيئته.

ما هي إلا ثوانٍ ووجدت هاتفي يرن، مع صوته المتحمس:

ـ أنا وصلت.

ابتسمتُ في برود وأنا أراه من بعيد يتلفت حوله، ثم قلت:

ـ شايف البنت اللي قاعدة وحدها في «الكافيه»؟

بحث عنها بعينيه ثم قال في حيرة:

- في بنات كتير قاعدين وحدهم.

قلت له باستمتاع لم أكن أتخيل أني سأشعر به:

- اللي شعرها أسود، تالت ترابيزة على شمالك، لابسة جينز وتيشرت أحمر، بتلعب في الموبايل بتاعها.

التفت برأسه ببطء شديد حتى رآها، قال بلهجة حذرة:

- تمام، عاوزني أعمل إيه؟

قلت بهدوء ممهدًا ما سأقول:

- اللي هاطلبه منك ده قدامك لحد النهارده بالليل بس عشان تنفذه.

لم يرد منتظرًا الأمر مني. هذا هو المثال الرائع يا عزيزي، فمن سوى «خالد» سأقول له بثقة، وداخلي يقين أنه سيفعلها:

- هتخطفها.

ضحك ضحكة مرتبكة وقال:

- أنت بتتكلم جد؟

لتتسع ابتسامتي المستمتعة وأنا أقول:

- وأنا هاهرج مع بطل روايتي ليه؟

قال في حيرة شديدة:

- أعملها إزاي دي؟

ليأتي ردي الحاسم:

- أبدِع.

وأغلقت الهاتف دون انتظار رد، لأتركه ينظر للهاتف كالأبله، ثم ينظر للفتاة الهادئة، تلفت حوله في ارتباك حقيقي. لم تمر أكثر من دقيقتين، حتى وجدته يذهب بهدوء ليجلس على مائدة جانب الفتاة، ينظر لها في تركيز شديد وتفكير عميق..

يحاول إيجاد خطة سريعة كي ينفذ الأمر ويختطفها!

أعرفتَ لماذا اخترت «خالد» يا صديقي؟

* * *

أنهيتُ مكالمتي مع «خالد» لأطلب آخر رقم في قائمة اليوم، سمعتُ صوت جرس يرن أكثر من مرة، ثم رد عليَّ «طه أحمد» قائلًا:

ـ أستاذنا.. كنت مستني عبقريتك تكلمني وتظهر من أسبوع..

لا أحب محاولاته اللزجة للمجاملات القديمة دائمًا، قلت دون أنا أعبأ بالرد على جملته، وأنا أراقب «خالد» وهو جالس متوتر:

ـ أنت النهارده هتكتب على الـ«فيسبوك» إنك محتاج تتكلم مع حد.. إنك تفضفض معاه...

قال مقاطعًا إياي بتساؤل:

ـ بس أنا مش عاوز أتكلم مع حد! ثم إن مراتي هتقفش لو كتبت حاجة زي كده..

قلت بغضب حاولت أن أكتمه:

ـ آخر مرة في حياتك تقاطعني.

وأكملت بنبرة الآمِر الناهي الذي لا يقبل النقاش:

ـ هتستنى تشوف ردود الأفعال، ما تردش إلا على اللي يبعتولك رسايل، هتعرض عليهم إنك تقابلهم، أي حد هيقولك موافق انزل وفضفض معاه.

جاوبني صمته التام.

«طه أحمد» هو البطل الرئيسي لفيلم اسمه «الفرص السريعة»!

شاب مجتهد، محترم، متفائل وعاشق للمثالية..

الصفات المؤكدة للفشل!

ريفي الأصل، حليق الوجه وأبيض البشرة، يرتدي نظارة تليق على وجهه البيضاوي، طويل القامة وجسده معتدل، لديه كل ما يؤهله ليحقق أحلامه لو أراد. الحلم الأول هو الابتعاد عن القرية الريفية وتحكم أهله ـ الذي يكره سيطرتهم ـ في مسار حياته. الحلم الثاني هو أن يصبح ممثلًا مصريًّا ناجحًا. الحلم الثالث أن يصبح مغنيًا مشهورًا.

لذلك درّس في إعلام جامعة القاهرة!

تخرج فيها وعمل صحفيًّا في مجلة معروفة، عرف وقتها أن هناك برنامجًا اسمه «الحياة حظ»، أو شيء أتفه لا أتذكر، فكرة البرنامج أن يذهب المتسابق ويلعب لعبة مع المذيعة لا يوجد فيها ذرة من التفكير، اعتمادها الرئيسي على الحظ فقط.

اشترك في المسابقة، ظهر في التلفاز، أظهر مواهبه الصوتية والتمثيلية، كسب مبلغًا كبيرًا جعل الصحف تهتم به كأول مصري يفوز بالجائزة الكبرى.

ليتغير «طه» تمامًا بعدها..

تذوق طعم النجاح الصاخب والسريع..

كل أحلامه أصبحت على بُعد أمتار قليلة فجأة، حلم أن يستغل المال في مشاريع خاصة به: استوديو غنائي يسجل فيه أغانيه، إنتاج فيلم يكون هو بطله الوحيد..

ولكن كعادة النقود السريعة السهلة، ذهبت قبل أن تأتي..

اكتشف أنه لن يأخذ سوى نصف المبلغ فقط كقانون في البرنامج بعد خصم الضرائب، أخبروه ببرود أن النصف الآخر سيذهب لواحد من الجمهور، لم يفعل شيئًا سوى أن يجلس على مؤخرته الكبيرة ويرسل رسائل كثيرة للبرنامج.

ويعشم النجاح السريع والاطمئنان الزائف.. أحب الدنيا التي ابتسمت له أخيرًا، قرر أن يتزوج بحبيبة عمره التي ظل مرتبطًا بها طوال ست سنوات، قصة حُب عنيفة، خاصمه أهله بسببها، لأنه يريد أن يتزوج من قاهرية، منع أبوه عنه المال كي يعاقبه ويُرغمه أن يظل معهم في المدينة. أجّل أهدافه حتى يتم الزواج رغم رفض أهله، ليكتشف بعدها أن ما تبقى من المبلغ لن يكفي مشاريع أحلامه، قرر أن يبدأ في العمل ثانية ويحتفظ بجزء من المال.

* * *

السؤال الثالث: أنت إيه اللي جابك لِيَّ هنا؟

رد «طه» ببساطته:

- عشان نِفسي ألاقي فرصة في أي حتة، أنت رواياتك بتتحول أفلام ومسرحيات ومسلسلات، لو الرواية دي اتحولت لأي حاجة هابقى أنا أحسن واحد يمثل فيها.

* * *

طال صمته فنظرت للهاتف ظنًّا مني أن المكالمة قد انقطعت، وجدته ما زال على الخط، قُلت ثانية وقد بدأت أعصابي تفور:

- أنت يا بني.

قال بغباء لا مثيل له:

- أنت خلَّصت كلام؟ أصلك قلت ما أقاطعكش فخُفت تكون لسة هتكمل كلامك.

زفرت محاولًا تمالُك أعصابي ليقول هو:

- بس هتكلم في إيه ولَّا أحكي إيه؟ أنا ما عنديش حاجة أتكلم فيها مع اللي هيقابلني ده.

قلت بنبرتي بقليل من الحدة:

- يعني إيه ما عندكش حاجة تقولها لحد؟ احكِ حوار عمّك طبعًا اللي أنت حكيتهولي!

ثم استدركت صائحًا:

- ثم إيه «هيقابلني» دي؟ أنت مش هتنزل غير مع بنت.

جاوبني صمته للمرة الثانية، فأدركت أنه يخشى أن يُقاطعني. لم أتمالك أعصابي وأغلقت المكالمة مانعًا نفسي من سبه بأقذع الألفاظ..

عاد «طه» في غضون سبعة أشهر لنفس المكان الذي بدأ منه، مجرد صحفي، بلا أدنى شهرة، بمرتب ضعيف لا يكفيه هو وزوجته!

لكنه كان قد عشق فكرة المكسب السهل الذي يأتي دون أدنى مجهود.

أدمن الذهاب لكل المسابقات التلفزيونية، تم رفضه في أكثر من ٧ برامج مواهب على مدار سنتين، بدأ اليأس ينتابه من مواهبه، فقد الثقة في

تحقيق أحلامه، لكنه لم ييأس من برامج المسابقات والمواهب، لذة لن يعلم أحدٌ طعمها سواه، أنك بضربة حظ يمكن أن تنال الجنة دون أن تفعل حسنة واحدة!

مرت سنين دون أن يتم قبوله في أي شيء، رفضٌ تلو رفض حتى اضطُر للعودة للعمل في قريته الريفية صباحًا، مستسلمًا لقيود أهله الذين أعطوه مرتبًا ضعيفًا كي يضمنوا استمراره، ويعود لزوجته ليلًا في قمة الإنهاك.

ثم تُوفي والده..

ولم يرَ في وفاة والده إلا حكمة واحدة: فرصة لعالم آخر من الفرص السريعة..

فرصة الإرث!

لم تمر دقيقة حتى وجدت نغمة هاتفي تتصاعد، ويظهر رقم «طه»، قَبِلْت المكالمة لأجده يقول بنبرة معتذرة:

- معلش إني خلصت رصيدك، أنا آسف إني فتحت عليك، كان المفروض أقفل وأكلمك أنا.

لم أفهم ما يقصده لثوانٍ، ثم أدركت أنه يحاول أن يرفع عني تكاليف المكالمة فقلت له:

- أنا قفلت في وشك قاصد.

جاوبني صمته فهممت بالصراخ فيه أن يتحدث، لكنه تكلم في آخر لحظة وقال بلهجة معتذرة:

- طب معلش اقفل وكلمني عشان أنا سالف أربعة جنيه.

وأغلق المكالمة دون استئذان، لأبتسم رغمًا عني!

الثانية

إن أردت شيئًا بشدة، فلا بد أن تضحي أمامه بشيء آخر، وما ستضحي به لن يكون من اختيارك. بل من اختياري أنا فقط!

أنا الأعلم بما تحتاجه حبكة روايتي!

٢:٠٠ بعد منتصف الليل

أنّت يدي اليمنى بألم لا يُطاق. جرِّب أن تكتب بسرعة على الحاسوب بيد واحدة فقط، ستفهم ألمي الآن يا صديقي.

سعلتُ بقوة من كثرة الدخان الخانق داخل الغرفة، أسندت رأسي على الحائط خلفي عسى أن ترتاح يدي قليلًا، نظرت ليدي اليسرى المربوطة بشاشٍ حتى مرفقي وابتسمت، أبدو كأبطال القصص المصورة.

نظرت للغرفة الخالية على عروشها، لم أستطع تحمُّل أن أظل هكذا دون أن أفعل شيئًا، ثوانٍ وتهاجمني الذكريات اللعينة وتجعلني أنفجر، اعتدلت في جلستي بإصرار، أجبرت يدي أن تكتب رغم كل ما بها من ألم.

* * *

وجدت «آلاء» ـ بعد ساعتين ـ ما نسميه نحن الكُتَّاب: «الدعوة».

وجدت ذلك الشاب الذي كانت تتابعه منذ أكثر من أربع سنوات واسمه «طه أحمد»، ظهر في برنامج وكان مفتعلًا قليلًا لكنها تابعَته لأنه أول مصري في البرنامج. بحثت عنه على الـ«facebook» حتى وجدته وضغطت «متابعة»، ثم لا شيء بعد هذا، اختفى تمامًا ونسيته.

كتب «طه» في حالته الشخصية:

ـ واحشني إني أتكلم مع حد ما أعرفوش، أفضل أرغي معاه وأقوله اللي جوايا وبعد كده أسيبه وما نشوفش بعض تاني، يا مُحسنين لله ☺، ماحدش عندي هنا نفسه يسمع؟

عادة عندما ترى هذا الكلام أو ما يشبهه تعرف على الفور أن هذه دعوة صريحة «للحك»، وتسخر منها ومن الاستجداء الذي تحمله الكلمات.

وهي على حق تمامًا في هذا، منذ فترة والـ«فيسبوك» عبارة عن إعلانات وحالات وفيات والمجتهدين في الشهرة. أعتقد أنني عندما سأموت ـ أنا «حازم» ـ فلن يكتبوا على قبري مات كاتبًا كبيرًا، بل سيقولون هو الوحيد المحترم، الذي لم يكتب: «اعملوا لايك عشان التفاعل»، و«يا رب يفرَّح

قلب اللي يشوف كلمتي دي» و«أنتو متابعني ليه؟»، و«اللي هنا يثبت حضوره ويمنشن صحابه». ذلك الاستغلال الساذج والرخيص لحصد أكبر عدد من المتابعين وتحقيق شهرة ولو زائفة، وصَّيتُ «ديها» أن تكتب هذا بالفعل على قبري لكنها أشارت لي - بمنتهى الاحترام - أنها فكرة بلهاء تمامًا.

لكن «آلاء» عندما رأت هذا الكلام شعرت كمَن يتعلق بقشة، لا بد أن تبدأ أي حدث في الرواية قبل أن ينتهي، فلماذا لا تجرب؟ ضغطت على اسمه ثم فتحت الرسائل وكتبت بسرعة:

- أنا هنا يا سيدي، عاوز تتكلم في إيه؟

كانت أول مرة تفعل شيئًا كهذا، أعطاها شعورًا ما بالإثارة لم تحدده، مرت ثوانٍ ثم وجدت الرد:

- طب نتكلم ليه هنا، ما تيجي نتقابل؟

نظرت «آلاء» للرد السخيف لحظات، وشعرت بحيرة حقيقية..

* * *

السؤال الثالث: أنت إيه اللي جابك هنا؟

رغم أنها كانت أول مَن خلع ملابسه - وأطولهم وقتًا - لكنها بعد أول سؤالين بدأت تجلس بثقة ولا تداري شيئًا من جسدها، وضعت قدمًا على قدم وأشعلت سيجارة رفيعة طويلة، في مشهد هو حلم كل رجل سواي. ابتسمت نصف ابتسامة ونظرت لعينيَّ مباشرة وقالت:

- في إحساس ناقصني.

ونفثت دخان سيجارتها وهي تكمل ناظرة للاشيء:

- أنا بقالي ٣ سنين متجوزة، بسبب جوزي اتحولت من واحدة عايشة في منطقة عادية، لواحدة الفلوس لعبة في إيدها، وعايشة في فيلًا في التجمع الخامس! جوزي بيعشقني لدرجة لا تتخيلها، بتي ملاك نازل من السَّما، بس في إحساس ناقصني ومخليني مش عارفة أبقى مبسوطة.

وأكملت:

ـ واحشني إحساس «أول مرة في كل حاجة».
ثم نظرت لي في حيرة حقيقية وأكملت:
ـ فاهم حاجة؟

* * *

ميزة لا يعرفها إلا المقربون مني بشدة، أنني أفهم كل شيء يتعلق بالمشاعر البشرية فقط، اسألني عن نوع سيارة أو هاتف محمول فستجدني في جهل الإبل، اسألني عن المشاعر النفسية ـ مهما كانت ـ سأفهمها على الفور دون حتى أن تشرح أنت..

لهذا فهمت جيدًا ما تريد أن تقول.

كان رد «طه» رد الهجومي الذي يجعل أي فتاة تبتعد خوفًا، لا بد للمصري أن يضع لمسته، إبداعه الشخصي الذي يقتلني، لم أملِه تلك الإجابة الغبية بالتأكيد، كان واضحًا من رده الساذج أنه لم يحدِّث فتيات منذ فترة طويلة..

لكن «آلاء» كان لديها الأمر، ألَّا تقول لا، فكَّرت قليلًا بقلق ثم قالت لنفسها إنه لن يفعل شيئًا يضرها بالتأكيد، كتبت بابتسامة:

ـ ماشي، قابلني الساعة ٤ في كافيه «سكاي» جنب المطار آخر شارع السندباد.

وهو مكان تذهب إليه عندما ترغب في الهروب قليلًا. مكان مفتوح وعالٍ يطل على المطار، بفراغ محبب تجد نفسها فيه، تذهب هناك لتجلس جانب السور المرتفع وتنظر للاشيء.

لم يأخذ «طه» وقتًا طويلًا في الرد وقال:

ـ مع إني في المريوطية والمشوار هيبهدلني، بس ماشي.

سعدت للحظة من نجاح خطتي رغم غباء «طه»، كنت أعلم أن «آلاء» تتابعه فقلت لماذا لا أجرب؟ لو كانت تلك المحاولة فشلت، كنت سأجد شيئًا آخر أجمعهما به، حِيَل الكاتب لا تنضب!

ابتسمت «آلاء» من رد «طه» وأخذت حقيبتها، قبّلت ابنتها في سرعة، ثم انصرفت قبل أن تتردد وتلغي كل شيء.

* * *

كانت تحاليل المريض سليمة تمامًا..

فعلت «سارة» كل الفحوصات اللازمة حتى تتأكد أنه بخير، ذهبت له وقالت الأخبار السعيدة في هدوء أمام عينيه القَلِقتَيْن:

- الحمد لله التحاليل كويسة جدًا، مافيش أي حاجة.

قال بتوتر يحاول أن يُخفيه:

- بس في وجع أنا لسة حسُّه في قلبي.

ربتت على كتفه ثانية دون أن تدري لماذا، أسعدها قليلًا أن احتياجه أخرجها من شرودها وأفكارها المؤلمة، قالت بابتسامتها الحنون:

- ممكن يكون قولون عصبي أو التهاب في المريء، شد عضلي أو حتى التهاب في الغشاء السيليولوزي. كلها حاجات بتروح بالمسكنات، واحنا علقنالك محاليل إن شاء الله هتريحك.

ثم ضحكت بأمومة لم تعهدها فيها:

- المهم أنك ما عندكش أي حاجة في القلب.

نظر لها صامتًا بقلق ثم تحولت نظرته للأرض في حيرة، طفل بائس تائه لا يعلم ماذا يفعل، امتدت يده في بطء وأمسك يدها ليتخشب جسدُها كلُّه، أول مرة في حياتها يمسك رجل يدها بتلك الطريقة، شعر هو بتصلُّبها فالتفت إليها وقال برجاء غريب:

- ممكن حضرتك تفضلي معايا بس لحد ما أحس إني أحسن؟

قالت دون أن تسحب يدها في استسلام تام:

- حضرتك ممكن تنادي اللي جاي معاك.

ابتسم ساخرًا لأول مرة وقال بعين دافئة:

- أنا جيت هنا لوحدي.

وأكمل بضحكة ساخرًا يداري بها كل شيء:

- أنا حياتي درامية فشخ، كان في واحد زمان اسمه «والتر سمرفولد»، ضربته الصواعق تلات مرات والرابعة بعد موته...

وأكمل بثقة مازحًا:

- أنا بقى حياتي أسوأ منه.

ضحكتْ مع ضحكته التي يهتز جسده كله معها، تعرف أنه يتألم لكنه يحاول أن يبدو قويًا، لم تفكر كعادتها منذ أن رأته، جلست على طرف الفراش جانبه لينظر لها في امتنان دون أن يتكلم، قالت باسمة وهي تسحب يدها بهدوء بعد أن اطمأن بوجودها جانبه:

- أنت ما بتسمعش غير الأغنية دي؟

نظر المريض لهاتفه المحمول وأدرك أن الأغنية ما زال الهاتف يعيدها مرارًا وتكرارًا. نظر لها وقال وهو يهز كتفه بابتسامة:

- أنا عندي أغنية لكل موود.. دي بتاعة الموت.

قالها وضحك رغم كآبة الجملة. ابتسمت هي وهي تمد يدها مصافِحة:

- أنا اسمي «سارة».

قال وهو يبتسم مشيرًا بأصبعه:

- عارف، مكتوب على صدرك.

ثم أدرك أنه يشير لصدرها، ارتبك وقال بسرعة:

- معلش مش قصدي إني كنت بابص يعني، هو بس الاسم مكتوب فأنا.. أنا قصدي يعني إني عمري ما هابص على صدرك.

ثم أدرك شيئًا آخر، فقال وقد احمرَّت وجنتاه من الارتباك، يحاول أن يتدارك كلامه:

- ومش قصدي طبعًا إن صدرك وحش ما يتبصش عليه، أنا بس...

رغم خجلها إلا أن ارتباكه أضحكها، قال هو في يأس:

- يوووه، إمشي خلاص إمشي عاوز حد يقعد معايا، أنا هاموت هنا وأخلص.

لم تستطع أن تكتم ضحكتها أكثر من هذا، فانفجرت في الضحك بصوت عالٍ، لم تعبأ بالمرضى ولم تتذكر القوانين الصارمة لعالمها كله، ضحكت من قلبها ليضحك هو معها.

وكانت البداية.

* * *

لم يفعل «خالد» طوال حياته فعلة كهذه..

ظل جالسا يشرب القهوة ويفكر، ناظرًا للفتاة بتركيز مفضوح أثار غيظي، لماذا لا يكتب على صدره «أنا عاوز أخطف البت دي» كي يثير شكوكًا أقل مما يفعل الآن؟ لكني لن أبالي، ليكن أحمق كما يريد.

أمسك هاتفه المحمول واتصل بشخص ما، حدثه لفترة طويلة، أغلق بعدها المكالمة، ثم نهض فجأة، وذهب لعربته وجلس فيها، بعيدًا عن الفتاة، لكن نظراته مثبتة عليها..

انصرفت أنا تاركًا مسرح الأحداث كله، بالطبع أعرف كل ما سيحدث، لأنه حكى لي كل شيء بالتفصيل، في مكالماتنا اليومية..

مرت ساعة أو أكثر، طلبت الفتاة الحساب ونهضت مسرعة، ابتسم «خالد» في أمل لأن الوقت مثالي، آخر غروب الشمس وبداية ظلام الليل.

بدأت الفتاة في السير فاستنتج أنها تسكن في مكان قريب، سار بالعربة وراءها محاولًا أن يبعد المسافة قدر استطاعته، سارت بجوار سور حديقة الطفل في هدوء كمن يفعل هذا طيلة عمره، ثم دخلت في شارع جانبي يعرفه «خالد» جيدًا، منطقة هادئة تمامًا، من الخارج تبدو المنطقة حية، لكن ما إن تدخلها حتى تجد هدوءًا غريبًا كأنك انتقلت لبُعد آخر.

فرصته الوحيدة هي الآن..

زاد من سرعة عربته حتى أصبح بجانبها، ثم قال بصوت عالٍ:

ـ يا مدام.

لم يتوقع أن تقف، لكنها وقفت ونظرت له في تساؤل قلق، فابتسم ابتسامته الساحرة وقال وهو يمد يده بهاتفه:

- حضرتك موبايلك وقع.

ابتسمت ابتسامة مرتبكة وهي تنظر للهاتف ثم قالت:

- ده مش تليفو...

ولم تكمل كلمتها أبدًا..

هجم عليها شخص ما من الخلف وكمّم فمها تمامًا، قاومت لمدة ثوانٍ معدودة ثم فقدت الوعي بين ذراعيه، فتح «خالد» باب العربة في سرعة وقد ارتجفت أطرافه من التوتر، دخل الرجل حاملًا الفتاة بسرعة أكبر، وانطلق «خالد» بالعربة كأن الشياطين تلاحقه.

شعر أنه لا يستطيع التحكم في نفسه من الخوف الذي يعتري كيانه كلّه، منذ فترة طويلة لم يشعر بهذا الضغط النفسي الهائل الذي يجعله يريد أن يبكي فقط كي يرتاح، مسح عرقه بسرعة وحاول أن يتمالك جأشه، أمسك هاتفه وكلمني لأرد عليه قائلًا:

- إيه الأخبار؟

قال هو بصوت مرتبك:

- أنا عملت اللي قلت عليه.

لم أتوقع أن يفعلها بتلك السرعة، ابتسمت وقلت له المكان الذي سيأخذها إليه، أغلق «خالد» المكالمة، نظر في المرآة للرجل الذي أشعل سيجارة وجلس بمنتهى الهدوء، كأنما لا توجد فتاة مخطوفة جانبه الآن، قال «خالد» بتوتر:

- معلش تعبتك معايا.

في كل منطقة هناك بلطجي حتى لو أنكروا هذا، بلطجي منطقته كان صديق دراسة قديمًا، يفعل كل شيء بمقابل، مكالمة واحدة له ـ المكالمة التي أجراها وهو في المقهى ـ واتفاق على سعر مناسب جعله يأتي في أقل من نصف الساعة.

قال الرجل بهدوء:

- تعبك راحة يا هندسة.

أوقف «خالد» العربة في طريق جانبي آخر، ثم قال للرجل في ارتباك:

ـ أنت هتنزل هنا، لما ارجع هاكلمك.

ابتسم الرجل في ثقة وقال:

ـ يا باشا خليني معاك عشان مش هتعرف تشيلها، أنا بافهم في الأصول ومش هاسيبك غير لمَّا اطّمن عليك.

ثم نظر للفتاة وقال كأنه فارس نبيل:

ـ واللي عاوزة تفضحك دي لازم يتعمل معاها الصح.

ابتلع «خالد» ريقه وهو ينطلق بالعربة ثانية، كان لا بد من كذبة يقنع بها البلطجيّ، فقال له إنها فتاة تهدده بأن تفضحه، صدَّق الرجل ولم يناقش.

شعر أن الثواني تمر ببطء، لو رآه أي أمين شرطة أو عسكري جاهل لأدرك من ملامحه أنه ارتكب جريمة قتل، لم يستطع أن يتحكم في عينيه وهو ينظر لكل شيء حوله في خوف طوال الطريق، الذي بدا أنه لا نهاية له..

وصل للعنوان أخيرًا، حملا الفتاة معًا وهبطا بها لمخزن الفيلَّا أو «الجراج» أو أي شيء تريد أن تطلقه عليه.

أنا شخصيًّا أفضل أن أطلق عليه «مسرح الجرائم»..

جراج فيلّتي!

* * *

الثالثة

الصبر التام في كل ما ستواجهه من بشاعة، تيقَّن أنني هنا لأكتب رواية جيدة
تحمَّل كل ما سيحدث من اختبارات واختيارات في جَلَد
ثِقْ أن الهدف أسمى من شكواكَ الفارغة!

قالت لي «ديما» بعد أن قرأتْ فصلين إنها غير راضية عما كتبت، وإنها تريدني أن أصمت قليلًا عن إبداء رأيي في كل شيء أذكره، وكان ردي أنها روايتي أقول فيها ما أشاء، لتضحك هي من ردي في حنان.

مالت عليَّ في مقعدي ولفت ذراعيها حولي قائلة بابتسامة:

ـ ومين بطل أم الرواية دي بقى على كده، أنا عارفاك مابتعرفش تبقى حيادي.

قلت وأنا أتأملها بعشق، كأني أنظر لأبدع لوحة في العالم:

ـ أحلى حاجة في الرواية دي، إن البطل فيها هو اللي هيعرف يسرق البطولة، هو اللي هيخطف الأحداث، مش أنا اللي هافتعل شيء عشان يظهر!

وأكملت مستمتعًا بما أقول:

ـ أنا ماليش أي دخل.

قبَّلتني قُبلة طويلة، ثم قالت بابتسامة مَن يفهم دهاليز عقلي جيدًا:

ـ أنت أكبر كداب شفته في حياتي! أنت اللي بتحرك كل حاجة أصلًا.

نقلتني قُبلتها لعالم آخر في ثوانٍ، أغمضت عينيَّ متوقعًا القُبلة التالية. لكني سمعت صوتها قد ابتعد وهي تقول بصرامة مفاجئة:

ـ اكتب يلَّا، مش هتذل أهلي وتقريني صفحتينْ كل شوية، بافصل.

* * *

«أنا سمَّعتك ذوقي، قوليلي أغنية على ذوقك بقى».

قالها المريض لـ«سارة» وهو يمسك هاتفه المحمول. ابتسمت لتلك الراحة التي أصبح فيها لأنها جلست معه، فكَّرت قليلًا ثم قالت باسمة:

ـ «رحل معايا الليل» لـ«حميد الشاعري».

امتعض وجهه قليلًا كمن تذوق شيئًا كريهًا، فنظرت له متسائلة ليقول وهو يكتب على الهاتف باحثًا عن الأغنية:

ـ أنا ما بحبش العربيْ أصلًا.. بس هي أذواق في الآخر.

لم ترد وتركته يبحث على الهاتف حتى سمعت صوتها، ابتسمت لكل

ما تحمل لها تلك الأغنية من ذكريات، نظرت له وهو يفرد يده بالهاتف ليأخذ صورة «سيلفي» معها دون أن يستأذنها، رفعت يدها في خوف لتداري وجهها وقالت:

ـ أنت بتعمل إيه؟

قال وهو ينظر لها من خلال الشاشة:

ـ أنا بحب أسجل ذكرياتي دايمًا.

والتقط الصورة حتى وهي تُخفي وجهها، ثم قال ساخرًا لها:

ـ ما تخافيش، أنا مش عيل سيس من اللي بيحطوا صورتهم بالمحاليل وهو مغمض عينه على الفيسبوك ويقول للناس: «قدر الله وما شاء فعل».

ضحكت رغمًا عنها ليستمر هو في سخريته.

لم تضحك «سارة» في حياتها مثلما ضحكت وهي مع ذلك المريض البدين، كان متحدثًا بارعًا، وكان يسخر من كل شيء كأنما يهزم توتره بالسخرية المتواصلة. لا تتذكر أنها تحدثت كثيرًا طَوال جلستها معه، ما إن عرف أنها ستجلس معه حتى انطلق يحكي لها لماذا هو وحده، ثم يذكر مواقف مضحكة ومُخجلة حدثت له فضحكت بشدة، لدرجة أثارت دهشة الممرض الذي أتى ليرى ماذا يحدث، فالتفتت له «سارة» وقالت بهدوء الطبيبة:

ـ لو سمحت بلَّغ دكتورة «أمل» إني في الطوارئ مع حد من عيلتي، وقول لها تمسك الطوارئ مكاني ساعة واحدة بس.

أومأ الممرض رأسه بدهشة، ثم ذهب يُنفذ الأمر، لتلتفت «سارة» إلى المريض، وتجد عينيه الهادئتين تنظران لها نظرة امتنانٍ صامتة، فنظرت للأرض بخجل.

لا تعلم ما الذي يمكن أن تقوله، أسعدها أنه يتكلم كثيرًا، ارتاحت لأنه أنساها أفكارها عن مرضها، لكن عندما يسود الصمت تنظر للأرض ولا تدري ما المفروض أن تقوله.

لأول مرة في حياتها الملتزمة تفعل شيئًا كهذا.

أبوها طبيب تخدير وأمها مُدرسة، يعيشون في شقة خلف «سوق السيارات» بمدينة نصر.

مر العمر بها: طفلة عادية فمراهِقة تقليدية، ففتاة كتومة، فآنسة تموت! منذ أن كانت صغيرة وهي المثالية في كل شيء. أخبروها أنها لا بد أن تكون مُهذبة ولَبِقة وطيبة.. فكانت. أخبروها أنها يجب أن تُصلي وتلتزم ولا تتحدث مع الأولاد.. ففعلت. أخبروها أن الالتزام هو الطريق الوحيد للخلاص من كل شيء سيئ.. فأخلصت. أقنعتها أمها أن الهدف الوحيد للفتاة هو أن تتزوج، الجائزة الكبرى ونهاية المطاف لأي فتاة محترمة. عاشت تتعلم أن تحلم هذا الحلم طَوال الوقت وتتدرب على مواصفات الزوجة الرائعة، لم تدخل في أي علاقة حب أو حتى إعجاب، كانت «تحافظ» على نفسها من أجل العريس المنتظَر، تريد أن يكون معه أول كل شيء.

لهذا عندما وصلت لسن السابعة والعشرين ولم تتزوج بعد، شعرت أنها مُقصرة في شيء ما لا تعرفه، بدأت نظرات كل مَن حولها تتحول من الفخر إلى الشفقة أو اللوم، فكَّرت في الأشياء التي يجب أن تفعلها حتى تتزوج، فوجدت أن الأمر ليس بيدها، كل مَن أتوا من الرجال ليخطبوها، تفعل ما قالوه لها وتنظر للأرض وتتكلم بحسابٍ، لا تدري لماذا عندما يعرفون أنها طبيبة باطنة متفوقة في هذه السن الصغيرة، لا يأتون ثانية.

لم تعرف أن الرجل الشرقي يخاف من المرأة الذكية أكثر من المرأة المتحررة، الحرية قد تموت داخلها، لكن الذكاء صعب التخلص منه، الحرية سهل كبتها، ولكن الذكاء سيجعلها ترى تفاهته!

والرجل الشرقي لديه الموهبة الفطرية في قتل أي شيء مُميَّز في المرأة التي يرتبط بها، يقاتله في حرب شرسة حتى الموت، لتصبح في النهاية شخصية مُسطَّحة، تعشق الأرض التي تطؤها قدماه ولا شيء آخر.

موهبته الأخرى أن يشكو للناس جميعًا سطحية تلك المرأة التي قتل فيها كل ما يميزها..

كانت تصبر..

تقول لنفسها إنها تُضحي بكل شيء من أجل الحياة المثالية، من أجل أن تُرضي عائلتها، أن تُرضي المجتمع وتظل في الخانة المكتوبة لها. لم تكن متفوقة والأولى في كل شيء، إلا لأنهم أخبروها أن هذا هو الشيء المثالي الصحيح.

حتى عرفت - في سن الواحدة والثلاثين - بمرضها..

عرفت هذا بالصدفة البحتة. سرطان دم قاتل، اكتشفته بنفسها بحُكم عملها كطبيبة، وعندما ظهرت نتائج التحاليل عرفت أنها في مرحلة متأخرة..

«أنت مش معايا خالص.. مالك بس في إيه؟».

قالها المريض منتشلًا إياها من شرودها، شعرت بالضيق لأنها سمحت لنفسها أن تتألم بالذكريات ثانية، قالت له وهي تمسح دمعة تسللت منها دون أن تدري:

- أنا آسفة، أنا هاقوم دلوقتي.

تحولت ملامحه الطفولية للحزن مرة أخرى، لكنه أدرك أنه تجاوز حدودًا كثيرة معها، فنظرت هي له وهي تنهض من مقعدها، قائلة بهدوء وبلهجة عملية:

- لازم أشوف شغلي.. بعد إذن حضرتك.

ليقول هو بسرعة آخر شيء تتوقعه..

قال بابتسامة واثقة احتوت حزنها:

- يبقى لازم آخد رقم تليفونك!

* * *

ركبت «آلاء» عربتها الـ«audi» الحديثة، ارتدت أحد تلك السراويل الجينز المقطعة عند الركبتين، قميصًا مفتوح الأزرار تحته «تيشيرت» تطلق عليه النساء - كعادتهن في تسمية كل شيء بأسماء غريبة - «cup»، تركت

شعرها ينسدل على كتفيها في نعومة، مع نظارة الشمس التي تأكل نصف وجهها..

ما إن تحركت بالعربة وانسابت أغانيها المفضلة من «كاسيت» العربة حتى راودها إحساس غريب افتقدته منذ زمن بعيد..

شعور أنها ذاهبة لتقابل رجلًا غريبًا عنها، منذ فترة لم تشعر بذلك الاضطراب في معدتها بسبب الترقب والانتظار..

لا تدري لماذا، لكنها تذكرت فترة من ماضيها كانت تحاول أن تتناساها تمامًا منذ سنوات.

كانت «آلاء» طفلة وحيدة وسط ثلاثة إخوة، تُوفيت أمها في أول سنة بالجامعة فتحملت مسئولية البيت مرغمة، أصبحت شخصيتها قوية مستقلة، تعرف كيف تأخذ حقها، بل وأستاذة في منع أي شخص أن يقترب ويؤذيها، الألفاظ النابية جزء من شخصيتها أساسي، عرفتْ كيف تصنع جدارًا من الفولاذ حولها كي لا يتسلل أي رجل إلى قلبها، أجل، «آلاء» بكل ما تفعله بجرد وجه تراه، رأت الكثير من عفن المجتمع فأصبحت لا تهتم به من الأساس، هذه هي الصفة الوحيدة التي تُشبهني فيها، أنا وهي نرفض الكون كله.

لكنها سلكت طريقًا خاصًا بها. أنا أصبحت كاتبًا، أما هي فأصبحت «عاهرة»..

وهذا أيضًا تعريف مجتمعي بحت أرفضه ـ أيضًا ـ بشدة..

«آلاء» أحبت «رجلًا»، والرجل في مجتمعنا يا صديقي يفكر بعُضو» الذكري فقط، يحاول أن يمنطق كل شيء في الحياة كي يلبي رغباته، ولن أقول «إلا مَن رحم ربي»، فهذه قاعدة بلا استثناءات.

كان هذا بعد وفاة أمها بشهور بسيطة، أرادت أن تملأ الفراغ الذي تركته أمها، أحبت زميلًا في الجامعة وظل يحاول أن يتحكم فيها ويسيطر عليها ويقنعها ألا ترى في الكون سواه، فعلت هي بنفس راضية، لتبدأ الأسطوانة المحفوظة!

بدأ يخبرها أنه مسكين ويرغب في أشياء كثيرة معها، أنه لا يستطيع التحكم في نفسه ويتعذب بشهوته، يؤكد أنه يعتبرها أمام الله زوجته، فسلَّمت نفسها راضية على وعد بالنهاية السعيدة.

لا، لم يحدث ما تتوقع يا صديقي..

فما اكتشفته «آلاء» في هذا اليوم الذي سلَّمت فيه نفسها، جعلها فيما بعد ترى المجتمع كله على حقيقته السطحية..

اكتشفت أن الله أكرمها بما هو أكثر من الشكل الجميل والجسد الأجمل..

أكرمها بالغشاء المطاطي..

غشاء بكارة لا ينقطع - مهما حدث من ولوج - إلا مع الولادة..

. وهذا يجعلها - ببساطة شديدة - تفعل كل ما تريد وما ترغب مع أي رجل..

وتظل عذراء وبِكْرًا ورشيدًا!

وصلت للكافيه فقطعت ذكرياتها، تعجبت كيف لم تشعر بالطريق ولماذا ظلت شاردة تتذكر ما لا تريد تذكُّره؟ لكنها تجاهلت كل هذا وابتسمت، تشعر بدقات قلبها المتسارعة من الحماس.

* * *

جلست «سارة» أمام مكتبي، في ذلك المقعد الوثير النبيتي اللون، تهز قدمها في سرعة وتنظر لي صامتة..

كانت لغة جسدها متوترة أمام عينَيَّ المتثاقلتَيْن. كلمتني أكثر من خمس مرَّات لأستيقظ غاضبًا. كانت الساعة التاسعة صباحًا، وهو ميعاد لم أرَه في ساعة منذ أكثر من عشرين عامًا!

قالت لي إنها تريد أن تأتي للمكتب للضرورة القصوى، أجبت بنصف وعي أنني نائم وأننا ما زلنا في ثاني يوم من الشهر الأول. قالت بصرامة إنها تريد أن تخبرني بشيء مهم حدث لها، وكما يقول العقد الأشياء المهمة هي التي تحدث لها استثناءات. زفرتُ في ملل شديد وأخبرتها أن تأتي..

لذلك تجدني جالسًا يا صديقي الساعة العاشرة صباحًا في مكتبي في حادثة نادرة. مرت ربع ساعة كاملة صمتت فيها فقلت بضجر:

- ما أنتِ لو جاية عشان تستمتعي بالكرسي، أسيبك فيه وأكمل نوم!

نظرت لي لحظات كأنها تفكر كيف تبدأ، ثم قالت بنبرتها الجادة:

- أنا قابلت واحد إمبارح، مريض جالي وحسيت ناحيته بحاجة غريبة..

ثم قالت ناظرة لي بشك أمين شرطة في لجنة منتصف الليل:

- أنت اللي عملت حاجة زي كده صح؟

نظرتُ لها باستهانة وقلت بابتسامة ساخرة:

- أنتِ هتعيشي في وهم إني متحكم في الكون فعلًا؟ حياتكم هتتحرك عادي جدًّا، بس مش هتعملوا غير اللي أنا باقوله.

كنت أشعر أنني إكلينيكيًّا ما زلت نائمًا، أكملت وأنا أتثاءب رغمًا عني:

- ثم إننا لسة بنستفتح، وده تاني يوم في الشهر الأول! مستعجلة ليه؟

بدأ القلق يغزو ملامحها من آخر جزء في جملتي، فسألتها حتى لا أضيع وقتًا أكثر من هذا:

- اسمه إيه؟

قالت بخوف أتفهمه جيدًا:

- مش هاقولك اسمه.

انعقد حاجباي وقلت بصرامة:

- إحنا بينًا عقد، كل حاجة لازم أعرفها وبالتفصيل، حتى لو نام معاكِ!

قالت بعناد الطبيبة المتفوقة:

- العقد بيقول إني من حقي أطلب إنك ما تستخدمش أسماء حقيقية في الرواية!

صمتُّ تمامًا ناظرًا لها وهي تفاجئني بمعلومة أول مرة أسمعها، أنا من ثقتي في «ديما» والمحامي وبكسلي المعتاد، لم أقرأ العقد من الأساس، تنحنحت لحظة ثم قلت متجاوزًا تلك النقطة:

- طيب، احكيلي.

قالت بابتسامة حنون:

- هاسميه «سامي».

لم أحتمل وقلت ساخرًا:

- ليه تختاري اسم مودرن كده؟ ما تسميه «كمال» ولا «عبد الجبار» عشان تبقى قديمة أكتر.

لكنها لم تعلق أو تبتسم، وانطلقت تحكي...

* * *

نظر «خالد» للجسد الملقى أمامه على الأرض..

كانت مقيدة تمامًا بحبال تلتف حول يديها وقدميها..

حتى الآن لا يصدق الذي فعله..

اختلط كل شيء داخله..

ما بين تحمسه وإثارته أنه في أحداث رواية خيالية، يفعل ما يفعله أبطال الروايات، وكل مشاعره لها مدلول ما عند الكاتب، وبين إدراكه أنه شخص حقيقي من لحم ودم يعيش في الواقع، الجريمة التي فعلها الآن ستذهب به إلى مصير أسود تمامًا.

انصرف البلطجي بعد أن ربط الفتاة جيدًا..

حاول أن يقنع نفسه أنه في الخيال، كل ما يحدث هو في عالم الرواية، وقوانين الواقع لن تطبق عليه في العالم الخيالي، أنفاسه ثقيلة لدرجة لا يتخيلها، يسمع نبضات قلبه ترج صدره بقوة، يتعرق من رأسه وتتساقط قطرات العرق فتغرق لحيته جاعلة أفكاره جحيمًا حقيقيًا.

ماذا يفعل الآن؟

مرت دقائقُ طويلة، انتفض وهو يسمع باب الجراج يُفتح بقوة، نظر برعب ثم رآني بجسدي الضخم فهدأ، وقال بعصبية:

- أنت لو عاوز تموتني مش هتعمل كده..

أول مرة يراني «خالد» منذ المقابلة، كنت أسير ببطء وبرود، لم أرد عليه

أو ألتفت له من الأساس، ذهبت للفتاة وملت على جسدها الراقد، لم يعرف «خالد» ما الذي أفعله لأن ظهري الضخم كان يُخفي الفتاة من أمام نظره، فعلت شيئًا ما تعمَّدت ألا يراه، وبعد دقائق نهضت وأنا أنفض البنطال من التراب الذي التصق به.

نظرت لـ«خالد» نظرتي القاسية وأنا أقول:

ـ اللي جاي ملكك أنت، اعمل اللي أنت شايفه صح، واحكيلي في الآخر.

وانصرفت مسرعًا دون أن أسمح لـ«خالد» بالرد بكلمة واحدة..

ولمدة ساعتين، ظل هو جالسًا على مقعد بالٍ في جراج الفيلَّا، يتأمل الفتاة التي لم تستيقظ بعد..

ماذا يريد أن يفعل الآن؟ سأل نفسه مستنكرًا سخافة السؤال، يريد أن يهرب راكضًا بالطبع ويعود ثانية لحياته الطبيعية، أهذا ما يريده هذا الكاتب؟ أن يرى إذا كان هو بالشجاعة الكافية ليستمر أم سيختار الهروب؟ قال إنه سيتحكم في كل شيء ثم يعطيه اختيارًا الآن؟ ما الهدف؟

بدأ جسد الفتاة في التحرك ليقطع أفكاره ويتحفز جسده في خوف، نظر للفتاة التي اعتدلت بسرعة على ملامحها رعبٌ شديد، نظرت للحبل الذي يلتف حول ذراعيها، ثم حركت يديها في قوة، ظلت تنظر للحبل فترة طويلة أدهشته، رفعت عينيها فجأة وما إن رأت «خالد» حتى صرخت بأعلى ما في صوتها، نهض مفزوعًا وكمَّم فمها بيده وهو يصرخ:

ـ اخرسي.

صمتت الفتاة ومعها صمت كل شيء حولها..

أنفاسها الحارة تخترق يديه الموضوعتين على فمها، نظرتها المتسعة في رعب، ظل ينظر لعينيها والعرق يتصبب من جبينه، عقله فارغ تمامًا ولا يدري ماذا يفعل..

كل ما أتى في رأسه فكرة واحدة فقط:

أنهما وحدهما تمامًا..

شيء ما في تلك الحقيقة البسيطة جعله يهدأ قليلًا وهو ينظر لعينيها الجميلتين..

لو أنك مختفٍ عن الأعين ولن يعاقبك أحد على أي شيء تفعله..

ماذا ستختار أن تفعل؟

نظرت له الفتاة بعين مليئة بدموع القهر، عين ترجوه أن يرحمها، نظرتها هي ما أشعلت داخله إحساسًا لم يدركه من قبل، شعورًا كان مدفونًا في دروب نفسه المحطمة، شعورًا لا يدري مصدره ومستحيل أن يصدق وجوده داخله..

حدق في عينيها فترة طالت وتحرك جسده دون عقله، أنامها على الأرض ثانية ونسي كل أفكاره عن الواقع والرواية والخيال والحقيقة، اشتعلت داخله رغبة عنيفة بالسيطرة والقهر، أراد أن يذيق أحدًا كل ما ذاقه في حياته من كبت وظلم وضعف، ظهرت الدموع في عينيه لأن داخله شيئًا يرفض أن يعترف أنه بتلك الحقارة، أجبرها أن تخلع بنطالها وهي تقاوم صارخة لكنه لم يعبأ هذه المرة بصراخها، عندما وجدت الفتاة أنه مستمر في تعريتها بدأت تُتمتم بكلام لم يدخل أذنيه مثل: «ارحمني. واتقي ربنا. وأبوس إيدك». كلمات استعطاف تغذي رغبته.

هو يريدها أن ترجوه أكثر..

يريدها ضعيفة..

أن تفقد السيطرة، أن تنسى الاتزان، أن تضيق بك الدنيا فتتوه عما تعرفه عن نفسك، لحظتها تصبح شخصًا آخر تمامًا، تشاهد كل ما يحدث لك بعين مشفقة، ترى كل شيء فيك يذهب وتقف بعجز تلوح له مودعًا، تواجه البداية من جديد، تتعرف على أسوأ ما في شخصيتك الجديدة، تحارب وتضحي حتى «تتكون» من جديد، تبتسم في رضا تام عن هذا الشخص الذي أصبحته..

لتفقد السيطرة..

فتنسى الاتزان..

لم يهتم بأن يُعريها تمامًا، يكفيه النصف السفلي، هو لا يريد ما يثير شهوته، بل يريدها أن تتألم، أن تشعر بالقهر، أن تذوق شيئًا مما ذاقه طوال حياته، خلع بنطاله بعينيه الباكيتين الرافضتين لما يفعل..

اقتحمها فصرخت صراخًا شنيعًا جعله يرغب في إيلامها أكثر، الجميع يغتصبه، الجميع ينكحه سواء بالتجاهل أو بالرفض أو بالإذلال، لماذا لا يذيق العالم كله ما يشعر به ولو لثوانٍ؟

تحول لحيوان في لحظات وتحرك بسرعة قاتلة كسوط يجلد دون رحمة، صرخت حتى بُح صوتها، بكت بكاءً شديدًا، بدأت قوتها في الكمون يأسًا من الكون كله، صرخ فيها وهو يتحرك بسرعة مجنونة:

ـ اسمِك إيه؟

يريد أن يعرف، ذكرى ذلك الإحساس الغاشم بالجبروت، يريد أن يربطه باسم ما، أي اسم..

لم تجاوبه وهي تصرخ: «حرام عليك»، لم يرحمها وكرر سؤاله مئات المرات، وفي كل مرة يسأل فيها يقتحمها بأسلوب أعنف، حتى صرخت هي كي ترحم نفسها من كم الألم الهائل:

ـ شيماء.

صرخ فيها ليعرف الاسم الذي ذاق معه مرار حياته كلها:

ـ شيماء إيه؟

قالت صارخة بصوت مبحوح:

ـ شيماء صالح.

أتتذكرها؟

* * *

قالت «شيماء صالح» بحرص من خقها أن تشعر به:

ـ طيب هتعمل إيه؟

قلت مستمتعًا بما أقول:

- أنا هاتحكم فيكِ.

* * *

ما إن عرف اسمها حتى شعر بالقوة تغمره وتفقده سيطرته على نفسه، تشنّج جسده تمامًا وأتت شهوته داخلها..

لينتهي كل شيء..

من أعلى، من الكاميرا التي جعلتني أرى ما حدث، رأيت بقايا أجساد منتهكة، مُلقاة على الأرض في تعب وقهر حتى إنك - لو كنت تجهل قصتها - لن تفرّق بين المغتصِب والمغتصَب!

صمتَت الدنيا حولها للمرة الثانية، لم تعد هي قادرة على الصراخ فظلت تبكي دون إرادة..

نام هو جانبها يبكي كطفل نادم، بعد أن أدرك عقله ما فعله في لحظات قليلة..

طفل نادم، يعبث داخله شعور ظافر..

لقد ذاق أحد أخيرًا جزءًا من الجحيم المُستعر داخله..

* * *

أمامك وقتٌ كافٍ لتكرهني فيها بعد.

* * *

«بس كده؟».

قلتها لـ«سارة» الجالسة أمامي في ارتباك، بعد أن حكت قصتها مع هذا الـ«سامي». نظرت لي بتساؤل، كانت تتمنى أن تجد مني رد فعل غير لا مبالاتي، قلت باستهانة وأنا أرتشف آخر قطرة من فنجان القهوة الممتع الذي أعدته لي «ديما» بطريقتها الخاصة:

- وإدتيله الرقم؟

نظرت لي لحظات ثم أومأت برأسها إيجابًا، ووجهها تعلوه حُمرة خجل خفيفة أثارت شفقتي..

تأملتُ خجلها وبسمتها الحنون..

يا للبلهاء!

لو أقسم لي أحد إنني في يوم ما سآخذ «سارة محمد عبد المنعم» بطلة لإحدى رواياتي، لكنتُ اتهمته بالجنون وقطعت علاقتي به..

«سارة» مملة!

فتاة «فيروز والقهوة» عن اقتناع وعِشق حقيقي، واحدة من الجموع الغفيرة التي تشعر بنفس الشيء وتناقش نفس القضايا وتقول رأيها في كل ما يحدث على وسائل التواصل الاجتماعي. بلا أي خبرة في الحياة الاجتماعية الحقيقية. قمة سعادتها في التجمعات العائلية ومناغشة أقاربها بمزاح يتكرر كل عام. الأصدقاء إناث فقط، تخرج معهن، تسمع قصصهن، وتذهب لبيتها راضية، لو أردتَ تخيُّل مستقبلها فهي خالتك التي تسألك كل سنة في لَوْمٍ عن تجاهلك لها، هي أمك التي تُخبرك وأنت في الثلاثين من العمر أن تغسل يديك قبل الأكل وبعده، قمحية البشرة، ملامح عادية تراها كل يوم، مُحجبة وملابسها معتدلة..

تفاصيل حياتها من أبسط ما يكون.

عروسة «ماريونيت»، تترك أمورها طوعًا لمن يُمسك خيوط حياتها، والآن تخبرني أنها ستقع في حب رجل يمسك خيوطها ويتحكم في الفترة القادمة. نظرت لها من خلف المكتب، لم أشعر بشيء يجذبني لأنْ أجعلها تكمل مع هذا الـ«سامي»، قصة عادية رغم براءتها اللطيفة. سألتها بهدوء:

ـ الموضوع ده بقاله قد إيه؟

قالت بسرعة بابتسامتها الخجولة:

ـ من امبارح، يوم واحد بس.

نفثت دخان سيجارتي، وأنا أنهض من على الكرسي وأسير في الغرفة قليلًا، نظرت «سارة» لقدميَّ الحافيتين في تعجب، لكنني لم أبالِ وأنا أضع يدي في جيب البليزر الرمادي المعتاد، وأقول في تركيز:

ـ كويس، يعني أكيد ما اتعلقتيش قوي بالحكاية..

جاوبتني نظرتها غير الفاهمة، فاقتربتُ منها مستندًا على يد مقعدها قائلًا:

ـ قصتك معاه عادية جدًّا، ومش ده اللي كان في دماغي ليكِ، أنا كنت عاملك خطة أنك تعيشي مليون حاجة مختلفة غير إحساسك بحب مؤقت، ما تنسيش إنك هتموتِ قريب ولا أنا ولا أنتِ عارفين إمتى!

وقلت بهدوئي مُذكرًا إياها:

ـ أنتِ شكللك نسيتِ أنتِ قلتِ ليَّ إيه في المقابلة.

* * *

ـ «عشان هاموت».

في المقابلة، بعد أن قالتها ووجدتني كلوحٍ بارد من الثلج بلا أي رد فعل، حكت لي جزءًا كبيرًا من الحكاية، ختمتها بالجملة التي جعلتني أختارها معي في هذه الرواية:

ـ أنا طول عمري ما عرفتش أعيش، كل اللي نِفسي فيه إني أحس إني عايشة ولو ثواني بس، حتى لو الإحساس ده مزيف، حتى لو أنت اللي مألفه، حتى لو أنت اللي هتحركني..

وهبطت دمعتها وهي تكمل:

-نِفسي أحس بأي حاجة.

* * *

حدقت في عينيَّ بقلق، لكني لم أهتم وأنا أمشي في الغرفة قائلًا بطريقتي المُسيطرة:

ـ أنا كنت هاخليكِ تجربي الجنس، الحرية، كنت هاخليكِ تشوفي حاجات في الحياة ومشاعر عمرك ما حستيها.

ارتجفت شفتاها وظهر في عينيها الحزن؛ التقبُّل الأنثوي الممل لكل الكلام الواقعي الصارم. جلست على مكتبي وأنا أقول ببرود:

- تخيَّل معايا مستقبل القصة، هتحبيه وهيحبك، هتقوليله إنك هتموتي، هيختار يكمل أو يسيبك، لو كمل معاكِ يبقى إحنا في فيلم «a walk to remember» و«sweet November» وجو «حبيبي دائمًا»، لو ما كمّلش أو ما حبكيش يبقى إحنا ضيعنا وقت! وهتبقى نهاية درامية في جميع الأحوال.

وهززت كتفي مُكملًا مونولوجي بعنوان «كيف تقتل أحلام فتاة تموت؟»:

- أنا عارف الصح فين، بلاش العلاقة دي، لا هتفيدك ولا هتفيدني ككاتب.

وأكملت مستعيدًا إحساس السلطة الذي أعشقه:

- أنا عمري ما بررت لحد أنا بارفض ليه، بس أنتِ برضة ما ينفعش تموتي وأنتِ مش عارفة أسباب، أنتِ سلمتيلي نفسك عشان تعيشي، وأنا رافض العلاقة عشان أنتِ المفروض تعيشي مُتع الدنيا، تودعينا وأنتِ مبسوطة، مش تلاقي الحاجة اللي تخليكِ تكرهي الموت!

قالت بقوة، حاولت أن تستجمعها، لكنها خرجت واهية ضعيفة:

- بس أنا عاوزة أعيش القصة دي.

وقبل أن أنطق قالت بصوتٍ أقوى قليلًا:

- والقواعد بتقول إني لو عاوزة حاجة عكس أوامرك، لازم أضحي بشيء في المقابل.

للمرة الثانية تُفاجئني بما في العقد لدرجة أثارت غيظي، ستجعلني تلك الفتاة أقرأ عقدًا مكونًا من ٤٠ صفحة، فقط حتى لا تحرجني ثانية. أنا مَن كتبت القواعد لكني كتبتها كي أستغلها ضدهم، لا أن يستغلوها هم ضدي، قلت محاولًا ألا أخرج عن شعوري:

- مش منطقي إنك تضحي عشان علاقة أصلًا أنتِ مش عارفة هتكمل ولّا لأ، مش منطقي من يوم تقرري إنك تضحي بشيء عشان واحد أصلًا ما تعرفيش عنه حاجة! مش يمكن يطلع في الآخر خاين ولّا كداب؟

نظرت لي بتحدٍّ وقالت:

- أنا باستخدم حقي في إني أضحي بشيء مقابل إنك توافق إني أكمل معاه وأشوف آخر قصته.

رغم أنها كانت تثير غيظي، لكني لن أنفعل على بطلة روايتي أبدًا، لن أسمح بمشاعري الشخصية أن تتدخل في عدلي معها، نظرت للأرض مفكرًا. هذه الفتاة لا تعرف حجم التضحية التي ستقدمها.

والأسوأ، أنها لن تختار ما ستُضحي به، لأن القاعدة تقول إن مَن يخالفني سيضحي بشيء من اختياري أنا!

بدأت الخيوط تتجمع في عقلي بهدوء، لحظتها كانت أول مرة أشعر بمتعة تحكمي فيهم، ابتسمت ناظرًا لها وقلت:

- ماشي، بس لو قصتك طلعت فشنك في الآخر ما تلوميش غير نفسك.

ابتسمت في سعادة وهي تنهض مُنهية المقابلة، وانصرفت على شفتيها ابتسامة نصر بلهاء..

حمقاء لا تعرف شيئًا..

إن مَن يعارض رغبة «حازم كَتْخُدَا» لا بد أن يذوق من العذاب مرارًا!

الرابعة

مسموحٌ لك بالتفكير، أفكارك هي غذائي في سطور روايتي
لكن ممنوع السؤال، النقاش، محاولة أن تجد معنى لما آمُرك به
لو فكرتَ قليلًا، مَن ستسأل ومَن سيجيبك؟
لا أحد يعرف ما بداخلي إلاي!

..: ٥ فجرًا

انتهيتُ من كتابة الفصل السابع، أجل يا صديقي أنا الآن أسبقك عما تقرأ ببعض الفصول، لسنا في بث مباشر حتى ألتزم معك في السياق الزمني نفسه.. هذه الرواية كلها لا تلتزم بأي ترتيب زمني على الإطلاق..

لا أحب أن أتقيد به!

توقفتُ عن الكتابة وذهبت لارتداء ملابسي بسرعة..

كل يوم، في الساعة الخامسة فجرًا، أرتدي سُترتي الرياضية مُسدِلًا الـ«كابيشو» على رأسي، مخفيًا وجهي حتى لا يرى أحد منظره البشع. ألبس حذائي الرياضي الخفيف، وأنزل من فيلّتي كي أركض قليلًا..

ركضي المستمر هو ما جعل جسدي - رغم ضخامته - متناسقًا رياضيًّا، بلا أثداء صغيرة أو كرش متدلية كمعظم الرجال..

في أذنيّ سماعات تبث أغاني أعشقها تُحمسني، سماعات كبيرة لأنني أكره تلك الصغيرة التي تؤلم الأذن وتسقط دائمًا..

روتين يومي ألتزم به، منفذًا الوصية الوحيدة من أقرب امرأة إلى قلبي: «اركض».

رغم عمري الذي تجاوز الأربعين، لم أكف عن تلك العادة أبدًا، حتى ويدي اليسرى مربوطة بشاش تداري قبحها، أركض متحاملًا على آلام قدمي اليسرى في جَلَد، قال لي الأطباء أن أهدأ قليلًا حتى تلتئم جراحي. لكني مؤخرًا بت أكره الركود..

عندما تظل وحيدًا ستجبرك الذكريات الكريهة على صحبتها مهما قاومت..

الركض هو الشيء الوحيد الذي أفعله في يومي يطفئ عقلي، يوقف سيل الأفكار المتواصل والهموم المتراكمة، أراقب الطريق الصامت الهادئ وهو يسحبني لطاقته الباردة، أطؤه بقوة وأنا أزيد من سرعتي شيئًا فشيئًا، شاردًا في سكونه الغامض.

في عالم الخيال الساحر، بعض الشرود يعطيك تفاصيل حيوات متفردة..

تشرد فتأتيك العوالم بدقائقها، ترى نفسك محلقًا، وترى بشرًا لم تَرَهُم من قبل، تتجمع قصص وحكايات لأناس تعيش حولك كل يوم، داخلهم قصص الدنيا وحبكات يعيشونها يوميًا، تمر بهم دون أن تلاحظهم، لكن عقلك يلتقط كل شعرة ويسجلها في ذاكرته دون أن تدري.

لكن هذه المرة، استغلت ذاكرتي شرودي، وأعادتني لأحداث الأشهر الثلاثة التي أعطتني قوة التحكم في حياة هؤلاء الأبطال.

حثثت ركضي وأنا أحاول ألا أتذكر وألا أشعر بشيء، زدت من سرعتي حتى صرخت آلامي فيَّ أن أتوقف، لكن الذكريات اقتحمت عقلي مُغتصِبة مقاومتي العنيدة، مشاهد عنيفة بلا ترتيب أراها أمامي كما أرى الطريق، حاولت تجاهلها قدر استطاعتي لكني فشلت.

ثم استسلمت في النهاية بعد ربع الساعة..

رغمًا عني توقفت عن الركض، وعُدت للفيلًا سيرًا حتى أهدأ قليلًا، صعدت بقدمين متهالكتين وعقل لم ينمْ منذ يومين، دخلت المكتب على الفور وجلست على الأرض، مستسلمًا لذكرياتي العنيفة..

أعرف أنها لن تهدأ إلا عندما أنتهي من كتابة هذه الرواية..

للمرة الثانية..

* * *

«أنا واحشني إحساس أول مرة في كل حاجة».

جلست «آلاء» في الكافيه تنظر لساعتها حتى يحين موعدها مع «طه»، تسأل نفسها كثيرًا كيف لفتاة تملك كل شيء، أن تنتظر مشاعر بسيطة كتلك؟

«فاهم حاجة؟»..

قالتها لي في المقابلة فأومأت برأسي أن نعم دون أن أنطق، نظرت لي، وأدركت من شرود عينيها أنها لا تراني:

- أنا واحدة مبسوطة، أو المفروض أبقى مبسوطة، جوزي رجل غني،

شاب زي القمر، كويس معايا جدًا بس ممل! بطَّل يهتم، هو غصب عنه مطحون في الشغل، في حاجة في تفاصيله اتغيرت بعد ما أنا ولدت، بقى بيحترمني في السرير كأنه بيعامل أم مش زوجة، زمان كنا بنجرب كل حاجة مع بعض وبننبسط، لكن دلوقتي بقى بيأدي واجب معايا وحفظ حركتين تلاتة مش بيعمل غيرهم، ده حتى بقى بيتحجج ويقولي إن أنا السبب وإني مش مهتمة بنفسي، بينتقدني دايمًا ويحسسني إني أوحش واحدة في وسط كل اللي حواليَّ، وإنه بدأ يقرف مني.

عادت من شرودها كمَن تسحب نفسها من عالم آخر، نظرَت لعينيَّ وأكملت:

- في دايمًا حاجة ناقصة، مافيش تحدي جديد أقدر أعيشه، مافيش أي حاجة بقت بتحسسني بالإثارة سواء جنسية أو في حياتي، كل حاجة بقت عادي.. مرة من جناني قلتله تعالى أعمل العملية وأرجع الغشاء تاني، والبس فستان فرح ونعيش إحساس ليلة دُخلة جديدة. ضحك واتريق عليَّ وفكَّرني إني أم لبنت ولازم أبقى بوقار الأم، ماعرِفش يفهم اللي أبعد من الكلام، ما تعَبش نفسه يسمع إني باصرخ من جوايا، باحاول أسيطر على كل تفصيلة حواليَّ قبل ما أنهار.

وأنهت كلامها بابتسامتها الساخرة ووجهها الملائكي:

- علاقتنا بالنسباله كتب فيها كلمة «النهاية»، أنا بقى لسة «يبدأ» كل حاجة عاوزة أعيشها!

وساد صمت في غرفة مكتبي..

«اتأخرت عليكِ؟».

صوت «طه» أخرجها من شرودها وتحديقها في اللاشيء، أخَّره شجار سخيف مع زوجته وهي تسأله لماذا كتب ما كتب كما توقع هو، وأنها تشك في نزوله، أقسم لها إنه كان يمزح وإنه سيقابل صديقًا له..

نظرت له «آلاء» لتجد ضحكته الواسعة المتفائلة تطمئنها، من نظرة أولى

بعين أنثى خبيرة عرفت الفرق الاجتماعي الشاسع بينهما. ملابسه العادية المضروبة من ماركات عالمية، حذاؤه المُترب وساعته غير الأصلية المتوقفة، يرتديها كمنظر فقط لمقابلتها، عرفت على الفور أنه في الطبقة المتوسطة، كان يحمل «تاب» سامسونج موديلًا قديمًا، كبيرًا جدًّا وغلّفه بجراب أحمر فاقع..

ابتسمت في هدوء ومدت يدها لتُسلم عليه قائلة:

- لا ما اتأخرتش.

جلس هو على مقعد أمامها، تجاهلت أفكارها وعادت لشخصيتها الحيوية كبطلة لروايتي، قالت مبتسمة ابتسامة جميلة:

- إيه يا عم بقى شغل الحَك اللي أنت كاتبه على الفيسبوك ده؟

اندهش من وقاحتها قليلًا، لكنه ضحك ضحكة مفتعلة وقال:

- شغل الحَك؟ والله ما حك ولا حاجة!

بأسلوبها المباشر الذي افتقدته كثيرًا، ساخرة مما كتبه ، أغمضَتْ عينيها وقالت برومانسية:

- عاوز أتكلم مع حد يفهمني وأحكي معاه وماءاعرفوش تاني، وأول ما أكلمك تقولي تعالي نتقابل.

ومالت بجسدها للأمام لتستند على المائدة وهي تنظر له بتحدٍّ ساخر:

- بذمة أهلك، لو كان ولد هو اللي كلمك كنت هتعبّره أصلًا؟

ضحك هذه المرة من قلبه مُتذكرًا أوامري له، وقال بصدق دون مواربة:

- الصراحة لأ.

ثم رد الهجوم بهجوم مضاد، وقد بدأ يستمتع بما يفعل:

- طب لو أنتِ شايفه إنه حك، كلمتيني وقابلتيني ليه؟

لاحظت دبلته في يده اليسرى كما لاحظ هو دبلتها، لم تعبأ وهي ترد مشيرة للسماء:

- قدري بقى ونصيبك!

وأكملت مازحة:

- أنا كنت زهقانة وقلت بدل ما أتريق وأقول عليك حكّاك من بعيد،

أقابلك وجهًا لوجه، أشوف كائن من كائنات الحكَّاكين دول، أعرف همَّ زيِّنا عادي! وأشوف آخر أساليب الحَك الجديدة!

قبل زواجها كانت تستمتع بأن تعطي للرجال انطباعًا أنها «سهلة»، تُغريهم بسهولتها وتتركهم يفعلون ما في وسعهم كي يصلوا لها، ولا تعطي أبدًا إلا عندما تريد فقط، كانت ترى الرجال كلهم مثيرين للضحك والشفقة، هذا الكم من الادعاء والتمثيل، فقط ليصلوا لما يريدون..

كوَّنت وجهة نظر أن كل ما يفعله الرجل الشرقي هو نتيجة الشهوة فقط: التحرر شهوة، العلم شهوة، حتى التدين شهوة..

التحرر يجعله ينام مع مَن يريد دون حد، العلم يجعله يتحدث كما يريد في أي موضوع دون أن يلومه أحد، التدين يجعل لذَّته في لوم وعتاب أي فتاة جرؤت على إثارة شهوته، مُغذيًا إحساسه الدائم أنه الأفضل والأنقى..

الفارق الوحيد بين رجل ورجل هو تحكُّمه في تلك الرغبة لفترة ما: رجل حساس قليلًا فيتحكم في رغبته حتى يتزوج، ورجل اكتشف أن رغبته لن تقف أمامها قيود، فيستغل كل ثانية في حياته بحثًا عمن يُشبع تلك الرغبة.

قال «طه» مبتسمًا، ردًّا على جملتها:

- وأديكِ شوفتيني، إيه رأيك بقى؟

ردت بسرعة بديهيتها:

- غلابة والله.

وأكملَت مُشيرة له بابتسامة ساخرة:

- محتاجين بس يلبسوا لبس أحسن من كده شوية، وهيفشخوا الدنيا..

ضحكا معًا، ليقول هو بصراحته بعد أن طلب كوبًا من النسكافيه:

- أنا يا ستي ممكن أكون بالنسبالك حكَّاك، بس أنا هاسيبك لآخر القاعدة وأنتِ تحكمي براحتك.

ومد يده قائلًا بابتسامة واثقة، محاولًا أن يُطمئنها بأسلوب طفولي ساذج:

- ووعد مش هعاكسك ولا هاضايقك ولا هاخليكِ تعملي حاجة غصب عنك.

نظرت لليد الممدودة باستهانة وقالت:

- ما تقدرش أصلًا! مافيش حيوان من صنف الرجالة يقدر يخليني أعمل حاجة أنا مش عاوزاها.

ضحك وقال وهو ينظر حوله كمن يشكي حاله للناس:

- إيه النيلة دي يا ربي، أنا واحد عاوز يفضفض يلاقي واحدة بتشتمه!

ضحكت لأنه لم يحاول أن يمثل أي شيء، أسعدها أنه على طبيعته.

قالت بهدوء:

- فضفض يا سيدي، خدامتك «آلاء» جايَّة تسمع.

نظر لها لحظات كأنها يتأكد من جدية عرضها بأن تسمع، ثم بدأ يقول ما كان يُثقل صدره، مُنفذًا أمري..

حكى لها قصته التي كانت تؤرقه من وجهة نظره هو..

حكى أنه شاب ثلاثيني يبحث عن حلمه..

بعد أن مات أبوه حدث جدال رهيب على الإرث مع عمه الكبير، زيَّف عمه توكيلات وعقود بيع بإمضاء والده وأخذ الثروة كلها، مصانع والده التي كان يديرها، عمارته التي بناها بماله، محلات الـ«سوبر ماركت» في بلدته الأصلية، لم يترك لـ«طه» وأخيه وأمه إلا الفتات بمعنى الكلمة، بالطبع رفعوا قضية في المحاكم وكانوا يعلمون جميعًا سير القضاء البطيء، كان يعرف أنه لن يستعيد حقه إلا بعد مرور عقود من الزمن.

لتحدث المفاجأة، تم الحكم لصالح عمه - النائب في مجلس الشعب - في بضعة أشهر فقط!

كانت نقطة تحول في كل أحلام «طه»، تبدلت أهدافه وأحلامه بشيء واحد فقط، الانتقام من عمه هذا بأي شكل، لا، ليس بأي شكل، بل بأقذر أسلوب ممكن في الانتقام!

كان هذا ما حكاه لـ«آلاء» يومها، لتحاول هي مداراة إحباطها الشديد، كانت تتوقع شخصًا عميقًا يُحدثها عن مشاكل الدنيا والوجودية، لكنها

وجدت شابًا عاديًا يتحدث في قضية وراثة تشغله..

* * *

نامت «سارة» على فراشها ليلًا، وعلى وجهها ابتسامة عاشقة، وهي تحتضن هاتفها المحمول في شرود، وقد أنهت مكالمة استمرت ساعة مع «سامي»..

لا تصدق كمَّ السعادة والراحة اللتين تعتريان كيانها..

مرت سبعة أيام كاملة و«سارة» و«سامي» يتحدثان يوميًا..

صوته وسخريته وطفولته وحنانه، تسمع صوته في الهاتف تشعر أنها انفصلت عن العالم كله، ودخلت عالمها الخاص، حكت له القليل الذي تعرفه عن نفسها، قالت له إنها لا تحب أشياء كثيرة في حياتها، لكنها تحب اسمها:

«سارة».

قال لها أبوها إنه اختصار لجملة «سُرَّ مَن رآها»؛ لذلك كلما تردده على نفسها تشعر ببهجة ما، كأن من المنطقي فعلًا أن كل مَن سيراها سيشعر بالسرور فورًا!

كانت بالبلاهة الكافية لتصدق هذا وتؤمن به..

بل إنها كانت من البراءة لتصدق وتؤمن بكل شيء قالوه لها منذ صغرها..

حكت له عن والدها وأمها وحياتها التقليدية الملتزمة، تقبَّل «سامي» كل ما تقول بمزاحه الدائم وسخريته المتواصلة، لا تظن أن مكالمة واحدة قد مرَّت دون أن يؤلمها بطنها من كثرة الضحك..

أصبحت هناك عادة بينهما، في بداية كل مكالمة يجعلها تسمع أغنية أجنبية يُحبها، وتُخبره هي بأغنية عربية ليسمعها هو، لا تدري لماذا لكنها شعرت أن تلك الأغاني اختصرت الكثير بينهما..

لأن كل أغنية كانت قريبة من روح أحدهما، ويُهديها لروح الآخر كي تتعرف عليه..

حكى لها «سامي» أيضًا أشياء كثيرة عن حياته..

حكى أنه يتيم الأب والأم، تُوفيت والدته وهو مراهق، ثم والده منذ عامين فقط، يعيش في بيتهم وحده تمامًا لا يفعل شيئًا سوى أن يتذكرهم ويعيش في حياته المُملة..

قال لها إنه وصل للسادسة والثلاثين من العمر وما زال يبحث في نفسه، يعشق شيئين فقط في حياته: الكتابة والنساء، منذ أن تخرَّج في جامعة الحقوق وهو في علاقة تلو الأخرى، كل علاقة لا يستمر فيها أكثر من ثلاثة أشهر، يتركهن بعدها ويجعلهن يَدُرْنَ في فلكه كأصدقاء.

يعشق تلك الحالة الخاصة جدًّا، في التعرف على الفتاة وفك أسرارها بهدوء وثقة، مر عليه الكثير وعرف شفراتهن، ما إن ينتهي الغموض وتُسلم الفتاة نفسها تمامًا يشعر بفتور غريب، يجعله يفقد اهتمامه وحبه ومشاعره في أيام معدودة.

يومها تعجبت «سارة» من كلامه وأثار قلقها، لكنه استمر في كلامه ببساطة وأخبرها أنه يعلم أن وجهه الطفولي يجعل الفتيات يطمأنن له بسرعة، يدرك أن لثغته تثير داخلهن حنان الأمومة، ولا يخجل من الاعتراف أنه يستغل كل هذا أفضل استغلال، قال لها ساخرًا إنه يُعتبر أول شخص بَدينٍ وعلاقاته متعددة بهذا الشكل، يعرف كيف يجعل الفتاة تثق به وتحكي له كل أسرارها.

زاد قلقها الصامت وهي تسمعه، قال لها مُغيرًا الموضوع إنه عمل صحفيًّا في أكثر من عشر جرائد، قال إنه ملول ولا يستطيع أن يبقى على نفس الحالة كثيرًا، كل شيء في الحياة يتكرر لدرجة أنه لم يعد يندهش أو يتعجب من أي شيء، لذلك استقال منذ شهر واحد، وقرر أن يكتب روايته الأولى، وعندما سألته لماذا؟ قال لها بلا مبالاة إنه يكمل الدائرة المفرغة ليس أكثر، لكنه كان يسخر من نفسه كثيرًا، فيجعلها تضحك أكثر، عرفت أن طفولته هذه شكلية فقط، لكنه رجل له ماضٍ يجعلها تخشاه، تعجبت كيف يحكي كل هذا، لم تقل كلمة تعبر عن قلقها من كلامه، ما بين الـ«مممم» والـ«يا سلام» فقط، لكنه ما إن انتهى من قصته حتى قال لها بصوته العميق الذي يحتويها بهدوء:

- أنا حكيت لك كل حاجة عني، عشان تعرفي إني مش عاوز أفك غموض أو ألعب عليكِ أي لعبة، زي ما بيقولوا كده جاي دُغرِي.

وأكمل بصوت دافئ:

- احكيلي أنتِ بقى الحاجة اللي شوفتها في عينك في المستشفى، إيه اللي مضايقك قوي كده؟

لتصمت هي وتخبره أنها لا تريد أن تقول له الآن، احترم هو هذا وتجاوز الأمر بسرعة..

اعترفت لنفسها أنها تحبه..

لم يقل هو شيئًا حتى الآن لكنها لا تهتم، هي تحبه وفقط.

تأكدت أنها اختارت الشيء الصحيح عندما أصرَّت أن تُكمل معه مُخالِفة أوامري، ما إن تذكرت اسمي حتى شعرت برعشة خوف تعتري جسدها وهي تعود من ذكرياتها لفراشها الدافئ..

لم أُحدثها مرة واحدة منذ أن عارضتني، تعمَّدتُ أن أجعلها تنتظر قليلًا حتى تتعذب..

وكأنها دعتني بأفكارها، وجدت هاتفها يهتز بين ذراعيها لتعتدل بسرعة وهي تنظر للهاتف الذي يظهر عليه اسمي لأول مرة منذ أسبوع كامل..

«حازم كَتَخُدَا»..

* * *

بكت «شيماء صالح» لمدة يومين من دون انقطاع..

ولأكون أكثر دقة، لحظات الانقطاع كانت تأتي عندما يهلك جسدها وتفقد الوعي، ثم تفيق وتتذكر كل شيء، فتبكي ثانية.

كل يوم يتكرر السيناريو. يأتي «خالد» باكيًا، يعتذر لها، ثم يغتصبها!

سؤال واحد يعتري كيانها كله..

ما ذنبها حتى يحدث لها هذا؟

ما إن يأتي هذا السؤال في عقلها حتى تنهار في البكاء..

نظرت للحبل الذي قيدها به، شعرت أنه مثل القيد الحديدي الذي يستحيل الخروج منه، بل إنها من يأسِها لم تحاول أن تقاوم، لم تفكر في الهروب مرة واحدة، استسلمت تمامًا لكونها ضحية اختطاف، بالتأكيد هي في مكان منعزل لأن لا أحد يسمع صراخها اليومي، حتى لو عرفت كيف تفك قيدها وتهرب، فستجد نفسها في وسط الصحراء أو مكان مهجور..

لم تنضب دموعها ولا تستطيع أن تجد مبررًا واحدًا لتلك القذارة التي وضعها فيها القدر..

صعد صوتها مشروخًا من كثرة الصراخ وهي تنادي بصوت هامس:

ـ يا رب.. يارب.. كفاية بقى..

انتفض جسدها عندما سمعت خطوات «خالد» التي باتت تكرهها، وصوت انفتاح الباب الحديد الذي جعلها انكمشت على الحائط أكثر..

ليظهر «خالد» أمامها باكيًا..

كالمعتاد!

* * *

ردَّت «سارة» على الهاتف والقلق يزداد داخلها، قالت وهي تعرف أن هناك كارثة قادمة من تلك المكالمة:

ـ أنت كلمتني ليه؟

ضحكت أنا بهدوء، وقلت مازحًا:

ـ هو أنا ما ينفعش أسأل على بطلة روايتي؟

لم ترد، وكنت أتوقع هذا، قلت دون أن أنتظر ردها:

ـ أنتِ عارفة إنك لازم تضحي بشيء من اختياري أنا، أنتِ اخترتِ القصة الغريبة دي عشان واحد أهبل، ضد رغبتي.

لم ترد، فأكملت أنا:

ـ التضحية سهلة، أنا مش هاقسى عليكِ برضه بظروفك دي.

وأكملت ببطء مستمتعًا بالتفاصيل:

ـ أنتِ مش هتدوَّري على علاج مهما حصل، مهما حبتيه، ومهما أقنعك

إنك تعيشي، وإن فيه أمل، مهما كانت الحكاية هتوصل لإيه، بطلة الرواية اللي هاكتبها مش هتدوَّر على علاج، وهتسيب نفسها لوقتها لما ييجي.

انقبض قلبها وهي تقول:

ـ أنت كده بتموتني، العقد بيقول...

قاطعتها هذه المرة بمنتهى الهدوء والثقة، لأنني كنت قد قرأت العقد كله؛ حتى لا تُحرجني ثانية:

ـ أول بند في العقد إني من حقي آمرك تعملي إيه وما تعمليش إيه أيًّا كانت النتيجة، وأنا مش باقولك موتي، أنا باقولك مش هتتعالجي.

وأكملت ساخرًا:

ـ مش يمكن تحصل معجزة وتخفي لوحدك؟

قالت بسرعة:

ـ أنا مش عاوزة أكمل.

لأقول أنا بصرامتي وأنا أضغط على مؤخرة القلم ليُصدر تكتكة تجعلني أتمالك أعصابي:

ـ ده مش اختيار أصلا، إنك مش عاوزة تكملي ده أهم بند مكتوب في العقد، أول ما تمضي على العقد أنتِ بتسلمي نفسك ليَّ لمدة ٣ شهور، مافيش تراجع فيها ولا انسحاب، بعد التلات شهور تعملي اللي أنتِ عاوزاه في حياتك أنا ماليش فيه.

وأكملت بغضب تملَّكني رغمًا عن مجهود القلم:

ـ إنك ما تكمليش ده معناه يأس وعدم ثقة فيَّ أنا! أنا أكتر واحد عارف أنتِ هتمشي إزاي وهتعملي إيه وهتحسي بإيه، ما تلومينيش على تضحيتك بعد ما تضحي، كنتِ فاكرة إنك هتضحي بإيه مثلًا؟ هاقولك اتبرعي لولاد الشوارع؟ أنا بس اللي أقرر مين ينسحب ومين ما ينسحبش، أنا بس اللي أقرر التضحية، أنا بس اللي عارف كل شعرة وأنسب نهاية لكل واحد فيكم!

وعلا صوتي بشدة حتى إن «ديما» فتحت باب الغرفة، ونظرت لي في قلق وأنا أُكمل:

ـ ما اتخلقش لسة اللي ما يثقش في «حازم كَتْخُدَا».

بكت «سارة» فجأة بانهيار لم أكن أتوقعه..

أخذت نفسًا عميقًا محاولًا أن أهدأ، صمتُّ دقائق طويلة، وقد زادت سرعة ضغطي على القلم لدرجة مجنونة، ثم قُلت بصوت واثق:

ـ أنتِ جيتيلي عشان نفسك تعيشي ولو لفترة صغيرة، سلمتيلي نفسك وآمنتِ بالكاتب اللي بيكتب إنه هيعمل منك قصة حلوة، أنا مش هاعذبك، أنا أكتر واحد بيحن على أبطاله، إعقلي وما تخافيش.

قلتها وأغلقت الهاتف دون أن أنتظر ردًّا، تاركًا إياها تبكي كما لم تبكِ من قبل.

* * *

الخامسة

في وقت محدد فقط سأعطيك اختيارًا

سأجعلك تأخذ القرار وحدك دون أن أتدخل،

لكن كل شيء آخر سيحدث قبل هذا الوقت أو بعده

ملكي أنا فقط، وليس لديك أي اختيار فيه!

لا تبحث عن الخط الزمني يا صديقي، أنا أحب أن أحرك الأمور دون أن ألتزم بالتسلسل الزمني للأحداث، هذه ميزة في القطع المتوازي لا تتخيلها، هل تصدق أن كل ما سردته لك لا يتعدى أول أسبوعين منذ أن بدأنا الرواية؟

أول يوم بدأت قصة «سارة» وهذا الـ«سامي» رغمًا عني وبسرعة لم أكن مستعدًا لها، لكني قررت أن أخوض التحدي دون غضب، كنت أخطط أن أجعل كل الأبطال ينفصلون عن العالم تمامًا في أول أسبوع، لا يفعلون شيئًا سوى الجلوس في غرفة مصمتة، حتى أختبر طاعتهم لي، هذا الإجراء يجعلهم ملكي أكثر، يجعلني أكثر تحكمًا في عقولهم، لا يرون أبعد من حوائط غرفتهم و«حازم كَتْخُدَا»، فقط!

لكن «سارة» أتت وبدأت قصتها لترتبك كل خططي!

مر على «سارة» أسبوع وأنا أتابع قصتها في غيظ، حتى أخبرتها بالتضحية المطلوبة منها فارتاح قلبي، ثم في بداية الأسبوع الثاني شعرت بالملل، فذهبت للمكان المقابل لـ«بينوس» وكلمت الأبطال كما قرأتَ أنت في الصفحات السابقة، فبدأت أحرك «خالد» و«شيماء» و«آلاء» و«طه»: الاختطاف وبداية علاقة جديدة.

والآن سنبدأ الأسبوع الثالث وأنا أشعر بالضغط..

نظرت للوحة البنية الكبيرة التي كوَّناها أنا و«ديما» معًا، لوحة خشبية من النوع الذي يلتصق فيه الورق بالدبابيس. أهدتني «ديما» اللوحة قبل يوم واحد من بداية الرواية، وضعت صور الأبطال ومسار قصصهم على الحائط أمام المكتب مباشرة.

أريد أن أهدأ..

لا بد أن أبدأ الأسبوع الثالث بتخطيط أكثر من هذا..

نهضت من مكتبي وذهبت إلى غرفة النوم لأُقبِّل «ديما» وأحتضنها حضنًا طويلًا، جعلها تبتسم وتربت على كتفي في حنان لا يملكه سواها. قلت لها بصوت مهموم:

- بحبك.

لتهمس هي في أذني:

- وأنا بعشقك.

وسط حيرتي وتفكيري المتواصل في الرواية، صمتُّ دقائق، لم تمل هي من احتضاني فيها، نهضت من حضنها ناظرًا لعينيها مباشرة وقلت بِلَوْم:

- ما تخلِّي عند أهلك دم وتتجوزيني.

ضحكت ضحكة من قلبها، لديها طاقة غريبة عندما تضحك، يضحك كل شيء معها، ابتسمت رغمًا عني وهي تقول ضاحكة:

- يعني بذمتك ده أسلوب تتقدم بيه؟

اعتدلت على الفراش وقلت لها بجدية تامة:

- يعني لو اتقدمتلك بطريقة حلوة هتوافقي؟

هزت رأسها أنْ لا ببطء وهي تنظر لي بحب يمتلك ذرَّاتي. ربتت على رأسي كمن يُحدث طفلًا وهي تقول:

- أنت كان حلمك إنك تعيش مع واحدة بتحبها من غير قيود، حلمك إنك تصحا كل يوم تختار إنك تبقى معاها، مش «مجبر» تبقى معاها، صح؟

تُذكرني دائمًا بكلامي في أوقات سخيفة، تُذكرني دائمًا بمبادئي وقواعدي التي أنساها أنا، قلت في محاولة مني لإقناعها:

- بس الواحد بيكبر وممكن يغير من وجهة نظره.

وأكملت بابتسامة أبلغ من أي اعتراف بالحب:

- ودلوقتي أنا مختار إني أتجوزك.

لترد هي بسرعة ودون تفكير:

- قصدك عاوز تختار تبقى مجبر!

مالت عليَّ واحتضنتني ثم قبَّلتني في خدي وقالت:

- أنت اتخلقت عشان تبقى لوحدك، حر، مالكش أي قيود حتى لو أنت اخترتها!

وهمست بصوت أذابني:

ـ أنت اتخلقت عشان تخلق.

نظرت لها لا أدري ماذا أقول لتكمل هي بحنانها:

ـ تخلق لنا قصص ما حدش غيرك بيكتبها، تخلق معاني جوانا ما حدش شافها في نفسه قبل كده، ده اللي أنا مؤمنة بيه دايمًا وهافضل مؤمنة بيه.

وأكملت بطريقتها كـ«ديما» التي أعشقها:

ـ أنت «كَتْخُدَا» واحد بس ومافيش منك تاني، ما ينفعش لا أنا ولا أي حد يسمح لنفسه إنه يغير الحقيقة دي.

نظرت للأسفل لحظات، كنت أتمنى أن يُشعرني كلامها بدفقة أمل، كلامها أحبطني رغم ما فيه من تشجيع، من قال إنني أريد أن أكون «وحدي»؟ إذن لماذا أعشق أن أكتب روايات وأخلق شخصيات جديدة كل يوم؟ لماذا أتابع باستمتاع كل ما يحدث لأبطالي كأنني قارئ ولست بكاتب؟

أنا أكره الوحدة..

قبّلتها في هدوء متجاهلًا أفكاري، ثم وضعت رأسي على صدرها في قرار ضمني أنني لن أكتب أو أخطط لشيء اليوم..

فأنا أحتاج عناقها الآن أكثر من أي شيء آخر..

* * *

نظرَت «سارة» لنافذة غرفتها شاردة، جلست والدموع تملأ حياتها كلها في قهر، تسأل نفسها سؤالًا واحدًا..

ما الذي فعلَته في نفسها عندما فقدَت عقلها وقررت أن تذهب لمقابلة «كَتْخُدَا»؟

كيف هانت عليها نفسها وخلعت ملابسها ووافقت على كل الجنون الذي قاله؟!

هل كانت بائسة لتلك الدرجة؟

استيقظَت في الصباح التالي وقدمت اعتذارًا للمستشفى وادّعت أنها مريضة، فقط لتبكي على الفراش وحدها، شعرت بعجز مفاجئ يحتل

كيانها كله ولا تدري ما الذي تستطيع أن تفعله!

كم تفتقد «سامي» وتريد أن تحكي له كل شيء، وكم يؤلمها خوفها من العقاب الذي توعدهم به «كَتْخُدَا» في العقد اللعين..

ظهر اسمه على الهاتف مع صوت أغنيته الهادئة كأنها يشعر بها ويُلبي نداء قلبها الباكي..

«سامي»..

انقبض قلبها وهي ترد قائلة بصوت مبحوح:

ـ آلو.

جاوبها صمت «سامي» للحظات، ثم قال بلهجة هادئة لكنها تحمل بين طياتها حزمًا ما كأنها يتحفز لضرب أحدهم:

ـ في إيه، مال صوتك؟

وكأنها سؤاله كان إشارة لها، فتحت فمها لتخبره، لكنها انفجرت فجأة في بكاء شديد، ذلك البكاء الطفولي المتقطع يتخلله شهقات كبيرة، حاولت أن تخبره حتى تُطمئنه، لكن صوتها صعد كغمغات غير مفهومة وسط بكائها. صمت هو تمامًا كأنها يُقدِّر ما هي فيه دون أن يعلم ما بها، ثم قال بحنان أشعرَها أنه يحتضنها بصوته:

ـ ما تقوليش دلوقتي، وما تمنعيش نفسك، عيطي وما تخافيش. أنا هافضل معاكِ ومش هاقفل خالص.

حنانه ورِقته جعلاها تهدأ قليلًا، ظلت تبكي صامتة وقد أراحها إحساس أنها غير مضطرة للكلام الآن، وجدت نغمات لأغنية أجنبية حزينة تتصاعد من سماعة بجانب هاتفه، ووجدت صوته يقول بخفوت كأنها يواسيها بالطريقة الوحيدة التي يُتقنها:

ـ دي أغنية كل ما باسمعها بتفكرني بيكِ، اسمها «scratch» لمطربة ما حدش يعرفها اسمها «kindall payen».. اسمعيها معايا هتهَدّيكِ..

سمِعَت الأغنية الحزينة، بالفعل نغماتها هدّأت من أعصابها قليلًا، ظل

قرابة نصف الساعة صامتًا تمامًا يسمع صوت أنفاسها الباكية، ما إن شعر أنها استكانت حتى قال هو بابتسامة:

ـ حد قالك قبل كده إن صوتِك مسخرة وإنتِ بتعيطي؟

رغمًا عنها فلتت منها ضحكة وسط بكائها، في مزيج عبقري لن تجده إلا في النساء، قال هو بعد أن اطمأنَّ أنها في حالة أفضل وتستطيع الكلام:

ـ إيه اللي حصل؟

لا تدري لماذا الأمر كان أصعب معه، عندما أخبرت «كَتْخُدَا» كان غريبًا عنها، لكن «سامي» أصبح شيئًا له قيمة كبيرة داخل قلبها، تشعر أنها تتمزق كلما فكرت أن تخبره. تمالكت نفسها قليلًا وأخذت نفَسًا عميقًا، ثم قالت وسط دموعها بصوت مُتحشرج:

ـ «سامي»..

وشعرت بصوتها يتخلى عنها وهي تُكمل منهارة للمرة الثانية:

ـ أنا هاموت.

* * *

جلست «آلاء» في شقتها على حاسوبها الشخصي وهي تزفر في ضجر، بعد أسبوع من تلك المقابلة..

كانت تنظر للصفحة الشخصية لـ«طه» على الـ«facebook»، كان يفعل كل ما يفعله الآخرون، بعض الصور والفيديوهات المضحكة، يتناقش في السياسة والاقتصاد كخبير استراتيجي كعادة كل المصريين في هذا الوقت، لا توجد إشارة واحدة منه أو حتى اهتمام أنه قابلها وأمضى يومًا معها يحكي لها قصته المُملة!

لم يحدثها «كَتْخُدَا» حتى الآن، صمته جعلها تبدأ في التوتر، هل فشلت في أول مهمة لها كبطلة في روايته وأعطته يومًا رديئًا؟

تذكرت «آلاء» عندما حادثتني تُخبرني بالتقرير اليومي، ووجدت صوتي فاتر الاهتمام بما حدث، وأخبرتها ـ كما أخبرت الجميع ـ أن التقرير لا بد أن

يأتيني مكتوبًا فيما بعد، لا يوجد لديَّ الوقت للمحادثات الهاتفية الطويلة تلك!

ثم إن هناك شعورًا ما يجتاحها، أنها تريد أن تقابل هذا الـ«طه» ثانية!

مضى أسبوع لم يُحدثها سواء على الهاتف أو على الفيسبوك، كأنما اتفق هو و«كَنْخُدَا» على إثارة غيظها بتجاهلهما، ظل هذا الخاطر يزعجها كل فترة، ضايقها أن «طه» لم يحاول حتى أن يسأل عنها، لم يشكرها أو يحاول أن يتقرب منها، لم يتجاهلها رجل من قبل كما يفعل «طه» الآن..

شعرت بلمسة على كتفها فانتفضت والتفتت شاهقة، لتجد «هاني» زوجها يضحك، واقفًا بمنامته الحريرية، ويقول بنبرة آسفة:

- اتخضيتِ ليه؟ هيكون مين غيري يعني؟

ضحكَت وهي تقول:

- ما أنا كنت فكراك نايم!

نهضت من على مقعدها واحتضنته، ليُقبلها هو قُبلة عنيفة، تعرف منها ما يريد، وبخبرتها عرفت كيف تتمنع وتبتعد عنه قليلًا قائلة بابتسامة عابثة:

- لأ..

احمرار وجنتَيه أظهر ما حاول إخفاءه عنها وهو يقول:

- أنتِ اللي خسرانة على فكرة.

ضحكت ضحكة مائعة، ثم قالت وعيناها تتألقان من الحماس:

- المرة دي يا إما في الدش، يا إما مافيش..

نظر لها نظرة لائمة تكرهها، ومد ذراعه ليجذبها إليه قائلًا:

- مش هتبطلي الهَبل ده؟

فتر حماسها كله وهو يُقبلها للمرة الثانية، ثم يمسكها من يدها ويقودها للفراش في سرعة..

لم يبدأ معها بالتمهيد الذي تعشقه، بدأ على الفور في الجزء الأساسي الخاص بمُتعته هو فقط، أغمضت عينيها وهي لم تعد تعبأ حتى بالتظاهر بالاستمتاع..

دوى في عقلها سؤال جعلها تذهب في عالم آخر، ولا تشعر بأي شيء يفعله..

هل لو ظلت بقوتها الخارقة كانت ستعرف المعنى الحقيقي للمتعة التي تفتقدها؟

طمأنتها الطبيبة بعد أن ذهبت للكشف، قالت لها ألا تقلق وأفهمتها ما هو الغشاء المطاطي، لم تُصدق «آلاء» نفسها وحدثت صديقها القديم في الهاتف فور انصرافها، ليخبرها أنها كاذبة ويغلق الهاتف في وجهها بعد سُبة قذرة..

لتدرك «آلاء» بعد فترة انهيار وبكاء شديدَيْن، أنها تمتلك قوة خارقة دون أن تدري..

«أنتِ معايا يا حبيبتي؟».

قالها «هاني» متسائلًا، وقد توقف جسده عن الحركة فوقها. ابتسمت وقالت كاذبة:

- أنا مُستمتعة بيك وبعشقك، أنا بس خايفة البنت تصحا فمش بطلَّع صوت..

تحرك ثانية بسرعة وقال:

- ما تخافيش أنا قربت أخلص..

لم تسمعه من الأساس وهي تشرد في عالمها، عندما أدركت أنها أقوى من أن تظل تبكي على رجل واحد، أن ما لديها يجعلها تفعل ما تريد مع مَن تشاء!

واستيقظ الوحش الكامن داخل «آلاء»، والذي لم تكن تعرف عنه شيئًا في هذا العمر الصغير، كانت في العشرين من عمرها فقط، شعرت برغبة هائلة في الانتقام من كل شيء حتى نفسها، استيقظ وحش تم تغذيته داخلها منذ أكثر من عشرين عامًا، في مجتمع لا ينظر للمرأة إلا كفضيحة أو كائن لممارسة الكبت عليه..

وانطلقت..

عاشت فسادًا بقوتها الخارقة التي تضمن عذريتها مهما حدث..

فعلت كل ما تريده مع كل مَن تريده، جربت الحشيش والخمر وعشقتهما، خاضت في الحياة العابثة دون أن يعرف أحد، كانت تنجح في كليتها ثم تسهر طوال الليل مع الأصدقاء في أماكن مختلفة..

وكانت أفضل فترة في حياتها..

رأت كل شيء على حقيقته..

بعد الرجل السابع عشر أو الثامن عشر لا تتذكر، قابلت«هاني أحمد منصور»، وكان مختلفًا..

هو أرادها ملكه للأبد..

شعرت بحركة «هاني» تزداد قوة، فعلمت أنه سينتهي قريبًا، وأسعدها هذا قليلًا..

تزوجتْ «آلاء» من «هاني» دون أدنى مجهود، قال لأبيها إنه لن يُحمله جنيهًا واحدًا، مرت ستة أشهر لتجد نفسها في فيلَّتها مع رجل تعشقه، أخلصت له بكل مشاعرها كأنها تريد أن تَمحي ذنوب كل السنين الماضية، اختارت أن تثق فيه وتعطيه أفضل ما فيها لأنه أثبت أنه رجل بحق، أنجبت بعد سنة واحدة بنتًا أطلقوا عليها «هنا» أو «حلا»، لا أتذكر ـ أنا «حازم» ـ تلك الأسماء أبدًا.

سمعت صرخته أخيرًا تعلن نهاية متعته، ربتت على كتفه في هدوء وقبَّلته قُبلة طويلة حتى لا يدرك شيئًا عن الأعاصير التي تضرب مشاعرها الآن، ليُقبلها هو ثم يعطيها ظهره..

ويغط في نوم عميق..

ظلت راقدة لا تتحرك لفترة طويلة، شعرت بدموعها تحرق عينيها، فتركتها تسيل في صمت، قليلة هي اللحظات التي تستسلم فيها «آلاء» للبكاء، اعتدلت على الفراش ومسحت عينيها بقوة، أمسكت هاتفها المحمول

ودون أن تفكر للحظة، أرسلت لـ«طه» رسالة على الفيسبوك:

- إيه الأخبار؟

نظرت للساعة ووجدتها الثانية صباحًا، لكن لدهشتها لم تمر ثوانٍ حتى ظهرت علامة أنه رأى الرسالة وكتب الرد بسرعة:

- مش هنخلص إحنا بقى من الحك ده؟

رغم أنه يمزح لكن كلمته ضايقتها، خصوصًا بكل ما تشعر به الآن، ندمت على الفور أنها كلّمته، تجاهلت إحساسها وكتبت ترد المزاح بمثله:

- خيرًا تعمل شرًّا تلقى! يعني أنا اللي ببعتلك عشان أقولك تعمل إيه مع عمك، تقوم ترد كده؟

لحظات مرَّت، ظهر على الشاشة أنه يكتب ويمسح ما يكتب أكثر من مرة، ثم ظهرت رسالته أخيرًا:

- بتتكلمي بجد؟

لم تكن خطةً قدر ما هي فكرة بسيطة لم تدرسها جيدًا، لكنها كتبت بثقة:

- شُفت بقى أنت كنت هتضيع إيه بدخلتك المُقرفة دي؟

لم يمزح تلك المرة، كتب ما كانت تريد أن تراه:

- نتقابل النهارده في نفس المكان؟

عَلَت على شفتيها ابتسامة منتصرة. اتفقا على المكان والميعاد ثم أغلقت الهاتف بابتسامة راضية.

* * *

لم تعد «شيماء» تقاوم بعد مرور أسبوع كامل..

استسلمت لكل ما يفعله «خالد» دون تصدٍّ، يأتي دائمًا يغتصبها ثم ينصرف..

وصل بها اليأس أنها لا تشعر بالاطمئنان إلا عندما تسمع صوت خطواته يأتي من بعيد، تشعر لحظتها أنها ما زالت على قيد الحياة، أن هناك مَن يأتي إليها، عند انصرافه تصاب بالجنون، تنظر لحوائط المكان المقبض وتشعر

بالرعب، صوت الكلاب النابحة طوال الليل، الفئران التي تسمع ضجيجها ولا تراها، تأتي في عقلها الخيالات والهواجس لتقتلها خوفًا.

لا أحد يعلم مكانها سواه، لو حدث له أي شيء فستموت هنا!

أصبحت تنظر لجسدها كأنه كائن آخر منفصل لا تشعر به، بل إن يأسها تحول لسخرية مريرة وهي تتذكر قول صديقة لها في الماضي: «إن لم تستطع أن تقاوم فاستمتع». حاولت مرة في لحظة قنوط أن تستمتع بأي شيء هو يفعله، لكنه ما إن شعر باستجابتها صرخ فيها أن تقاومه، ولطمها بقوة جعلتها تصرخ في قهر، صراخها جعله يأتي شهوته وينصرف مُسرعًا، تاركًا خلفه زجاجة مياه وأكلًا سريعًا..

وجثة تتنفس..

أسبوع كامل مرَّ ليطحن آدميتها!

يُلقي لها الأكل ثم ينصرف، لا يحدثها إلا عندما يأمرها بشيء يريده أثناء الاغتصاب، فكرت في كل الاحتمالات الممكنة لسبب ما يحدث لها، حتى فكرة أنها جزء من رواية «كَتَخُدَا» أتت في عقلها لكنها تستنكرها، كيف وهي البطلة الوحيدة للرواية أن يجعل شخصًا آخر يغتصبها؟ ثم كيف يكون بهذا الجنون؟ مكتوب أنه قد يحدث أذى نفسي وجسدي لمن يوقع على العقد، لكن في أبعد استنتاجاتها لم تتصور أن يحدث هذا لها، ظنت أنه سيدخلها في قصة رومانسية جميلة، بل وكانت تنتظر أن يحدثها، ليأتي هذا الشخص ويجعل من الحياة جحيمًا باردًا يدمر كل شيء.

مستحيل أن يكون هذا جزءًا من رواية «حازم كَتَخُدَا»..

سمعت صوت خطوات «خالد» فاعتدلت لا تدري من اللهفة أم من الخوف، مشاعر كثيرة تتضارب داخلها فأصبحت لا تدقق فيما تشعر، ظهر «خالد» بخطوات بطيئة، نُحُوله وذقنه وملامحه الحادة النبيلة، كيف لهذا الوجه البريء أن يحمل داخله كل تلك القذارة؟

أخذت قرارًا بأنها ستكون قوية اليوم، ما إن اقترب حتى صاحت فيه:

ـ حرام عليك، كفاية القرف ده.

توقف ناظرًا لها بعينيه اللتين تلمعان من الدموع المحتشدة داخلهما.

توقفه جعلها تقول بأمل:

ـ أنت من جواك حد نضيف، وبقالك أسبوع بتعمل فيَّ اللي أنت عاوزه، سيبني أمشي ووالله مش هأذيك ولا هاجيب سيرة لحد.

ثم بكت رغمًا عنها وهي تُكمل:

ـ بس سيبني أروح أبوس إيدك.

حاول أن يتماسك وهو يقول بصوت ضعيف:

ـ غصب عني.

جلس على ركبتيه ودموعه تسيل على وجنتيه:

ـ أنا اخترت أعمل فيكِ كده.

لم تفهم ما قال، نظرت له نظرتها التي تُحوله من إنسان لحيوان في ثوانٍ..

كان «خالد» يعرف جيدًا أنه اختار ما فعله بالفتاة، تركه «كَتْخُدَا» بكامل حريته أن يفعل ما يشاء، كان يمكن أن يذهب لبيته ويتركها، كان يمكن أن يعرف عنها أي معلومة ويظل بعيدًا عنها، لكنه اختار..

بإرادته الحرة..

الكاتب داخل «خالد» يعرف جيدًا ما فعله «كَتْخُدَا»، جهَّز كل شيء ليُخرج أسوأ ما في «خالد» ويضعه أمام عينيه، جعله يختطف الفتاة ثم يجلس معها وحيدًا، بكل كبته وضعفه فضَّل أن يشعر بالقوة ولو لثوانٍ معدودة، وعندما شعر بها..

أدمنها..

لو قرأ الرواية وكان مكانه شخص آخر، لقال على الفور إنها غير منطقية، وأنه لو في نفس موقف البطل كان سيفعل شيئًا آخر تمامًا، كان سينقذ الفتاة أو يرفض أمرَ كاتب الرواية أو يدَّعي البطولة..

لكنها حقيقة ما ترون أنفسكم به يا صديقي..

ترون أنفسكم دائمًا أبطال القصة الأخيار..

تصدرون أحكامًا قاسية من بعيد هربًا من رؤية الوحوش الكامنة في نفوسكم البغيضة..

لهذا أكره كل البشر يا صديقي العزيز!

تشابكت أفكار «خالد»، لأول مرة يرى كمَّ القُبح داخله، لأول مرة لا يجد أي مبرر لما يفعل سوى أنه وغد قذر، نظر لـ«شيماء» بنظرتها التي تستجديه دائمًا، اقترب بيده في بطء لتنتفض هي وتتراجع بجسدها حتى التصقت بالحائط، سالت دموعه واقترب منها، لتبكي هي رغمًا عنها بعين جافة، لمس وجهها فظهر عليها أعتى علامات التقزز.

ليمسح على شعرها بحنان، ويلمس وجهها برقة غريبة..

تصلب جسدها كله وهي تنظر له في عدم فهم، انهارت مقاومته لأول مرة واحتضنها وهو يبكي صارخًا:

ـ حقك عليَّ، أنا آسف، حقك عليَّ، أنا زبالة.

ظل يرددها وهو يبكي كطفل دون انقطاع..

وبعد دقائق مرت طويلة، لم تفهم «شيماء» ما هذا التحول الذي طرأ عليه، حاولت أن ترفع يديها لتحضنه لكنَّ ذراعيها أبتا أن تتحركا، عقلها وقلبها لم يشعرا إلا بالاشمئزاز، مر في عقلها موت ابنها أمام عينيها فبكت مرة أخرى، تركت «خالد» يبكي دون أن تلمسه، دعت الله أن يظل هكذا ولا يغتصبها هذه المرة أيضًا..

هل كانت تواسي «خالد» أم ابنها؟ لا تعرف..

كل ما تعرفه أنها همست بحنان:

ـ معلش، معلش.

واختلطت دموعهما..

دمعة نادمة..

ودمعة مقهورة..

* * *

«هنتفق اتفاق».

قالها «سامي» لـ«سارة» في كافيه بمصر الجديدة، أقنعها أنها لا بد أن تقابله بعد أن سمع منها كل شيء عن مرضها، رفضت في البداية فقال لها إنها لو لم تقابله فسيأتي لبيتها ويجُرها رغمًا عنها، لتوافق في النهاية..

عندما قالت له عن مرضها أضافت كاذبة أن ما لديها ليس له علاج على الإطلاق..

نظرت له نظرة يائسة، لترد عليها نظرته المحتوية وابتسامته الطفولية وهو يقول:

- يلعن أبو الحياة كلها، على أبو اللي عاوز يعيشها..

لم تفهم ما يقصد، فمد يده ليحتوي كفها دون استئذان كعادته، هذه المرة لم تمنعه بل ظلت مستكينة تشعر بدفء راحته، قال وعيناه تقطران حبًا:

- أنا راجل يتيم وعندي ٣٦ سنة، وأنتِ أحلى بنت شفتها في حياتي وعندك مرض ابن و... قذر، فليه نفكر أصلًا في الدنيا بنت الـ... دي!

صدمتها ألفاظه البشعة في كلامه، فقالت وهي تبتسم ابتسامة جانبية مريرة:

- وأنت كده المفروض رومانسي يعني؟

ضحك وهو يرفع يده بطريقة استعراضية قائلًا:

- لغة العصر يا بنتي.

ضحكت رغم يأسها، تلفت حوله عاقدًا حاجبيْه، ثم ابتسم وهو يشير لأعلى قائلًا بفرحة مفاجئة:

- سامعة؟

ابتسمت في حيرة، ثم سمعت صوت الأغنية الخفيض، الصاعدة من سماعات انتشرت حول المكان كلِّه، قال هو كطفل شارحًا ما تسمعه هي:

- دي أغنية «all of me».. الأغنية دي حلفت إني عمري ما هاسمّعها لحد إلا لو حبيته قوي..

ابتسمت في خجل من كلمته، ليقول هو سؤالًا تقليديًا دراميًا سخيفًا:
ـ أنتِ عارفة قُدامك قد إيه؟
أومأت برأسها أنْ لا، فقال هو بسرعة حتى يُغير الموضوع:
ـ بُصي يا بنت الناس، مش منطقي إني أحس ناحيتك اللي أنا حاسه في فترة قليلة قوي كده، مستحيل أصدق إني ممكن أحب واحدة بالشكل ده في الفترة القليلة دي. ومستحيل أصدق إن الأغنية تشتغل صدفة كده وإحنا مع بعض!
ارتجفت يدها رغمًا عنها، كان أول مرة يعترف لها بحبه صراحة، على الفور داهمها سؤال يفسد عليها فرحتها: «هل قال هذا لأنه عرف أنني سأموت؟»، ليظهر السؤال على ملامحها فيقول هو ببسمة نافيًا ما في عقلها:
ـ أنا أكتر واحد سلبي شفته في حياتي، باستنى الدنيا تتحرك حواليَّ ومش باخد قرار في أي حاجة، عارفة البنات اللي ارتبطت بيهم وحكيتلك عنهم؟ كلهم لسة أصحابي وباساعدهم يرتبطوا ويتجوزوا، ليه؟ عشان باتخنق من المواجهة وما باحبش آخد أي قرار، دايمًا باسيب القدَر هو اللي يحدد السكة هتمشي إزاي.
وأكمل وهو يمسك يدها أكثر، ورأسه يهتز مع الموسيقى الهادئة دون أن يدري:
ـ وأنا مش مهم قوي كده في العالم عشان القدر يهتم بيَّ، أنا واحد من الناس اللي بيصحا الصبح يفضل قاعد قدام الـ«لاب» لحد بالليل، باشوف مسلسلات وأفلام أجنبية بديني، عشان أعيش حياتهم وأحداثهم وأنسى حياتي اللي بلا أي هدف، شربت خمرة وزهقت، حبوب هلوسة وحشيش وكل حاجة عشان أحس بحاجة جديدة، وما باحسش!
ولمعت عيناه وهو يُكمل بصوته الواثق الذي تسمعه «سارة» لأول مرة:
ـ لحد ما جيتلك المستشفى، قلبي بيوجعني وحاسس إني باموت، طول ما أنا جايلك في الطريق عمال أفكر أنا عملت إيه في حياتي مهم؟ مين اللي

فاضلي بعد ما مات أبويا وأمي، صاحب أو اتنين؟ كل واحد فيهم اتجوز وشاف حياته وأنا باتنسي وعمال أهرب، مافيش هدف، مافيش حياة عايشها، زهقان من كل الناس ومن كل حاجة، لاقيتك أنتِ اللي جاىٔالي وأنا في المستشفى، وبتطبطبي عليَّ.

شعرت «سارة» بقشعريرة تسري في أوصالها وهي تنظر له منبهرة، رأت الآن في عينيه ثقته الغريبة، كلامه الذي يصل لقلبها على الفور، رأت السحر الذي جعل الفتيات تعشقه رغم بدانته، كان ساحرًا بعينيه الحنونتين ومشاعره الصادقة، تابع هو كلامه ناظرًا لعينيها مباشرة:

- عشان لأول مرة في حياتي أحس حد بيطبطب عليَّ.

رغم كل ما بها، توردت وجنتاها خجلًا، لم تشعر من قبل بذلك الإحساس الغريب الذي يتملكها. أكمل «سامي» ببسمة تحتويها:

- وقصتك ما ضايقتنيش، ماحسستنيش بأي حاجة وحشة أو حتى فيها حاجة تخليكِ تصعبي عليَّ! أنتِ جيتي في تخصصي، عشان كده هنتفق اتفاق.

كانت قد نسيت أصلًا ما بدأ به حواره على هذا الاتفاق، ليقول هو آخذًا إياها لعالم خيالي يحطم كل قيود الواقع:

- تعالي نهرب مع بعض.

شعرت بالخوف فجأة يتسلل لقلبها، ليستطرد هو بثقته:

- نعمل كل حاجة نفسنا فيها، بعيد عن كل الناس، وننسى كل حاجة ليها علاقة بأم الدنيا الزبالة دي.

ولم تتخيل للحظة أنه سيقول هذا..

كيف يجرؤ؟

شعرت أنه انتزعها من الحالة الخاصة التي وضعها فيها، ردت بغضب وقد تذكرت كل ما نشأت عليه فجأة دون أن تدرك:

- لا طبعًا، إنتَ إزاي تفكر فيَّ بالشكل ده أصلًا؟

* * *

السادسة

عندما تتعرى أمامي فأنت تتعرى أمام نفسك

لا تندهش أو تحاول أن تداري عيوبك الجسدية أو النفسية

تقبّل قُبحك واستمتع به

لولا قُبحنا ما كنا بشرًا!

٦:٠٠ صباحًا

«يعني إيه عاوز تنزِّل الرواية باسم مستعار؟ أنت أهبل؟».

قالتها «علياء الصواف» مديرة دار النشر التي أنشر فيها أعمالي، قالتها بانفعال شديد كأنها تتكلم مع معتوه، أسدلت الستائر الثقيلة لتظل الغرفة في ظلامها المحبب لقلبي، نظرت لحائط مكتبي المتسخ غير مبالٍ بكلامها، ضوء الأباجورة الجديدة ضعيف، لكني أعشق هذا النوع من الإضاءة غير المباشرة، امتلأت الغرفة بدخان سجائري المتراقص، أشعر بلسعة البرودة الصادرة من التكييف وصوته الرتيب..

غرفة تعكس كل ما بداخلي:

البرودة والظلام والدخان المتراقص..

جالسًا على الأرض أمامي حاسوبي المفتوح، وضعت رأسي على الحائط وأغمضت عينيَّ في لا مبالاة، أسمع صوتها وهي تكمل:

- أنت عارف يعني إيه اسم مستعار؟ يعني الكتاب هينزل وماحدش هيسمع عنه، هيبقى كأنه أول كتاب لكاتب مش معروف.

لم تكن لديَّ قدرة على الجدال، قلت بصوت مرهق من قلَّة النوم:

- «جي. كيه. رولينج» و«ستيفن كينج» استخدما أسماء مستعارة، «جورج أورويل» و«مارك توين» مش دي أسماؤهم الحقيقية أصلًا.

ردت بسرعة مَن اعتاد عنادي:

- دول في بلاد تانية وثقافتهم غير ثقافتنا، سوق النشر دلوقتي في مصر من أسوأ ما يكون، صعب أضحي باسم زي اسمك وأنزل كتاب باسم واحد تاني.

نفختُ في ملل، ثم قلت ببرود:

- ده قرار يا «علياء» مش اختيار باناقشه معاكِ، لو مش عاجبك أشوف أي دار نشر تانية.

صمتت لحظات طويلة، كأنها بُوغتت من ردي الجاف، ثم قالت بهدوء:

- أنا هالبس وجيالك.

نظرت للساعة في شاشة الحاسوب، لم أرد وأغلقت المكالمة، أمامها ساعة حتى تأتي.

لأكتب قليلًا...

* * *

لهذا تجد «سارة» في اليوم التالي يا صديقي جالسة في عربة «سامي»، بعين مُتقدة بالحماس، وابتسامة عابثة تعتلي شفتيها، وإحساس بالإثارة يغزو جسده كله..

متجهة مع «سامي» إلى سهل حشيش!

دوى في العربة صوت «Demis Roussos» بصوته الحنون في أغنيته القديمة «Far away». رفع «سامي» صوت الأغنية التي قال لها إنها مُفضلة لديه، وتُناسب حالتها الآن..

لا تصدق أنها فعلت شيئًا بهذا الجنون..

فتحت نافذة العربة فجأة وأخرجت نصف جسدها لتجلس على إطار الباب، فتحت ذراعيها لآخرهما وصرخت..

صرخة ألقت فيها كل آلام الماضي وإحباطه..

تخلصت فيها من كل الطاقة السلبية التي احتلتها عُمرًا بأكمله..

أمس، بعد أن رفضت عرض «سامي» وانصرفت غاضبة خلفها نداؤه المعتذر، عادت لبيتها تنظر لأبيها وأمها اللذين لا يعلمان شيئًا عن مرضها، رأت شكلهما البائس الذي تنهكه الحياة يومًا بعد يوم، بعد أن قبّلتهما في تحية معتادة، فقدت معناها من كثرة التكرار، دخلت غرفتها.

نظرت في المرآة لتجد وجهها الجميل ينظر لها حزينًا، فيما مضى كانت تلك العين الدائرية مفعمة بالأمل والبراءة والإصرار، شعرها الناعم الطويل الذي لم يستمتع برؤياه أحد، لونه بُني في أفتح درجاته ويصل لآخر ظهرها في انسيابية لم ترها في أي من صديقاتها، تأملت تفاصيل غرفتها

فدمعت عيناها، تفاصيل لا تخصها ولا تشعر بانتماء لها، تتذكر دروس الباليه التي عشقتها منذ الطفولة، ومنعَها أبوها من الاستمرار فيها بعد أن أصبحت «آنسة»، حاولت أن تتذكر أي شيء آخر كانت تحبه من قلبها، فتأتي الذكريات فارغة تحبطها أكثر.

ذلك الشعور البائس الذي جعلها تذهب لـ«حازم» عاد ثانية بكل آلامه..

هذه ليست حياتها..

وصدر القرار داخلها..

أمسكت هاتفها المحمول وكتبت رسالة لـ«سامي» تقول له إنها موافقة ومستعدة أن تذهب معه أينما شاء. وبعد إرسالها فتحت رسالة جديدة كتبت فيها، وعلى ملامحها إصرار شديد، رسالة طويلة لآخر شيء فعلته وندمت عليه.. لي أنا!

كتبت أنها آسفة، لن تستطيع أن تُكمل معي الرواية، ستلتزم ببنود العقد ولن تخبر أحدًا، لكن بما أنها ستموت، تريد أن تقضي ما بقي من عمرها دون أوامر من أحد، لقد كفرت بكل شيء يجعلها تلتزم بأي قوانين، كفرت بكل ما هو «إجباري»، حتى أنا، لا تريد أن تصبح بطلة في قصتي، تريد أن تصبح بطلة في قصتها فقط التي ستبدأ الآن، بلا «حازم كَنْخُدَا»، بلا أب وأم، بلا مستشفى تستهلك صحتها في علاج ميئوس منه.

كتبت أيضًا إنني لو أملك ذرة رحمة فسأتركها في حالها، يكفي أنها ستلتزم بالتضحية لأنها قررت أيضًا أنها لن تخضع لقيود العلاج، ستترك نفسها تحيا قليلًا قبل أن تموت موتا بطيئًا.

وها هي الآن تصرخ تاركة كل الماضي خلفها..

هي الآن حُرة..

ضرب الهواء شعرها بقوة فضحكت بملء فيها، أول مرة تتذوق متعة الحرية بهذا الصفاء. وكأنما فهم «سامي» ما تريده فزاد من سرعة العربة لتستمتع أكثر..

لم تأسف، لم تندم، كل ما شعرت به أنها تخلصت من كل ما يربطها بواقع ترفضه..

ضرب «سامي» «كلاكس» العربة بنغمة «بحبك بحبك» لتضحك بشدة، تنظر للبافطة الكبيرة المكتوب عليها «١٥٠ كيلو» لسهل حشيش..

اقترب المكان الذي ستبدأ فيه حياتها الجديدة..

أو ينتهي فيه عمرها كله لو أرادت..

لم تعد تُبالي!

* * *

أخرجت «آلاء» ورقة وقلمًا بحماس، رسمت بسمة إعجاب على شفتَي «طه»، قالت بجدية وهي ترسم ما تقوله:

- الموضوع اتهرس في مليون فيلم قبل كده، أوسخ انتقام ممكن تعمله لواحد، إنك تئذي حد مِن ولاده.

كانا في نفس الكافيه في اليوم التالي، انعقد حاجبا «طه» في تساؤل، سألته هي بعض الأسئلة وأجاب بتركيز، كانت أسئلة تخص عمَّه، ما إن ذكر «مها» أصغر بنات عمه، الطالبة في «فنون جميلة»، حتى ابتسمت في انتصار وهي ترسم دائرة حول اسم البنت وتقول بثقة:

- يبقى هي دي اللي هنلعب عليها.

قال بتساؤل وقلق:

- هنلعب عليها؟

أومأت برأسها أنْ نعم في تأكيد، وقالت مازحة:

- يابني هتلعب على البنت دي وتخليها تحبك وبعد كده تفضحها.

تراجع «طه» وقال باستنكار تلقائي:

- وأعمل كده في بنت عمي ليه؟ عمي هو اللي يستاهل الدبح بس بنته مالهاش ذنب!

وأكمل في نقطة أخرى جعلتها تتأكد من أنه يتظاهر بالنُّبل فقط:

- ثم إن هي مش عبيطة، زي ما أنتِ فاكرة، لما تلاقي ابن عمها اللي رافع عليهم قضية بيقرب منها، أكيد هتفهم كل حاجة، وبعدين أنا متجوز، يعني مستحيل توافق!

نظرت له باستخفاف شديد وهي تقول:

- أنت عارف كام بنت بتقع في الهبل بتاع «أنا مراتي مطلعة عيني ومهتمة بالعيال أكتر مني، ومش فاهماني ولا فاهمة احتياجاتي»؟ كلهم بيقعوا فيه وتلاقيها زي الهبلة بتحب راجل متجوز عادي جدًّا..

وأكملت بابتسامتها الساخرة:

- البنت مابتؤمنش إن الراجل من حقه يتجوز اتنين وتلاتة إلا لما بتلاقي نفسها بتحب واحد متجوز!

أومأ برأسه إيجابًا، ورد:

- بس «مها» مش كده، «مها» محترمة.

لترد هي بابتسامة ساخرة، ويقين غريب:

- كلنا بنرسم على بعض إننا أفشخ ناس في الاحترام، بس ساعة الجد، مافيش بني آدم إلا وبيطلع وسخ في الآخر.

رفع حاجبًا واحدًا وسأل باستهزاء، وهو يشير إليها بإصبعه في استهانة:

- حتى أنتِ؟

استفزتها استهانته بها، فأمسكت إصبعه ولوته للخلف قائلة بابتسامة مازحة:

- الحركة دي بتعصبني على فكرة.

صاح متألمًا وهو يسحب يده بسرعة:

- سيبي صوبعي..

رفعت حاجبها وقالت باشمئزاز، ناسية كل شيء عما كانت ستقوله، مُكررة كلمته في استهجان:

- أ..ا.. صوبعي؟

قال وهو يفرك إصبعه في ألم:

ـ أيوه صوبع.. في إيه؟

ضحكَت رغمًا عنها وهي تهز رأسها، لم يفهم لماذا تضحك لكنها قالت بعد أن هدأت بصراحتها:

ـ اسمه صباع! صوبع دي عند أهلك.

لمحت ضيقه من كلمتها، قبل أن يعترض، قالت بسرعة مُكملة كلامها وبسلام نفسي أدهشه:

ـ أنا أوسخ واحدة في الدنيا على فكرة، وأنت برضه، الفرق بيني وبينك إني مُتصالحة مع نفسي وعارفة إني وحشة، أنت والناس الباقية بيكدبوا ومصدقين كدبتهم.

قال هو بصراحة، رادًّا إهانتها السابقة:

ـ ده منطق كل الرقاصات والحرامية وتجار المخدرات.

ضحكت هي من بلاهة ما يقول، ثم قالت بجدية:

ـ لأ طبعًا، دول مبرراتية، لكن أنا باكلمك عن منطق الكون كله، أنت نزلت الدنيا عشان أنت ناقص، عشان ما بتعرفش تسيطر على شهواتك، اتعاقبنا كلنا عشان إحنا اتخلقنا معيوبين، عمرنا ما هنعرف نوصل للكمال!

وأكملت ما اتضح أنه فلسفة ما:

ـ أنا باقولك بقى إن مافيش حد ـ مهما كان محترم ومثالي ـ إلا وبيمثل إنه محترم ومثالي وبيداري عيوبه عن عيون الناس كلها، والمصيبة إن الناس بتنسى فعلًا إنه مخلوق ناقص، ومعنى إنه ناقص إنه أكيد بيعمل حاجة غلط!

وأنهت كلامها بابتسامة واثقة، مُقلدة أسلوب المجرمين في الحديث:

ـ كله يا برنس فرق ممثلين، اللي بيتكشف بسرعة ده ويتبان عيوبه بيبقى ممثل فاشل، واللي ما بتعرفلوش عيب يبقى واخد أوسكار أحسن ممثل.

ألم أقل لك يا صديقي إننا نتشابه أنا و«آلاء» في أشياء كثيرة..

كم أحب تلك الفتاة!

صمت «طه» تمامًا وهو يحدق في عينَي «آلاء» الواثقتين..

كلامها لمس وترًا داخله..

هل هو فارس شريف كما يظن؟ أم مجرد وغد كما تقول هي؟

لم يأخذ وقتًا حتى وافق ـ من داخله ـ على الأمر، وقرر أن يعرضه عليّ عندما نتحدث..

* * *

عاد «خالد» لبيته المتواضع الذي يكرهه..

«خالد» من الطبقة المتوسطة المكافحة، متزوج ولديه طفل، ويعيش في شقة صغيرة في الجيزة..

لم يتزوج عن حب، تزوج واحدة من اختيار أهله ـ في قريته الصغيرة المجاورة للمنصورة ـ كي يُرضي والده ويظل يتمتع بماله الذي يساعد في متطلبات الحياة كما يريد، لا يهتم بها ويخونها كل يوم تقريبًا مع كل امرأة بالحماقة الكافية أن تنبهر به..

نظرت إليه زوجته بقلق، بذلته المُتربة كأنما جاء من الصحراء، ملامحه المتهالكة، مشيته الكئيبة..

ذهبت له في غرفة النوم وهو يخلع ملابسه وقالت بقلق:

ـ في حاجة يا «خالد»؟

نظر لها نظرة بلا معنى وقال بصوت متعب:

ـ هيكون في إيه يعني؟

وألقى بجسده على الفراش دون أن يعبأ بارتداء ملابسه، فقالت هي بتوتر:

ـ أنت متغير بقالك أسبوعين وشوية، ما بتنطقش كلمة معايا ولا مع ابنك.

أغمض عينيه في إرهاق وقال لها:

ـ لا ما تخافيش، فكرة الرواية الجديدة بتاعتي واخداني شوية.

حاولت أن تُطمئن نفسها بِردِّه، فجلست على طرف الفراش وسألته بابتسامة:

- بتتكلم عن إيه بقى؟

فتح عينيه البُنيتين ونظر لها لحظات، ثم قال كاذبًا:

- عن الاغتصاب.

وأكمل كذبته بمبادئه الرنانة التي يستخدمها كلما يداري شيئًا ما:

- إن مصر بتغتصب من كل اللي بيحكموها.

توتر وجهها ثانية وقالت بخوف:

- أنت مش وعدتني هتبطل كلام في السياسة؟ دلوقتي كله بيتسجن عشان رأيه يا «خالد».

نظر لها نظرة فارغة، هل لا تفهمه لتلك الدرجة حقًّا؟ ألم ترَ الكذبة الواضحة في كلامه؟ أغمض عينيه ثانية وقال بصدق تلك المرة:

- وإيه المشكلة، مش يمكن أنا أستاهل أتسجن؟

قالت وهي تربت على قدمه في حنان:

- لا يا حبيبي ما تقولش كده، أنت أعظم راجل شفته في حياتي.

يا للبلهاء التي لا ترى أبعد من أصابع قدمها!

نوبة الصراحة مع النفس التي انتابته، جعلته يُقر أن سببه الرئيسي في أن يتزوجها هو بلاهتها، بالطبع كانت رغبة أبيه لكنه رأى فيها عبدة، فتاة تعشقه ولا ترى الدنيا إلا من خلال عينيه، ما يقوله هو قرآن بالنسبة لها.

ابتسم ساخرًا فظنت هي أنه يبتسم لها، قالت بحماس:

- أنا هاقوم أعملك الغدا.

لم يرد وتركها تنصرف مسرعة، وهو لا يستطيع أن يطرد صورة «شيماء» من عقله..

كيف تركته يبكي ويحتضنها بعد كل ما فعله بها؟ كيف وجدت داخلها جزءًا من الرحمة نحو الحيوان الذي يغتصبها يوميًا وواسته؟

أي ملاك هي؟

تذكر ملامحها الهادئة وجمالها الذي قد يظهر عاديًّا للناس، لكن جمال روحها وصفاءها لا يراهما إلا مَن ذاقهما..

رحمتها قتلته!

ضرب جرس هاتفه بصوت عالٍ. فانتفض جسده كله ونظر للهاتف بخوف وأمل، مزيج لن يفهمه إلا مَن تتعارك داخله مشاعر الدنيا، كان يتمنى أن يظهر الاسم على الهاتف ويخافه في نفس الوقت..

نظر للاسم ثم أغمض عينيه في قلق شديد، كان اسمي..

«كَتْخُدَا»..

* * *

السابعة

الإرادة الحرة

كلمة تعريفها يختلف تمامًا في قاموسي عما تعرفه

الإرادة الحرة نُقطة ضعف، ثغرة تتسلل من خلالها رغباتك وشهواتك..

وأنا لا أستطيع أن أقبل بهذا..

لن تكتمل رواية أبطالها يفعلون ما يشتهون بحُرية..

إرادتك الحرة كانت اختيارك أن تكون عبدًا مُطيعًا فقط!

لا اختيارات أمامك بعدها!

٩:٠٠ صباحًا

«إيه اللي انت عامله ده؟ الأوضة ريحتها مُقرفة من كتر الدخان».

قالتها «علياء الصواف» وهي تسعل لتثبت وجهة نظرها..

جُملتها أعادتني لزمني الحالي، بعد كل ما أكتبه بعام كامل..

تركت الكتابة على الحاسوب ونظرت لها بلا مبالاة، كعادتها جاءت متأخرة بعد ساعتين، تأملت ملامحها الهادئة، عينيها اللتين تنظران لي دائمًا نظرة أمٍّ معاتبة، أكثر ما أحبه فيها أنها تشبه «ماريسا تومي» الممثلة الأمريكية، بل ربما يكون هذا التشابه الكبير هو الذي جعلني مستمرًّا في دار النشر كل هذا العمر، أنا الوحيد الذي تعاملني كصديق قبل أن تعاملني ككاتب، وأنا الوحيد الذي تتحمل جنونه وعجرفته ولامبالاته الدائمة.

لم أحتجْ لأن أسألها كيف دخلت، مفتاحي تحت دواسة الباب، كل مَن تبقى من المقربين ـ وهي «علياء» فقط بالمناسبة ـ يعرفون كسلي التام، ويعرفون مكانه، نظرت «علياء» لغرفة المكتب الخالية، لم تعلق وجلست جانبي على الأرض، قلت بصوت بارد دون أن ألتفت لها:

ـ لو عاوزة تشربي حاجة المطبخ موجود.

لم تنظر لي وهي ترد بهدوء:

ـ مش عاوزة حاجة.

وأكملت بنبرة لوم، ناظرة أمامها:

ـ أنا هاعمل نفسي ما سمعتش تهديدك العبيط ده، مافيش أصلًا دار نشر تانية تستحملك، أنا جيت بس عشان أطّمن عليك لأن صوتك قلقني.

لم أرد وأنا أنفخ دخان السيجارة، التفتت «علياء» للحاسوب ووجدت ملف الـ«وورد» الذي أكتب فيه الرواية، ثم نظرت لي أخيرًا وقالت:

ـ أنت ليه مصمم تكتب الرواية دي؟ مش كفاية اللي حصل؟

قابلت «علياء» وهي في بداية مشروعها، منذ خمسة عشر عامًا أو أكثر، صديق مشترك عرَّفنا ببعضنا البعض بهدف المصلحة المشتركة، أنا كاتب

شاب أبحث عن فرصة، وهي تريد أن تدخل مجال النشر، كانت تكبرني بعام واحد فقط، لم نأخذ وقتًا طويلًا لنصبح أصدقاء، نشرت أول أعمالي معها وفشل فشلًا ذريعًا، لكنها لم تيأس وظلت تنشر لي عامًا تلو الآخر حتى تحقق النجاح.

كبرنا في العمر والعمل معًا..

شهِدتُ على عقد زواجها لأنها تعتبرني أقرب لها من عائلتها، وشهدت هي على نجاحي وتطوري حتى أصبحتُ «حازم كَتَخُدَا»، لم تدعْ أي أحد سواي يكون بجانبها بعد وفاة زوجها منذ فترة، ولم أسمح أنا لأحد أن يكون بجانبي الآن سواها..

صمتي وتجاهلي لأسئلتها لم يستفزاها، هي تعلم ما بي دون أن أتكلم.

قالت بعد برهة من الصمت:

- فهمني طيب ليه عاوز تنزل الرواية باسم مستعار؟

قلت لأول مرة بصوتي الهادئ:

- عشان هي دي الوسيلة الوحيدة اللي هتصلح كل حاجة عملتها.

نظرت لي في عدم فهم، فابتسمت ابتسامة تعكس كل ما بداخلي، أعطيتها سيجارة، فأخذَتها وتركتني أشعلها لها، أخذت نفسًا عميقًا وقالت وهي تغمض عينيها باستمتاع:

- أنت شيطان، ما بعرفش أرفضها منك أبدًا.

ضحكت ساخرًا وقلت:

- وكل مرة بتشربي معايا وتحلفيني ما اقولش لجوزك..

أخذت نفَسًا آخر، ثم قالت ما جاءت من أجله:

- الله يرحمه بقى مطرح ما راح، أخبار «ديما» إيه؟

لتموت الابتسامة قبل أن تولد، قلت باقتضاب وأنا أنظر للحائط، وقد ظهر الضيق على صوتي:

- مش عاوز أتكلم في حاجة.

لماذا تسألني عن «ديما» الآن؟ الأمر لا يحتاج إلى عبقرية في الملاحظة..

أنا وحيد تمامًا..

أجلس في شقتي المُتربة، لا أغادر المكتب إلا للذهاب للحمّام..

لكنه درب اخترته..

قالتها «ديما» لي يومًا ما في الماضي السحيق:

ـ الكاتب خياله غير كل البشر، مستحيل يرضى بالواقع، ومستحيل يختار إنه يعيش على الأرض، عشان كده هتفضل طول عمرك لوحدك، اللي بيعشقك بجد، عمره ما يقيدك، أو يسيبك تختار تقيد نفسك!

قالت «علياء» منتزعة إياي من ذكرياتي عنها:

ـ عاوز تعمل إيه دلوقتي طيب؟

كان هناك حنان دافئ في صوتها، نظرت لها بعين منهكة، وقلت بإصرار:

ـ عاوز أكمّل كتابة.

ابتسمت هي في تفهُّم. قالت وهي تنهض، وتذهب خارج الغرفة:

ـ أنا هافضل معاك لحد ما تحب تتكلم، هاعملك قهوة.

نظرتُ لها بامتنان لا أعرف كيف أظهره، لم أكن بالوقاحة الكافية لأخبرها أنني أكره قهوتها مقارنة بقهوة «ديما»، أعرف أن نيتها حسنة فقررت أن أصمت، التفتُّ للحاسوب وأنا أفرد قدمي التي بدأت في التنميل..

وبدأت أكتب.

* * *

رد صوت «خالد» المتوتر عليَّ قائلًا:

ـ آلو.

وقتها كنت بدأت أستمتع بتوترهم عندما يرون رقمي، هذا الإحساس بأن مصيرهم سيتحرك مع كل كلمة أقولها بدأ يتملّكني، لن أحدثه عما فعله مع «شيماء» المسكينة، بالنسبة لي زاد من جودة روايتي فلا مانع لديَّ.

قلت باقتضاب:

ـ عندي ليك مهمة جديدة.

توتر صوته وسمعت حركة خفيفة تدل على أنه اعتدل في جلسته، قال:

ـ تاني؟ أنا مش عملت اللي أنت عاوزه؟

لم أبالِ بما يقول، نظرت للوحة الكبيرة التي تجمعهم أمامي. قلت بشرود:

ـ ما تخافش، الموضوع المرة دي بسيط ومافيهوش اختيارات تعك فيها.

شعرت بغضبه، فأكملت أنا:

ـ هتوصل حاجة لواحد، الحاجة دي مهمة جدًا، هتسيبهاله من غير ما يشوفك أو يعرفك.

تساءل «خالد» في ريبة:

ـ مين ده؟ مش أنت قلتلي إني البطل الوحيد في الرواية؟

قلت ببرودي المعتاد وبساطتي:

ـ أنت مش من حقك تسأل، ده أولًا، ثانيًا مش لازم كل حاجة سعادتك بتتحرك وبتعملها يبقى ليها علاقة بالرواية، ده مشوار عادي جدًا.

لم يصدق إجابتي ولم أهتم، شرحت له ماذا سيفعل بالضبط ثم أغلقت الهاتف ناظرًا إلى اللوحة الكبيرة.

بدأت المسارات تتشابك وبدأت الأرقام تتغير..

أمسكت قلمي وكتبت الأرقام الجديدة في تركيز شديد..

أي خطأ بسيط قد يُفسد الرواية كلها..

أعلم أنك تريد أن تفهم الحكمة من الأرقام ومعناها، لا أريد أن أخبرك الآن فكف عن الفضول، سأخبرك أنني أشعر بالملل، ما زال أمامي وقت حتى يذهب «خالد» ويفعل ما أريد، وحتى تصل «سارة» إلى سهل حشيش، ويوضع «طه» أمام الاختيار الذي سيختاره، «ديما» كانت قد ذهبت لعملها كمُصورة وستتأخر.

خرجتُ من باب التراس في الدور الأرضي، المُطل على الحديقة الكبيرة. ضرب الهواء وجهي فأخذت نفَسًا عميقًا انتهى بسُعال سخيف بسبب تدخيني

الشَّره، ضاع مني صفاء اللحظة، كان وقت ما بعد الغروب، ما يطلق عليه السينمائيون «ساعة السَّحر». أُحب ذلك الشجن والصمت اللذَين يُحيطان على كل البيوت وقتها. عادت نسمة الهواء الباردة تُداعبني فابتسمت..

نظرت لمسرح الجريمة - القبو أو الجراج أيهما تحب أكثر - في هدوء، وقفت ناظرًا له لحظات طالت، ضرب الهواء وجهي فشردت تمامًا..

«هل حاولت يومًا أن تركض - بأقصى سرعة - وأنت مغمض العينين؟!».

دوت الكلمة في عقلي بصوت افتقدته، لا أدري لماذا تذكرته الآن لكني أغمضت عينيَّ وابتسمت..

«أن تطير وأنت على الأرض، أن تفقد ارتباطك بالعالم الخارجي وتسبح في خيالك، الهواء يضرب جسدك، ساقاك تأكلان الأرض في حماس وتشعر أنهما قادرتان على التحليق فعلًا، لا تستطيع أن تمنع قلبك القافز من السعادة المفرطة والإحساس بالخطر، لا ترى إلى أين تذهب وإلى أين قد تأخذك قدماك، ثم - وكأي شيء آخر في الدنيا - ينتهي الأمر بسقوطك على الأرض بعنف.. لكن بضحكة لن تنساها عمرك كله مهما مرَّت الأزمنة».

صوت أمي الهادئ وهي تقرأ لي كلمات ألفتها خصيصًا كي تقرأها لي قبل أن أنام وأنا طفل، سمعت صوتها وأنا أنظر للجراج، فابتسمت في حنين..

«هذه هي وصيتي الأولى لك يا ولدي، والوصية لا بد أن تنفذها شئتَ أم أبيت».

بدأت أسير نحو الجراج بخطى بطيئة مخالفًا كل شيء داخلي، وصوتها الحنون يخترق جنبات عقلي، حالة ما أصابتني واستسلمت لها، المناخ الهادئ والنسمة الحنونة، وقت الغروب الذي يثير الشجن دائمًا، لا أحد يستحق أن يُمنع عنه مهما كان، كل هذا جعلني أنظر لباب الجراج وأتجه له بإصرار.

«أغمض عينيك..

واركض».

مشيت حتى باب الجراج المعدني المصمت، ما إن فتحت الباب حتى

صدمتني الرائحة العطنة، دخلت بهدوء ورأيتها:

«شيماء صالح»..

«لا تسترح، لا تسمع لأي شيء من حولك، حتى إن آلمتك كل ذرة في جسدك..

استمر في عَدْوِك في طرق الدنيا البائسة التي طالها الخراب من كثرة السائرين بلا روح عليها..

وإياك يا فتاي أن تكون من السائرين أبدًا».

كانت جالسة كجثة محنطة، الظلام يغلف كل شيء داخل المكان المقبض، رائحة قذرة لا يستطيع حيوان أن يتحملها، ملابسها المقطعة التي لا تستر شيئًا من جسدها الذي بدأ يرتجف، نظرت لي وهي تضيق عينيها من الضوء المفاجئ الذي أغشى المكان، استنتجت أنني لست «خالد» من ضخامة جسدي وطولي الفارع فقالت بخوف:

ـ مين؟

أغلقت عينيها وفتحتها أكثر من مرة حتى تعتاد عيناها الضوء، ما إن تعرفت عليَّ حتى شهقت من المفاجأة وألقت بجسدها على قدميَّ صارخة:

ـ الحقني يا «حازم»، في واحد مجنون خاطفني هنا.

لم أنطق بكلمة وجلست على ركبتيَّ، أمسكتها من كتفها لأجعلها تعتدل، اتسخ جسدها كله، نظرت «شيماء» لي بأمل غريب وهي تقول:

ـ فكني دلوقتي أبوس إيدك قبل ما ييجي.

«ربما أكثر شيء أكرهه الآن أنني سمعت كلام الدنيا ولم أركض في أوقات كثيرة كان يجب أن أفعل..

أريدك يا بني أن تركض طوال حياتك».

قلت لها بنبرة هادئة، لأنهي ذلك الارتباك الذي يعتريها:

ـ «شيماء»، أنتِ في الرواية.. دورك بدأ من ساعة ما اتخطفتِ.

نظرت لي نظرة مرتبكة غير فاهمة، مضت لحظات طويلة حتى أدركت

معنى الجملة، صرخت فجأة وهي تضربني بذراعيها المقيدتين بالحبال:

- يلعن ميتين أبوووووووووووك، أنت بتعمل كده فيَّ ليييييه؟

تركتها تفعل ما تشاء، لا أدري هل لأنني أشفق عليها أم لأنني لو مكانها كنت قتلتني، لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت، هل بدأت أن أضعف قليلًا ويتسلل جزء من الرحمة في قلبي؟ تركتها تُخرج شحنتها تمامًا من صراخ وبكاء وضرب هستيري، حتى انهار جسدها من التعب واستكانت.

دون أن أنبس أمسكت الحبال التي تقيد قدمها وبدأت في فكُّها، لتنظر هي لي نظرة غير فاهمة، أمسكت يدها وفعلت المِثل بسهولة، ثم نهضت قائلًا بهدوء:

- قصتك المفروض ماشية لحد دلوقتي، بس أنا هاديِّك اختيار عمري ما هدِّيه لحد غيرك.

وأشرت للباب بهدوء وأكملت:

- أنتِ حرة، أنا مش هامنعك، ممكن تخرجي وترجعي لحياتك التقليدية اللي مالهاش أي معنى، ممكن تختاري إنك تمشي وتبقى قصتك في روايتي ما كملتش.

صرخت فجأة وهي تنظر لي باحتقار:

- أنت حيوان، قصة إيه يا ابن المجنونة؟

لم أبالِ بردها، خلعت سُترتي الرمادية ووضعتها على كتفها، وأنا أكمل كلامي ببرود يقتلها:

- أو تختاري إنك ترجعي وتكملي القصة.

نظرت لي نظرة كارهة وصرخت بصوت مزعج، كعادة النساء المملة:

- أنا مش عاوزة أشوف وشك تاني.

بصقت على قدمي في قوة، ثم نهضت مسرعة وركضت للخارج، تابعتها في صمت وأنا لم أخرج من الحالة بعد..

«استمتع بكل لحظة..

واجه كل ما سيأتي من قيود بضحكة ساخرة، وقلب دافئ، وعينين مغمضتين..

وساقين تتركان نفسها للرياح"..

وابتسمت ابتسامة صافية..

تسألني لماذا فعلت هذا، لماذا لم أرحمها من البداية، لماذا أعطيها الاختيار الآن؟!

لا شأن لك..

الثامنة

لا تظن أنك وحدك مَن اخترت الأرقام دون أن تفهم معناها

كلنا اخترنا أرقامًا وكلنا نتحمل عقباتها يوميًا

أغمضت «سارة» عينيها وشعرت بكل شيء في جسدها يستكين، مع قُبلات «سامي» الحنون البطيئة على جسدها كلِّه.

كانوا في فندق من أرقى فنادق سهل حشيش، ملك لصديق «سامي» تعرف عليه في جلسات الخمر، ما إن وصلوا حتى حجزوا غرفة في أرقى جناح في الفندق، كان فندقًا «سبع نجوم» وللأجانب فقط، لا يهتم بقسيمة الزواج وتلك الأشياء الجانبية..

انبعثت من سمّاعات محمولة أغنية «أنا لحبيبي» لـ«فيروز»، كعادته يربط كل موقف بينهما بأغنية ما، التفت «سامي» لها مبتسمًا ونظر لها نظرة طويلة، لتستقبله ابتسامة «سارة» العاشقة..

لم يمهلها فرصة لأن تفكر، اقترب منها وجذبها إليه واحتضنها في قوة، عناق طويل جعلها تشعر بها لم تشعر به عمرها كله..

ذابت بين ذراعَيه القويتين ووجدت نفسها تطلق تنهيدة دون أن تدري. هل شعرتَ بمتعة أول حضن؟ أول قُبلة؟ هل تتذكرها؟ هذا ما شعرَت به «سارة»، متعة أول تجربة لشيء رائع اسمه ممارسة الحب.

حرارة الأجساد وهي تتلاقى، حنان كل تفصيلة تتلامس أطرافها بها، كان «سامي» يعرف ماذا يفعل جيدًا، يُذيبها ببطء وهدوء كأنه موجود لها فقط، سمعت أساطير عن ليلة الدخلة وكلها كانت خاطئة، كيف يُشعرونك بالخوف من شيء ممتع كهذا؟ شيء تجلّت فيه أسمى معاني التوحُّد مع مَن تحب.

أغمضتْ عينيها وتركته يفعل ما يشاء، تركته يستمتع بكل ذرَّة في جسدها الذي ظل محبوسًا خلف قضبان من التقاليد، تنظر له وهو يعتليها بعينيه المبتسمتين المستمتعتين، ابتسامة الفرحة الصافية التي تعلو وجهها مع حُمرة خجل لم يزُل منها بعد، ما إن تشعر بالخوف وتنظر له يطمئنها بقُبلة طويلة تجعلها تنسى دنيتها، حتى الأفكار الكئيبة لم تجد مكانًا وسط صفاء نفسها، لا يوجد هروب اليوم، لا يوجد موت اليوم، هي مِلكه فقط، وهذا كل شيء.

جعلها تصل لنشوتها ثلاث مرَّات، ثم بدأ هو في الاستمتاع بها،

ليتصاعد إيقاع كل شيء فجأة حتى يصل للجنون، نسيت كل ما يتعلق باسمها وحياتها وهي تصرخ في استمتاع، ارتعشت مرتين وهي تصرخ في ألم يقتلها لذة، ذابت فيه وذاب فيها حتى صرخ هو وتصلَّب جسده تمامًا وهو يبتسم ابتسامة لم ترَ أجمل منها.

واستكان كل شيء..

دقات قلبها العالية امتزجت بدقات قلبه السريعة ليدخلا في إيقاع متناغم بسيط، وهو يرقد فوقها يحتضنها ويترك الهدوء يتسلل لجسديهما معًا..

احتضنته في قوة، أساطير الزواج كانت تقول إن الزوج يعطيها ظهره وينام عندما ينتهي، لكن «سامي» ظل مستكينًا في حضنها لا يتحرك كأنما خُلق جسده في هذا المكان، ظلت أنفاسهما تهدأ والدقات تخفت وهما لا يتحركان..

الأهم من ممارسة الحب، ما يحدث بعده من تلاقٍ في الأرواح..

لم تدرِ كم مر من الوقت! نظرت للساعة لتتسع عيناها في دهشة، هل مرَّت ساعتان ونصف بتلك السرعة؟ نهض هو بهدوء وقبَّلها قُبلة طويلة، ثم سحبها من يدها، لتسأله متعجبة:

ـ هنروح فين؟

قال وهو يضحك:

ـ هنستحمَّى، ميعاد الغدا جه وأنا لو ما كلتش باتعصب.

ضحكت بشدة وتركته يسحبها للحمَّام، آخذة قرارًا بأنها ستظل وراءه حتى ولو لآخر العالم.

لا تتخيل أن «سارة» التي تعرفها تفعل كل هذا..

شعرت أن هذا الكائن المتزمت الذي كانته، بعيد تمامًا وأصبحت لا تعرفه..

هي الآن سعيدة وفقط..

* * *

فتح «طه» باب شقته، عندما سمع الجرس يدق، لم يجد أحدًا فامتعض وجهه من تلك الحركة الصبيانية، نظر لأسفل ليجد ظرفًا بُنيًا على الأرض، انحنى والتقطه ليجد مكتوبًا عليه اسم «طه أحمد».

ذهب لغرفته ليجد زوجته تنظر له بملل قائلة:

- مين؟

قال دون تركيز:

- واحد ساب الظرف ده ومشي.

نظرت له بقلق وقالت:

- طب حاسب عشان ممكن تكون قنبلة!

نظر لها باستهانة لبلاهة ما قالت، ثم فتح الظرف في سرعة ليجد «فلاش ميموري»، مع ورقة صغيرة مكتوب عليها «هدية من كَتَخُدَا».

ما إن رأى الاسم حتى توتر جسده ونظر لزوجته التي ظلت تحدق فيه.

قالت بشك:

- في إيه؟

ضحك ضحكة مفتعلة وقال:

- مافيش، ما طلعش قُنبلة الحمد لله، دي حاجة بس كنت موصّي حد يجيبهالي.

ثم ضحك ثانية بارتباك، وهو يترك الغرفة ذاهبًا للصالة الخارجية، وضع «الفلاشة» في التلفاز وهو يخفض الصوت لأقل درجة احتياطًا، فتح الفيديو الوحيد الموجود داخلها ليعرضه، وما إن شاهد محتواه حتى امتعض وجهه قليلًا ثم ابتسم ابتسامة منتصرة. سمع صوت خطوات زوجته فأخرج «الفلاشة» بسرعة، لتأتي هي بنفس نظرة الشك التي يتقنها أيُّ ضابط مباحث مُحترف، قال لها وهو يذهب ليحتضنها:

- حقنا رجع لنا يا «منى».

تعجبت من هذا الحماس المفاجئ، في حين تركها هو وذهب للغرفة مسرعًا، صاحت فيه بريبة:

- رايح فين؟

أغلق باب غرفة النوم ولم يهتم بالرد عليها، أمسك الهاتف ليطلب رقم أول اسم جاء في عقله ليخبره بالمعلومات الجديدة:

«آلاء أبو العينين».

* * *

لم تصدق «شيماء» للحظة أنها عادت لبيتها.

انهار جسدها عندما أغلقت باب شقتها، جلسَتْ على الأرض باكية غير مُصدقة، تحاملَتْ على نفسها وفعلَتْ ما ستفعله أي فتاة في مكانها.. نهضَت ببطء، خلَعَتْ سُترتي وألقَتها بعيدًا، ثم ذهبَت للحمام وفتحت المياه على أقصى قوة، وجلست تحتها بملابسها المتقطعة.

تركت المياة الباردة تنساب على جسدها المنهك، أغمضت عينيها تاركة دموعها الحارة تختلط بالماء البارد..

كل شيء يبدو بعيدًا، كل شيء يؤلمها، لماذا حدث لها هذا؟

كيف لم يتدخل «كَتْخُدَا» من قبل؟

لقد وثقت به!

اعتاد جسدها الماء البارد فبكت في يأس، كانت تريد أن تلمسها برودة المياه أكثر من هذا، الصقيع يُشعرها أنها تغتسل من كل القذارة التي تعرضت لها لمدة أسبوعين كاملين، نهضت بعصبية ومزقت ما تبقى من ملابسها وهي تصرخ في تقزز، أخذت تفرك جسدها لتزيل كل الدنس الملتصق بروحها، تفرك بقوة مجنونة حتى إنها جرحت نفسها في عدة مناطق، بكت أكثر لأنها ما زالت تشعر بالنجاسة، تشعر بأن الوَسخ التصق بجسدها ولن تزيله مياه الكون كله.

انهارت ثانية وجلست باكية..

بعد ساعة أو أكثر خرجت مُحبَطة، ذهبت لغرفتها ونامت على الفراش في وضع الجنين..

وأغمضت عينيها عسى أن تذهب في نوم عميق..

* * *

«عمّي طلع شاذ جنسيًّا..».

قالها «طه» لـ«آلاء» وهو يُريها شاشة هاتفه المحمول، أتت مُتأخرة ولامته أنه أجبرها على النزول، ذكَّرته أنها متزوجة ولديها طفلة، فلا يصح أن يفعل ما فعل، اعتذر لها بشدة وقال لها ما قال، فنظرت للفيديو المعروض على الهاتف، فصاحت بتلقائية من المفاجأة:

ـ أ..ـــا.

كان فيديو لعمِّه وهو يداعب شابًّا صغيرًا، كان عمُّه عاريًا تمامًا ويُقبل الغلام، أزاحت وجهها في تقزز وقالت:

ـ إبعد القرف ده عن وشي، فهمت خلاص.

ثم قالت باشمئزاز وهي لا تستطيع أن تزيل المنظر من عقلها:

ـ مين اللي بعتلك الفيديو ده.

تلجلج «طه» لحظات، كاد أن يُخبرها بأمر «كَتْخُدَا» من حماسه ثم تذكر عقد السِّرية، قال بسرعة كاذبًا:

ـ لاقيته في موقع بورنو بالصدفة.

ابتسمت ابتسامة جعلته يدرك غباء ما قاله، لم ترحمه وقالت ساخرة:

ـ مش هسألك أنت ليه بتتفرج على الحاجات دي وأنت متجوز، الرجالة المعفنة كتير.

ورفعت حاجبًا واحدًا وأكملت بصراحتها أمام وجهه الأحمر من الارتباك:

ـ بس لازم أسألك ليه بتتفرج على «فيديوهات» للشواذ، هو موضوع عمّك ده ورائي ولّا إيه؟

ضحك في ارتباك كأنها ألقت مزحة، ورد بسرعة مُغيرًا الموضوع:

ـ الحاجات دي بتفتح لوحدها في الإعلانات، المهم بس، هنعمل إيه بيها؟

أعجبها أنه ضمها في جملة واحدة، كأنما يعلن استسلامه ضمنيًّا لتخطيطها وعقلها، منذ فترة لم يثق أي أحد في عقلها، يرونها جسدًا ممتعًا ووجهًا رائع الجمال فقط، لم يحاول أحد - حتى زوجها - أن يبحث داخلها عن أي شيء أعمق من هذا.

كانت مُحبطة قليلًا، عندما هاتفها وكان صوته سعيدًا متلهفًا، شعرت أنه سيخبرها بمشاعره التي لا يستطيع أن يقاومها، بل إنها شعرت على الفور بفتور وقررت أن ترفضه، لكن ما إن قال لها الأمر حتى شعرت بإحباط لا تدري مصدره!

قالت بهدوء مُتجاهلة أفكارها:

- ولا حاجة، هنفضل ماشيين في نفس اللي قلنا عليه.

ظهر على وجهه الضيق وهو يقول:

- ليه؟ نمشي ورا «مها» ليه واحنا معانا فيديو ممكن نهدده بيه؟

هزَّت رأسها أن لا في خبرة، وقالت مبتسمة كما فعلت سابقًا:

- يا برنس أنت هتمشي في الاتنين، هتعلق «مها» وتنام معاها، ولو فكر يئذيك هتهدده بالفيديو ده! صحصح معايا وما تبقاش غشيم.

شيء داخله رفض ما يسمعه، فقال باعتراض مُتجاهلًا مزاحها:

- وليه نزود في الشر.

لترد هي بهدوء يُحبه ويخافه:

- عشان أنت بتنتقم، الراجل ده خد حقك وحق أمك وأخوك، مارحمش حد، عرف إزاي بعلاقاته إنه يخلي الحكم يطلع بسرعة في صالحه، الراجل ده لازم لما تنتقم منه تفشخه، ما تسيبلوش فرصة واحدة يقدر يئذيك بيها.

صمت تمامًا وهو ينظر لعينَي «آلاء» الواثقتين..

أمامه اختيار بسيط بين شيئين:

انتقام يؤذي عمه فقط، وآخر يؤذي الجميع..

* * *

بعد أن أوصل «خالد» الظرف لـ«طه» لم يقاوم وذهب للجراج حتى يرى «شيماء» قليلًا..

شعر أنه افتقد رحمتها التي تجعل كم الندم داخله يهدأ ولو للحظات..

لذا عندما دخل الجراج ولم يسمع صوت بكائها عقد حاجبيه وحث من خطوته..

واتسعت عيناه في رعب..

وجد الحبال مُلقاة وأجزاءً من ملابسها، فقط..

تلفت حوله في جنون، أين ذهبت تلك الحمقاء؟ كيف تذهب دون أن تسامحه؟ ركض في المكان بجنون، يبحث في كل شبر كأنها يبحث عن فأر هارب وليس إنسانة من لحم ودم..

أمسك هاتفه بسرعة واتصل بي وأنفاسه تتصاعد من الخوف، سمع صوتي الهادئ فقال صارخًا:

- هي فين؟

قلت ما هو واضح:

- هربت.

صرخ ثانية لدرجة جعلتني أبعد الهاتف عن أذني قليلًا:

- هربت إزاي؟ إزاي تسيبها تهرب، دي هتودينا في داهية.

كان يكذب، لم يكن قلقًا مما ستفعله «شيماء»، كان مذعورًا لأنه أدمنها، أدمن سيطرته عليها وجبروته أمام رحمتها وصفاء روحها.

قلت وقد بدأ صوتي يقسو عليه قليلًا:

- أنت اللي سيبتها تهرب، هي عرفت إزاي تفك الحبال؟ أكيد أنت بغبائك ما خدتش بالك من محاولة هروبها طول الأسابيع اللي فاتت.

جلس على الأرض لأن قدميه لم تَعُدَا تحملانه، قال بصوت يرجوني:

- ارحمني وقول لي هيَّ فين.

قلت وقد بدأتُ أملُّ من ضعفه، رغم استمتاعي برجائه:

ـ ما اعرفش، ومش مسئوليتي إنك راجل أهبل وسيبتها تهرب.

وأغلقت الهاتف في وجهه دون أن أعطيه فرصة للرد.

بكى بحُرقة كي يثير غيظي، أكره الرجل الذي يبكي كثيرًا، ماذا ترك لزميلاته من بَطَلات الرواية؟ نام على الأرض باكيًا وضم ركبتيه في صدره، في لحظة عبقرية..

المغتصب والضحية نائمان في نفس الوضع، كل منهما في مكان مختلف عن الآخر..

كم أحب عندما تسير الأمور في صالح الرواية..

التاسعة

لا تطلب الرحمة في وقت لا تَرحم أنت فيه

الأسبوع الرابع بدأ، ولم تدرِ «شيماء» في أي يوم هي أو كم مر عليها من الوقت.

ظلت في الفراش لا تتحرك إلا للضرورة، ثم تعود ثانية على الفراش صامتة كقبر.

تجمدت عيناها على نظرة ميتة لا تتغير، رنَّ هاتف بيتها كثيرًا ولم تعبأ بالرد، أي شيء خارج غرفتها أصبح لا يهمها..

«شيماء» امرأة في الثامنة والعشرين من العمر، الابنة الثالثة، لها أخ توأم وُلِدَ بعدها بدقيقة واحدة، فتجاهلوها تمامًا..

منذ أن كانت طفلة كانوا يتركونها تفعل كل شيء دون حتى أن يلاحظوا، كان أخوها التوأم هو الأضعف، فأخذ الاهتمام كله لأنه كان يمرض كثيرًا، تعلَّمت السير وحدها ولم يصفق لها أحد، تعلمت الكلام حتى تثير انتباههم، فقابلتها نظرات القلق والتوتر والابتسامة المضطربة، عرفت أنها وحدها منذ أن كانت رضيعة.

فعلت كل شيء كي تثير الانتباه وتشعر ببعض الدفء الذي ترى أبويها يعاملان به أخاها، لكن لا حياة لمَن تنادي، أختها الأكبر منها بخمسة أعوام هي التي كانت تعطيها جزءًا من الاهتمام ثم انشغلت في حياتها تمامًا، كبرت «شيماء» وتفوقت ولم يعبأ أحد، تذكرت عندما أحرزت نتيجة رائعة في الثانوية العامة، لم يفرح لها أحد لأن أخاها قد أتى بمجموع سيء، عندما فاض الكيل بها، قالت لأمها إنها تستحق أن تجد مَن يفرح معها بنتيجتها، صرخت فيها الأم أن مستقبل الأخ أهم بكثير من مستقبلها.

هو السَّنَد والظهر للعائلة كلها..

وبحساسيتها الشديدة نحو كل شيء، قررت أن تتمرد..

دخلت الجامعة وعاشت بانطلاق دون قيود، إذا لم يهتموا بتفوقها قد يهتمون بضياعها، دخلت في قالب «مجتمع وسط البلد»، قصت شعرها حتى كتفها، تعرفت على شلَّة رائعة من مُدعي التحرر فادَّعت معهم، لا أدري

كيف لم يلتقيا هي و«خالد» من قبل في هذا المجتمع!

أصبحت تسب وتلعن في كل شيء، تقابل الشباب وتُقبّلهم كالمجتمع الغربي.

ضجرت من تلك الحياة عندما لم يلاحظ أهلها كل هذا، كان والدها موظفًا حكوميًا بسيطًا، وذلك جعل أربعة أطفال عبئًا كبيرًا عليهم، لأن عائلتها تُعتبر من الطبقة تحت المتوسطة بقليل، اهتمامهم الأساسي هو العمل المتواصل وتهيئة الفتيات للزواج...

تركتْ عالم «وسط البلد» بعد سنتين فقط من دخولها الجامعة، لكن طاقة إدمان الاهتمام وصلت لحد لم تتوقعه..

عملَتْ في مدرسة حكومية لمدة ثلاث سنوات، أدمنت الفيسبوك، لم تكتب اسمها الحقيقي، أي شخص كان يحاول التعرف بها كانت تحدثه حتى تشعر باهتمام تعشقه..

وما زالت تفتقده حتى الآن..

يا لها من أيام بعيدة!

أتتها فكرة مُلحّة، قررت أن تستسلم لها أخيرًا، مالت بجسدها لتلتقط هاتفها الأرضي، طلبت رقمًا ما وانتظرت قليلًا حتى سمعت صوت طليقها يقول بتساؤل:

- «شيماء»؟

لم يُرحب بها، قال اسمها فقط كأنما يتوقع كارثة ما، قالت بصوت مبحُوح ظل مكتومًا داخلها لأيام فخرج متحشرجًا:

- أنا تعبانة قوي يا «محمد».

جاوبها صمته التام، فقالت بهدوء:

- محتاجة أتكلم معاك شوية.

سمعت تنهيدته المتبرمة، ثم ضيق نبرته:

- معلش يا «شيماء» أنا في الشغل دلوقتي ومش هاقدر أتكلم.

رمقت ساعة الحائط بسرعة، انتهى وقت عمله منذ ساعات طويلة، قالت متفهمة:

ـ أنا عارفة إنك مش عاوز تكلمني، بس أنا محتاجة أتكلم مع أي حد.

قال ببرود:

ـ وأنا مش فاضي دلوقتي.

وأغلق المكالمة دون أن ينتظر ردها، ابتسمت نصف ابتسامة يائسة..

قابلَت «محمد بخيت» وهي تعمل في المدرسة، مُدرس معها، وانبهر بها وبملامحها الرقيقة، أحبها بشدة وأعطاها كل اهتمامه، لم تحبه أبدًا لكنها عشقت عطاءه المستمر، تقدَّم لخطبتها على الفور، رفض أبوها لأسباب لا تعلمها، لتأتي لها فرصة على طبق من ذهب، عاشت في «دراما» كبيرة أنها أمام الحب الحقيقي الذي يرفضه الأهل عديمو الرحمة، بدأت تكتب أيضًا عن حبيبها الذي يعشقها ويحارب بضراوة من أجلها..

وبعد ضغط شديد منها وتهديدها بالانتحار، وافق أبوها بشروط صعبة، لكن «محمد» وافق عليها وفعل المستحيل من أجلها، حتى تزوجا أخيرًا وأنجبا ابنها «يوسف»..

ثم مات «يوسف» وهو في الثالثة من عمره..

بعد ثلاث سنوات مع طفل، لا يرى الدنيا إلا من خلال عينيها، ذهب وتركها وحيدة..

انهارت تمامًا، طوال عمرها ـ كانت مقتنعة بهذا حقًا ـ كانت ضحية فقط.

كأم ذاقت متعة الأمومة شعرت بذنب قاتل أنها السبب في موت ابنها، أظن أن عشقها للاهتمام ظهر ثانية في تلك الفترة، ظلت تكتب عن موضوع ابنها ووفاته بشكل غريب أمام الناس، أنا من أكثر المقتنعين بمبدأ أن الحزن القاتل يسكن القلب ولا يتركه، لا يوجد تعبير في الدنيا يستطيع أن يصفه الإنسان به، أشفق عليها الناس أيضًا، أعادها اهتمامهم ـ دون أن تدري ـ

لنفس الدائرة، أصبحت تنتظر مواساتهم، ما إن تجدهم بدءوا في نسيانها، تكتب عن ابنها منشورًا حزينًا، فيعود الاهتمام ثانية.

أدرك زوجها ما تفعل، كانت تكتب دائمًا أنها السبب في موت ابنه فصدَّق هذا، كان يواسيها في البداية ويقول إن كل شيء مكتوب، لكنها كانت ترد عليه بانهيار أنها لو كانت اهتمت به في مرضه ما كان قد مات، صدقها رغمًا عنه بعد أن فاض به الكيل.

فطلقها!

وابتعدت هي، أجَّرت شقة في عمارة قديمة للغاية آيلة للسقوط تقريبًا، وفَّر هذا في الإيجار تماما، قررت أن تعيش فيها لمدة سنة، عاشت وحدها بعيدًا عن كل الناس، ثم أتت لي عندما رأت إعلاني..

لأنها تشعر أن قصتها لا بد أن تُكتب، لا يوجد بشري - من وجهة نظرها - مر بما مرَّت به..

لكن من وجهة نظري هي أرادت فقط مزيدًا من الاهتمام، وستفعل أي شيء من أجله..

عندما أخبرتها بما أريد أن أفعل وجدت حماسًا في عينيها، رغم إحباطي من قصتها العادية، لكني توقعت أنها ستفعل أي شيء - مهما كان - من أجل مزيد من الاهتمام..

سالت دموعها صامتة بعد أن رفض «محمد» أن يسمعها..

كيف لرغبة بسيطة تكون بتلك الصعوبة؟ لماذا أصغر الاحتياجات تمنعها أنانية الآخرين؟ كل ما أرادته أن يظل أحد معها على الهاتف صامتًا، عادت لنفس وضعها على الفراش، جامدة العينين..

* * *

عاشت «سارة» أيامًا في سعادة خالصة.

ابتاع لها «سامي» ملابس سباحة مكونة من قطعتين لأن في هذا الفندق يرفضون أي شيء آخر له علاقة بالمحجبات. فيما مضى كانت تنفر من تلك

الأماكن وعنصريتها، لكن الآن لا تبالي، تذكرت كمَّ المصايف التي ذهبت إليها مع عائلتها ولم تنزل حمَّام السباحة أو البحر قط، تظل جالسة تقرأ شيئًا أو تستمع لموسيقى ما.

كانت مستمتعة بلمسة مياه البحر الأحمر الصافية على جلدها، تشعر بلسعة الشمس وهي تداعبها، كانت لا تعرف شيئًا عن العوم، وكان «سامي» يسخر منها دائمًا، يقول لها إنها لا تتقن حتى «العوم الكلابي» وهو بسهولة أن يتقنه كلب! تضحك وتمسك فيه أكثر حتى لا يتركها، علَّمها بصبر كيف تطفو على المياه، كيف تعوم دون خوف، ألا تخاف أن ترتدي نظارة البحر وتنظر لِكَمِّ الأسماك الرائع الذي يسبح تحتهما، علَّمها كل شيء في أيام معدودة.

علَّمها الحياة.

كان «سامي» ساخرًا من الدرجة الأولى، يسخر من بدانته وبُطئه في الحركة، يسخر من كل مَن حولهما، يسخر منها هي في أوقات كثيرة، لذلك معظم الوقت كانت تضحك لأن مزاحه لا ينضب، مهما كانت جِدِّية الأمر يجد فيه شيئًا يجعله أمرًا هزليًّا تمامًا..

لم تنضب أغانيه أيضًا، كل يوم يُسمعها أغنية جديدة، حتى وهُما نائمان على الشيزلونج أمام البحر، جعلها تسمع أغنية «thinking out loud» لمطرب اسمه «ed sheran». سمعَتها وهي تشعر أنها في عالم آخر، ما إن انتهت حتى سألته هامسة وهي نائمة في حضنه على الشيزلونج:

- أنت إزاي عندك قدرة تتريق على كل حاجة كده؟

ليجيب هو في بساطة ويده تمسح على شعرها المُبتَل:

- عشان عمري ما فهمت الناس اللي بياخدوا أي حاجة جد في حياتهم.

وقَبَّلها على رأسها وهو ينظر للبحر الهادئ أمامهما مُكمِلًا:

- إحنا بنعافر عشان الـ«ولا حاجة»، الناس اللي بتعافر دي وبتتعصب وبتتبهدل وبتطمع وبتخون وبتقتل، على إيه؟ مهما فكرتِ وأيًا كانت إجابتك، هتلاقي في الآخر «ولا حاجة»، من وجهة نظري إننا لازم نفرح وبس، مافيش

حاجة في الدنيا تجبر الواحد يعمل أي حاجة غصب عنه، لو ما عملتش اللي أنا باستمتع بيه بس، يبقى العيشة ما تستاهلش.

كانت تجد في منطقه ثغرات كبيرة، لكنها لم تكن في بال يسمح لها بالنقاش، أكمل هو مبتسمًا:

ـ عشان كده باستمتع بإني أتريق على كل حاجة، التريقة بتكشفلك اللي قدامك، لو اتريقتِ على الموت وعلى الخناق والزعل هتلاقيهم أتفه من التفاهة، لو اتريقتِ على واحد طول عمره ماشي في الساقية، هتعرفي قد إيه طموحاته أتفه من الـ«ولا حاجة».

تعشق بساطته في كل شيء، تعشق سلامه النفسي الغريب الذي يجعله متسامحًا مع كل ما يحدث، قال ناظرًا لها بفخر:

ـ شوفتيني وأنا عميق؟

ضحكت بشدة واحتضنته أكثر فقال هو بسرعة:

ـ ما تتكيش قوي عشان الشيزلونج ده ممكن يقع بينا في أي وقت، ما تنسيش إن معاكِ درفيل.

استمرت في ضحكها ثم نهضت فجأة وركضت نحو البحر قائلة:

ـ جاي؟

نهض بسرعة وكل شيء يترجرج فيه بطريقة تعشقها، قال يحذرها مازحًا:

ـ ما تنزليش لوحدك، لو غرقتِ مش هاعرف أنزل تحت وأجيبك، الميه هترفعني وهتروحي في داهية.

ضحكت وهي تركض نحو البحر ناسية الكون كله.

* * *

اختفى «طه» ثانية لفترة طويلة، مما جعل «آلاء» في حالة عصبية دائمة.. رغم أن الفترة لم تتعدَّ أيامًا معدودة، لكن عقلها بث الشكوك فيها، فأصبحت في حالة غضب من نفسها، هل عندما كانت صريحة وأخبرته

الخطة ظن فيها الشر فابتعد؟ هل تندم على جرأتها معه؟ هل غضبت منه زوجته عندما اكتشفت أنهما يتقابلان؟ أسئلة كثيرة تبتلعها وتجعل اليوم يمر ببطء سخيف، ضبطت نفسها تصرخ في الخادمة أكثر من مرة دون سبب، تغضب على مربية الطفلة بسبب أتفه الأشياء، حتى زوجها عندما وجدها في هذا المزاج المتعكر قال لها ضاحكًا إن هذا وقت «الظروف» ولا بد أن يبقى بعيدًا عنها الآن.

لكنها كانت تعرف السبب، السبب الذي يجعلها تنظر لشاشة الهاتف أكثر من مرة في الدقيقة الواحدة، السبب الذي يجعلها تفتقد شيئًا ما لا تدركه، لقد تنازلت في مرة سابقة وكلمته هي، لن تفعلها ثانية ولو كانت تموت..

قررت أن تخرج من تلك الحالة بأي شكل، فطلبت رقم زوجها، ليرد عليها صوت أنثوي يقول في دلع:

ـ آلو.

لم يضايقها صوت الفتاة أو ميوعتها، تعلم أن زوجها لديه عدد من السكرتارية يرددن كثيرًا على الهاتف، بل إنه في أوقات شجارهما دائمًا ما يقارنها بجمالهن ويحقر من أنوثتها، قالت بهدوء:

ـ عاوزة «هاني منصور» لو سمحتِ.

قالت الفتاة بصوت جاد قليلًا:

ـ لحظة واحدة، هو بس في الحمّام.

تعجبت من هذا الرد، لماذا لم يأخذ معه الهاتف كعادته؟ شعرت أن هناك شيئًا ما غير منطقي، كان داخلها هاجس منذ فترة أنه يخونها، لم تبالِ لأنها عرفت أن الرجل دائمًا يرغب في الأخريات، يكفي أنه يعود في النهاية لها، حاولت أن تهدأ وقالت إنها هي مَن تريد أن تجد أي شيء تتشاجر من أجله.

بسبب ذلك اللعين «طه»..

لكنها ما إن تذكرته حتى شعرت بموجة غضب عنيفة، فقالت بحدة:

- يا ريت تقوليله يكلمني بعد ما يـ....

وأغلقت المكالمة بغضب.

* * *

قال «خالد» لزوجته في شرود:

- ما تيجي نجرب حاجة جديدة؟

نظرت له نظرة فاهمة، ثم قالت وهي تنهض من على الفراش:

- ثواني بس وأجيلك.

لم يفهم لماذا انصرفت، لكنه فهم عندما عادت له بعد عشر دقائق بقميص نوم يكاد ينفجر من عليها، زاد وزنها كثيرًا بعد الولادة وهو لا يعترض، ما يُشعره بالضيق هو إصرارها على ارتداء نفس قُمصان النوم التي تزوجت بها، نظر رغمًا عنه لكل الترهلات التي برزت من كل فتحات القميص، قال وهو يحاول أن يبتسم:

- أنتِ ليه لبستِ القميص ده؟

قالت بدلال وهي تميل عليه:

- عشان عارفة إنك بتحبه.

حاول أن يتجاهل اشمئزازه وقاوم رده «كنت باحبه» وصمت، كانت جميلة في وقت مضى، التفت لها وقال بسرعة آمِلًا في الأفضل:

- استنِّي ثواني وأجيلك.

خرج وراءه نظراتها المندهشة، ثم عاد إليها حاملًا حبلًا طويلًا.

نفس الحبل الذي قيَّد به «شيماء»..

نظرت للحبل في تساؤل، فقال لها بلهفة لم يستطع أن يكتمها:

- عاوز أجرب حاجة جديدة معاكِ النهارده.

لهفة عينيه أخافتها، قالت وهي تنتقي كل حرف يخرج من فمها:

- أنت عايز تربطني زي ما بنربط الخروف؟

ثم استطردت في ضيق:

ـ إيه يا «خالد» القرف ده؟ ما ربنا محلل كل حاجة حلوة، نسيبها ونعمل الحاجات الوحشة دي؟

نظر لها بيأس، قال بآخر أمل داخله:

ـ ده حلال، إننا نمثل ده حلال، أنا هامثل إني باغتصبك وأنتِ تقاوميني.

شهقت وضربت صدرها في حركة فلاحي يكرهها، قالت دون أن تنتقي أي شيء تلك المرة:

ـ أنت اتجننت؟

زفر في غضب، ثم ألقى بالحبل بعيدًا وصاح فيها:

ـ أنا نازل.

أغلق باب الشقة بعنف خلفه، فلم يسمع ردها المُحبط وهي تقول:

ـ بالبيجامة؟

* * *

كان «طه» في موال آخر.

كان بالغباء الكافي ليُخبر زوجته بما ينتوي أن يفعل!

بعد أن كلَّم «كَتَخُدَا» أكثر من مرة ولم يرد، قال لزوجته في لحظة صراحة إنه وجد الطريقة التي سينتقم بها من عمِّه ويستعيد حقه، أخبرها ـ بصدق يُحسد عليه ـ موضوع «مها»، وأنه يريد أن ينتقم من خلالها، لم يُكمل كلامه عندما وجد انفجار زوجته فيه بطريقة لم يتخيلها.

نعتته بالخيانة والقذارة، وأنها لم تتصور في حياتها أن زوجها الذي أحبته يفكر بهذا الشكل المريض. نظر لها «طه» لا يصدق كمَّ هذا الغضب، لقد قال لها إنه يفكر فقط، قال كل المقدمات التي تسبق تلك الأفكار: «هاقولك حاجة بس أوعديني إنك مش هتزعلي». ووعدته.

لم يستوعب كيف لا تفهمه، لقد مر أكثر من ثلاث سنوات، وكل حلمه وهدفه في الدنيا أن يستعيد حقه مرة أخرى، كيف تكون زوجته بتلك السطحية والغيرة التافهة؟ كيف تُلقنه دروسًا في الأدب والأخلاق، وهي تعلم تمامًا

كم من المرات التي تم رفته من أعمال شتى بسبب أخلاقه ومثاليته، لم يصدق أن نظرتها له تغيرت بهذا الشكل من مجرد فكرة.

غضبها، ملامحها التي أصبحت شيطانية وكلامها البشع، تذكر «آلاء» وابتسامتها وخططها، تلك الفتاة التي فهمت رغبته في الانتقام وتحاول أن تساعده دون سابق معرفة، لكن زوجته التي ضحى بكل أحلامه من أجلها، تقول هذا وهي تعرفه جيدًا!

ثم هذا الصوت العالي الذي يصل لحد الصراخ، ألم يتفقا قبل الزواج ألا ترفع صوتها عليه أبدًا؟ لماذا لا تهدأ؟ ظل طوال صراخها يقول لها أن تهدأ وإنها مجرد فكرة، لكنها لم تسمع وظلت تصيح بصوتها المستفز وتعطيه خطبة عصماء عن الأخلاق الحميدة.

«أنت سامعني؟».

صاحت بها لتخرجه من شروده، فنظر لها دون تركيز، لتقول هي:

ـ أنت مش عارف أنت نزلت من نظري إزاي!

صمت وهو ينظر للأرض، لتُكمل هي قصيدة عصماء أخرى عن النُّبل والإخلاص مقارنة إياه بأبيها العظيم، وكيف أنها ضحت بمستقبلها ورضيت أن تتزوج مَن هو أقل منها ماديًّا!

ابتلع ريقه ونظر لها بهدوء شديد وهي مستمرة في الحديث المتواصل، هناك لحظات لا يفكر فيها المرء مرتين، لم يعد يحتمل كل هذا..

قال ببرود لم يتوقعه:

ـ أنتِ طالق.

وحدث ما يريده بالضبط بعد ساعة كاملة من الصراخ..

صمتت تمامًا..

العاشرة

لا تنظر لأي شيء من عينك أنت
ما تشعر أنه عقاب قد يكون مكافأةً مني
وما تشعر أنه مكافأة قد يكون أشد العقاب

السؤال الرابع:

- لو ليك فلسفة أيًا كانت، إيه هي فلسفتك؟

* * *

عشقت «سارة» الليل مع «سامي»..

مرت الأيام وهما يفعلان نفس الشيء، ممارسة الحب ثم الإفطار ثم البحر أو حمَّام السباحة، الغذاء ثم ممارسة الحب ثم يذهبان للبحر يجلسان أمامه ويتحدثان دون ملل، ناظرَيْن لغروب الشمس وظهور النجوم المتلألئة، يُصدر هاتفه المحمول الأغاني التي أحباها معًا.

كالمعتاد كانت تنام جانبه على «شيزلونج» واحد، يحتويها هو بحضنه وتذوب هي في عطره، لم تكن تعرف أن لكل رجل رائحة خاصة به وحده، عطر جسده الطبيعي عكس ما كانت تتوقع، تشعر أنها رائحة طفل.

داعبتها نسمة باردة فابتسمت «سارة» في استمتاع وهي تقول:

- أنا في الجنة خلاص.

ربت على ظهرها بحنان، فاستندت على جسده ورفعت رأسها لتنظر لعينيه مباشرة قائلة:

- أنا بقالي ١٤ يوم في حالة فرحة متواصلة، مش شايلة هم حاجة غير إني أنبسط.

وقبَّلته قُبلة طويلة، تأملت عينيه وذابت في عالمه، قالت هامسة:

- شكرًا على كل حاجة بتعملها علشاني.

قال بطريقته المازحة في امتعاض:

- الشكر ده تقوليه لابن خالتك لما يجيبلك قفص المانجة اللي خالتك بعتته.

ضحكت برقة، ثم قالت بجدية:

- بجد شكرًا، أنت لو مبعوتلي من السَّما ما كنتش عملت كل ده، أنا مش عارفة أنت جيتلي إزاي ومنين..

وعقدت حاجبَيْها قائلة بطريقة الطبيبة مازحة:

- أنا هاوصفلك علاج لكل واحد سايب نفسه لدماغه ومكتئب من تفكيره.

نظر للنجوم بابتسامة شاردة، قال وعيناه تلمعان بسعادة صافية:

- الجنون مالوش قواعد، إنك تحاولي تعرفي «إزاي» ده نوع من تفكير، والتفكير بيخرب متعة أي حاجة.

* * *

ردت «سارة» على السؤال الرابع بسرعة:

- أنا ما لحقتش أكوّن فلسفة.

وضحكت بسخرية مُكملة:

- أو عمري ما حاولت أصلًا! الفلسفة كلمة كبيرة قوي، بس يمكن اللي أقدر أقوله مؤخرًا إننا لو كلنا هنموت في الآخر، ليه الناس بيقتلونا قبل الأوان بكتير؟

* * *

ومسح على شعرها بحنان وهو يُكمل:

- أنا بحبك.

نظرت له بعين عاشقة واحتضنته أكثر، سمعا فجأة صوت رشاشات المياه، ليبتل جسداهما بعدها بثوانٍ، انتفضا ونهضا مُسرعَيْن حتى لا يبتلا أكثر، نظر «سامي» حوله في دهشة ليجد أن كل رشاشات المياه قد انفتحت في هذا الوقت من الليل، أمسك يدها وأخذ يركض معها بجسده البدين بعيدًا وهما يضحكان، حتى ابتعدا عن مجال المياه فتوقفا وهما يضحكان ويلهثان بقوة.

نظر «سامي» لها وقال بدهشة:

- الرشاشات دي ما بتتفتحش قبل الساعة تلاتة الصبح!

أسندت رأسها على كتفه وهي تلهث، وقالت مبتسمة:

- الساعة دلوقتي تلاتة يا حبيبي.

ضمها بذراعه وهو يقول مندهشًا:

- إزاي الوقت عدا كـ...

ولم يُكمِل جُملته..

هوى جسد «سارة» فجأة من بين ذراعه..

انتفض جسده وهو يحاول أن يمسكها قبل أن تقع، جذبها من ذراعها بقوة ليلحقها قبل أن يصطدم رأسها بالأرض، صاح يناديها مفزوعًا لكنها بدت كمن فقد الحياة، نظر حوله في ارتباك ولم يجد أي أحد حوله، التفت لها ثانية ولطمها على خدها برفق وهو ينادي اسمها بجَزَع..

حملها على ذراعيه وركض ناحية الفندق، احترقت عيناه من قطرات العَرَق المنسابة لكنه نفض رأسه وأكمل ركضًا، لا يدري هل المسافة بينه وبين الفندق ابتعدت أم أن جسده هو الذي يخذله كما يفعل دائمًا! كان الشاطئ بعيدًا عن الفندق كعادة تلك الفنادق، ربع ساعة حتى وصل للباب الرئيسي، دخل الفندق وهو يصيح في موظف الاستقبال:

- حد يكلم الإسعاف بسرعة.

انتفض الرجل من منظرهما وقال بسرعة:

- حضرتك تعالَ معايا في عيادة الفندق.

ذهب خلفه وقد تصبب جسده كله بالعَرَق حتى ذهبوا للعيادة. قال الموظف لـ«سامي» وهو يتحدث في الهاتف:

- الدكتور مش بيرد.

بدأ صدر «سامي» يعلو ويهبط من لهاثه، و«سارة» فاقدة للوعي تمامًا بين ذراعيه، عاد ذلك الألم اللعين في قلبه لكنه تجاهله، شعر بظهره يئن من الركض حاملًا «سارة»، لكن كيانه كله لا يعبأ إلا بإنقاذها فقط، فجأة سمع صوت مزلاج باب العيادة يُفتح، ليظهر من خلفه طبيب بدا على وجهه أنه استيقظ حالًا، دخل «سامي» العيادة وهو يدفع الطبيب بقوة دون استئذان ووضعها على الفراش، وقبل أن ينطق الطبيب قال «سامي» حتى لا يضيع الوقت:

- هي عندها سرطان دم، اكتشفته من شهر ونص تقريبًا، ما بتعالجش منه.
بدأ الطبيب يسأله بعض الأسئلة، و«سامي» يرد بكلمة واحدة تقتله من داخله.
«ما اعرفش أي حاجة تانية».

* * *

قررت «شيماء» أن تحاول النهوض من الفراش قليلًا حتى تشعر أنها على قيد الحياة.

استيقظت صباحًا، ارتدت ملابس واسعة فضفاضة، طلبت خدمة «بينك» حتى تأتي السائقة وتأخذها من تحت بيتها، لم تتحمل فكرة أن يكون السائق رجلًا، كانت خائفة خوفًا يؤذيها، جسدها يرتجف وتتصلب من مجرد الفكرة.

لكنها ملَّت من الفراش ومن البيت الصامت الكئيب.

هبطت للعربة عندما كلَّمَتها السائقة تُعْلِمها بوصولها، كادت أن تركض في المسافة البسيطة التي تفصلها بين باب العمارة والعربة، ما إن بدأت العربة في التحرك حتى أمسكت حقيبتها وضمَّتها لصدرها في خوف، كل ما حولها يثير رعبها، أرادت أن تقفز من العربة وتهرب لبيتها ثانية، ندمت على قرارها بالنزول في ثوانٍ.

كيف تَغيَّر كل شيء لتلك الدرجة؟

كيف كانت عمياء لا ترى في كل ركن مصدر خطر على حياتها؟ بل كيف شعرت بالسلام والاطمئنان يومًا؟ نظرت حولها بيأس وقد فهمت، هناك مَن نزع عدسات الأمان اللاصقة التي كانت تضعها على عينيها، ما حدث كشف قُبح كل شيء لها، زالت العدسات ورأت الحقيقة المجردة.

رأت القُبْح داخل كل السائرين في الطرق.

وصلت للمدرسة الخاصة، تركت مدرستها الحكومية كما تركت أهلها، عملت مساعدة مُدرسة، صديقتها التي تعمل هناك هي مَن رشحتها وتم قبولها بسهولة.

* * *

أجابت «شيماء» بعد فترة من التفكير على السؤال الرابع:

- فلسفتي سهلة لو ده أصلًا اسمه فلسفة، ما تحترش عشان في الآخر اختيارك ده هيوديك في داهية، ما تحترش تحب، ما تحترش تتجوز، ما تحترش أي حاجة، ربنا كاتبلك كل شيء، من أول ولادتك واسمك لحد ما أنت تموت أو ابنك يموت، يبقى تختار ليه وكل حاجة متحددة؟

* * *

لأول مرة تكره كل ما حولها لتلك الدرجة، تنظر لمكتبها فتشعر بانقباض في صدرها، تذهب للفصول فتتذكر ابنها مع كل طفل تراه، بكَت أكثر من مرة في صمت، تشعر أن قدميها ثقيلتان تحملانها بصعوبة..

عندما أتى أصدقاؤها ليرحبوا بها بعد هذا الغياب المفاجئ، شعرت أنها لا تعرفهم، وجوه غريبة عنها، ترى خلف ابتسامتهم المرحبة شياطينهم المختبئة في قلوبهم، جميعهم شياطين، جميعهم يتظاهرون بأشياء ليست فيهم.

شعرت بالتقزز من قُبلاتهم ولمساتهم، رمقت الفصول ووجدت أطفالًا هم شياطين صغيرة تتعلَّم كيف تعتنق الشر، رعب يجتاح كيانها ولا تستطيع أن تقاومه، حاولت أن تحتمل، قالت لنفسها إن عقلها يلعب بها، هم بشر وبالتأكيد داخلهم الصالح والطالح، أخذت مئات من الأنفاس العميقة عسى أن تهدأ قليلًا لكن بلا جدوى، تريد أن تصرخ وتنهار أمام الجميع لكنها صمدت وقتًا طويلًا.

حتى رأت ذلك المُدرس، زميلها وصديقها منذ أن أتت المدرسة، كان يحث الخطى نحوها في تِرحاب ويبتسم، رأت ذلك المسخ المُرعب في ملامحه، لم تحتمل وصرخت رعبًا، وانطلقت تركض تاركة كل شيء خلفها.

توقف زميلها في دهشة، التفت لمن حوله في تساؤل، لم يجاوبه أحد وهم يتابعون «شيماء» تركض خارج المدرسة مُطلِقة صرخة أخرى.

* * *

«خالد» لم يستطع أن يظل بعيدًا.

ظل كلَّ يوم يأتي للجراج، يجلس فيه دون أن ينطق كلمة، ثم ينصرف بعد ساعة أو ساعتين.

لم يحتمل الابتعاد عن هذا المكان الذي - رغم قُبحه - يرى فيه جزءًا من نفسه.

* * *

قال «خالد» وقد نظر للسقف ثانية مُجيبًا عن السؤال:

- فلسفتي إني معترف تمامًا بطبقية كل حاجة، حتى في الأهداف والأحلام، الناس اللي مستواها أحسن بتحقق أحلامها أسرع وأسهل، فلسفتي إني لازم أغيَّر، وإني مش موجود عشان ما يقاليش دور، لازم يبقى ليَّ صوت يوصل لكل الناس، عشان أبدأ أغيَّر من القرف اللي إحنا فيه.

* * *

لكن اليوم، أتى بحاسوبه المحمول، وجلس على الأرض، وبدأ يكتب..

ظل أكثر من ثلاث ساعات يكتب متواصلًا، تهبط دموعه ولا يعبأ بمسحها..

يا للزمن!

لم أتخيل للحظة أنني بعد أقل من عام، سأجلس مثله على أرض مكتبي، أكتب أيضًا لمن افتقدتها روحي..

كنت أتمنى أن أخبرك ماذا يكتب يا صديقي، وكنت أتمنى أن أُطمئنك على «خالد» في فقرة أطول من هذا، لكنه لم يفعل سوى هذا فقط، كما أن الكاميرا - مهما كانت جودتها - لن تستطيع أن تجعلني أقرأ ما يكتب جيدًا.

ثم إنني لا أحب أسلوبه في الكتابة من الأساس!

* * *

في «cairo jaz club»، مكانها المفضّل، كانت «آلاء» واقفة بجانب زوجها يتمايلان مع الموسيقى..

ارتدت فستانًا تحبه، لونه الأحمر يُبرز بياض بشرتها في جمال صارخ، بدت كإلهة جمال وسط الجميع، كان المكان شبابيًا جدًا، يقدم الخمور وموسيقى صاخبة، الجميع يرقص دون تفكير.

أرادت «آلاء» أن تستعيد جزءًا من مرحها لتنسى «طه» الأحمق وتجاهله لها، اعترفت داخلها أنها لا تشعر نحوه بأي شيء على الإطلاق، لكن كرامة الأنثى داخلها ترفض أن يتجاهلها رجل بهذا الشكل، كانت تريد أن تعرف ماذا فعل وكيف تطورت الأحداث كفضول ليس أكثر..

لكنه لم يكلمها طوال تلك المدة.

* * *

ضحكت «آلاء» ضحكة عالية وقالت مُجيبة باستهزاء:

ـ فلسفتي حمرا.

* * *

ضبطت نفسها تفكر فيه ثانية، فشربت من كأس النبيذ الأحمر الذي تعشقه، نظرت جانبها لتجد «هاني» زوجها قد ذهب ليرقص مع فتاة في مرح، ذهبت له ببطء ثم همست في أذن زوجها:

ـ عاوزة أرقص النهارده لحد ما انسى نفسي.

ترك زوجها مَن كان يرقص معها، التفت لها مبتسمًا وجذبها لترقص معه، وعلى عكس عادتها، رقصت «آلاء» كما لم ترقص من قبل، حركت جسدها على الإيقاع الصاخب للأغنية التي شعرت أن كلامها يلمس وترًا لا تريده..

Breathing you in when I want you out

«أتنفسك داخلي في الوقت الذي أريدك فيه أن تخرج».

Finding our truth in a hope of doubt

«نجد حقيقتنا في أمل من الشك».

Lying inside our quite drama

«نستلقي داخل درامتنا الصامتة».

نظرات زوجها المعجبة برقصها أثارت حماسها، بدأ أصدقاؤهما يلتفون حولها لتبتسم هي في إغراء كتفاحة آدم المحرَّمة، كانت تُتقن الرقص على الأغاني الأجنبية أكثر من الأغاني العربية، ما إن لمح الـ«دي جي» «آلاء» والتفاف الشباب حولها، حتى حوَّل لأغنيتها المفضلة رغم أن الأغنية قديمة نسبيًا، لكنها طلبتها مرارًا من قبل لأنها تعشقها. قال في المكروفون ناظرًا لـ«آلاء» مُحييًا إياها:

ـ «Please Don't Stop The Music» لـ«Rihana»..

قفزت «آلاء» من الاستمتاع وصرخت في فرحة، تركت نفسها لإيقاع الأغنية الصاخب، ورقصت رقصًا لم ترقصه من قبل، تتمايل في إغراء، أمسكت بيد «هاني» المُبتسم في إعجاب، أخذت تتحرك على جسده في حركات راقصة جعلت جميع مَن حولها يذوبون في أنوثتها وهي تحتك بجسده بطريقة الرقص الأمريكي، تلتف حوله كأفعى وكل جسدها يلمس جسده في سرعة، احمرَّت وجنتاها بشدة لكنها أغمضت عينيّها لا تفكر إلا في نظرات كل مَن حولها المُستمتعين برقصها..

مع انتهاء الأغنية رفعت يدها في تعب، لم يصفق أحد فضحكت، عادت مع «هاني» لمكانهما، صفق لها في انبهار، ارتشف من كأس الخمر الذي يشربه ثم قال باسمًا:

- إيه المواهب دي؟

قبَّلته في وجنته ثم وضعت يدها في حقيبتها لتُخرج هاتفها المحمول، لتجد ـ أخيرًا ـ أكثر من ٧ مكالمات لم يُرد عليها من «طه»، فتحت الرسائل وابتسمت في ثقة عندما وجدت رسالة منه، فتحتها في لهفة لتختفي ابتسامتها تمامًا!

كان المكتوب جملتين فقط:

«معلش إني غايب بقالي فترة،

أنا طلقت مراتي».

الحادية عشرة

لكل شيء في الدنيا وجهٌ قبيح
لا تترك حياتك يائسًا لأنك تخاف منه
تَقبَّلْه
وحاول عمرك كله أن تتأمل في هذا القُبح، وأخرج منه أجمل ما فيه
في صمت!

«إيه يا بنتي، كنتِ فين إمبارح؟».

ما إن استيقظت «آلاء» في اليوم التالي حتى هاتفت «طه»، ضرب الجرس أكثر من مرة، همت بالإغلاق لكنها سمعت صوته الكئيب يرد قائلا ما قاله، صوته جعلها تشعر براحة ما، قالت ساخرة:

ـ ما هو أنا مش خدامة الماما بتاع حضرتك، تغيب براحتك ولما أهِف على دماغك وتكلمني أرد على طول!

قال وهو يتثاءب من الملل:

ـ والله يا بنتي أنا عاوز أكلمك من بدري، بس أم الظروف.

أراحت جسدها على الفراش، وتثاءَبَتْ مع تثاؤبه تلقائيًّا، وقالت بصوت مرح:

ـ بطَّل تثَّاوب عشان هتلاقيني نِمت منك، إيه بقى حوار إنك طلقت مراتك ده؟ ما كملتش معاك لما عرفت إنك بتقول صوبع، صح؟

لم يضحك فقررت أن تكف عن المزاح، حكى لها باختصار عن كل شيء..

زوجته ما إن سمعت الكلمة حتى انهارت في البكاء وأصرت أن تذهب لبيت أمها، حاول أن يصلح ما أفسده لكنها صممت على الطلاق، قالت إنه إذا جرؤ وقال الكلمة مرَّة، فهذا معناه أنه سيقولها كثيرًا في المستقبل، أصبحت لا تثق فيه، ولم تنجح محاولات حماته لتهدئة الأمور.

تأتأت «آلاء» وقالت بلهجتها الخبيرة:

ـ ما تقلقش، فُكك من كل الهَبل ده، ده مُحن بنات أنا عارفاه كويس.

أطلق تنهيدة بطيئة كئيبة، فقالت مبتسمة:

ـ حتى لو هي مصدومة يا عيني ومش طايقاك، مالهاش غيرك، أمها هتزن عليها وهتقنعها إن كلمة مُطلقة دي كلمة أبيحة ولا مؤاخذة، وهي تلاقيها ما صدقت تخرج من قرف أبوها وأمها.

وغمزت بعينيها رغم أنه لا يراها:

ـ صدقني، هيَّ عاوزاك تعتذر شوية أكتر، بتملَّص ودانك من الآخر، وهترجعلك.

قال «طه» ما لم تكن تتوقعه:

- بس أنا مش عاوزها ترجع.

لم ترد، فأكمل هو بصوت هادئ:

- أنا مُتهم طول الوقت، مطلوب دايمًا أثبت لها إني كويس، إني مش خاين، صريح دايمًا معاها ومش باخبي حرف عليها، موبايلي مفتوح أربعة وعشرين ساعة قدامها، إحساس بشع لما تبقى عايش مع واحدة دايمًا بتتهمك بحاجات مش فيك، دايمًا عندها شك ومش بترتاح إلا لما تقلب الدنيا خناق. عارفة يا «آلاء»، أنا فيَّ حاجات وسخة كتير، بس وساخة الخيانة مش فيَّ، أنا ممكن غصب عني أعوز واحدة، تشدني شخصية واحدة تانية، بس عمري ما دماغي جابت أبعد من كده.

شعرت أنه يريد أن يتحدث، فصمتت تمامًا ليُكمل هو:

- أنا اللي دايمًا بامسك أعصابي في الخناقات عشان هي عصبية ومش بتعرف تمسك نفسها، أنا اللي باوطّي للموجة عشان تعدي..

فردَ ظهره على الكنبة الصغيرة وقال وهو ينظر للسقف:

- من ساعة ما هي راحت لأمها وأنا حاسس إني باتنفس هوا نضيف، أخيرًا مافيش حد شايفني وحش، أخيرًا أنا مش متهم بأي حاجة، أكتر حاجة مضايقاني إني كنت صريح معاها جدًّا، أنا عارف إنه مش منطقي، عارف إنها خطة وسخة إني أضحك على واحدة عشان أذل بيها حد، حاجة ماحدش في الدنيا يستحملها.. بس كانت تعمل حساب صراحتي، تقدَّر إني واضح معاها، تعرف قد إيه موضوع حقي اللي مسروق مني ده مخليني عاوز أعمل كل حاجة عشان أرجعه.

وزفر مرة أخرى بقوة، وقال محاولًا تغيير الموضوع:

- مش مهم بقى، غصب عني هاروح أصالحها عشان ما باحبش أبقى جاي على حد، وهترجع كل حاجة لمجاريها تاني.

شعرت «آلاء» بالشفقة عليه، فقالت مبتسمة تحاول أن تُخرجه من تلك الحالة:

- طب تعالَ ننزل نقعد في أي حتة، ونكمل الخطة بتاعة السبعينيات دي عشان نبهدل عمك.

ضحك ضحكة قصيرة، في حين تلفتت هي حولها وقد جاءتها فكرة تحمل جنونًا أعجبها:

- ولًا أقولك إيه، أنا مش قادرة أنزل، تعالَ البيت، أنت لحد دلوقتي ما زُرتنيش يا عم.

صمت هو لحظات كأنما تعجب من عرضها، في حين فهمت هي ما في عقله وأسعدها قليلًا، قالت آمِرة:

- يلًا، البس وتعالَ.

ابتسمتْ عندما وافق، ونهضتْ مسرعة لتجهز نفسها لاستقباله..

* * *

لأن «شيماء» أجَّرت تلك الشقة منذ ما يقرب من عام ونصف الآن، بعد موت ابنها، لم تفعل أي شيء لتزيينها.

أجَّرت الشقة ولم تُعدِّل فيها شيئًا، دفعت من مدخراتها ومؤخر طلاقها ثمن غرفة نوم فقط، كانت الشقة تحتاج إلى دهان جديد لكنها لم تهتم، قالت لنفسها إن روح الشقة الكئيبة تناسب ما تشعر به..

الآن أصبحت تكرهها..

تنظر للحوائط الكئيبة الصامتة، كانت الحوائط ممتلئة بثقوب كثيرة، آثار مسامير قديمة لعائلة كانت سعيدة بالتأكيد، تشعر أنها مثل هذا الحائط بالضبط، مر عليها الزمن يدق مسامير الذكريات داخل روحها منذ أن وُلِدت، ثم انصرف تاركًا ثقوبًا فارغة تبقى داخلها مدى الحياة.

أسئلة تؤلمها ولا تستطيع تجاهلها..

لماذا أصبحت ترى الجميع شياطين حقيقية؟ لماذا تخاف من النزول بهذا الشكل؟ بل لماذا أصبحت ترى كل الوجود كئيبًا مقبضًا؟ حاولت أن تُقنع نفسها أن كل ما حدث لها هو مجرد أحداث في رواية خيالية، هي لم تُغتصب بل شخصيتها في الرواية هي التي اغتُصبت.

ما حدث كان مجرد خيال مريض..

إذن لماذا عبث الخيال في عقلها وجعلها ترى الواقع ببشاعته الحقيقية؟

جالسة على الأرض ضامة ركبتيها لصدرها متضاربة الأفكار، سمعت صوت الهاتف فجأة فانتفض جسدها، رفعت السماعة بعد لحظات من التردد، لم تقل شيئًا لتجد صوت زوجها يقول بهدوء:

- «شيماء».

قالت بصوت مبحوح:

- أيوة.

سمعتْ صوت تنهيدته كأنما سيقول شيئًا ثقيلًا على صدره، ثم قال بسرعة كأنما يُلقي الأمر في وجهها:

- أنا هاتجوز إن شاء الله قريب، حبيت بس أقولك عشان عيب تعرفي من حد غريب.

قالت بعد فترة صمت:

- مبروك يا «محمد»، أنت تستاهل كل حاجة كويسة.

وأغلقت الهاتف دون أن تسمع إجابته، لتشعر مع صوت السماعة بشعور وحدة غريب يجتاحها، لم تكن تُحبه، لكن زواجه يعني أنه ذهب بلا رجعة، ذلك الحائط البعيد الذي كانت تستند عليه انهار تمامًا..

متى أصبحت وحيدة بهذا الشكل؟

تلك الوحدة تبدو الآن أكثر قسوة من موت ابنها الوحيد..

وجدت نفسها تُميل رأسها على الحائط الكئيب وتبكي، لتسمع صدى بكائها يتردد في الشقة الخالية..

ووسط بكائها، وقعت عيناها على «بليزر» رمادي في أغمق درجاته، مُلقى أرضًا بإهمال..

* * *

كان كل شيء يمر ببطء بالنسبة لـ«سامي»..

كأن كل الموجودات اتفقت أن تثير غيظه بتريثها..

ظل يحدق في باب العيادة المغلق، بعد أن أخرجه الطبيب ليكشف عليها، اهتزت قدمه في سرعة مجنونة، لم يكن يريد أن يودع أحدًا آخر، بدأت دموعه تنساب رغمًا عنه، يريد أن يعرف ماذا حدث لها وفي نفس الوقت يريد ألَّا يعرف، خبرته في حياته عوَّدته أن الطبيب دائمًا يعود بأخبار سيئة، ما من مرة انتظر فيها نفس الانتظار، إلا ويجد ملاك الموت ينظر له من خلف الطبيب ساخرًا..

أبوه، أمه..

نفس الجلسة العاجزة في انتظار طبيب آخر يخبره أنه آسف..

شعر أن قلبه هو الوحيد الذي يدق بسرعة مجنونة، كل شيء آخر يمر بالتصوير البطيء، لماذا أخذ هذ اللعين كل هذا الوقت؟ ألا يعلم أن هناك مَن يموت في الخارج ليطمئن على نصفه الآخر؟ هل لا يعلم كم هو مؤلم العثور على هذا النصف من الأساس؟

وجد فجأة اثنين يرتديان زي رجال الإسعاف يركضان ناحية غرفة العيادة، نهض متوترًا ينظر لهما نظرة غير فاهمة، تركهما الطبيب في الداخل وخرج له، ملامحه لا تدل على شيء مما أعطى «سامي» أملًا طفيفًا جعل قلبه يخفق..

هذه المرة ملامح الطبيب ليست آسفة..

قال الطبيب بنبرة معتذرة:

ـ أنا آسف..

صرخةٌ داخله دوَّت لتحتل كيانه كلَّه، وهو يشعر بالكلمة تخترق قلبه وتنتزعه بقسوة..

حدق في الطبيب بعين مصدومة، ليحترق ألمًا والطبيب يقول رابتًا على كتفه:

ـ «سارة» تعيش أنت..

الثانية عشرة

في نهاية كل شهر، ذروة
حاول أن تبتعد عنها قدر استطاعتك

دوى صوت «سعاد ماسي» في الغرفة، فابتسمت وأنا أكمل كتابة..

«احكِ يا الراوي احكِ حكاية،

ما دابيك اتكون رواية،

احكِ لي على ناس زمان

احكِ لي على ألف ليلة وليلة

وعلى لونجة بنت الغولة، وعلى وليد السلطان».

* * *

فتحت «آلاء» باب شقتها، ليرتفع حاجبا «طه» في إعجاب لم يستطع أن يخفيه..

كانت ترتدي نفس الفستان الأحمر، شعرها الرائع ينساب على كتفها وظهرها العاري، تظهر ساقها البيضاء تمامًا من فتحة في الفستان، مثال للإغراء في أنقى صوره، عدَّل «طه» من نظارته وقد عجز لسانه عن الكلام، لتبتسم هي من نظرته وتقول:

ـ أول مرة تشوف بنت ولّا إيه؟

ليرد دون أن يستطيع أن يُبعد عينيه عن جسدها:

ـ لأ، بس أول مرة أشوف القمر من قريب قوي كده.

ضحكت في استهزاء، قالت وهي تشير له أن يدخل:

ـ حتى في معاكساتك قديم.

دخل بتردد وهو يتلفت حوله متسائلًا:

ـ أمال فين أستاذ «هاني»؟

قالت بإشارة مُستهينة:

ـ في شغله طبعًا، وبنتي في الحضانة مع المربية، مافيش حد في البيت غيرنا.

لم يستطع منع أفكاره التي حيَّرته منذ مكالمتها وعرضها عليه، كان يريد أن يثبت لنفسه أنه ليس وغدًا وأنها دعته كصديق فقط، لكن كلامها

وما تفعله يجعله - رغمًا عنه - يفكر في أن يفعل كل شيء معها، تنحنح ودخل بثقة أكبر، جلس بعيدًا عنها قليلًا حتى لا يعطيها أي انطباع خاطئ، فنظرت له هي بتساؤل وقالت:

- قاعد بعيد ليه كده؟

لم يحتمل أن يصمت أكثر من هذا، فقال بصراحته المطلقة معها:

- الصراحة مش عارف أفكر إزاي، باحاول أبقى نضيف في تفكيري بس مش قادر.

ضحكت ضحكة مرحة، هي أيضًا لم تفكر وتركت نفسها لإحساسها المجنون، كانت تتصرف بدافع غريب داخلها لا تدري ما هو، منذ أن دعته وهي تعلم أن هناك احتمالية لحدوث شيء ما، قالت لنفسها حتى لا تزعج بالها، إنها ستترك ما يحدث يحدث!

قالت له وهي تنهض بحماس:

- تعالَ أوريك الشقة.

قال وهو ينهض ضاحكًا ومحذرًا:

- يا بنتي، أنا لو فيلم أبيح مش هيحصل كده.

* * *

حاجيتاك ماجيتاك

وادّينا بعيد من هاذ الدنيا

حاجيتاك ماجيتاك

كل واحد منّا ف قلبه حكاية

* * *

ضحكت وهي تمسكه من يده ساحبة إياه خلفها، لم يحتمل أكثر من هذا، أمسكها من ذراعها وجذبها إليه ليُقبلها في عنف، دفعته هي من المفاجأة بعيدًا ونظرت له داخلها مشاعر عنيفة متضاربة، لينظر لها هو نظرة لم ترَ أكثر منها اشتعالًا بالرغبة..

هو يريدها، بشدة..

كل ما حدث حتى تلك اللحظة، لم يقترب بالنسبة لها من حاجز الخيانة، لكنها الآن واقفة على حافة مخيفة، منذ أن تزوجت وهي مخلصة تمامًا لزوجها، لم تسمح لنفسها بخطأ واحد يجعلها تندم، أقسمت على نفسها إنها لن تقع في نفس الدائرة القذرة ثانية، لكن بعد ثلاث سنوات كاملة سئمت، تريد أن تشعر ولو بقليل من الإثارة، نظرت لعين «طه» الذي لم يتحرك تاركًا لها الاختيار الوحيد المطروح.

أن تخون وتشعر بكل شيء تفتقده، أو أن تظل مخلصة وتعود لحياة مملة..

نظرت لـ«طه» وابتسمت ابتسامة حانية، ثم سحبته من يده على غرفة النوم، ليستسلم لها «طه» تمامًا ويمشي وراءها مشدوهًا..

وكان الاختيار واضحًا..

* * *

السؤال الثالث: أنت جيت هنا ليه؟

نظر لي «رامي» - أخيرًا قد ظهر دوره الآن - لحظات، كانت كل إجاباته حتى الآن هي سباب مستمر مما جعلني أفقد الأمل فيه، لكنه رد هذه المرة بجدية:

- يمكن ما تصدقنيش، بس الدافع الوحيد عندي إني زهقت، إنك لوحدك ومافيش حد حواليك ولا حاسس بيك، يمكن عاوز أفهم أنا ناقصني ليه عشان أعيش زي بقية الناس! كلهم قدامي متجوزين وعايشين وحياتهم بتمشي لقدّام، ليه أنا الحياة واقفة عند حتة معينة مش راضية تتحرك؟

ومال عليّ مكملًا:

- أنا مستعد أعمل أي حاجة عشان أفهم، زهقت وعاوز أشوف أنت هتعمل إيه فيّ جديد، أنا جاي هنا أتحداك، أتحداك تعيشني حاجة جديدة أحس بإحساس جديد فيها.

* * *

لم يعد «خالد» يشعر بأي شيء حوله.

خرج مرتين أو ثلاثًا فقط ليأكل ثم يعود للجراج ويجلس ليكتب.

أصبح الجراج هو حياته الوحيدة الآن، هاتفه المحمول ماتت بطاريته منذ أيام ولا يريد أن يحييها ثانية، حاسوبه على قَدمه يكتب فيه موصولًا بفيشة قديمة حتى لا يفصل لحظة واحدة..

مشكلته أنه كان يمسح كل ما يكتبه بعد بضع صفحات..

كان يكتب عنها..

كان لديه أمل ضئيل أنها ستعود لهذا المكان، إما للانتقام والقبض عليه، وإما لأنها افتقدته، كان يعلم أن هذا درب من الجنون، لكنه لم يبالِ، ظل يتمسك بهذا الأمل ولا يغادر الجراج خوفًا من أن يغيب ثواني، تأتي هي فيها..

كان يريد أن يريها كل ما كتب عندما تأتي، لهذا كان يكتب بجنون، آملًا أن تقرأ ما يشعر به، تفهم لماذا فعل كل هذا، تعرف أنها جعلته يرى قذارته أمام عينيه، فلن يحتمل أن يعيش دقيقة واحدة دون أن تسامحه..

سمع صوت خطوات، فشعر للحظة أنه يهذي، ضوء الحاسوب أمام عينيه يجعله لا يرى أبعد من هذا، هل «كَنْخُدَا» قرر أن يطرده بعد أن أثبت «خالد» أنه أسوأ بطل رواية في التاريخ؟ علا صوت الخطوات، فاعتدل جسده وضيَّق عينيه ليحاول أن يرى.

ورآها.

«شيماء».

* * *

احكِ وانسى بلّي إحنا كبار

في بالك كلّي رانا صغار وان آمنوا كل حكاية

احكِ لنا على الجنة

احكِ لنا على النار وعلى الطير لي عُمرُو ما طار،

فهّم لنا معنى الدّنيا

* * *

كانت ترتدي فستانًا أبيض، علي كتفها الرقيقة البليزر الرمادي، ينسدل شعرها كالموج على ظهرها، واقفة كتمثال تنظر إليه، سَرَت قشعريرة في جسده كله وهو ينتفض واقفًا، ارتطم الحاسوب على الأرض في قوة لكن لم يعبأ، تساءل بلهفة الدنيا:

- «شيماء»؟

كانت صامتة. وجهها جامد. سارت ببطء إلى الحائط الذي قيّدها أمامه. ذهبت إلى البقعة كأنها تحفظها، التقطت الحبال في صمت خلفها نظراته المذهولة، جلست على الأرض وبدأت تربط قدمها في هدوء، تربطها ببطء شديد كأنها تستمتع بما تفعل..

أمسكت الحبل الآخر بيدها، وجسدها يرتجف كأن روحها تتسلل من بين أصابعها ذاهبة إلى تلك الحبال، روح تتركها مُعترفة أنها بهذا القيد أكثر قيمة من دونه، ثم لفّت الحبل الذي سكنته روحها راضية حول معصمها..

مدت «شيماء» يدها إليه، قائلة بلهجة صارمة:

- اربط الحبل.

ذهب دون أن ينطق بكلمة، داخله إيمان راسخ أنه يهلوس وكل ما يحدث مجرد حلم، ربط الحبل على معصمها لتسند هي رأسها على الحائط في صمت. ظل واقفًا أمامها كتمثال من الشمع لا يدري ماذا يقول. يتأملها ولا يُصدق أنها حقيقة أمامه..

هل حقًّا عادت إليه؟

لا يعلم كم مر من الوقت وهو ينظر لها، فترة طويلة حدق فيها دون أن ينبس ببنت شفة، جلس على ركبتيه لا يدري هل يبتسم أم يبكي..

بعد فترة طالت، قطعت الصمت بصوتها المبحوح، نظرت له نظرتها الجامدة وقالت بهدوء:

- أنا اخترت أكمل.

لم يصدق ما يسمعه، في حين سالت دمعة وحيدة من عينها اليسرى،

وهي تُكمل بصوت فاقد للحياة:

- أنت الوحيد اللي مش عارفة أشوفه شيطان.

* * *

السؤال الرابع: لو ليك فلسفة، إيه هي؟

ضيق «رامي» عينيه لحظات، ثم قال:

- إن مافيش دنيا، ومافيش آخرة، مافيش أي حاجة، كلها أساطير وماحدش فينا عارف الصح والغلط فين، مش يمكن اللي أنا عايشه ده هو الجحيم أو النار وربنا بيعاقبني؟ ويمكن الجنة هي إني أعيش مبسوط؟ عارف والله إن اللي باقوله بالنسبالك هبل، بس أنا شايف إن في حاجة غلط، كل حاجة فيها حاجة غلط ومش منطقية، لو مشيت ورا مصدر أي قواعد أو أساسيات عندك هتلاقيك وصلت لطريق مسدود، هتلاقي المصدر دايمًا مبني للمجهول، بالتالي فلسفتي واضحة من الأول بس أنت اللي مش فاهمني.

واعتدل مُكملًا بهدوء:

- .. أم الحياة!

* * *

لم يَنَمْ «سامي» للحظة حتى اليوم التالي..

جلس وحيدًا أمام البحر في صمت تام..

قال الطبيب إن موتها لم يكن بسبب المرض، لكنها «جلطة» مفاجئة في المخ، سأله «سامي» لحظتها أنه يعرف جلطة المخ ويعرف حالات كثيرة نجت منها بأضرار خفيفة، ليقتله رد الطبيب:

- ده لو اتلحقت في الوقت المناسب، أنت اتأخرت في إنك تجيبها.

هل ركضه البطيء هو السبب؟

هل لو كان ضَغَط على جسده اللعين في الحركة أكثر، كانت ستحيا؟

يقتله السؤال داخله، سكين بارد يقطع أوتار قلبه حزنًا، لماذا الآن؟ لماذا

لم يعطِها القدر من السعادة أيامًا أكثر؟ نظر للسماء وقال بغضب مكتوم:

ـ ما هيَّ كانت كده كده هتموت.

أغمض عينيه في يأس، لم يبكِ لأنه أصبح بارد المشاعر، لو سألوه عن إحساسه فسيرد أنه الأمر المعتاد في حياته، بل إنه لهذا السبب لم يتعلق بمخلوق منذ وفاة أمه وبعدها أبيه، خاض علاقات كثيرة لكنه لم يسمح أن يدخل أحد قلبه، حتى لا يتألم عند الفراق.

لكن «سارة» تسللت إلى قلبه دون أن يشعر..

مرت ساعات وهو صامت كحجر، حتى بدأت أشعة الشمس في الشروق..

شعر بغصة في حلقه وهو يجلس في نفس المكان الذي كانوا فيه قبل أن تذهب وتتركه، يشاهدان الشروق معًا، اعتدل في جلسته فجأة وهو يتذكر ما قالته منذ أيام طويلة، في أول أيام سفرهما، كانا هنا، في مكانهما المفضل، وقالت له برقة:

ـ أنا عاوزة أقولك حاجة كئيبة، بس وعد مش هاقول حاجة وحشة بعدها تاني. عاوزاك تسيبني أقولها من غير ما تقاطعني.

ابتسم ناظرًا لها في تساؤل، لتقول هي:

ـ أنا لو مت، عاوزة أتدفن هنا، عند البحر.

وأكملت بابتسامة فرحة صافية:

ـ أنا اتولدت هنا، وعاوزة أموت هنا.

قال لها بطريقته الساخرة:

ـ وليه يا أمي تعب القلب ده؟ أنتِ عاوزاني بشكلي ده أحفر في الشط لحد ما أفرهد، وأدفنك عشان ييجي طفل بعد عشرين سنة يلاقي جمجمة في الرمل ويتعقد بقية عمره؟ لأ طبعًا.

ابتسمت ابتسامة هادئة، ثم قالت بإصرار:

ـ علشان خاطري، إوعدني عشان أقفل الموضوع الكئيب ده.

قال بجدية قلَّما يتحدث بها:

ـ وعد.

* * *

احكِ يا الراوي كيما حَكاولك، ما تزيد ما تنقّص من عندك، كاين لي أي شفاو وعلا بالك..

احكِ ونسّينا من هاذ الزمان، خلّينا ف كان يا ما كان..

في كان يا ما كان

* * *

«وعد».

كررها ثانية وهو ينهض مسرعًا، على ملامحه إصرار غريب وفي عينيه دموع محبوسة، لم يعبأ أن الساعة تجاوزت السابعة صباحًا وكلّم صديقه أكثر من عشر مرّات حتى رد صوته المتثائب، أخبره «سامي» بكل شيء، أخبره أنها كانت وصيتها الوحيدة، ليصمت صديقه تمامًا لحظات، ثم يقول بهدوء:

ـ بس أنت لازم تطلّع تصريح دفن، وإنتَ بتقول لي إنك مش جوزها..

صاح «سامي» فيه بغضب لأسلوب صديقه الذي يوحي بالرفض:

ـ مش مهم..

صمت صديقه لحظات، ثم قال:

ـ أنا مقدر اللي فيك، بس كده إنت بترتكب جريمة وعاوز الفندق يشاركك فيها، كمان أهلها أكيد هيدوروا عليها ويبلغوا الشرطة وساعتها...

قاطعه «سامي» بصرامة صارخًا فيه:

ـ في وقت قبل كده إنت كنت في موقف أوسخ من ده وأنا طلّعتك منها تمامًا.. إنت قلت لي إنك مديون لي بعُمرك كله.. أنا عاوز رد الدين ده دلوقتي..

ساد الصمت لحظات، ثم سمع صوت صديقه يقول بنبرة حازمة:

ـ هاشوف أنا هاعمل إيه حاضر.

يعرف أنه أحرق آخر كارت مع صديقه هذا لكنه لم يبالِ، لم يعد يرى سوى وصية «سارة» أمام عينيّه، ولو احترق الكون فسيفعل لها ما أرادت..

لم تمر أكثر من ساعة، ليجد مدير الفندق يكلمه، يخبره أن هناك مكانًا في الشاطئ مهجورًا لا يذهب إليه أحد، قال إنهم سيدفنونها فيه تحقيقًا لرغبتها، بل وقال إنهم قد يجعلون هذا المكان باسمها فقط، لا يعرف ما مركز صديقه في هذا الفندق لكنه استنتج أنه أعلى من كل شيء. شكر مدير الفندق بشدة وهدأ قلبه للحظات في ارتياح..

ارتياح مؤقت، ما إن ظهر حتى اختفى وهو يتذكر أن «سارة» تركته للأبد..

شعر بكيانه يرتج ثانية وهو يتذكر ابتسامتها الفرحة بكل شيء..

«سارة» ماتت..

وجد أحد عاملي الفندق يأتي له ويقول بهدوء:

- إحنا غسّلنا المرحومة، وهندفنها دلوقتي.

انقبض قلبه ثانية في ألم، ذهب خلفه كالمحكوم عليه بالإعدام. كل تلك الأحزان لا يحتملها قلبه، كفّنوها وصلّوا عليها في جامع الفندق، ذهبوا بها إلى الشاطئ البعيد ليبتسم «سامي» رغمًا عنه، شاطئ صغير جدًّا لا يزيد عن ثلاثة أمتار، تحيطه الصخور من كل جانب..

لن يزعجها أحد أبدًا في هذا المكان، بدا أنه خُلق خصيصًا من أجلها..

حفروا حفرة عميقة ليضعوا فيها جسدها، كان هناك أحد العمّال يقرأ قرآنًا بصوت عالٍ فشعر بدموعه تهبط أخيرًا، رآها وهي تذهب ثم يردمون عليها التراب في سرعة، وقف كالطفل يبكي ولا يعرف ماذا يفعل، ذهبوا جميعًا في حين ظل هو ينظر للمكان الذي دُفنت فيه لا يريد أن يتحرك..

لم يكن يتخيل أنه أحبها بهذا الشكل..

بل لم يكن يتخيل أن داخله هذا القدر من المشاعر..

كان قد استسلم منذ فترة طويلة لفكرة أنه بلا إحساس أيًّا كان، يسخر

من كل شيء، يعبث بمنطق الحياة كما يريد، لكنه لن يسمح لنفسه بأن يشعر..

ماذا فعلت «سارة» في قلبه حتى يشعر بهذا الكمّ من الألم عند ذهابها؟

شعر بمَن يربت على كتفه ويتنحنح، فالتفت إليه حزينًا وهو يمسح دموعه بيده، ليجد رجلًا من عمّال الفندق يسأل:

-أستاذ «رامي محمود راضي»؟

* * *

قال «رامي محمود راضي» ببلاهة، في جلسة أخرى وموعد آخر:

-لسة مش فاهم قصدك.

قلت بغضب مفاجئ:

-مش مسموحلك تقاطعني وأنا باتكلم!

* * *

رد «رامي» بعينيه الباكيتين وهو يلتفت ثانية لقبر «سارة»:

-أيوة.

أعطاه ظرفًا مكتوبًا عليه من الخارج «كَتَخُدَا» وهو يقول:

-البقاء لله يا فندم، بس الجواب ده وصل لك دلوقتي.

وانصرف، تاركًا «رامي» ينظر لقبر «سارة» بائسًا، فتح الجواب بعد لحظات طالت، ليجد صفحة بها كلمات قليلة جدًا:

«أعتقد إن أنا كسبت التحدي، وعرّفتك حاجة ما تعرفهاش عن نفسك».

* * *

السؤال الخامس: لو مت، نِفسك بعد موتك تبقى عملت إنجاز إيه؟

لم يأخذ «رامي» وقتًا تلك المرة ورد بسرعة:

- إني خليت حد في حياتي مبسوط من جواه، إني أغير فيه ولو حاجة صغيرة، أنا مش عاوز إنجاز كبير، أنا عاوز أسعد واحد من قلبه، عشان أنا

عمري ما عرفت معنى السعادة الصافية الحقيقية دي.

* * *

بخطوات بطيئة لقدم لم تعد تحمله، خرج «رامي» من الفندق تاركًا خلفه قلبه مدفونًا وسط الرمال.

ركب عربته التي تنتظره، ما إن ركبها حتى دوى صوت الهاتف جانبه، كان يعرف أنه أنا، مَن سيكون سواي؟ قلت له ما إن سمعت صوته:

ـ البقاء لله..

صمتَ «رامي» تمامًا، لم أتحدث لأني أريده أن يبدأ هو الكلام، بالفعل بعد دقائق طويلة قال بصوت متحشرج:

ـ أنا ما كلمتكش النهارده، عرفت إزاي اللي حصل؟

أجبت بهدوء:

ـ لما تكون بتكلمني كل يوم عشان تحكيلي، وإمبارح ما تكلمنيش، يبقى أكيد حصل اللي أنا وأنت متوقعينه.

هبطت دموعه رغمًا عنه، فأكملتُ بابتسامة هادئة:

ـ أنت اللي اخترت تكمل في القصة، أنا حاولت أمنعك.

لم يرد عليَّ واستمر في بكائه الصامت..

أغمضت عينيَّ بهدوء، أمامه رحلة طويلة حتى يعود لي في القاهرة.. لا بد أن أفكر على مهل في بداية الشهر الثاني وأحداثه..

* * *

حاجيتاك ماجيتاك

كل واحد منَّا ف قلبه حكاية

كل واحد منَّا ف قلبه حكاية

* * *

الجزء الثاني

عن تغيُّر الأرقام المستمر والأحداث المتلاحقة في ثاني الشهور

الثالثة عشرة

أنت أعمى، تذكَّر دائمًا أنك أعمى بلا بصيرة

أنت ضعيف تتخبط في مسارات عشوائية

فلا تظن للحظة أنك ترى الحقيقة

أنت لا ترى إلا من خلال ضوء عيني أنا فقط!

١٢:٠٠ ظهرًا

أتت «علياء» بصينية ضخمة عليها أكل كثير، نظرتُ لها بدهشة عند دخولها، نسيت وجودها من الأساس بسبب انغماسي وأنا أكتب، قلت ساخرًا:

-ساعتين بتعمليلي قهوة؟

قالت لائمة، وهي تنحني لتضع الصينية على الأرض بجانبي:

-بيتك ما فيهوش حاجة واحدة ينفع تتعمل، نزلت جبت كل حاجة وجيت.

نظرت للأكل الكثير الذي أعدته، لم أبالِ وأنا آخذ فنجان القهوة فقط وأقربه من أنفي لأشم رائحته في استمتاع. قد تكون قهوتها رديئة، لكنها قهوة في النهاية، قالت «علياء» بعتاب الأمومة الدائم:

-يعني أنا عاملة كل ده عشان تشرب قهوة بس في الآخر.

أومأت برأسي إيجابًا، وأنا أرتشف القهوة التي أسكرتني رائحتها، كان طعمها عاديًا لكنها تؤدي الغرض، ليست رائعة كما تُعِدُّها «ديما»، لكن لا بأس بها، واضح أنها اجتهدت هذه المرة وهي تُعدها لي.

قالت وهي تقطع رغيفًا وتبدأ في الأكل، دون أن تُجبرني على الأكل:

-أنت بقالك قد إيه ما نمتش؟

بيدي التي تحمل القهوة، رفعت لها ثلاث أصابع، ثلاثة أيام لم أنم فيها وأجلس نفس الجلسة، بدأت الكتابة البارحة فقط، عندما وجدت الكتابة تؤثر على ركضي اليومي، عرفت أن عقلي سيهدأ فقط عندما أكتب الرواية.

لم تبالِ هي ببردِّي الصامت، قالت بلهجة مَن يتوقع مصيبة:

-وإيه اللي بتاخده عشان تفضل مِرَكِّز وبتكتب؟

أحيانًا تفهمني لدرجة تثير اندهاشي، قلت باقتضاب:

-ترامادول.

أومأت برأسها كأنها كانت تتوقع الإجابة، لم تعلق وأخذت تأكل بجوع حقيقي، تأملتها لحظات مبتسمًا نصف ابتسامة، شاعرًا بمتعة افتقدتها بأنني

في صحبة كائن حي، محاولًا أن أريح عقلي قليلًا قبل أن أعود للكتابة، قلت لها بوجه جامد:

ـ أنتِ مقتنعة إن أنا أحسن فعلًا وأنا لوحدي؟

قالت وهي تنظر غير فاهمة، ثم قالت وهي تبتلع لقمة من الواضح أنها كانت كبيرة:

ـ أنت بتشوف كل حاجة بعينك أنت بس. ومستنّي الناس كلها تشوف اللي انتَ شايفه.

لم أفهم ماذا تريد أن تقول، فقالت مفسرة:

ـ أنت مهووس بأفكارك بس، وطُز في أي حاجة تانية، ممكن تفضل ستين بتراقب الناس عشان تكتب قصة واحدة بس، وأول ما الفكرة تجيلك تعمل المستحيل عشان تنفذها، في وسط العملية دي كلها ما بتعملش حساب لأي حد من اللي حواليك، كأن الكون كله المفروض يتقبلك بجنونك ويستحملك زي ما أنت.

ثم ضحكت، كأنها تتذكر شيئًا ما وهي تقول:

ـ فاكر لما حبيت تكتب عن بنات الليل وحياتهم؟ رُحت أجَّرت ١٥ واحدة، وقعدت شهرين بتبَدِّل فيهم، تنام معاهم وتحقق مع كل واحدة!

ابتسمتُ للذكرى، الذي لا تعرفه «علياء» أنني قد أُصبت بعدها بمرض جنسي لم أُشفَ منه إلا بعدها بشهرين، أكملتْ هي حديثها بنفس الضحكة:

ـ ولّا لما كتبت عن البطل الأعمى، وفضلت فترة طويلة رابط شاش على عينيك عشان تعرف بيعيشوا إزاي؟

ابتسمت في عدم فهم، ما الغريب فيما تقول؟ أليس هذا ما يفعله الجميع؟ عندما تكتب عن شيء تعيشه بتفاصيله حتى تنقله بدقة، نظرت لها لا أعرف مغزى إجابتها، فأكملت هي بعد فترة من الصمت:

ـ مافيش حد يستحمل كل اللي بتعمله، اللي إنت شايفه عادي ولازم يحصل بيبقى مستحيل لناس تانية تستحمله أو تقبله على نفسها، أعتقد أي

حد جانبك لازم يعرف إنه هيفضل بعيد، لو قرب هيتحرق.

قلت بإحساس داخلي لم أفهمه:

ـ «ديما» كانت مستحملة.

نظَرت لي نظرة ذات مغزى لتُذكرني بما حدث، نظرت للأرض في فهم، صمتت قليلًا ثم قالت بفضول حقيقي:

ـ السؤال اللي عمري ما سألتهولك لحد دلوقتي...

وأكملت ببطء:

ـ ليه بتعمل كل ده؟ إيه اللي عاوز تثبته؟

اكره مَن أسأله في شيء فيعيد إليَّ الإجابة بسؤال، نظرت لها بملل، ثم نظرت لحاسوبي وأنا أرتشف رشفة من القهوة التي أفاقتني قليلًا..

وأكملت كتابة..

كأنها ليست موجودة من الأساس..

* * *

لنلتقط أنفاسنا ونهدأ قليلًا..

بالطبع كان «سامي» هو «رامي» كل هذا الوقت!

ألم تسأل نفسك كيف عرفت كل ما حدث لـ«سارة» بعد أن تركت الرواية؟ أعلم أنني خدعتك، عندما سألَتني «سارة» عنه وأجبتها بالنفي، كنت أضللها. لا يوجد بطل يعلم بوجود بطل آخر في الرواية؛ لذلك جاوبت «سارة» كذبًا أنني ليس لي علاقة بالأمر، خدعتك لكني أعلم أنك كنت تشك في قصة «سامي» بنسبة كبيرة..

ثم إنها روايتي، أكذب فيها كما أريد!

خسرت بطلة من أبطال روايتي..

كانت «سارة» رقيقة ورومانسية حقًّا، عندما اختارت اسمًا مزيفًا، ضمت أول حرفين من اسمها مع آخر حرفين من اسمه ليصبح «سامي». تفصيلة رقيقة لا أجدها إلا فيمَن هم بشخصية «سارة» الدقيقة.

الآن من حقك أن تعرف ما حدث، لكن من وجهة النظر الأخرى: وجهة نظر «رامي».

من شهر، كلمني «رامي» مضطربًا ليخبرني أنه يشعر بعلامات الأزمة القلبية، شرح لي ما يشعر فعرفت أنها بنسبة كبيرة ليست كذلك، قلت له أن يهدأ ويتجه للمستشفى الذي تعمل به «سارة». كنت أعلم من مكالماتها اليومية خطوط سيرهم، لذلك كنت أعرف أن «سارة» في الطوارئ وحدها اليوم.

كي أكون صادقًا، كل البدايات كانت مجرد طلقة اختبار، اختطاف «خالد» لـ«شيماء»، اختيار «شيماء» العودة بعد اختطافها، عدم رفض «آلاء» لأي شيء، ذهاب «رامي» لـ«سارة»، كل هذا كان اختبار ولاء لي، اختبارًا أرى فيه إذا كانوا حقًا بالجنون الكافي ليكونوا أبطالي أم لا.

نجح الاختبار مع «خالد» و«طه» و«آلاء»، وفشل تمامًا مع «رامي» و«سارة»..

كنتُ قد أرسلت «رامي» لـ«سارة» حتى أرى نتيجة لقائهما، وحتى أُخطط إذا كانت هناك قصة ما ستدور بينهما أم لا. لم يكن في أبعد خيالي أن يُحبوا بعضهما البعض بتلك السرعة رغم رفضي..

«رامي» بوحدته وقع في عشق براءتها، و«سارة» عشقت طفولته واحتياجه لها، حَكَيَا لي نفس قصة الساعات السبع وكمّ المشاعر التي شعرا بها، هنا كانت طلقة الاختبار، أخبرت «سارة» أنني أرفض تمامًا، ولم أكن أتخيل أنها سترفض وستطلب التضحية..

لكنها أعطتني خطًّا دراميًّا لطيفًا وفكرة جديدة..

مع «سارة» بالذات كانت خياراتي محدودة، إما أن أجعل قصتها تذهب في طريق فتاة تبحث عن علاج ومعاناتها ومقاومتها للمرض، وإما أجعلها تعيش حياة رائعة تفعل كل شيء قبل أن تموت. لكنها اختارت الحب، كشفت لي خطًّا ثالثًا وهو قصة الحب التي تنتهي نهاية مأساوية، ليست أفضل القصص في الكون، لكنها «لطيفة».

«سارة» أخبرت «رامي» بمرضها، ليأتيني وهو في حيرة من أمره، يخبرني أنه يحبها حقًا ويريد أن يراها سعيدة، أخبرته أكثر من مرة - في شكل نصيحة وليس أمر مباشر - أن القصة ستنتهي بأوجاع لا يتخيلها، لكنه اختار أن يبقى بجانبها ويُسعدها..

وحدث كل ما قرأته يا صديقي بعدها..

من داخلي كنت أريد عقابًا قاسيًا لـ«سارة» عندما خالفت أوامري، كنت أنوي أن آمُر «رامي» بتركها هناك وحيدة كطلقة اختبار له، لتستيقظ «سارة» في يوم وتكتشف أنها ضحت بكل شيء من أجل إنسان حقير، وتعرف أن «كَتَخُدَا» عقابُه أقسى من أي شيء.

انشغلت بالقصص الأخرى وأفكاري المضطربة، قررت أن أؤجل الأمر أسبوعًا آخر، لتعاندني هي والقدر مرة أخرى وتترك عالمنا وعالم روايتي قبل الأوان..

وتترك لي «رامي» جثة هامدة بلا قلب، لا يصلح لأن يكون بطلًا لأي شيء..

حتى الآن لا أعلم مدى إخلاصه لي، لكن بلا شك لا شيء يحدث دون أن أستفيد منه، حتى الآن هو يمضي في الطريق الذي رسمته له بدقة.

أمامي الشهر الثاني لأبدأ تخطيطًا له، ولأبطال أهم من «رامي» بكثير..

بوجه لم يُشوَّه بعد وقدم لم تكن تؤلمني آن ذاك، وقفت أمام اللوحة ووضعت - أخيرًا - أمام اسم «رامي» رقمًا جديدًا:

رقم ١١.

الرابعة عشرة

للحاكم لذَّة واحدة، وللمحكوم لذَّات
استمتع بلذَّاتك كما تشاء
ودعني أستمتع بلذَّتي

أشعلت «آلاء» سيجارة رفيعة طويلة وأخذت نفسًا عميقًا، كانت على الفراش بجانب «طه» الذي ظل يحدق في السقف مبهورًا، نظرت له وضحكت رغمًا عنها قائلة:

- إيه يا ابني عامل كده ليه؟

وأكمل وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه مبهورًا:

- عشان اكتشفت إن طول السنين اللي فاتت دي، ما كنتش فاهم أي حاجة. ما هو يا إما أنا كنت جاهل، يا إما مراتي كانت حيطة أسمنت.

داعبت كلماته أوتار أنوثتها فابتسمت ابتسامة سعيدة..

كم أرادت أن تسمع تلك الكلمات من زوجها، بدلًا من بروده وتجاهله لكل ما تفعله..

ضحكت ثانية، ومدت يدها له بالسيجارة ليرفضها بيده وهو يقول:

- ما بادخنش.

رفعَتْ حاجبيْها في تعجب، وسحبت نفَسًا من السيجارة وهي تقول:

- أنت أمرك عجيب.. لا بتشتم ولا بتدخن ولا بتشرب ولا بتحشش..

واستطردت وهي تسند رأسها على ظهر الفراش وتغمض عينيْها:

- أمال إيه اللي بيعدل مزاجك؟

لم يرد ولم تنتظر رده وهي تنفخ الدخان في استمتاع، عقلها فارغ تمامًا فراغًا افتقدته، في البداية كانت متوترة لأنها دخلت ذلك الطريق بقدمها، لكنها لم تبالِ بعد دقائق قليلة عندما وجدت «طه» يسلِّم لها نفسه، على وجهه أعتى أمارات النشوة كأنه يَشْعُرها لأول مرة..

«إحساس أول مرة في كل حاجة».

تذكرت الكلمة وابتسمت، شردت في الحائط المعلق عليه صورتها هي و«هاني»، تذكرت أنها على فراش زواجها أيضًا، قالت بشرود:

- أنت طبعًا شايفني ست زبالة.

نظر لها مندهشًا، ليجدها تنظر للصورة وفَهِمَ ما تقصد، فابتسم قائلًا:

- في واحدة من فترة قالت لي إن كل الناس فيها الحلو وفيها الوحش، أنا من بعد كلمتك دي ما بقتش عارف أشوف حد وحش.

أسعدها أنه يقتنع بما تقول، يفهم أن لها فكرها الخاص ويصدق فلسفتها، أكمل وهو يعطي ظهره للصورة، ناظرًا لعينَيْها مباشرة:

- أنتِ من أجمل الناس اللي عرفتهم في حياتي، أنتِ حالة نادرة.

واستطرد كأنما وجد كلمة عبقرية:

- أنتِ الاستثناء اللي بيثبت القاعدة.

شعرت أنه يبالغ في المجاملة، فابتسمت ابتسامة جانبية وقالت ساخرة:

- قاعدتك حمرا.

ضحك هو ضحكة عالية، ثم مال عليها قائلًا بمزاح مقلدًا ممثلًا معروفًا:

- باموت في الشتيمة.

ضحكت معه وسلَّمت نفسها لقُبلة طويلة منه..

جعلت كل شيء في عقلها يتبخر ثانية..

* * *

جلس «خالد» متربعًا أمام «شيماء»، ينظر لها بحنان شديد.

نظرت له هي بعينيها الميتتين، وقالت بنبرة لا حياة فيها:

- كل اللي برة شياطين، مُرعبين، أنا بقيت شايفاهم على حقيقتهم.

شردت عيناها وهي تحدق في السقف، توترت ملامحها كأنما تتذكر ما رأت:

- شفت تفاصيلهم، ملامحهم متغيرة، عينيهم بتبقى حمرا ولسانهم عامل زي التِّعْبَان، كلهم بيضحكوا ويبسلموا عليَّ، وأنا شايفاهم كده، حتى صوتهم اللي كنت باسمعه زمان وبافرح، بقى صوت فيه رنة رعب، كأنهم بيصرخوا مش بيتكلموا.

سالت دمعة من ثلج عينيها البارد، وهي تنظر لـ«خالد» مُكْمِلة بصوت خافت:

- لكن أنت مش شيطان.

وأكملت هامسة تحاول أن تُفهمه ما تشعر به:

- أنت الوحيد اللي كل أما أفتكرك، ألاقيك بني آدم عادي، واحد مش عارف يعيش مع الشياطين اللي برة.

صمت وهو يتأملها، يشعر بلمحة الجنون في نظراتها، لكن كلامها لمس قلبه، أجل هو لا يعرف كيف يعيش في هذا العالم المليء بالحُقَراء ولا يستطيع أن يفهمهم، يحاول أن يصبح جزءًا من كل ولا يستطيع، يفعل أي شيء ليصل لهدفه ثم لا شيء، يأخذ الجهلة كل المجد والجوائز ويبقى له زوجة تكاد تنفجر بقميص نومها، وطفل لا يعرف شيئًا عن الدنيا.

مال عليها ليحتضنها مواسيًا، فدفعته بقوة قائلة:

- لأ.

ابتعد في تعجب عاقدًا حاجبيه، لتقول ناظرة لعينيه مباشرة:

- أنا فهماك، أنا عارفة إنه غصب عنك، وعارفة أنت عاوز إيه، ما تخافش.

قال بصوت مُتهدج غير مُصدِّق، وعيناه تتعبدان في ملامحها:

- يعني سامحتيني؟

ابتسمت ابتسامة ظهرت بصعوبة، قالت بحنان غريب:

- هاسامحك لما تسيب نفسك على حقيقتك زي ما هي، لما تخرج كل الحاجات اللي جواك، هاسامحك لو فضلت ملاك وسط الشياطين اللي برة.

وأكملت بنبرة باكية وهي تشير لنفسها:

- وعشان تفضل ملاك، لازم تتطهر من كل الوساخة هنا.

لم يفهم معظم كلامها، شعر أنها فقدت عقلها، كلامها جعله يدفن عقله في أعتم دهاليز قلبه حتى لا يُزعجه بالتفكير، كان يتمنى أملًا مستحيلًا وهو أن تسامحه، وها هي الآن تخبره بأكثر مما يحلم.

نهض كمن لا إرادة له، خلع بنطاله، لتتحول ملامح «شيماء» إلى البكاء في قهر، تحول إلى الحيوان داخله في لحظة مع نظرتها العاجزة، قالت وهي تبكي متذكرة كمَّ الآلام:

- انا معاك، أنا...

لطمها بقوة ولم يمهلها فرصة لتكمل جملتها، وهجم عليها في اشتياق لا يفهمه سواهما..

* * *

أغلق «رامي» باب شقته الصامتة، تأمل الأثاث المُترب، القديم.. مثله..

سمع خطوات سريعة تركض ناحيته، ابتسم لقطّه الأبيض الذي قفز عليه في اشتياق، الوحيد الذي بقي على قيد الحياة وسط بيت فارقه مؤسسوه..

قال له مبتسمًا وهو يعبث برأسه كما يحب القط:

- الست «سعدية» كانت بتأكلك ولّا ضحكت عليَّ وما جاتش خالص.

أصدر القط مواءً وأغمض عينيه في استمتاع، أنزله «رامي» برفق على الأرض ليركض القط في فرحة داخل أجواء الشقة الكئيبة.

نظر لصورة أبيه وأمه، التي تستقبل كل مَن يأتي بابتسامة مرحبة، كانت بالأبيض والأسود في برواز «مُذهّب»، تأملهما قليلًا ثم ذهب ليقف أمام صورتهما الكبيرة مبتسمًا.

كان يشبه أمه في وجهها المستدير وملامحه الطفولية الجميلة، لم يأخذ من أبيه شيئًا سوى سخريته المستمرة وصوته العميق، ماتت أمه وهو في سن المراهقة، ليعيش أبوه مخلصًا لها ما تبقى من عمره، ثم مات منذ ستتين سعيدًا لأنه سيرى مَن افتقدها كثيرًا.

لكنهما تركاه..

التفت لغرفتهما المغلقة كما هي منذ أن مات والده، لم يعتَدْ بَعْد غيابَه رغم مرور الوقت، حتى الآن يسمع خطواته في الصالة ويتوقع في أي لحظة أن يخرج من الغرفة مبتسمًا، حتى هذه اللحظة ينتظر أن ينفتح باب الغرفة ويخرج أبوه متثائبًا ليتشاجرا على دخول الحمام. ضحك «رامي» متذكرًا أن البيت فيه ثلاثة حمّامات، لكنه وأباه كانا يتشاجران على هذا الحمّام بالذات.

ذهب لغرفته ونام على الفراش مجهدًا..

لماذا يموت كل مَن حوله بهذا الشكل؟
يعلم جيدًا أنه درب من الحماقة أن يصدق أن موتهم له علاقة به، لكنه لا يستطيع أن يزيح هذا الخاطر من عقله أبدًا..
كم يفتقد «سارة» لدرجة تؤلمه!
حاول أن يشغل باله بأي شيء كعادته. أمسك هاتفه المحمول أوصله بسماعات كبيرة جانب فراشه واختار الأغنية التي آلمته، تصاعدت نغماتها فابتسم مُتذكرًا..
قُرب انتهاء الطريق إلى سهل حشيش قالت «سارة» فجأة في شرود:
ـ ممكن أسألك سؤال كئيب، وأطلب منك طلب صعب؟
كان يقود العربة. قال مبتسمًا:
ـ أنتِ اؤمري من غير مُقدمات..
قالت في حالة لم يفهمها:
ـ أنا عارفة أنك بتربط كل حاجة بأغنية.. لما أموت هتسمع أغنية إيه؟
آلمه السؤال لدرجة لم يتخيلها، ظهر على ملامحه ما يشعر، فابتسمت هي وقالت بحنان:
ـ معلش.. دي آخر مرة أتكلم معاك فيها في حاجة كئيبة..
فكر قليلًا دون أن يرد عليها، ثم أوصل هاتفه المحمول بالكاسيت، واختار أغنية «Nikola Sarcevic – Vila Rada» من قائمة الأغاني لتصعد نغمات الأغنية بصوت عالٍ:

Someone told me that you are gone now
You took off to the other side

لم يكن قد نام منذ يومين، ما إن يغلق عينيه حتى يرى «سارة» وهي تقع جانبه، يشعر برغبة في البكاء ويحاول أن يبعد أفكاره عنها، ليجد ذكريات وفاة والده ووالدته تظهر أمامه كأنه يعيش الموقف ثانية، يفتح عينيه ويقرر ألا ينام.
لكن نغمات الموسيقى جعلته يشعر بيدها الحانية، ويسمع صوتها الضاحك،

تحركت شفتاه مع الجملة التي يعشقها، ودمعة هاربة تغادر عينيه المغلقتين، كلمة تمثل كل شيء شعر به حتى هذه اللحظة:

I don't believe in much...but I believe in you

صوتها الحنون، صوت البحر الهادئ مع ضحكتها، ذكريات لمساتها التي تطمئنه، كل هذا جعله يبتسم رغم دموعه..

ويتساقط مرددًا الكلمة الأخيرة بهمس:

«أنا لا أؤمن بأشياء كثيرة، لكني أؤمن بك أنت..».

الخامسة عشرة

ما بين واقعي وخيالهم خيطٌ رفيع باهت

فلا تخلط بين خيالي..

وواقعهم!

في منتصف الأسبوع الأول من الشهر الثاني.

جلست «آلاء» بجانب «طه» على مقعد كبير، أمام حديقة في كلية فنون جميلة، بين لغة جسديهما فارق واضح. «طه» جالسٌ، جسده مشدود، بين كل لحظة ولحظة يعدل من نظارته على وجهه ويتلفت حوله في ترقب وخوف، «آلاء» جالسة جلسة مرتخية، فاتحة ذراعيها، مسندة إياهما على ظهر المقعد، وتبتسم في هدوء، واضعة قدمًا على قدم بثقة.

التفتَتْ له، وقالت بمَرحها اللامبالي:

ـ شكلك زي العسل وأنت متوغوش كده..

ابتسم ابتسامة متوترة ولم يعلق، حاولت هي أن تشغل عقله قليلًا حتى تنتهي «مها» من محاضرتها، قالت وهي تلكزه في رأسه:

ـ مش أنت بتغني صحيح؟ ما تغني حاجة بدل الزهق ده..

نجحت بالفعل في تشتيته، نظر لها مبتسمًا وقال مشيرًا لحنجرته:

ـ النهارده صوتي مش حلو، شكلي داخل على برد..

رفعت رأسها وزفرت في ملل، ثم قالت:

ـ يا بني أنت بلاش شغل مطربين اليومين دول، غني واخلص.

تنحنح قليلا ثم التفت بجسده كله لها وتنحنح مرة ثانية بقوة، ابتعدت عنه قليلًا وقالت مازحة:

ـ إنتَ هترجَّع ولَّا إيه؟

نظر لها لائمًا، فاعتذرت له بأن جعلت وجهها طفوليًّا بطريقة مضحكة، أحبت خجله الغريب وتوتره قبل أن يبدأ، ابتسم هو وأغمض عينيه وبدأ يدندن، بدأ بآهات لحنها حزين، ثم أكمل:

ـ إلهي أنت تعلم كيف حالي..

تعجبت «آلاء» أنه غنَّى نشيدًا دينيًّا، لكن إحساسه الحزين لمس قلبها، أغمض عينيه وأكمل:

ـ فهل يا سيدي.. فرج قريب..

كان يُعرب بصوته في شجن غريب، هز رأسه مُكملًا:

- فيا ديَّان يوم الدين فرِّج...

وفتح عينيه لترى «آلاء» دمعة، وهو يُكمل بابتسامة تقطر حزنًا:

- هومًا.. في الفؤاد لها دبيب..

غناها بإحساس عالٍ حقًا، تأملته في إعجاب حقيقي من حنان صوته وشجنه الغريب وإحساسه الخاص، عندما سمعته منذ سنوات في ذلك البرنامج لم تحب صوته وشعرت أنه مكتوم ومبحوح قليلًا، لكن عندما غنى أمامها شعرت أنها تريد أن تبكي للحظات..

صفقت له بشدة فابتسم ابتسامة خجولة، لم يغنِّ أمام أحد منذ فترة، من إحباطه قرر ألا يغني حتى يقتل الأمل داخله، زوجته كانت تسخر من صوته دائمًا، وكان يحاول دائمًا أن يقنع نفسه أنها تمزح، شعر براحة غريبة عندما غنى أمام «آلاء»، صدَّق الإطراء من نظرة إعجابها الحقيقي، اعتدلت «آلاء» فجأة وقالت ناظرة في اتجاه ما:

- البت «مها» أهه.

التفت للمكان الذي أشارت إليه، ليجد «مها» ابنة عمه الشاذ تمشي بهدوء، كانت محجبة ونحيفة، سمراء سمارًا زادها جمالًا، دائمًا ما كانت «مها» لها مكانة خاصة عنده، يشعر أنها الملاك الوحيد في عائلة عمه القذرة. سمع «آلاء» تقول ساخرة:

- ماهي حلوة من غير بوز البطة، ليه قارفانا بيه على الفيسبوك؟

قال بتوتر:

- هنعمل إيه دلوقتي؟

قالت وهي تبتسم:

- سيب الموضوع ده عليّ.

انتظرت حتى اقتربت «مها» منهما فصاحت بأعلى صوتها كأنها تنادي على طفل تائه:

- يا بِت يا «مها».

انتفض «طه» من غباء ما تفعله والتفت لها بعصبية، لتضحك هي في ثقة، وتشير للفتاة التي تنظر لها بدهشة أن تأتي، اقتربت «مها» منهما بحرص، لتقول «آلاء» وهي تمد يدها دون أن تنهض:

- إزيك يا «مها»؟

التفتت «مها» لـ«طه» الذي بدا كأنه يشتعل من احمرار وجهه، تعرف «مها» ابن عمها بالطبع لكنها لم تره منذ زمن طويل، ظهر التوتر على وجهها عندما رأت «طه»، لكن «آلاء» تدخلت حتى لا تسمح لها بالتفكير الطويل:

- أنا «منى» مِرات «طه»، «طه» بيقولي إنك من الناس اللي هو بيحبهم جدًّا رغم كل المشاكل.

ابتسمت «مها» ابتسامة مؤدبة لكن متوترة قليلًا، لتقول «آلاء» بثقة:

- ما ينفعش نفضل متخاصمين كده، إحنا عاوزين نصلح الدنيا، إحنا في الآخر عيلة واحدة..

لترتاح ملامح الفتاة قليلًا، معطية الإذن بإشارة البدء..

* * *

لم يوقف «رامي» الأغنية ولو لمرة واحدة، مرت أيام طويلة ولم يمل من سماعها أبدًا، يجلس على الفراش كعادته القديمة، يفعل كل ما يلهيه حتى يغلبه النوم ليلًا، كل هذا والأغنية مستمرة كخلفية موسيقية لحياته الآن، يشعر بوجود «سارة» جانبه مع الموسيقى، يشعر بهدوء نفسي غريب.

كان يعلم أنه مع الأيام سينسى وتعود دنياه لمسارها الطبيعي، تعامل مع الموت كثيرًا حتى صارا أصدقاء، سيمر بكل مراحل تقبُّل الموت بهدوء كمن اعتادها: الإنكار والعزلة، ثم الغضب، ثم المساومة، يليها أكثر مرحلة يفضلها: الاكتئاب، ثم آخر المراحل...

التقبُّل!

نهض ليأتي بكوب ماء في تكاسل، وقع شيء ما من على الكومودينو،

من ظلام الغرفة لم يرَ ما وقع، لم يبالِ وذهب ليشرب، يحرك رأسه مع الموسيقى الحزينة وصوت المغني الهادئ..

عاد لفراشه مسرعًا ليستكمل ما يشاهده، ارتطمت قدمه بالشيء الذي وقع فزفر متبرمًا، يكره أن ينحني أو يفعل أي مجهود بدني يُذكر وهو مكتئب، جلس على ركبته وأمسك الشيء الذي اتضح أنه محفظته، فتحها ليتأكد من عدم وقوع أي شيء منها..

ليجد تلك الورقة المطبقة بعناية في جيب سري صغير في المحفظة..

وتذكر فجأة..

ثاني يوم من رحلتهما، استيقظ من النوم ليجدها جالسة على مقعد وثير في الجناح، تكتب شيئًا ما بحرص، أمامها محفظته على المائدة.

قال ساخرًا وهو يتثاءب:

-إحنا هنبدأ شغل المتجوزين ده ونفتش في المَحَافِظ؟

ابتسمت دون أن ترد، كانت مهتمة بما تكتب بشدة، تركها وهو يتقلب على الفراش في تكاسُل، سمع الموسيقى للأغنية التي عشقتها «سارة» عندما أصر هو أن تسمعها..

«Its in my head, darling I hope,

وفي خيالي، حبيبي أنا آمل،

that you will be here when I need you the most

أنك ستكون موجودًا في أشد أوقات احتياجي إليك،

So Don't let me down»

لذا، لا تخذلني».

ذهب في النوم ثانيًا من هدوء الأغنية، لم يدرِ كم مر من الوقت عندما شعر بيد «سارة» تدفعه بقوة وهي تصيح فيه:

-أنت لسة هتنام، إصحا يلّا؟

قال وهو ما زال مغمض العينين، محاولًا إطالة فترة نومه ليس أكثر:

-عشر دقايق بس عشان أعرف أعيش لآخر اليوم..

قالت بخبث وهي تهزه للمرة الثانية:

- اسم الأغنية دي إيه؟ أنا دوَّرت عليها لاقيتها بشكل تاني غير اللي بنسمعه دلوقتي على موبايلك..

هو الذي علَّمها تلك الخدعة السخيفة، عندما تريد أن توقظ أحدًا، فاسأله بعض الأسئلة السهلة، مهما أراد أن يُكمل نومه فسيحاول عقله حل الأسئلة رغمًا عنه، بالتالي يبدأ في الاستيقاظ دون إرادته، قال وهو يحاول أن يبقى مغمض العينين لأطول فترة ممكنة:

- اسمها «don't let me down»، بس دي مش الأغنية الأصلية، دي واحد مغنيها اسمه «sam tsui».

- اسمه غريب جدًّا، قول لي بقى ١+١ تساوي كام؟!

ظهر رقم اثنين وسط ظلام عقله رغمًا عنه، هزته ثانية وهي تضحك، ففتح عينيه مستسلمًا، نظرت له بحنان، ابتسم ابتسامته التي تعشقها فانحنت وقبَّلته قُبلة طويلة، وما إن رفعت رأسها حتى قال لها بسخريته:

- أنا لسة صاحي، رِيحة نَفَسي باكبورت.

اعتدل ليسند رأسه على الفراش وهي تضحك، أشعل سيجارة في محاولة منه لأن يستيقظ، سألها كمن تذكَّر شيئًا:

- إيه اللي كنتِ بتكتبيه ده صحيح؟ وراح فين؟

قالت وهي تذهب لتُسرح شعرها أمام المرآة:

- الورقة في محفظتك.

والتفتت له وقالت مبتسمة:

- ما تفتحهاش غير لمَّا أوحشك قوي.

هبطت دموع عينيه في غرفته المظلمة، شعر أن روحه تنسحب من الذكريات سحبًا، وتعود لجسده الحالي بعنف، لماذا لم يمت معها هناك؟ لماذا عاد؟ كيف لم يتذكر أمر تلك الورقة منذ أن ماتت؟ فتح الورقة التي ابتلَّت أطرافها من دموعه، ليجد مكتوبًا فيها بخطها الملائكي:

«حبيب قلبي «رامي».

أنا هاكتب هنا حاجة كئيبة شوية، وأنت بيبان في عينك الوجع لما باتكلم معاك في حاجة كئيبة، حلفت بيني وبين نفسي إني هانبسط معاك على قد ما أقدر، وفعلًا ربنا يخليك ليَّ على أحلى أيام عشتها في عمري كله. أنت إنسان نادر وجوَّاك من الحِنِّية والطيبة كمية تخلي العالم كله حالُه يتعدل لو حس بيها.

أنا لو حكيت قصتي لأي حد هيقول عليَّ هبلة، هربت مع واحد ما اعرفش عنه حاجة، بس أنا وثقت فيك ثقة غريبة، عارفة إن عمر الأذى ما هييجي منك، أنت أماني وجِناني وكل اللي حلمت بيه، عارف؟ أنا مش هاكدب لو قلت إني بعشقك، ونِفسي أخلي عينك الحزينة دي تضحك ولو مرة واحدة بس، نِفسي أرُدِّلك كل حاجة حلوة عملتها لي عشان تخليني مبسوطة، عارفة إن كل اللي حصلَّك ده يخليك أتعس إنسان في الدنيا، بس عشان خاطري، كل ما تلاقيك زعلان افتكر إنك خليت ضحكتي توصل للسما، إنك خليت بنت ممكن تموت تنسى أصلًا يعني إيه حزن، وعشان خاطري خلي عينيك دايمًا تضحك مهما كنت زعلان».

هبطت دموعه أكثر حتى أصبحت الرؤية عسيرة، فمسحها بسرعة وهو يكمل:

«أنت صحيت دلوقتي وفصلتني بموضوع المحفظة، عاوزة أقولك إني مخبية عليك سر واحد بس قاتلني، مش هينفع أكتبه دلوقتي، عشان ما اشوفش عينك زعلانة، بس هاقولك إن درج الكومودينو اللي في أوضتي مقفول بمفتاح، المفتاح ده هتلاقيه في سلسلة مفاتيحي، أصغر مفتاح في الميدالية، أنا خبيت المفتاح في فتحة في المكتب بتاعي اللي في نفس الأوضة، هتفتح الدرج هتلاقيني سايبالك جواب فيه كل حاجة، ما تزعلش مني إني خبيت عليك، بس لما تقرأ هتعرف كل حاجة، بحبك، مليون بوسة على أحلى شفايف في الدنيا، بحبك قوي.

عنوان البيت: «...».

ومع بكائه الصامت، تصاعدت فكرة واحدة فقط..

لا بد أن يقرأ آخر ما تركته «سارة» له..

* * *

ذهب «طه» و«آلاء» و«مها» لمقهى «سيلانترو» جانب الكلية، كان مكونًا من طابقين فجلسوا في الدور الثاني جانب الزجاج، كانت «آلاء» هي المُسيطرة على الجلسة، تمزح بكثرة وتحاول أن تخفف من حدة الأجواء.

لم تمر عشر دقائق حتى جلس بعيدًا عنهم قليلًا، شاب وسيم، تظاهر أنه ينظر لهاتفه لكنه في حقيقة الأمر كان يصورهم، لم يهتم بـ«مها» لكن كان اهتمامه الرئيسي بهما:

«طه» و«آلاء».

أكثر من نصف الساعة جلس «خالد» يصورهم، نظر للصور ووجد أنها واضحة تمامًا، فنهض مسرعًا حتى لا يتأخر على «شيماء».

عندما استيقظ اليوم ووجد رسالة من «كَتْخُدَا» على هاتفه المحمول، رسالة على برنامج «watsapp» بها المهمة الجديدة، «كَتْخُدَا» يريده أن يذهب ويصور هذين الاثنين - أرسل له أيضًا صورتها - معًا، حتى الآن التقط لهما صورًا وهما يتلامسان ويضحكان، لكن لا توجد الفضائح التي أرادها «كَتْخُدَا».

قرر أن يعود للجراج مسرعًا قبل أن تستيقظ «شيماء» وتخاف من غيابه.

لم يتركها طوال تلك الفترة للحظة واحدة..

عاد بعد ساعة كاملة، وهبط للجراج مسرعًا، ليجد ما يخشاه..

ركضت إليه «شيماء» في رعب، واحتضنته وهي منهارة في البكاء، قال بسرعة:

- معلش إني سيبتك من غير ما أقولك، كان لازم أروح أعمل حاجة بسرعة جدًّا، معلش.

كان بكاؤها هستيريًّا، ذلك البكاء الذي تأخذ أنفاسك فيه بصعوبة، أخذ يربت على كتفها، منذ أن عادت وهو لا يربطها بالحبال إلا وقت الاغتصاب فقط، أصبحت هي قنوعة ولا تترك المكان أبدًا. في يوم ما، رآها تحاول تنظيفه

من بعض الأشياء المهملة التي وجدتها، لم يتخيل أنها ستعود بل وستحب المكان بهذا الشكل، لم يصدق ما وصلت إليه من جنون أيضًا، قلبه يقتله ندمًا لأنه لا يستطيع أن يتوقف.

هدأت قليلًا، وقالت وسط تنهيداتها كطفلة:

ـ ما تسبنيش وتروح للشياطين أبدًا، ماشي؟

أومأ برأسه إيجابًا كي يطمئنها، فهدأت تمامًا وتركته لتجلس على الأرض كتمثال، كأنها لم تكن تبكي منذ ثوانٍ.

نظر لعينيها الجامدتين لحظات، ثم أرسل رسالة لـ«كَتْخُدَا» قائلًا إنه صور كل الصور التي يريدها، لكن لا توجد صور خليعة لو كان هذا ما يريده.

وانتظر لحظات، لكن «كَتْخُدَا» لم يجِبه أبدًا..

* * *

وهذا لأنني كنت ـ وقتُها ـ في عالم آخر مع «ديما».

كنت طوال الفترة الماضية، أجلس في مكتبي أستقبل مكالمتها اليومية، أستقبل تقارير العيون التي وضعتها لمراقبتها باستمرار، وأُخطط للشهر الثاني بترتيب أحداثه، كنت منهمكًا تمامًا عندما وجدت «ديما» تقتحم مكتبي فجأة، أمسكتْ يدي وجذبتني للخارج راكضة.

ابتسمتُ في تكاسل وأنا أحث المشي وراءها، سحبتني حتى ذهبنا لغرفة خالية في شقتي، أضاءتها كلها بالشموع والورود لتصبغ إضاءة رقيقة في المكان، أدخلتني الغرفة وأغلقت بابها وهي تنظر لي نظرة لم أرَ أرقَّ منها في حياتي.

سمعت أول ما سمعت صوت موسيقى أعشقها، ابتسمتُ وأنا أتذكر كل شيء دفعة واحدة، لتقول وهي تدور بجسدها كلاعبة باليه:

ـ فاكر؟

كانت هذه موسيقى مشهد كتبتُه من قبل في إحدى رواياتي، في موقف مُشابه لما تفعله هي الآن، نظرتُ لها بعشق لتقترب مني وتحتضنني في قوة فتمايلنا معًا..

وضعت رأسي على كتفها ناسيًا كل أفكاري في ثوانٍ، كم أعشق لَفَتاتها البسيطة..

عرفتُ بمنتهى البساطة أن تعيش معي جزءًا من خيالي الذي صنعته أنا..

جزءًا من حلمي الخاص!

قلت لها كلامًا أعرف أنها الوحيدة التي ستفهمه:

- أنا طول عمري باسأل، وأفضل أدوَّر على الإجابة لحد ما أعرفها.. حتى لو كل الناس ما جاوبوش على السؤال أنا باعرفه بقوانيني أنا بس..

ثم نظرت لعينَيْها قائلًا بابتسامة:

- إلا أنتِ..

وأرَخْتُ وَجْنَتي على شعرها الناعم، مُستمتعًا برائحته التي تُذيبني:

- أنتِ السؤال اللي هيفضل مالوش إجابة عندي لحد ما أموت..

ابتسمت هي في حُب، وقالت ما جعلني أعرف أنها تريد المزيد:

- إشمعنى يعني؟

أغمضت عينيَّ وقُلت بهدوء:

- أنا بني آدم صعب.. ما حدش يستحمله أو يقدر يكمّل معاه.. بس أنا باشوف في عينك إنك بتحبيني دايمًا.. ومش عارف ليه!

مسحتْ على رأسي، وابتعدت قليلًا حتى تنظر لي بعينيها الواسعتين، تمايلنا قليلًا ونحن ننظر لبعضنا البعض، قالت بنبرة حنون وهي تبتسم:

- عشان أنت «حازم كَتَخُدَا»، أعظم راجل شفته في حياتي.

ابتسمتُ أنا ولم أصدق كلمتها. «ديما» تصغرني بثمانية أعوام، كانت في الثانية والثلاثين وقتها، منذ أن تقابلنا وهناك شعور خفي داخلي، أنها ستذهب يومًا ولن تعود، ستجد شابًا مثلها يعشق الحياة فتحبه وتتزوجه، سترى كمَّ القُبح داخلي الذي يجعلني أريد أن أكتب باستمرار، سترى كم الألم والخوف، ولا توجد امرأة تحب رجلًا ضعيفًا..

كل يوم أقول إنها ستملُّ من عاداتي المجنونة، ستغضب من كمِّ النساء

التي أدخل في أعماقهن حتى أكتب سطرًا واحدًا فقط، في قصة لا علاقة لها بكل ما أفعله معهن!

لكنها لم تفعل أبدا!

تركت أفكاري جانبًا وأنا أغمض عينيَّ مستمتعًا بتفاصيل اللحظة البسيطة، اللحظة التي أتمنى الآن أن أظل عمري كلّه فيها ولا أخرج منها أبدًا..

اللحظة التي عرفت «ديما» أن تخلقها وسط كم القُبح الذي أكتبه في الرواية الحالية..

روايتهم..

السادسة عشرة

علاقة الكاتب بأبطاله هي علاقة الخالق والمخلوق
على الكاتب أن يعدل
وعلى البطل أن يُطيع

- «حازم كَتَخُدَا»؟ هو ده الاسم المستعار اللي عاوز تكتب الرواية بيه؟
أومأت برأسي إيجابًا وأنا مستمر في الكتابة، عسى أن تفهم عدم رغبتي في أن تُخرجني من عالم الرواية الآن، همستْ كطفلة تغيظني:
- اسم زي الزفت، مش هانزِّل رواية بالاسم ده.
وكما يعامل الأطفال، تجاهلتها تمامًا وأكملت كتابتي..
كم افتقدتكِ يا «ديما»!

* * *

احتضن «طه» «آلاء»، ليشعر بدفء جسدها العاري على جسده، كانا في شقته هو تلك المرة، أبعدتْ نفسها عنه قليلًا، ثم قالت وهي تتأمل الغرفة:
- ذوق مراتك وحش قوي.
ابتسم ولم يعلق، فأكملت هي:
- تفاصيل الأوضة مش تفاصيل فنانة، دي واحدة دلقت تَلَت تربع اللي في المحل جوة الأوضة.
بدأ يتململ من كلامها وقال:
- يا ريت ما نتكلمش عن مراتي وإحنا نايمين على سريرها، مش سيرة تفتح النفس.
ضحكت ضحكة ساخرة، ثم صمتت وهي تتأمل الغرفة ثانية، وقبل أن تقول تعليقًا ساخرًا آخر قال هو بسرعة:
- أنا قابلت «مها» إمبارح صحيح.
اشتعل داخلها فتيل لم تكن تظن أنه قابلٌ للاشتعال مع «طه» بالذات، قالت وهي تعقد حاجبيها في عصبية:
- أنت هتقابلها كل يوم ولّا إيه؟
التفت لها مندهشًا، فتراجعت هي من عصبيتها، وقالت:
- وقالتلك إيه بنت الـ... دي؟
ظل ينظر لها مندهشًا من ردها، ثم قال بحرص:

- مافيش، إحنا لما قعدنا مع بعض قالت إن مستحيل يحصل تصالح، من ساعة ما مامتها ماتت وعمي بقى متعصب ومش قادر يقعد في البيت، شايفة إنه من كُتر حبه لأمها ما اتجوزش، بس أنا وأنتِ عارفين كويس قوي هو ليه ما اتجوزش بعدها.

لم تضحك كما توقع، فأكمل هو متوترًا:

- أنا شايف إن «مها» نضيفة جدًّا، عمرها ما هتقبل إنها تخون أبوها، ولا إنها تنام معايا.

نظرت له هذه المرة دون أن تحاول أن تكتم عصبيتها، قالت وهي تعتدل بجسدها كلّه لتنظر له:

- نعم؟ نضيفة عشان مش هتنام معاك! يبقى أنا إيه؟

أدرك فداحة ما قاله، ارتبك قليلًا ثم قال:

- أنا مش قصدي اللي فهمتيه ده.

نهضت في عصبية فترجرج كل شيء فيها، نظر لها إعجابًا وقد نسي شجارهما للحظة، التفتت له لتجد نظراته، قالت وهي ترتدي ملابسها بغضب:

- الراجل هيفضل طول عمره وسخ.

وأكملت ارتداء ملابسها بسرعة، رمقت وجهه المحتقن، وقالت:

- إبقى خلي «مها» النضيفة تجيبلك حقك من عمك.

وأغلقت الباب خلفها في قوة، ثم بعدها بثوانٍ سمع «طه» باب الشقة يُغلق في صوت أقوى..

أغمض عينيه في ندم وضرب رأسه عدة مرات في خشب السرير خلفه.

* * *

أراح «خالد» جسده بجانب «شيماء»، كان صدره يعلو ويهبط من التعب، لكن ابتسامته مستمتعة استمتاعًا غريبًا، في حين شردت «شيماء» في السقف بملابسها المتقطعة، كان هناك خط من الدماء يسيل من شفتيها فمسحته بهدوء. اعترفت لنفسها أنها الآن جزء من الخيال ولا تريد سوى أن تعيش فيه،

ولو خيروها مئات المرَّات لاختارت في كل مرَّة عالمه..

عالم «كَتْخُدَا»..

دنياه خاصة جدًّا، تشعر دائمًا أنه يخلق عالمًا جديدًا بخياله، يكتبه في روايات بقواعده الخاصة، يكتشف في البشر ما لا يعرفونه عن أنفسهم، ما كانت تعشقه في رواياته أنه لا يؤمن بوجود بشر ملائكة وآخرين أشرارًا، كل أبطاله فيهم الخير والشر متساويان. يتألمون ويكرهون ويعشقون بطريقته الخاصة.

«كَتْخُدَا» عرف تمامًا أن يريها العالم الواقعي على حقيقته، أظهر لها الوحوش القابعة في نفوسهم، جعلها ترى وجوههم واضحة صريحة، ولأنه يحبها أهداها الملاك الوحيد في مدينة الخطايا: «خالد»..

آمنت أن «كَتْخُدَا» يعلم كل شيء..

آمنت أن عالم خياله أفضل من واقع خادع تسكنه نفوس مريضة..

كانت فيما مضى تعشق الاهتمام من كل الناس، فعلت أشياء كثيرة من أجل اهتمامهم، كانت مؤمنة أنها السبب في موت ابنها الوحيد بإهمالها، حتى دخلت عالم روايته..

جعلها ترى الحقيقة بأبشع أسلوب ممكن، هل هو مَن اختار الطريقة القاسية، أم أن الحقيقة هي التي بتلك البشاعة؟

أدركت حكمته أخيرًا..

أدركت بعد كل ما حدث لها أنها ليست مذنبة، «خالد» ما هو إلا بشر خطَّاء يتطهر من أسوأ ما فيه داخلها، لكن كل مَن في العالم الخارجي ملاعين، لا أحد يريد الاعتراف ببشريته، لا أحد يؤمن بأنه خطَّاء، لا أحد يرغب التطهر من ذنوبه.

تأكدت أنها هي المُختارة..

وإلا لماذا حررها «كَتْخُدَا» بنفسه؟

تشعر بالندم الشديد عندما تتذكر بصقها على قدمه، كم تتمنى أن تراه ثانية لتُقبل قدمه شاكرة على النعمة التي أعطاها إياها.

نعمة رؤية الحقيقة..

تسمع أصوات كل الضالين بالخارج، تريد أن تخرج لهم لتجعلهم يتوبون عن خطاياهم، لكنها تنتظر أمره، أمر من آمنت بحكمته المطلقة ورؤيته الأبعد مما تتخيل، ابتسمتْ من داخلها في رضا، تشعر الآن أن مصير ابنها الجنة، أنها رحمته عندما تركته يموت، لو ظل على قيد الحياة لأصبح شيطانًا منهم، هي لم تكن مذنبة طوال حياتها، هي كانت تتهيأ لدورها الأساسي في رواية «كَتَخُدَا»..

تنحنح «خالد» الذي نسيت «شيماء» وجوده، نهض ليفك عنها الحبال، تابعته عيناها بابتسامة حنونة، تيقنت أنه جزء آخر من رواية «كَتَخُدَا»، كان «كَتَخُدَا» يدَّعي في البداية أنها البطلة الوحيدة، لكنها تعلم الآن أنه كذب عليها لحكمة أخرى في نفسه، تلك المهام التي تأتي لـ«خالد» ويذهب بعيدًا عنها، توتره ومحاولة مداراة شيء ما دائم، جعلها تتأكد أنه بطلٌ آخر في نفس الرواية.

ابتسم «خالد» وهو يفك الحبال عن يدها، ونظر لها قائلًا:

- إيه رأيك نخرج ناكل حاجة من برة.

أومأت برأسها أنْ لا، وقالت بإيمان غريب:

- دوري إنيْ أفضل هنا، لحد ما أجهز إني أطلع برة.

وأكملت بيقين، وهي تنظر لـ«خالد» بحنان:

- أنا عارفة إنك بطل معايا في رواية «كَتَخُدَا».

توقف عما يفعل ونظر لها، سأل سؤالًا غبيًّا في لهجة غير مُصدقة:

- أنتِ مع «كَتَخُدَا» في الرواية؟

أومأت برأسها إيجابًا وهي تمسح على ذقنه في رقة، قالت بنبرة دافئة:

- ارتاح، أنت ما عملتش غير اللي مكتوب لك تعمله. أنت ملاك.

لم يتخيل «خالد» للحظة أن كل استنتاجاته صحيحة؛ مع كل مهمة فعلها له، كان يشك أن هناك أبطالًا آخرين، لكنه لم يهتم ولم يفكر كثيرًا، وضع يده

على خدها في حنان، كيف لذلك الملاك أن يكون ضحية أخرى لـ«كَتَخُدَا»؟
ولماذا يشعر براحة أنه لن يضطر للكذب عليها ثانية؟
تحرر قلبه من ذنب أطبق على أنفاسه طويلًا، هو بالفعل نفَّذ ما كتبه له «كَتَخُدَا» أن يفعله من أجل الرواية، كل ما حدث مجرد خيال، هو لم يختطف فتاة مسكينة، بل اختطف بطلة أخرى..
وضع رأسه على كتفها وابتسم ابتسامة فيها راحة لم يشعرها منذ زمن..

* * *

تأكد «رامي» وهو يتصبب عرَقًا، أنه أحمق تمامًا.
وقف أمام باب شقة «سارة»، ضغط على جرس الباب، وما إن ضغط عليه حتى اكتشف أنه أبله، بلا أي خطة.
كيف يأتي لبيتها؟ ماذا سيقول لعائلتها؟ عندما قرأ الورقة التي تركتها له «سارة» لم يفكر، لم يستطع النوم فظل جالسًا ينظر للساعة حتى أتت العاشرة صباحًا، ارتدى ملابسه وذهب مسرعًا لبيتها دون أي خطة مسبقة.
مسح عرَقه الغزير في توتر، سمع صوت مزلاج الباب يُفتح فانتفض جسده، لتظهر سيدة مُسنة ـ من ملامحها عرف أنها أم «سارة» ـ تقول بتساؤل:
ـ مين؟
لم تفتح الباب، أبقته مواربًا، للحظة فكر أن يدفعها بعنف ويذهب لغرفة «سارة» يخطف الجواب ويركض، لكن استسخف الفكرة عندما تذكر بدانته وبُطئه في الحركة، و- بالتأكيد ـ صراخ السيدة حين يقتحم المكان، الذي سيجعل المبنى كله يركض وراءه.
تنحنح وقال ما جاء في باله:
ـ أنا زميل دكتورة «سارة» في المستشفى، الدكتورة غايبة بقالها كتير، كنت حابب أطمن عليها.
ما إن قال اسم «سارة» حتى اغرورقت عينا أمها بالدموع، واحمر أنفها،

فتحت الباب وهي تقول هامسة:

- فيك الخير يا ابني، اتفضل.

دخل محاولًا أن يبدو هادئًا، أشارت له أمها أن يجلس في الصالة، لكن رغمًا عنه تعلقت عينه بغرفة «سارة». «أول أوضة على الشمال وأنت في الصالة». هكذا نظر لباب غرفتها، خلف هذا الباب كانت تعيش راضية قانعة، خلف هذا الباب ذكرياتها وعبقها وتفاصيلها، خفق قلبه بسرعة وحاول ألا يبكي، يشعر أن قلبه يريد أن يتركه ويذهب للغرفة، جلس في الصالة، جلست الأم أمامه وهي تقول باكية:

- «سارة» مش لاقينها.

حاول أن يتصنع الدهشة قدر استطاعته، وقال:

- يعني إيه؟

أشارت الأم لغرفة «سارة» بحركة لا إرادية وهي تقول:

- كل حاجة في أوضتها زي ما هي، هدومها كلها موجودة، سابت حتى موبايلها، نزلت مرة شغلها وما رجعتش من بعدها، البوليس بيقول إنها يا إما هربت أو اتخطفت، بقالنا شهر على كده.

من إشارة الأم اكتشف «رامي» أن مشاعره تعلقت بالحمّام تقريبًا، لأن الأم أشارت على غرفة أخرى تمامًا، طوال عمره يكره الاتجاهات ولا يعرف اليمين أو اليسار إلا عندما ينتبه بشدة، قال محاولًا التركيز مع الأم ثانية:

- ربنا يرجعها بالسلامة، إحنا قلقنا عليها في المستشفى قلت آجي أطمن.

قالت الأم بدهشة:

- إزاي؟ إحنا روحنا المستشفى وبلغنا الإدارة بكل حاجة، قالولنا إنها ما جاتش أصلًا اليوم ده.

ارتبك «رامي» لحظات، ثم قال وقد بدأ يعرق ثانية:

- أكيد الإدارة ما بلغتنيش عشان أنا كنت منتدب في مستشفى تانية باعمل عمليات «تريسمنيكولوسز».

أومأت برأسها متفهمة، أدرك أن المصطلح العلمي الذي ألِفه حالًا جعلها تصدق أنه طبيب، قالت وهي تنهض:

ـ دقيقة واحدة هاعمل لحضرتك كوباية شاي.

قال بسرعة في ردة فعل تلقائية:

ـ لا حضرتك ما تتعبيش نفسك.

ثم أدرك غباءه، من البداية وهو يريدها أن تنصرف حتى يستطيع أن يدخل الغرفة، أصرت الأم ومشت باكية، ما إن اختفت عن ناظرَيْه حتى نهض على الفور، مشى ببطء حتى باب الغرفة وفتحه، لم يصدر الباب أي صوت لحُسن حظه، دخل مسرعًا. غرفة ضيقة لا يوجد بها سوى المكتب والفِراش ومكتبة بها كتب طبية كثيرة ودولاب صغير. غرفة كئيبة حقًا كما قالت «سارة». ذهب مسرعًا للمكتب ليجد الفتحة الدائرية التي قالت عليها، مد يده ليكتشف أنِ الفتحة الصغيرة لا تُدخل من يده إلا أصبعين، تعرق رأسه ويداه بشدة وهو يحاول أن يلتقط المفاتيح بأصبعين فقط، لعن «سارة» لأنها ظنت أن كل البشر بنحافتها، شعر بآلام في أصبعيه لكن إصراره كان أقوى، التقط الميدالية أخيرًا وأخرجها ببطء كأن حياته تتعلق بها.

ما إن خرجت حتى زفر بقوة ومسح العرَق الغزير من على وجهه، اتجه للكومودينو، اختار المفتاح الأصغر، أدخل المفتاح في الدرج وأداره، سمع تكة جعلت قلبه يرقص فرحًا، فتح الدرج بسرعة ولهفة.

ولم يجد شيئًا..

مجرد مذكرات لـ«سارة»، وبعض من الهدايا الحمقاء من أصدقائها، أمسك إحدى المذكرات فوجد كلامًا كثيرًا مكتوبًا بخط يدها، لم يدرِ ماذا يفعل، وضع المذكرات في جيبه، ثم أخذ يقلب في محتويات الدرج بعنف، سمع صوت الملعقة وهي تقلب الشاي فعرف أن أمها قاربت على المجيء، سحب الدرج كله حتى خرج من مكانه، وضعه على الفراش في آخر أمل

ونظر للمكان الفارغ الذي تركه الدرج ولم يجد شيئًا، سبَّ للمرة الثانية وهو يتلفت حوله لا يدري ماذا يفعل.

حمل الدرج ليضعه في مكانه فوجد الظرف يقع من تحته، أمسكه بسرعة وهو يتعجب من تفكير «سارة» الـ«دان براوني» في تخبئة الظرف أسفل الدرج، وضعه في بنطاله من الأمام لأن جيوبه قد امتلأت بالمذكرات، أعاد كل شيء لمكانه وذهب مسرعًا لكرسيه الذي كان يجلس عليه. في نفس اللحظة التي أزاحت الأم الستار الشفاف وجاءت من المطبخ في الجهة المقابلة.

قدمت له الشاي، وهي تنظر له مندهشة، نظر لقميصه اللبني، فوجده امتلأ ببُقع كبيرة من العَرق. تنحنح في حرج وقال:

ـ معلش يا طنط أصل السلم كان تاعبني قوي.

قالت له بابتسامة حنون:

ـ ولا يهمك.

وضغطت على زر المروحة في صمت قبل أن تجلس أمامه، رغم إحراجه، إلا أنه شعر ببعض الهواء الذي بدأ يتنفسه أخيرًا والظرف معه.

السابعة عشرة

أنا لا أتحكم في حياتك أو موتك

لكن لي مُطلَق الحرية في الاستفادة منهما في روايتي

أعظم الروايات هي التي استغل فيها المؤلفُ موتَ أبطاله!

وقتها كان وجهي سليمًا، وأمتلك مكتبًا مكتمل الأثاث، فَرَكت عينيَّ في قوة، ثم نهضت من المكتب تاركًا ملف الرواية مفتوحًا على حاسوبي المحمول، وتوجهت للوحة الكبيرة لأنظر لها نظرة طويلة..

شعرت بفراغ تام في عقلي، شردت في اللوحة كثيرًا عسى أن ترسل لي أي رسالة لكنها رفضت، خسرت بطلة من أبطال روايتي لكن خسارة محمودة، في النهاية استخرجت من تلك الأيام القصيرة قصة رومانسية ما، كل هذا يصب في مصلحة ما أريد أن أكتب.

نظرت للرسمة التي أعلقها على الحائط بجانب اللوحة، رسمة له بالبذلة الرسمية وهو يرتدي رباط عنق أو «بيبونة» ضخمة تكاد تأكل وجهه، أثارت غيظي ملامحه الباردة، وعدسته الواحدة على عينه اليمنى، ممدودة بحبل خفيف حتى بزته، قلت بابتسامة كي أستفزه:

- غصب عنك هاوصلها، ووَعْد إن أول حاجة هاعملها بعد ما أخلص الرواية دي إني هاطلَّعلك لساني.

لم يرد لأنه مجرد رسمة قديمة بالية، لكني شعرت بغيظ من عدم رده.

يئست من أن تحدثني الرسمة، نِمت على السجادة الوثيرة في الأرض، نظرت للسقف الأبيض تمامًا، هذه هي نومتي المفضلة عندما يتعبني تزاحم الأفكار في عقلي، موسيقى مسلسل «game of thrones: season 6» تجعلني هادئًا تمامًا، منذ أن بدأت في كتابة الرواية وأنا أسمع هذه الموسيقى فقط، موسيقى تتداخل فيها كل المشاعر التي أريد كتابتها، وبالروعة الكافية ألا تطغى على أفكارك بجمالها. بسيطة، سَلِسَة، سهلة، ولا يستطيع أحد أن يحاكي روعتها..

كم أكره الانتظار يا صديقي!

أكره انتظار الوحي بالذات..

إنها اللحظات القليلة التي لا تُسعفك قريحتك بحلول سريعة، اللحظات التي تضطر أن تدور في فلك الآخرين دون رغبة حقيقية حتى تلمس إحساسًا

جديدًا، اعتدت أن أنظر لكل ما يحدث لي - كمعظم البشر - أنه يحدث لي أنا، وكل الكون يدور حولي أنا فقط.

لكن هناك لحظات يُجبرك القدر فيها أن تسير في فلك الآخرين، تحدث لهم المصائب والكوارث التي لا تمسَّك أنت بسوء، مثل انتظار عملية جراحية لشخص قريب لقلبك، أو واجب العزاء السخيف الذي تذهب لتجلس فيه على مقعد أسخف لأن هناك من مات، حفلات الزواج التي يجبرونك على حضورها للاحتفال باثنين من الحمقي اللذَيْن قررا أن يكملا العمر معًا، وهما لا يدركان أي شيء عن قيمة هذا العمر، وسخافة أن يقضياه كله معًا!

والمثال الحالي.. أن تفقد تسلسل أفكارك، وتضطر أن تقطع كل شيء في انتظار الوحي وتصرفات أبطالي الحمقى.

نظرت للسقف عسى أن تهدأ الأفكار قليلًا، ذلك البركان من الأفكار والأحداث المتداخلة، مساحة السقف البيضاء تجعل عيني ترتاح فأغمضتها، ملمس الأرض تحت جسدي يجعلني متأهبًا، فكرة جديدة واحدة فقط، هذا كل ما أريده.

سمعت باب الغرفة يُفتح، بالتأكيد «ديما»، شعرت بجسدها وهو ينام بجانبي على الأرض، سمعت ابتسامة صوتها وهي تقول:

- نِفسي حد يصوَّرنا من الكادر اللي فوق ده، وأنا وأنت نايمين على الأرض كده ومُنسجمين وبالنا رايق.

ثم أكملت بابتسامتها ونظرتها المتأملة:

- لمَّا بنّام كده، السما بتبص علينا وبتبقى شايفانا أحسن، مش مجرد نقط سودة وشعر طويل..

قلت وأنا ما زلت مغمض العينَيْن:

- أنا بابقى نقطة بيضة عشان أقرع..

ضحكت ضحكة قصيرة، ربتت على رأسي، وقالت:

ـ بحبك.
أومأت برأسي في شرود وأنا أقول كعادتنا:
ـ عارف.
سألتني بلهجة جدية أعرف ما وراءها:
ـ «سارة» ماتت، إيه أخبارك؟
أفهم ما تسأل عنه، مغمض العينين هززت كتفي بمعنى لا أدري.
ككاتب لا أعرف كيف أعيش المواقف أو أنغمس فيها بكياني، أراها دائمًا مجرد أحداث رواية ما، كتبها شخص آخر..
لا أشعر بموت شخص ما قريب أو بعيد، لا أهتم لفرحه، كل هذه مجرد أحداث عادية بالنسبة لي، أنتظر مرورها بملل حتى تأتي اللحظة المهمة وهي الذروة!
عقليتي ككاتب هي ما تجعلني أُهمش كل المواقف والمشاعر غير الأساسية وأنتظر الأحداث المهمة والمحركة للحبكة فقط، حتى في حياتي الواقعية، كل ما أفكر فيه الآن هو شيء واحد.
لننتقل للفصل الثاني سريعًا دون تطويل!
هذا يجعلني لا أعيش الكثير حقًّا، لا أشعر كما ينبغي أن أشعر، لكن هذا لا يضايقني، بل إنني أضبط نفسي مستمتعًا بهذا المنطق بين الحين والآخر..
زفرت في ملل، شعرت بها تبتسم، تُحرك جسدها لتصبح فوقي، ففتحت عينيَّ وقلت مذكرًا إياها بما قالته سابقًا:
ـ اللي أنتِ عاوزاه ده في أوضة النوم، لكن هنا المكتب للشغل بس.
اعترضت قائلة بمزاحها:
ـ مش يمكن الوحي ينزل عليك بمشهد سيكو سيكو حلو؟
هززت رأسي قائلًا في عناد الأطفال:
ـ كتبته خلاص، مش عاوز منك حاجة.
نهضت ضاحكة، ثم قالت لي وهي ترفع حاجبها في عناد:

- لما تكتب الرواية دي، خليك صريح وقول للقُراء إن الكاتب عاجز جنسيًا.

ضحكت أنا هذه المرة، قلّما أضحك على شيء لأن بالنسبة لي كل الدعابات قد قيلت من قبل، أتوقعها دائمًا، لكن «ديما» أحيانًا تُضحكني بما لا أتوقع، أعشق عنادها، عندما تريد شيئًا تفعله أيًا كان.

نهضتْ، ودون أن أطلب قالت:

- أنا هاعملك قهوة.

وانصرفت بعد أن أغلقت الباب، لتتركني وحدي مع الموسيقى وصوت التكييف..

وأفكاري المتضاربة.

* * *

السؤال السادس: لو أنت شخصية في رواية، متخيل دورك يبقى إيه؟

ردَّت «سارة» - رحمها الله لحظتها، وهي تحكُّ رأسها في حيرة:

- مش عارفة.

ثم قالت - وهي تضحك بابتسامة صافية - إجابة دقيقة جدًّا:

- بس بظروفي دي، ممكن أقولك إني البنت اللي هتموت بدري عشان تغير كل حاجة في الناس اللي حواليها.

* * *

زفر «طه» في يأس وهو يضع هاتفه المحمول جانبه، لم يصدق أن جملة عفوية تجعل «آلاء» لا ترد عليه لمدة ثلاثة أيام كاملة، لم يفهم غضبها، لم يكن يقصد أي إيذاء لمشاعرها.

ضرب جرس هاتفه، فنظر للهاتف بلهفة آمِلًا أن تكون «آلاء»، ليجد الاسم الذي سمَّى به زوجته «عم عوض»، استقبل المكالمة في دهشة وسمع صوتها الحاد يخترق أذنه:

- أنت ما صدقت خِلِصت مني بقى!

تذكر فجأة أنه لم يزرها منذ أكثر من أسبوعين، لم يهاتفها أو يحاول أن يصالحها، أكملت هي دون أن تنتظر رده:

ـ طبعا.. تلاقيك عايش حياتك، وما صدقت تبعد عن الست اللي منكدة عليك وقارفاك.

قال بنبرة هادئة وهو يعدل نظارته:

ـ اهدي بس، مش أنتِ اللي قولتيلي إنك مش عاوزة تسمعي صوتي؟

صرخت:

ـ ولسة مش عايزة أسمعه.

أبعد الهاتف عن أذنه من قوة الصرخة، قال وهو يحافظ على مسافة الهاتف حتى يحافظ على سلامة أذنه:

ـ أنا قلت أسيبك تهدي بس شوية، بعد كده آجي أصالحك وأجيبلك القمر.

عندما قال آخر جملة، تذكر باسمًا تعليق «آلاء» عن أن أسلوبه قديم في المجاملة، ابتسم في حنين رغمًا عنه، قاطع صراخُ زوجته كل أفكاره:

ـ تسيبني أهدى ولا ترميني عند ماما، أنت بقالك أسبوعين حتى ماسألتش عليَّ، كأني ولا حاجة في حياتك.

صمت تمامًا لا يدري بماذا يرد، أصبح عنده يقين أن لسانه به جهاز طارد للنساء، ما إن يقول كلمة حتى يَنفجِرنَ فيه ويَترُكنَه، قالت هي بنبرة أهدأ قليلًا:

ـ أنت لسة هتعمل اللي في دماغك في موضوع عمك؟

أغمض عينيه لا يدري بماذا يجيب، هل يكون صريحًا معها ويخبرها أنه مستمر فيه حتى يأتي حقه؟ أم يكذب عليها ويقول لها أن تعود ويفعل ما يريد من ورائها. يكره شعور الكذب ويكره إحساس أنه يفعل شيئًا خاطئًا يداريه. هذا حقه ويجب أن يعود، قال بنبرة مَن يعلم كارثة ما سيقوله:

ـ لسة مستمر فيه، وهافضل أعمله لحد ما حقي يرجع.

ساد صمت لمدة ثوانٍ، يعرف أنها تبكي الآن في عجز، يعرف أنه يهد صورة الشاب المثالي الذي أحبته، لكنه لا يعبأ.

قالت بصوت غاضب:

ـ ماشي يا «طه»، افتكر إنك أنت اللي اخترت.

وسمع صوت انقطاع المكالمة.

لنعرف يا صديقي أن الصراحة المُطلَقة مع بعض الزوجات ما هو إلا الجحيم بعينه..

* * *

أجاب «طه» الذي خلع كل ملابسه وأبقى على وقاره بالنظارة:

ـ أنا البطل طبعًا، أنا «محمد فؤاد» في «إسماعيلية رايح جاي»، أنا «روكي» المصارع، أنا كل واحد حارب عشان حلمه لحد ما هيوصله إن شاء الله.

* * *

«يا «آلاء»..».

ناداها «هاني» زوجها، فخرجت له مسرعة، لتجده جالسًا في الشرفة الواسعة. ذهبت له متسائلة وقالت:

ـ أيوة يا حبيبي.

أشار للمقعد بهدوء شديد أقلقها، ثم قال باسمًا:

ـ اقعدي عاوز أتكلم معاكِ شوية.

جلستْ في قلق وهي تنظر له، ابتسمت ابتسامة مصطنعة وسألت:

ـ مالك قالقني ليه كده؟

نظر لها كمن يحاول أن يقرأ في عينيها شيئًا ما، اتسعت ابتسامتها حتى تُتقن التمثيل وتجعله لا يرى ما بداخلها، استسلم في النهاية ونظر للاشيء، ثم سألها بهدوء:

ـ أنتِ مبسوطة؟

خفق قلبها في عنف، بدأ عقلها يذهب لكل السيناريوهات السيئة، في كل الأفلام هذه المواجهة تبدأ بنفس المقدمة، ودائمًا ما تحمل مصيبةً ما خلفها. قالت وهي تمنع صوتها من الارتجاف بصعوبة:

ـ طبعًا مبسوطة، بتسأل ليه؟

قال وهو ينظر للطريق المظلم بلا هدف:

ـ عشان حاسس إن فيكِ حاجة غلط، بقيتِ تخرجي كتير، بقيتِ عصبية دايمًا، فيكِ حاجة مش قابلاني في السرير، كأنك بتأدي واجب أو زهقانة، فأنا عاوز أعرف إيه اللي اتغير.

مباشر، وهادئ، وصريح، أشياء تجعلها أكثر قلقًا، لم يعد ينظر لها نظرته المدلهة في الحب، والتي تطمئن بها أنه أعمى ولن يرى أبعد من جمالها، عدلت خصلة من شعرها الناعم وقالت بلهجة آسفة:

ـ معلش يا حبيبي، أنا عارفة إني متغيرة.

ثم أكملت ما تحترف سيدة مثلها أن تفعله يا صديقي؛ جَعْل كل مَن أمامها متهمًا:

ـ بس أنت مشغول قوي في الفترة الأخيرة، مش معايا بقلبك كده، دايمًا سرحان ودايمًا بتفكر في شغلك حتى واحنا مع بعض.

وأمسكت يده قائلة بحُب حقيقي:

ـ أنا واحشني الجنان بتاع زمان، واحشني سفرنا وخروجاتنا وتجميعة صحابنا، أنا بس يمكن زهقانة شوية.

عادت نظرته المحبة ثانية فاطمأنت، ربت على شعرها وقال برومانسية:

ـ عشان كده أنا عاملك مفاجأة، إحنا هنسافر مع بعض نروح الفيلا اللي في الساحل، أخدت أسبوع كامل إجازة من الشغل عشانك أنتِ بس.

شعرتْ بارتباك أكثر من الفرحة المعتادة، أتى في عقلها «طه» الذي رغم غضبها منه وتجاهلها مكالماته لأيام، إلا أنها افتقدته بشدة. ابتسمتْ ابتسامةً مفتعلة ونهضتْ لتحتضنه حتى لا يرى حزن ملامحها، ضحك هو وربت على ظهرها قائلًا:

ـ أنا بعشقك، وعمري ما أنساكِ أبدًا.

مسحت هي على ظهره بحنان حتى تُشعره بالسعادة، في حين ظلت عيناها تفكران كيف ستبتعد عن «طه» كل هذا الوقت. قالت بصوت فَرِح:

ـ ربنا يخليك ليَّ يا حبيبي.

صدق «هاني» الفرحة المزيفة في صوتها، وابتسم في حنان.

* * *

أجابت «آلاء» وقد وصلت لمرحلة من الثقة، تجعلها تضع قدمًا على قدم وهي عارية أمامي:

ـ أنا البطلة طبعًا، أنا طول عمري باحرك الحياة، حتى لو الناس ما خدوش بالهم، بس أنا اللي باحرك كل تفصيلة حواليَّ، البطلة اللي شافت كتير قوي وعندها القدرة على مواجهة أي حاجة مهما كانت.

* * *

فتح «رامي» الظرف بيد ترتجف رغمًا عنه، عاد لبيته بعد ساعة من مواساة الأم الباكية، قاد عربته بسرعة مجنونة كي يعود لبيته في أسرع وقت ممكن.

وما إن دخل البيت ذهب لغرفته التي يصدر منها صوت الأغنية طوال الوقت:

Don't let me, don't let me, don't let me down

بأنفاس لاهثة، بدأ يقرأ:

«حبيبي «رامي»،

مش هاقولك الكلمة التقليدية إنك لو بتقرأ الجواب ده يبقى أنا مت، مش لازم أبقى مت، بس على الأقل بقيت واثقة فيك ثقة عمياء لدرجة إني أقولك حاجة زي كده.

أكيد قلتلك بحبك لدرجة إنك زهقت من الكلمة، بس أنا متأكدة إني ما قولتلكش آخر اعتراف. عارفة إنك فاكرني هبلة وماليش ماضي أعترف

بيه، بس أنا هاقولك على أقذر حاجة عملتها في حياتي وندمت عليها ندم عمري كله.

لازم تعرف في الأول حاجة، أنا طول عمري باحب القراية، باسرح فيها وبانسى نفسي تمامًا، كان فيه كاتب بيلمسني وبيعرف يوصل للي جوايا قوي، الكاتب ده اسمه «حازم كَتْخُدَا»».

اشتدت مَسْكة «رامي» للورقة بغضب عندما قرأ اسمي، بدأت أفكار كثيرة تتضارب في عقله، اعتدل في جلسته عاقدًا حاجبَيْه وهو يأكُل السطور بعينَيْه:

«كاتب معروف قوي هو، يمكن أنت كمان تعرفه، عشان أختصر عليك الحكاية، الكاتب عمل إعلان إنه محتاج ناس مجنونة مؤمنة بيه عشان يبقوا أبطال روايته الجديدة، أنا كنت لسة راجعة من المستشفى بعد ما عرفت اللي عندي، والله حالتي كانت زي الزفت ومش عارفة أفكر. عارفة إن ده مش مبرر بالنسبة لك، ولا حتى مبرر بالنسبة لي، بس أنا كان نِفسي أعمل حاجة مختلفة، كان نِفسي أعمل أي حاجة مجنونة، بعت رسالة على الصفحة إني عاوزة أشترك، لاقيت الرد جه بعدها بخمس دقايق فيه العنوان.

المهم روحت له، أول حاجة قالها لي «اقلعي»، كنت هاسيبه وأمشي من كتر ما الكلمة جرحتني بس في حاجة وقفتني، هاخسر إيه أكتر من إني خسرت عمري كله؟ للأسف سمعت الكلام وقلعت، سألني ١٠ أسئلة وأنا جاوبت بمنتهى الصراحة، لاقيته بعدها بأسبوع بيقولي إني بطلة روايته الجديدة، وحدد لي ميعاد».

لم يصدق «رامي» ما يقرؤه، خفق قلبه في غضب وتسللت دموع مكتومة لعينيه وهو يقرأ قصتها معي، شرحت كل شيء متجاهلة بنود العَقْد والتزامها بالسرية، حتى وصل «رامي» لتلك الجملة:

«وهو كان عقابه أني أُضحي بأني ما ادورش على علاج».

لينهض بغضب الدنيا كله، وهو يكمل قراءة:

«السرطان اللي عندي سرطان دم، يعني كان ممكن أعمل علاج كيماوي

وأحارب فيه فترة، رغم إن نسبة الشفاء منه قليلة جدا، لما أنا اخترتك هو قالي ما ادورش على علاج، وأنا أصلًا ما كنتش عاوزة أتعالج عشان مش فارقة معايا العيشة، بس لما هو قال كده خلاني أفقد الأمل، قلت إني بعد شهور الرواية هابقى حرَّة تمامًا ولو عاوزة أتعالج هتعالج.

كل اللي عاوزة أقولهولك إني آسفة، آسفة إني قلعت، آسفة إني شكّيت فيك وافتكرتك جزء من رواية «كَتْخُدَا»، آسفة إني ما قلتلكش أي حاجة عن الموضوع، بس العَقْد واضح، كلمة واحدة نقولها لأي حد، بينتهي دورنا في الرواية والعقاب بهدلة، أنا باكتب دلوقتي كل ده بس عشان واثقة إنه مش هيعرف يئذيني.

يمكن لو فكرت فيها بطريقة حلوة، هتلاقي إني ما كنتش هاثق فيك في أول يوم أشوفك فيه. لولا إن جه في دماغي إنك جزء من روايتي الجديدة، حبيتك وفضفضتلك لمّا عرفت إنك عشقتني فعلًا، وإنك مش جزء من الرواية، لولا العقاب، كان زمانك أقنعتني بالعلاج، وساعتها فكرة السفر معاك لآخر الدنيا كانت هتتلغي، وساعتها هيفوتني أقضي بقية عمري في أسعد أيام حياتي اللي أنا متأكدة إني هاخليها أسعد أيام معاك هناك.

مش عارفة أنت هتسامحني إزاي، بس صدقني، أنا بعشقك، وآسفة على أي حاجة حصلت قبل كده ضايقتك مني».

انتهى الخطاب فجأة، قلّب الصفحة بين يديه عسى أن يجد أي شيء آخر مكتوب، لماذا لم تكتب أكثر من هذا؟ للحظة شعر برائحتها ودفئها حوله، طواه بحرص شديد كأنه يحتوي على سر حياته..

داخله غضب يتصاعد كبُركان على وشك الانفجار..

«سارة» كانت جزءًا من رواية ذلك المريض طَوال هذا الوقت؟

لماذا لم يخبره؟ لماذا تركه يحبها؟ كيف يتركه يتألم كل هذا الألم؟

لم يحتمل أكثر من هذا، فضرب الحائط بيدَيْه في قوة من الغضب..

* * *

احتار «رامي» في إجابة السؤال السادس قليلًا، ظل أكثر من خمس دقائق يفكر في دور يليق به، ثم قال ناظرًا لي:

ـ يمكن صديق البطل أو البطلة، الراجل اللي دايمًا بيضحك في الفيلم ومالوش دور ولا قصة، عمرك سألت نفسك صديق البطل عايش فين؟ مشاكله إيه؟ بيحب ولّا مش بيحب؟ أمه عايشة ولّا ميتة؟

وأكمل مبتسمًا بسخرية:

ـ أنا بقى الدور ده في دنيتي كلها، صحابي الولاد والبنات بيعاملوني بالمنطلق ده، أساعدهم وأنصحهم وأهَدِّيهم بس مش مشكلة أي حاجة تانية، مش مهم أنا حاسس بإيه ولّا عاوز إيه، مشاكلي ما تخصهمش، أنا بالنسبة لهم اللي بيسموه السنِّيد، باطلع جنب بطل دمه تقيل عشان يضحَّك الجمهور، بس في واقع الأمر، أنا ماليش أي تلاتين لازمة في قصة الفيلم.

* * *

قال لها «خالد» إنه سيذهب في مهمة لـ«كَتَخُدَا»، فتركته «شيماء» ـ لأول مرة ـ يذهب، دون بكاء أو صراخ أو خوف..

لقد ذهب ليفعل شيئًا من أجل «كَتَخُدَا»، وهذا يكفي..

مهام «كَتَخُدَا» له تعني أن «خالد» بدأ يتطهر، بدأ يرتقي لمستوى أعلى من الحكمة، أصبح شيطانه على وشك الموت..

أمسكت حاسوب «خالد» وفتحته في لهفة، وبحثت عن أغنية تحبها منذ فترة طويلة، شعرت أنها ستريحها قليلًا، بدأت الأغنية فشعرت بنشاط في روحها، ابتسمت لأول مرة منذ فترة، ودمعت عيناها في اشتياق مع صوت الربابة الحزين..

أغمضت عينيها وهي تسمع الكلمات التي تنساب في روحها..

«متى يا كرام الحي عيني تراكم،
وأسمع من تلك الديار نداكم».

نهضت بهدوء بشعرها المبعثر ونظرتها الجامدة وجسدها المترب، وقفت

في نفس المكان الذي وقف فيه «كَتْخُدَا» عندما زارها، عندما حررها لترى العالم كله ببشاعته..

«سقاني الغرام كأسًا من الحب صافيًا».

وقفت وأخذت تتمايل برأسها في حنين، تهتز على نغمات الموسيقى الروحانية، تشعر أنها ترتفع من على الأرض، تنساب الموسيقى فتتخلل وجدانها لتشعر بالحياة لأول مرة منذ فترة طويلة، تمايل جسدها كله في هدوء وبطء، كأن روحها تشرب من ذلك الإحساس في شبق فيدب النشاط في جسدها ببطء.

«يا ليته لما سقاني.. سقاكم،

يا ليته لما سقاني، سقاكم».

هبطت دموعها في اشتياق غريب، يا ليته حقًّا ظهر لكل الناس حتى يروا ما رأته من حكمة روحه وقوة وجوده، ابتسمت في حنان عندما تذكرته، منقذها الوحيد، الرجل الذي جعلها روحًا صافية بلا شوائب، جرَّدها من كل القاذورات البشرية ليستنير بصرها فترى ما بداخل النفوس، تشعر بالفخر لأنها بطلة روايته الوحيدة هي و«خالد»، تشعر بالأسف لمن لم يدخل في تلك التجربة من باقي البشر.

«أمر على الأبواب من غير حاجة،

لعلي أراكم، أو أرى من يراكم».

تمايل جسدها أكثر بردائها الأبيض المتسخ، رفعت يديها لأعلى حتى تشعر بالموسيقى أكثر، تتذكر أن هذا المكان وقف فيه «كَتْخُدَا» فيقشعر جسدها من ذلك الإحساس بالنشوة..

كان هنا..

تشعر بطاقته، تشعر بحضوره..

«سقاني الغرام، سقاني الهوى، كأسًا من الحب صافيًا،

يا ليته لما سقاني سقاكم».

رددت شفتاها الكلمات في لهفة، تتمنى أن يسمع «كَتْخُدَا» كلمات الأغنية

فيحنو عليها ثانية بحضوره، تريد أن تراه ولو مرة واحدة فقط، تمسح حذاءه من آثار بصقتها الآثمة، كيف كانت عمياء لتلك الدرجة؟ كيف لم ترَ حكمته؟ كيف سبَّته بأقذع السباب واتهمته بالجنون؟ وكيف كان هو رحيمًا بها لتلك الدرجة؟ كيف لم يقتلها وهي الجاهلة التي تخطئ في حق مَن يكتبها؟

هدأت الموسيقى فهدأ تمايلها، حتى خف صوتها تمامًا، رقدت على الأرض وألصقت وجنتها بالأرض في نفس مكان قدمه عسى أن تشعر به، وابتسمت في اشتياق وهي تعلم أنه سيدرك ندمها..

وستلتقي به قريبا جدًّا..

* * *

قالت «شيماء» بضحكة مازحة، تجيب السؤال السادس:

ـ أنت لسة بتسأل؟ أنا البطلة طبعًا، أنا الأم اللي مات ابنها، أنا اللي اتظلمت في حياتي كلها عشان بنت، وعشان ليها أخ توأم، قصة مثالية تتكتب في روايات مش رواية واحدة بس!

* * *

وأجاب «خالد» دون أن يفكر:

ـ أنا البطل أكيد، أنا اللي هاغيَّر أي نظام قمعي، أنا عارف اللي جوايا وعارف أقدر على إيه كويس قوي، مشكلتي إني جدع وطيب وما باحبش الشر، مشكلتي إني مخلص وكل الناس بتخوني، لكن لو جاتلي الفرصة، هابقى في التاريخ أول اسم يُذكر بعد الأنبياء، من قوته وشجاعته ونُبله.

* * *

الثامنة عشرة

تلك الرواية هي الخط الأحمر

غير مسموح لأحد أن يقرأها أو أن يحاول أن يعرف مصيره منها

الفضول قتل القط

فلا تفكر للحظة أن تشعر بالفضول أو يخونك ذكاؤك

وتحاول أن تعصي قواعدي

«يعني مافيش أمل إنك تساعديني في أي حاجة؟».

قالها «طه» بيأس في ذلك الكافيه القريب من الكلية. قالت «مها» معتذرة:

- معلش والله، صعب جدًّا إني أساعد حضرتك، بابا لو عرف إني باقابلك هنا ممكن يموِّتني أصلًا.

نظر لها محاولًا أن يشعر من نظراتها بأي شيء، فتاة مهذبة محترمة ملائكية، لا يوجد طريق لقلبها على الإطلاق، جرب كل شيء، من أول المزاح حتى النظر لها برومانسية، اشتكى من زوجته مرارًا كما أخبرته «آلاء» أن يفعل، حاول أن يمحو التكليف بينهما لكنها تصر على كلمة «حضرتك» كحائط سد منيع لا يستطيع أن ينفذ منه.

هذه فتاة لن تحبه مهما فعل، جرب في اللقاء السابق أن يغني لها فاستقبلت صوته ببرود وقالت: «كويس». ما إن ينتهي كلامهما بخصوص العم، تحاول أن تنهض مستأذنة. سألها عن اهتماماتها، حاول أن يفهم أي شيء عن شخصيتها..

لكن بلا أمل..

طَوال حياته لم يعاكس فتاة واحدة، لم يُحب سوى زوجته، ومنذ زواجهما نسي كل شيء عن النساء!

غابت «آلاء» عنه أسبوعًا كاملًا حتى الآن، افتقدها بشدة، يرغب في أن يسألها وأن تحاول معه وترشده كما كانت تفعل، يشتاق لضحكتها وللمسة جسدها وسخريتها الجريئة، لم يدرك كم أصبحت مهمة في كل تفصيلة في حياته إلا عندما غابت عنه كل هذا الوقت.

«أنت سامعني؟».

قالتها لتقاطع أفكاره، فنظر لها وقال:

- طبعًا.

لم يسمع كلمةً بالطبع، بدأت هي تُكمل كلامها، فقال فجأة كمحاولة أخيرة يائسة:

- أنا بحبك قوي يا «مها»، ومش قادر أقاوم مشاعري أكتر من كده.

نظرت له نظرة مستنكرة، ثم نهضت فجأة تاركة إياه ينظر لها وهي تنصرف مسرعة.

ثم هز كتفه بلا مبالاة قائلًا إنها كانت محاولة يائسة من البداية.

* * *

بدأ «خالد» أن يمل!

ملَّ من الجراح وظلامه المستمر، سئم من عقل «شيماء» التائه باستمرار، كل مرة يقرر أن يخرج فيها ليفعل أي شيء تنهار في البكاء، لا تهدأ إلا عندما يخبرها كذبًا أنه ذاهب لمهمة ما لـ«كَتْخُدَا»، تتركه في سلام وهدوء وتتحمل ابتعاده، منذ أن عرف أنها بطلة معه في الرواية وهناك شيء غريب يشعره لا يدري ما هو..

كيف يتناقض فيه كل شيء لتلك الدرجة؟

عندما عادت «شيماء» له، شعر بأن كل ما قاساه من عذاب وندم وانهيار، سينتهي بعودتها، عندما سمحت له أن يفعل ما يشاء، شعر أنه أمام ملاك من ملائكة الرحمة، أحبها لدرجة الجنون، بات يريد أن يرضيها بأي شكل.

فمن في الدنيا سيفعل ما فعلته هي من أجله؟

مَن يفهمه مثلها؟

منذ أن عادت وهو يستمتع بقربها، يشعر بالحماس وهو يقرأ لها شِعر المُتنبي، يقرأ لها بعضًا من أعماله، رغم شرودها لكنها كانت تبتسم أحيانًا من كلمات تلمسها، حاول كثيرًا أن يحكي لها عن نفسه، حتى تعرفه كإنسان وتنسى قليلًا الوحش الذي تراه، تقبَّلت هي ما يفعله، احتوته، لكن سريعًا ما انتهى الكلام عن شخصيته لأنه لم يجد الكثير ليقوله، لم تقل شيئًا عن نفسها، كأنها ألقت بحياتها السابقة في سلَّة المُهملات..

لكنه الزمن..

وَغَدٌ يمضي نافخًا في نيران المشاعر بثليج قسوته، فيطفئ النيران مهما عَلَت جذوتها.

بدأ يفكر في ابنه، في زوجته التي لم يرَها إلا مرة منذ أسبوع وأخبرها أنه يفعل كل ذلك من أجل الرواية، صدَّقته البلهاء كعادتها، حتى الإثارة التي يشعر بها مع كل رسالة من «كَتْخُدَا» بدأت تفتر، يُنفذ مهامَّ لا يدري ما هي وما نتائجها، يحب ثقة «حازم» فيه، إحساس أنه بدأ يعتمد عليه ليؤثر في أحداث عالم الرواية الخيالي، لكنه في النهاية لا يعرف فائدة ما يفعله، لا يعلم أي المهام في الواقع وأي المهام في خيال «حازم» الروائي.

ملَّ الخيال..

ما زال يحب «شيماء» لدرجة لا تتخيلها هي، يحبها بشرودها وكلامها الغريب عن الشياطين، يحبها باستكانتها وتعلق حياتها كلها به، لكن ما لا تعرفه «شيماء» أنه ملَّ من جو المكان الكئيب، كره رائحته وظلامه وتفاصيله المكررة، شعر ببعض السعادة عندما رأى «شيماء» بدأت في التحرر والرقص على بعض الموسيقى الغربية، يشعر أنها تؤدي طقوسًا ما تجعلها أفضل نفسيًّا.

لكنه لا يستطيع أن يتنفس..

نظر لجسدها النائم في استكانة بجانبه، ونظر لباب الجراج المُغلق في يأس مرير.

* * *

أغمضت «آلاء» عينيها وهي على الشاطئ بجانب زوجها.

ملابس السباحة المثيرة تكاد تنفجر من ضيقها على جسدها، يلتفت إليها كل مَن يمر من أمامها على الشاطئ فتبتسم في ثقة من خلف نظارة الشمس.

تسمع اهتزازات الهاتف المحمول في حقيبتها وتتجاهله، منذ أن سافرت إلى الساحل وهي تشعر أنها كانت حمقاء، كيف تفعل كل هذا دون أن تأخذ احتياطها؟ كادت أن تنكشف وتواجه أسوأ مصير ممكن، حماسها بوجود «طه» أنساها حرصها في أشياء كثيرة، تعلم أن «هاني» بدأ الشك يتسلل لقلبه، فتعامله الآن معاملة الملوك، هي تحبه حقًّا وتحترمه، لكنها لا تستطيع أن تتحكم في نفسها، تريد ذلك الإحساس بالإثارة الدائم.

حاول «طه» أن يحادثها وأن يراسلها كثيرًا، لدرجة أن زوجها لاحظ

وسألها مَن يهاتفها بهذا الشكل المتكرر، ابتسمت وقالت إنها نمرة تعاكسها منذ فترة طويلة وهي لا ترد. جنون «طه» هذا أقلقها منه قليلًا، شعرت لأول مرة بخوف من جنونه الذي سيجعل كل شيء ينكشف..

لكن ليس «هاني» بالرجل الذي يصاب بالغيرة العمياء على زوجته..

معلومة سِرية أقولها لكِ - أنا حازم - يا قارئتي العزيزة: معظم الرجال في المجتمع الشرقي لا يشعرون بالغيرة عليكِ لأنهم يحبونكِ، لا يتحكمون فيكِ لأنهم يريدون أن يحافظوا على الجوهرة، وهذا الكلام المحفوظ، الرجل يفعل كل ذلك فقط لأنه ضعيف الثقة في نفسه جنسيًّا، لا يريد أن يكون لكِ خبرة حتى لا تقارني لمساته وأعضاءه بآخرين، لديه كابوس مستمر أنه «ما بيعرفش»؛ ولهذا يمنع عنكِ الرجال الآخرين سواءً من الأصدقاء أو العائلة، يشعر دائمًا أنه مُهدد منهم، وأنهم قد يكونون الأفضل في كل شيء: هذا حنون، وهذا مُستمع جيد، وهذا نصائحه مفيدة. هو يريد أن يكون كاملًا أمامكِ.

فلماذا يُعرض نفسه لتلك الشكوك والهواجس، ويُرهق عقله من أجل أن يثق في نفسه؟ ليمنعكِ عنهم ويتحكم فيكِ أفضل وأكثر راحة للبال!

«هاني» كان من الرجال القلائل الواثقين بأنفسهم، يقول لها دائمًا إنه لن يراقبها وسيتركها بحُريتها، لكن لو خانته يومًا، فسيلقيها من حياته كلها ولن يعود مهما ترجَّته، لأنه يعلم جيدًا أنها خسارتها وليست خسارته.

لكنها افتقدت «طه» حقًا..

افتقدت بساطته وبلاهته، صراحته ونظرته الراغبة فيها، أسلوبه القديم في الكلام، انبهاره بكل ما تفعله في الفراش..

شعرت أنها تتذكر كل هذا، فلم تحتمل وأرادت أن تحدثه..

لكن لا..

لقد صدر قرارها النهائي..

التفتت لزوجها النائم في استمتاع يحاول أن يجعل بشرته برونزية، قالت

بصوت عالٍ حتى تتغلب على صوت البحر:

ـ أنا زهقت، ما تيجي نمشي.

رد هو من دون حتى أن يرفع رأسه:

ـ إحنا لسة جايين، انزلي البحر شوية لو عايزة.

تأففت وهي تحاول أن تبعد «طه» عن عقلها، أعطاها القدر تحذيرًا باقتراب النهاية المؤسفة، لا بد أن تحترس تمامًا في تلك الفترة، نهضت بسرعة وركضت نحو البحر في محاولة لجعل مشاعرها تهدأ قليلًا..

مستحيل أن تعود لـ«طه» ثانية، وهذا اختيارها الأخير..

اختارت زوجها وابنتها..

* * *

كان «رامي» بالجنون الكافي ليتسلل إلى مكتبي..

فتحت «ديما» له الباب، فقال لها مبتسمًا إنه على ميعاد معي، قالت له إنني أستحم وأجلسته في المكتب وأغلقت عليه الباب.

لم يكذب، كان هذا موعدنا كي نلتقي، منذ أن عاد من «سهل حشيش» وأنا لا أعرف عنه شيئًا، بعد ثلاثة أسابيع كاملة وجدته يهاتفني ويخبرني أنه يريد أن يكمل القصة ويريد أن يحدثني قليلًا عما حدث معه..

لكني لم أصدقه، شعرت أنه يُخفي شيئًا ما..

وكنت مُحِقًّا كالمعتاد..

ما إن أغلقت «ديما» باب غرفة المكتب، حتى نهض «رامي» مسرعًا، اتجه لحاسوبي المحمول على المكتب، حرَّك أصابعه عليه لتختفي الشاشة السوداء لينفتح الحاسوب على الفور.

أنا كسول وأحب البساطة في كل ما يتعلق بي، فلا تلُمْني يا صديقي لأني لا أضع كلمة سِر!

شعر «رامي» بنشوة وهو يدخل عالمي، ينظر للملفات الكثيرة، كان هناك ملف اسمه «my world»، فتحه بسرعة ليجد أسماء رواياتي كلها وملفات

الأفكار التي تأتي على بالي فأكتبها حتى أستخدمها في وقت لاحق، وجد ملفًا مكتوبًا عليه «رواية دستور كَتَخُدَا» ففتحه.

قالت لي «ديما» بقلق، وهي تقف بجانبي في غرفتها:

ـ أنت هتسيبه؟

كنا ننظر للشاشة التي تنقل إلينا بثًا حيًا للجراج ولغرفة المكتب، راقبته بتركيز شديد وأنا أقول:

ـ هو عاوز يعرف بس، هو ماشي في حبكته، ما تقلقيش.

لكن «رامي» فعل شيئًا لم أكن أتوقعه، أخرج من جيبه «فلاش ميموري» وأدخلها في الحاسوب، سألتني «ديما» للمرة الثانية:

ـ ده بينقل الملفات.

قلت مشيرًا للشاشة بثقتي:

ـ عشان مستحيل يقرأ كل حاجة وأنا ممكن أخش عليه في أي لحظة، هياخد ملف الرواية عشان يقراها بعدين.

ظل «رامي» ينظر للشاشة بحماس حتى انتهى، ووجدت ملامحه تهدأ قليلًا ثم يسحب الـ«فلاش ميموري» ويدخلها في جيبه، تأهبت لأن أخرج له وأذهب للمكتب حتى أحدثه، لكنه ركض فجأة خارجًا من المكتب وأكمل ركضه حتى الباب وفر هاربًا، سرعته أدهشتني بالنسبة لبدانته، حتى إنني ابتسمتُ في إعجاب.

تنحنحت «ديما» وهي تنظر لي متسائلة، فقلت بثقة أكبر:

ـ هييجي تاني.

قالت «ديما» سؤالها الذي كتمته:

ـ تفتكر هو فعلًا خد ملف الرواية بس، ولّا خد كل الملفات؟

لم يخطر هذا في بالي لحظة، مسكينة «ديما» تخاف علينا دائمًا. ضحكت بلا مبالاة وقلت:

ـ وهو هيعمل كده ليه؟ «رامي» محدود التفكير جدًا، هياخد ملف الرواية

وهيتأكد من المكتوب إن ماليش علاقة بموت «سارة»، هيرتاح، هوَّ دلوقتي في مرحلة تقبُّل الموت، عاوز يعرف مين قتل «سارة» وخلاص.

هزت رأسها في هدوء رغم أن وجهها ما زال يحمل علامات القلق..

التاسعة عشرة

الضوء خادع دائمًا، لا تؤمن به

الضوء يجعل عينيك تريان دون أن تفهم

تحفظ الموجودات دون أن تشعر بها

في عالمي.. لا تُصدق إلا الظلام الدامس

٠٠ : ٤ ظهرًا

قالت «علياء» فجأة وهي تهزني من كتفي:

ـ أنا زهقت.

دون التفات كعادتي أشرت لباب الغرفة وقلت بشرود:

ـ امشي لو عاوزة.

وهززت كتفي وأنا أكمل:

ـ أنا ما اعرفش إيه اللي جابِك أصلًا!

قلتها رغم أنني من داخلي أريدها أن تظل معي، مضى وقت طويل كنت وحدي تمامًا ووجودها له دفء ما في قلبي، زفرت هي في ملل، لم تنهض كما توقعت، نظرتُ لها لحظات، لاحظت أنها لا تُمسك محمولها كعادتها، فتساءلت:

ـ موبايلك فين؟

قالت وعلى ملامحها علامات المَلل:

ـ بِيشحن.

ابتسمت في إدراك، لهذا ملَّت وتريد التحدث الآن، هي أنثى في النهاية وتريد الكلام الدائم، سألتها كي أسليها قليلًا:

ـ إيه أخبار الشغل الجديد؟

قالت وهي تعتدل في حماس:

ـ المفروض أنت طبعًا لما تخلص البلوى اللي معاك دي، وفي رواية جديدة لكاتب شاب اسمه «حسام عبد الله»، ورواية لـ«أحمد عباس»، وفيه ديوان شعر لـ«هشام حسن»، و«فريدة» أخيرًا خلصت روايتها التالتة..

سألتها دون اهتمام حقيقي، وأنا أراجع ما كتبت بسرعة:

ـ وحلوة؟

قالت ماطَّة شفتيها علامة على عدم المعرفة:

ـ ما أعرفش، هي كئيبة زي عادتها، «فريدة» طول عمرها جمهورها قليل بس بيعشقها، كل المرضى النفسيين تقريبًا بيحبوها.

وضحكتْ بشدة، لم أكن معها فابتسمتُ مجاملًا، لتكمل هي:

-وفي طبعة جديدة من رواية «سالم»، كل شوية أقول له مش كفاية رواية واحدة بس، هو معاند ومش عاوز يكتب تاني.

لم أدرِ ما أقول، حاولت أن أفتح موضوعًا آخر، لكن خطرت لي فجأة جملة بداية الفصل، فأشرت لها أن تصمت، وبدأت أكتب متجاهلًا إياها تمامًا.

* * *

آخر يوم في الأسبوع الثالث، وآخر يوم في سفر «آلاء» وزوجها..

قاومت كثيرًا..

حاولت أن تنسى «طه» بكل قوتها، فعلت كل شيء: تعوم في البحر بالساعات، تذهب للغداء وبعدها تذهب للبار على الفور، ترقص وتشرب حتى تعود للبيت، لا تستطيع أن تفتح عينيها، تعرف أنها ستفكر في «طه» فتنام مع زوجها بجنون يرفضه في كل مرة، لم تكن تستمتع إلا عندما تتخيل أن زوجها هو «طه»، كادت في مرة أن تخطئ اسمه وتصرخ باسم «طه» في لحظة نشوتها، أمسكت لسانها بصعوبة في آخر لحظة..

تشتاقه بكل تفاصيله..

واليوم، بمعرفتها أنها ستعود غدًا للقاهرة، لم تستطع أن تقاوم أكثر من هذا، جالسة على البحر في ملل، تنظر لزوجها الذي تفحَّم من الشمس، وما زال مقتنعًا أنه لم يصل للدرجة البرونزية بعد.

أخرجت هاتفها من الحقيبة، ووجدت أكثر من مائة رسالة منه، ابتسمت في حنان وذكرياتهم تعود لها بقوة، شعرت براحة لم تشعر بها منذ أن سافرت وقررت أن تهجره، فتحت برنامج الـ«watsapp» وبعثت له وجهًا يُخرج لسانه، لم تمر ثوانٍ حتى وجدته يكتب ويرد عليها قائلًا:

- حرام عليكِ، أنتِ فين؟ وحشتيني.

ابتسمت في ثقة، تعلم أنها للمرة الثانية تختار أن تدخل الدائرة بقدمها،

متجاهلة كل التحذيرات الممكنة، أقنعت نفسها أنها أزالت كلَّ الشك الذي كان يراود زوجها، بعد معاملة الملوك التي تتعامل معه بها، لا خطورة من الآن..

رمقتْ «هاني» بطرف عينها، نائمًا في استمتاع على «الشيزلونج»، كتبت بسرعة وهي تبتسم:

ـ أنت كمان وحشتني قوي، أنا مسافرة مع جوزي، أول ما أرجع هاقابلك.

وقبل أن تمسح الرسالة كلها، كتبت كلمة دافعها نسائي بحت:

ـ معلش بقى ابقى اعتِذر لـ«مها» النضيفة، بس أنت واحشني، أعمل إيه؟

ومسحت الرسالة وهي تبتسم ابتسامة واسعة من قلبها.

* * *

جاءت رسالتي لـ«خالد» كطوق نجاة في بداية الأسبوع الرابع..

شعر أنه سينفجر من الملل، عندما أتت رسالتي بالأمر..

«وصِّل الصور لـ«هاني أحمد منصور»، عنوان الشركة«...»».

رغم احتقاره لما يفعله، وشعوره أن «كَتْخُدَا» جعل من دور بطولته شيئًا ماسخًا، لكنه نهض بسرعة وارتدى بذلته الفخمة، سمع صوت «شيماء» الخائف والموشك على البكاء:

ـ أنت هتسبني وتروحلهم تاني؟

التفت لها وقال بسرعة:

ـ معلش، لازم أنفذ أوامر «كَتْخُدَا».

حاولت أن تداري خوفها لكنها فشلت، ركضت نحوه واحتضنته قائلة بخوف شديد:

ـ لأ، بلاش المرة دي، أنا مش مطَّمنة.

ثم التفتت له قائلة بإيمان صادق:

- أنا باحس بـ«كَتْخُدَا»، هيسامحك لما يعرف إن أنا اللي قلتلك بلاش.

أمسك «خالد» أعصابه وهو يدفعها برفق قائلًا:

- مش هينفع، ما أقدرش أخالف أمر ليه.

وتركها وحثَّ السير مُسرعًا للخارج، خلفه صوتها وانهيارها في البكاء، اعتاد رعبها فلم يعد يشفق عليها، أوقف سيارة أجرة بسرعة، ما إن ركب السيارة حتى فتح زجاج النافذة لآخره وأسند رأسه على المقعد، وأخذ نفسًا عميقًا..

ما هذا الحال الذي وصل إليه؟

كيف سمح لنفسه أن يقع في هذا المستنقع القذر؟

ضرب الهواء وجهه فأغمض عينيه في استمتاع حقيقي، لم يشعر بقوة هذا الهواء العنيف منذ أسابيع، حكَّ لحيته الكثيفة التي لم يُشَذبها من فترة طويلة، نظر في المرآة الجانبية للعربة، وجد وجهًا مُتسخًا وذقنًا تنافرت شعيراتها في كل اتجاه، شعر أنه لا يعرف هذا الشخص الذي ينظر إليه، أغمض عينيه ثانية في غضب.

في الأفلام والروايات، يرى دائمًا نهاية المدمن كارثية، يفقد حياته، يفقد عقله ومواهبه، يتحول عبدًا للمُخدر ويريده بأي شكل حتى لو باع نفسه، كيف أصبحت «شيماء» مخدرًا؟ كيف أدمنها بتلك الطريقة؟ لا يتصور أن «خالد عبد السلام» الكاتب الثائر، ذا السمعة الرنانة، قد سقط هذا السقوط البشع من أجل رغبة حمقاء في الإحساس بالقوة.

يريد أن يعود لحياته التقليدية، أن يستحم ويشعر أنه على قيد الحياة..

لكنه سيفتقدها بشدة..

فتح عينيه أخيرًا عندما يئس من أفكاره، ليجد سائق السيارة يقول له إنهما وصلا، شعر بالضيق لأن المسافة كانت بهذا القرب، خرج من سيارة الأجرة وأعطى النقود للسائق، ونظر للمبنى الكبير لتلك الشركة العملاقة، دخل بهدوء ليستقبله عامل الاستقبال بابتسامة مُرحبة، فقال «خالد» بوقار يُتقنه:

ـ أستاذ «هاني أحمد منصور».
نظر الموظف لحاسوبه لحظات ثم قال السؤال المعتاد:
ـ في موعد سابق؟
ابتسم «خالد» بهدوء، ثم قال:
ـ للأسف لأ، بس قوله إني جاي بخصوص «آلاء» مراته.
أمسك الموظف هاتفه، تحدث فيه قليلًا ليبلغ الرسالة، ثم قال:
ـ ساعة والأستاذ «هاني» هييجي لحضرتك.
ابتسم «خالد» في سعادة حقيقية.
ساعة كاملة يقضيها بعيدًا عن الجراح وظلامه.

* * *

«سقاني الغرام، كأسًا من الحب صافيًا».
لم يأخذ انهيار «شيماء» أكثر من دقائق بسيطة، عادت بعدها جامدة العين والوجه والروح، فعلت ما فعلته في المرة السابقة بنفس الحماس واللهفة، وما إن سمعت صوت الربابة حتى ابتسمت بنفس الاستمتاع..
فقط، أخرجت هذه المرة «البليزر» الرمادي، ارتدته حتى تشعر بوجود «كَتَخُدَا» حولها، واحتضنت نفسها بقوة حتى يلتصق بها أكثر..
وأخذت ترقص باستمرار والأغنية تُعيد نفسها.
مرة.. وراء مرة، وراء مرة.

* * *

قرأ «رامي» كل شيء..
جلس في غرفته على حاسوبه، يقرأ الملف بسرعة..
راوده إحساس غريب غير منطقي، هو يجلس في بيته، وفي نفس الوقت هو مكتوب على الورق بكل ما فعله وشعر به.
شعور غريب أن يصف «كَتَخُدَا» مشاعره ومشاعر «سارة» بهذا الأسلوب، كيف له أن يعرف ما في نفسيهما بتلك الدقة؟ عندما كان يحدثه

بما يشعر لم يقل معظم ما كتب «كَتَخُدَا» عنه! كيف يستشف مشاعرهما ويكتبها كأنها يراها زؤيا العين؟

لم أكن لحظتها - أنا «حازم» - قد كتبت ما حدث في القسم الثاني، وصلت للقسم الأول وانتظرت انتهاء الشهر الثاني حتى أكتب الجزء الثاني، أظل شهرًا أدون فيه كل الأحداث والأفكار والجُمل التي تعجبني، وأجمعها في نهاية الشهر بأسلوب سرد الرواية.

دمعت عينا «رامي» وهو يقرأ..

عندما كان يقرؤهما، يقرأ مشاعرهما، يتذكر كل لحظة يقرؤها وقد عاشها في الحقيقة، إحساس قاتل أن كل تلك المشاعر أصبحت في الماضي، أصبحت مجرد قصة في رواية ما..

كان يضحك مع ضحكتها، يتذكر كلامهما الذي حكاه لـ«كَتَخُدَا» بالتفصيل مكتوبًا أمامه، شعر أنه يقع في حب «سارة» من جديد وهو يقرأ قصتهما، يشعر بأنفاسها وابتسامتها المبهورة بكل ما يقوله لها..

لكن غضبه المكتوم بدأ يتصاعد رغمًا عنه..

لم يتخيل للحظة أن يكون الأمر بهذا السوء، فتاة تُغتصب من كاتب متواضع، امرأة تخون زوجها مع رجل يخطط للانتقام؟ ما كل تلك البشاعة؟ كيف يخدعه «كَتَخُدَا» ويجعله يؤمن أنه البطل الوحيد؟ كيف يخدعهم جميعًا بهذا الشكل؟

كان متأكدًا أن «كَتَخُدَا» يعلم أنه سرق ملف الرواية، وفي العقد ممنوع أن يطَّلع أحد على الرواية، لكنه لا يبالي بغضب «حازم»، لا يبالي بما سيفعله، كل ما في عقله هو أن يأخذ حق «سارة» التي ماتت بعد أن دنَّسها «كَتَخُدَا» بإخفائه الحقائق عنها.

بل دنَّسهم جميعًا..

«حازم كَتَخُدَا» هو مَن قتل «سارة»، قتلها بعناده، قتلها بعدم صراحته ولعبه بالقواعد، قتلها لأنها كانت جاهلة، لا تعرف بماذا ستُضحي في مقابل

ما ترغبه حقًّا، قتلها عندما جعل قصة حبها الوحيدة مجرد لعبة استخدم «رامي» فيها..

«كَتْخُدَا» قتلها..

أغلق الرواية ونظر لملف مكتوب عليه «تجهيزات دستور كَتْخُدَا»، فتحه ليجد ملفًّا باسم كل واحد، كل شخص بصورته ورقمه وعنوانه والأحداث التي حدثت له..

لاحظ تلك الأرقام الغريبة التي تصاحب كل اسم، نظر لاسمه ووجد مكتوبًا تحته ٣٦ و١١ ثم ٨ و٣.

لم يفهم شيئًا، حاول أن يبحث على ترتيب الأرقام على «الإنترنت» ولم يجد شيئًا على الإطلاق.

أغمض عينيه في محاولة للسيطرة على غضبه، وبدأ يفكر في شيء واحد فقط:

الانتقام.

العشرون

لي أعين في كل مكان تذهبون إليه

أنا لست بالسذاجة كي أثق في كلامكم فقط

لكن مع ذلك، حذارِ أن تخدعني، لأنني سأعرف أنك تكذب

وأنا لا أرحم الكاذبين!

السؤال السابع: لو شايف جواك حاجة مميزة، وقدامك فرصة إنها تتحول لقوى خارقة، إيه هي؟

عقدت «شيماء» حاجبيها في عدم فهم، فكررت السؤال بأسلوب تفهمه:

- إيه أكتر ميزة فيك مش موجودة في كل الناس؟

دارت عيناها في الغرفة مفكرة، حكّت أعلى صدرها في حركة تلقائية شاردة، ثم قالت وهي تبتسم ابتسامة خجولة:

- هاقولك بس ما تتريقش عليَّ. أنا باحس إن فيه «لينك» بيني وبين ربنا. يعني مثلًا باحس إنه دايمًا بيديني إشارات، باحلم بالناس قبل ما تموت، باحسه بيرشدني دايمًا للطريق الصح، يمكن بعد موت ابني ويأسي بعدت عن ربنا شوية، بس قبلها، كنت باحس إنه بيحبني قوي وبيميزني بالإشارات والعلامات اللي بيدهالي.

* * *

في بداية الأسبوع الرابع استيقظت «شيماء» فجأة بعد أن سقطت في النوم من الإرهاق والرقص المتواصل.

نظرت حولها ولم تجد «خالد»، فشعرت بذلك الخوف القاتل الذي يفور في كيانها كلّه.

لا تستطيع أن تتحكم فيه، تأتيها الخيالات رغمًا عنها، ترى «خالد» جثة هامدة وقد التفت حوله الشياطين تأكل من لحمه، ترى الدماء وتتيقن أنه لن يعود ثانية، فتتعرق وتنهار في البكاء من الخوف.

لا تريد أن تفقده.

لا تريد أن تبقى وحيدة في هذا العالم القذر الممتلئ بالقذارة.

همست من وسط بكائها:

- محتجاك تجيلي تاني.

وصرخت:

- أنا آسفة يا «كَتَخُدَا»، ما تعاقبنيش أكتر من كده، محتجاك تجيلي تاني.

لم تعد تبالي بأن تفكر في منطقية ما تفعله، فات هذا القطار منذ زمن، نهضتْ بقوة ونظرت «للبليزر» الملقى أرضًا جانبها وصرخت فيه:

-لو أنت لسة موجود وعايش طمني عليك، محتجاك تطمني إنك لسة جانبي، إنك لسة مختارني أنا.

بكت ثانية من خوفها، ثم وضعت يدها على الـ«بليزر» وصرخت:

-محتجاك تجيلي تاني، مش عارفة أستحمل الدنيا وأنت مش مطمني.

وأخذت تبكي قرابة نصف الساعة وهي تصرخ باستمرار، عسى أن يسمعها «كَتْخُدَا» ويأتي لها ولو لثوانٍ فقط. داخلها سؤال يزيدها بكاءً، هل مات؟ هل ذهب وتخلَّى عنها؟ بالتأكيد لم يمت، بالتأكيد لو كان يراها فسيأتي، لقد عادت من أجله، من أجل روايته، من أجل أن تؤدي دورها المختار، بالتأكيد لن يبخل عليها بنظرة واحدة.

كم تشعر بالوحدة!

بُح صوتها من الصراخ، فقالت بهمس:

-أبوس إيدك تعالَ تاني، محتاجاك.

سمعت صوت باب الجراج يُفتح..

نهضت ذاهلة، خفق قلبها في أمل حتى كاد أن يقف من سرعة نبضاته، ظهر جسد ضخم يقترب ببطء. الضوء خلفه يجعلها لا ترى شيئًا من ملامحه، هل استجاب «كَتْخُدَا» لدعائها أخيرًا؟ ابتسمت والدموع تملأ عينيها وهي تراه يغلق الباب ويقترب منها ببطء شديد، كتمت أنفاسها وهي لا تُصدق..

ليظهر لها وجهه على الضوء الخفيف بعد أن اعتادت عيناها الظلام..

لم يكن «حازم كَتْخُدَا»..

بل لم تكن ملامح أي أحد تعرفه على الإطلاق..

كان وجهًا طفوليًا ممتلئًا، يبتسم في قلق وهو ينظر لها..

وجهًا لرجل نعرفه باسم «رامي محمود راضي»..

* * *

قال «رامي» مُجيبًا في مَلل بسخرية:
- سؤال أهبلْ قوي.
نظرت له نظرة حادة، فقال بعدم اكتراث:
- الكسل.

* * *

«مع حضرتك، اتفضل».
قالها «هاني» الذي اكتسب بشرة جذابة من سفره، لـ«خالد» الذي ابتسم في وقار واستمتاع، كان يجلس في مكتب «هاني» الفخم، نسمات التكييف الباردة تداعب ذقنه المشعث، قال بسرعة أمام نظرات الرجل المتسائلة:
- أنا ساكن جنب واحد اسمه «طه أحمد»، هو المفروض راجل متجوز، بس من فترة كده مراته سابتله البيت في خناقة العمارة كلها سمعتها، من ساعتها «طه» بيجيب واحدة عنده البيت كذا مرة، يقضوا النهار كله وتنزل لوحدها على المغرب.
وأكمل وهو يعرف وقع كلماته على قلب الرجل:
- وطبعًا ده وضع مرفوض تمامًا، اضطريت إني أنزل وراهم مرة وصوَّرتهم وهمَّ مع بعض، رجعت البيت عملت بحث على «جوجل» بالصورة، لاقيت ظاهرلي بروفايل المدام بتاعة حضرتك.
لم تهتز شعرة في وجه «هاني»، قال بصوت هادئ تمامًا:
- ممكن بعد إذن حضرتك أشوف الصور دي؟
فتح «خالد» هاتفه، وضغط على الشاشة لتظهر الصور، وأعطاه الهاتف قائلًا بابتسامة:
- قلِّب براحتك، الصور دي في ملف لوحدها.
ظل «هاني» يُقلِّب في الصور تباعًا، تعجب «خالد» من هدوئه الشديد، ما إن انتهى حتى أعاد الهاتف لـ«خالد» وقال ببسمة:
- طيب طلبات حضرتك؟

لم يفهم «خالد» في البداية مقصده، ثم أدرك كل شيء دفعة واحدة، نهض واقفًا وهو يقول:

- لأ يا فندم مش «خالد عبد السلام» اللي يتقاله كده، أنا مش عاوز حاجة من حضرتك، أنا قلت أعمل خير وأقولك على اللي بيحصل ومش هتشوف وشي تاني.

أغمض «هاني» عينيه، أشار بيديه لـ«خالد» أن يهدأ، وقال باسمًا بلهجة معتذرة:

- أنا اللي باعتذر لك.

ثم قال وهو يهز كتفه في هدوء:

- كل الموضوع إن البنت اللي في الصور مش مراتي، آه طبعًا في شبه كبير، بس أنا أكيد أكتر واحد عارف مراتي وملامحها وجسمها.

وأكمل بثقة أدهشت «خالد»:

- ثم إن «جوجل» هتلاقيه مع صورة مراتي مطلعلك صورة «جينفير أنستون» و«نجلاء فتحي»، وناس كتير، لأن جوجل مجرد مُحرك بحث، بيطابق اللي بيقراه من الصورة ويجيبلك الناس اللي بيتشابهوا مع الصورة، من الآخر...

وأكمل بابتسامة هادئة:

- الست اللي في الصور دي مش مراتي.

لم يفهمه «خالد» على الإطلاق، أسقط في يده فقال بابتسامة مصطنعة:

- يبقى أكيد الغلطة مني أنا، أنا باعتذر لحضرتك جدًا.

نهض «هاني» ومد يده بالسلام، قائلًا:

- شرفت يا أستاذ «خالد».

* * *

أجاب «خالد» بكلمة واحدة:

- البصيرة!

* * *

صمتٌ مطبق خيَّم على الجراج، و«رامي» ينظر لـ«شيماء» في ترقُّب، وتنظر له هي بتركيز شديد..

قالت بدهشة:

ـ أنت مش هو.

لم يكن يعرف عمَّن تتكلم، لكنه قرأ في الرواية ما يكفي ليفهم أنها على وشك فقدان عقلها، قال بصوته العميق ولثغته:

ـ أنا مش «كَتَخُدَا»، بس أنا جاي لك من طرفه.

اقترب خطوتين منها ببطء، فتراجعت هي خمس خطوات للخلف بذعر، في عقلها سؤال واحد فقط:

هل هذا اختبار آخر من «كَتَخُدَا» لها؟

يشعر برعبها، اقترب «رامي» كمن يقترب من قنبلة بدائية الصنع، مع كل خطوة يعرف أنها قد تنفجر في أي لحظة، وسيفقد تحكمه في الموقف كله، قال بنبرة مطمئنة، حذرة:

ـ في رسالة «كَتَخُدَا» قالي أقولها لك.. هو مبسوط منك قوي بس عاوزك تعرفي الحقيقة..

تصاعدت الفرحة في عينيها غير مُصدقة. نسيت خوفها منه وقالت بلهفة:

ـ «كَتَخُدَا» قال لك إيه؟

تعجَّب من فرحتها وذِكرها لاسمِه بعِشق غريب، لم يدرِ ما يقول، لم يجد بُدًّا إلا المواجهة، مسح عرقه وقال ببطء مُركزًا نظره على عينيها حتى تصدق كذبه:

ـ هوَّ عاوزني أقولك إنه ضحك علينا كلنا، أنا بطل في روايته زيكم، عاوزك تيجي معايا عشان نقابله..

وتحشرج صوته وهو يكمل:

ـ هو كان السبب في قتل واحدة، كانت برضه بطلة في الرواية معانا، عشان كده هيعمل اجتماع لينا كلنا، عشان يخلص الرواية دي..

لم تفهم ما يقول وهي تحدق فيه، اقتربت منه في حرص فتصلب جسده تمامًا حتى يطمئنها، قرّبت وجهها لوجهه ككلب مدرب يبحث عن قنبلة، شعر برائحة أنفاسها الكريهة تقتحم أنفه، لم يتحرك حركة واحدة حتى ابتعدت قليلًا وهي تقول بدهشة:

- أنت مش شيطان!

ساد صمت مشحون بينهما، «رامي» ينظر لها يطمئنها. «شيماء» تحدق فيه بتركيز، لم تظهر لها عينه الحمراء، لم يظهر لسانه كثعبان يريد أن يقتنصها، مجرد وجه طفولي بريء خائف..

قال «رامي» بحرص شديد وبصوت خفيض، منتقيًا كل حرف حتى لا يُغضبها:

- «شيماء»، أنا عارف كل حاجة عنك، عارف إن ابنك مات، عارف إنك اتطلقتِ من جوزك ومن ساعتها أنتِ عايشة لوحدك.

ثم انفعل قليلًا وفقد تركيزه قائلًا:

-بس ده مش مبرر يخليكِ ترمي حياتك كلها عشان رواية تافهة لكاتب حيوان.

أغضبها كلامه فقالت وهي تتحرك بعصبية في عدم فهم:

-أنت إزاي تغلط فيه؟ أنت لو معانا فعلًا تبقى هتعشقه زيي أنا و«خالد»، أنت مش فاهمه، هو بيعمل كل ده عشان مصلحتنا، خلاني أشوف الناس كلها على حقيقتها.

ثم توقفت عن الحركة ونظرت له قائلة بحنان فيه من اليقين ما جعل «رامي» يغضب بشدة:

-ومسيرك تفهم لما يخليك تخلص من الشيطان اللي جواك، وتبقى ملاك زينا. اصبر بس وآمن بيه.

ما إن قالت الجملة حتى شهقت في ذعر، وهناك خاطر مُزعج أصابها..

هل ذهبت معجزتها؟

هل أغضبت «كَتْخُدَا» فأعادها ضريرة؟ هل باتت لا ترى الشياطين ثانية؟

قال «رامي» لحظتها بقوة غاضبا من بلاهة ما تقول:

- كل اللي بتقوليه ده في دماغك أنتِ بس، «كَتْخُدَا» هو الراجل اللي أمر باغتصابك، الراجل ده وسخ ومش فارق معاه أي واحد فينا، مش همه لا يطهرنا ولا نِيلة، أنتِ اللي بتصبَّري نفسك بيه عشان الظلم اللي حصلّك.

وصرخ فيها محاولًا إفاقتها:

- كل اللي حصلك عشان «كَتْخُدَا» أمر بيه وما حاولش حتى يمنعه.

انتفضت من صرخته ونظرت له، أهو شيطان آخر لكنها لم تعد ترى حقيقته؟ لماذا يحاول أن يؤلمها بذكريات ماتت من واقع تركته؟ لماذا يصر على تشويه صورة مُنقذها؟ مستحيل أن يكون هذا الشخص بريئًا، صرخت فجأة في رعب وهي تركض نحوه:

- أنت شيطاااااااااااان.

تراجع «رامي» في فزع من صراخها، لكنها ركضت نحوه بسرعة وخَمَشَت خده بأظافرها فسال منه الدم، حاول «رامي» أن يمسك ذراعيها حتى تهدأ قليلًا لكنها كانت تقاوم بقوة غريبة، حملها بسهولة وألقاها بعيدًا وهو يصيح فيها:

- إهدي، أنا جيت عشان أنقذك من القرف اللي أنتِ فيه ده.

التصقت بالحائط وهي تنظر له نظرة كراهية واشمئزاز، قالت صارخة:

- أنا عارفة إنك شيطان، يمكن دلوقتي مش عارفة أشوفك عشان هو بيعاقبني، بس أنت شيطان منهم.

مسح «رامي» الدم السائل على وجنته، وهو ينظر لها بشفقة..

ضحية أخرى من ضحايا جنون «كَتْخُدَا»..

تذكر موت «سارة» وأدرك أن مصير «شيماء» لا يختلف، في الحالتين قتلها «كَتْخُدَا» واختلفت الطريقة سواء جسديًا أو نفسيًا. ظهرت دموعه رغمًا عنه وهو يرى ما آلت إليه حالتها، ولا يدري ماذا يفعل في الخطوة القادمة معها..

صرخت فيه بصوتها المبحوح:

- اطلع برة.

تلفتت حولها بسرعة ثم أمسكت حاسوب «خالد» وجذبته بعنف، نظرت لـ«رامي» وهي ترفعه لأعلى مهددة بإلقائه عليه، نظر لها «رامي» في شفقة، ابتسم وهو يشير لها مُطَمئِنًا، ثم أعطاها ظهره وانصرف مسرعًا، يجر أذيال الخيبة..

يدق اليأس روحه مما وصلت إليه «شيماء» من جنون..

* * *

أجاب «طه» رافعًا حاجبيه في فخر:

- قوة الإرادة.

* * *

تأوهت «آلاء» وجسدها ينتفض في لذة..

عندما عادا من السفر، اضطرت «آلاء» للانتظار يومَي الجمعة والسبت، حتى يذهب زوجها لعمله يوم الأحد، لم تطق صبرًا وكلمت «طه» وقالت له أن يأتي على الفور..

وما إن سمعت دقاته المتوترة على باب الشقة، حتى ركضت وفتحت الباب، شعرت أن أنفاسها تذهب من صدرها، اندفع نحوها بقوته وقبَّلها قُبلة عنيفة ذابت منها اشتياقًا..

حملها بين ذراعَيه وهو مستمر في تقبيلها حتى غرفة نومها..

ومنذ ساعات، لا يفعلان شيئًا سوى ممارسة الحب..

كانت تفتقد كل شيء فيه..

أغمض «طه» عينيه في استمتاع، همس لها أكثر من مرة أنه يعشقها، لا يعلم ما الذي تفعله به! يفقد السيطرة ويتحول فقط إلى غريزة حارقة، تجعله لا يشبع منها أبدًا..

كل تفصيلة فيها: جنونها، حركاتها المختلفة، جسدها الذي نُحت بيد مبدع، جرأتها... كل ما فيها.

لكنها من حرارتهما وشبقهما لم يلاحظا ما حولهما..

لم يلاحظا نظرة «هاني» الذي وقف على باب الغرفة المفتوح، ينظر لهما بعين مشمئزة مما تراه..

ظل فترة قصيرة ممسكًا محموله يصورهما ثم لم يحتمل فأوقف التسجيل، بالطبع كان يعرف أن مَن كانت في الصور هي زوجته، لكنه لم يكن بالرجل القذر الذي يفضح أم ابنته، كعادته نظر لما يحدث أمامه بعقله أولًا، لا وقت للمشاعر الخرقاء، ما إن تأكد من انصراف «خالد» حتى عاد لبيته فورًا، ليجد خيانتها القذرة أمام عينَيْه..

وضع هاتفه في جيبه، ثم رفع مسدسًا مرخصًا للدفاع عن النفس وقال بصرخة غاضبة:

- كفاية.

انتفض جسدهما في عنف و«آلاء» تنهض من فوق «طه». ظهر على ملامحها أعتى علامات الرعب، في حين قفز «طه» تحت الفراش في حركة لا إرادية، قالت «آلاء» وصوتها يرتجف:

- «هاني»..

حاولت أن تنظر له برجاء، شعر أن هذه القذرة لا تعرف أي شيء عنه، قال بصرامة:

- اطلعوا برة زي ما أنتو في الصالة.

لم يفهما ما يقول، فصرخ فيهما:

- يلّا.

أمسكت «آلاء» الغطاء لتداري به جسدها، فصاح هو بغضب:

- لا يا ماما، زي ما أنتِ كده، مافيش حد غريب.

انهارت في البكاء وهي تسير ببطء، خلفها «طه» الذي احمر وجهه ولم يعد يدري ماذا يفعل..

* * *

وقالت «آلاء» مجيبة في هدوء:

ـ قوتي الخارقة إني باشوف كل الناس على حقيقتها من أول نظرة، أكتر حاجة بتميزني هي دماغي اللي ما حدش بيحاول يشوفها أبدًا.

* * *

الحادية والعشرون

أنصاف الحقائق هي المؤشر الحقيقي لنجاحك كإنسان
الحقيقة الكاملة هي أسطورة الحمقى

خرج «خالد» من سيارة الأجرة، كعادته يجعل السائق يقف في مكان بعيد، حتى لو كان يراقبه أحد لا يعرف مكان «شيماء»، لنفس السبب لا يستخدم عربته، نظر للفيلا بملل، وتحولت عيناه إلى الجراج في ضيق.

شعر أنه فشل في مهمته مع «هاني»، ذلك الرد البارد وإنكاره أنها زوجته، هل سيغضب «كَتْخُدَا» منه؟ لا يدري..

«أستاذ «خالد»؟».

انتفض جسده في حركة لا إرادية، والتفت بتحفز، ليجد ذلك البدين المتعرق، الذي بدا على وجهه أنه خاض عراكًا ما. هناك دماء تسيل على وجنته، قال «خالد» بلهجة هجومية:

- مين؟

ابتسم «رامي» ابتسامة حاول أن يبدو ودودًا فيها قدر استطاعته، قال وداخله أمل جديد:

- أنا تبع «كَتْخُدَا».

ضيق «خالد» عينيه في شك، ثم قال وهو ينصرف مسرعًا:

- أنا ما اعرفش حد بالاسم ده.

سار «رامي» بسرعة خلفه وهو يحاول أن يلحقه بخطوته البطيئة:

- استنى يا «خالد».

لم يلتفت له «خالد» وكل أفكاره أن هذا الرجل من الشرطة، ربما اختبار آخر من «كَتْخُدَا»، أو من أقارب «شيماء» ويريد أن يخطفها منه، وهو لن يسمح بذلك أبدًا، لن يأخذها منه أحد مهما كان، قال «رامي» صائحًا في محاولة يائسة:

- أنت اغتصبت «شيماء»، بعد كده هيَّ رجعتلك، أنت مدمنها وهيَّ اتجننت.

توقف «خالد» فجأة، والتفت لـ«رامي»، لتستقبله ابتسامة «رامي» الودودة، عكس نبرته الصارمة وهو يقول:

- إحنا لازم نتكلم.

نظر «خالد» للأرض لحظات، ثم قال باقتضاب:

- تعالَ معايا.

* * *

ارتجف جسد «آلاء» العاري بعنف، وهي تجلس جانب «طه» الذي تخشَّب جسده واضعًا يدَيْه على عورته، عيناه لا تغادران الأرض. نظرت لـ«هاني» الذي وقف أمامهما في الصالة يتأملهما في صمت..

شعرت أن عالمها كله انهار في لحظات..

لقد حذرها القدر وتجاهلت هي التحذير..

نظرت لفوهة المسدس المصوبة ناحيتها، لم تخف من الموت، شعرت للحظة أنها تريد أن تُنهي حياتها عن أن ترى زوجها الذي أحبته بشدة ينظر لها تلك النظرة المحتقرة..

قال «هاني» بلهجة هادئة:

- اتفضلي يا «آلاء»، اتفضلي يا أم بنتي، قولي المبرر اللي يخلي واحد ابن كلب يوريني صور ليكي أنتِ والحيوان ده ويهزأني في مكتبي.

ذهب كل الكلام من عقل «آلاء» فجأة، حاولت أن تنطق لكن تلجلج لسانها، ماذا ستقول بعد ما رآه؟ بكت للمرة الألف وهي لا تستطيع أن تفعل أي شيء..

التفت لها «طه» وعندما وجدها بهذا الشكل، رفع يده بتوتر كتلميذ في مدرسة، محافظًا بالأخرى أن تُداري عورته، استأذن «هاني» قائلًا:

- ممكن أتكلم أنا؟

نظر «هاني» ليده المرفوعة في استهزاء، ثم أومأ برأسه معطيه الإذن بأن يتحدث، ليقول «طه» مشيرًا للمسدس:

- حضرتك من حقك تقتلنا طبعًا، أنا لو مكانك كنت هافرغ المسدس ده فيَّ من غير حتى ما اسيبك تتكلم، بس أنت راجل باين عليك عقلاني ومحترم.

ثم ابتلع ريقه أمام نظرات «هاني»، وأكمل:

ـ مافيش أي فايدة لو أنت قتلتنا، مش هتاخد حقك صح، مش هتفهم ليه حصل كده.

وأشار لـ«آلاء» مُكملًا:

ـ وبما أنك سايبنا لحد دلوقتي وعاوزنا نتكلم، يبقى أنت بتحبها بجد.

بدأت الشجاعة تظهر في صوته قليلًا، التقت من كلمة «هاني» أن هناك مَن صورهما، أدرك دون جهد أنه «كَتْخُدَا»، شعر أنه مسئول عن كل ما يحدث و«آلاء» ليس لها ذنب أن تتحمل جنون الرواية التي دخلها بقدمه، أدرك أنه لا بد أن يتصرف تصرفًا شهمًا، قال بإيمان حقيقي:

ـ وعندك حق، أنا عرفت «آلاء» عشان كان عندي مشكلة، وهي بطيبة قلبها حاولت تساعدني، حاولت تحل مشكلة ورث مع عمي، بس أنا اللي حيوان، خرجت معاها كذا مرة، خليت قريبي يصورنا مع بعض، وهددتها بالصور إنها لو ما نامتش معايا هاقولك إنها بتخونك.

لم تصدق «آلاء» ما سمعته، بكلامه هذا هو يضحي بنفسه من أجلها، قالت وهي تنظر لـ«هاني» متمسكة بأمل ضئيل:

ـ هو ده اللي حصل والله يا «هاني».

نظرة شك هائلة أطلَّت من عينَي «هاني»، ليكمل «طه» وقد هدأت نبراته:

ـ هيَّ كانت رافضة، كانت خايفة على بيتها وبنتها، كانت مرعوبة من رد فعلك.

انهارت «آلاء» في البكاء أكثر وهي تومئ برأسها مُصدقة على كلام «طه»، تبكي لأن عالمها ينهار ولأن «طه» يحاول أن يُطهر أفعالها مُضحيًا بكل شيء.

قال «هاني» بصوت بارد:

ـ ولو هي مجبرة، تبقى مبسوطة معاك في السرير قوي كده؟

أسقط في يد «طه» و«هاني» يهز رأسه في أسف مكملًا:

ـ مش مصدقك.

لم يعرف «طه» بماذا يرد. أمسك «هاني» هاتفه المحمول وطلب رقمًا ما، نظر «طه» و«آلاء» لبعضهما البعض في قلق وترقب، قال«هاني» بنبرة باردة، وهو ينظر لهما نظرة قاتلة:

ـ لو سمحت أنا عاوز أقدم بلاغ.

انسحبت روح «آلاء» من قلبها، وفهمت ما الذي سيفعله زوجها.. سيجعل واقعة خيانتها مُسجَّلة أمام الشرطة، والقضاء، ليأخذ منها ابنتها بمنتهى السهولة..

* * *

جلسا على قهوة قريبة من فيلَّتي..

قال «خالد» بهدوء وهو ينظر لـ«رامي»:

ـ عاوز إيه؟

احتار «رامي» للحظات في كيفية بدء الكلام، يشعر أحيانًا عندما يقول الحكاية أنها غير واقعية وسخيفة، لكنه بدأ وحكى لـ«خالد» كل شيء، حكى له عن «سارة» وكيف دبَّر «كَتْخُدَا» لقاءهما، عن عقابه لها وموتها، عن تسلله لمكتب «كَتْخُدَا» واطِّلاعه على الرواية، كل هذا و«خالد» يسمع بنصف اهتمام، ينظر لـ«رامي» نظرة مستهزئة، لكن ما إن قال «رامي» إنه قرأ الرواية، اهتم «خالد» فجأة وسأل بلهفة:

ـ أنت قريت أي حاجة عن النهايات؟

تعجب «رامي» من السؤال غير المتوقع، قال متوترًا:

ـ لأ، هو كان كاتب لحد الشهر الأول بس.

بدا على وجه «خالد» علامات الإحباط، وعادت نظرته اللامبالية التي كانت تقتل «رامي» وهو يحكي. ما إن أنهى «رامي» قصته، حتى قال «خالد» بهدوء:

ـ أيوة، برضه أنت عاوز إيه؟

تعجب «رامي» أكثر من سؤاله، وقال باستنكار:

- أنت مش شايف أي حاجة غلط؟ إحنا كلنا سلمنا نفسنا لواحد مجنون، مش خايف هو ممكن يعمل لك إيه؟ لو قررت إنك تخالفه أو تعانده وتبعد عنه هيعمل فيك إيه؟

هز «خالد» رأسه أنْ لا في برود، وقال بنبرة هادئة:

- كلنا اخترنا إننا نخش الرواية دي وعارفين إيه اللي ممكن يحصل فينا، لو أنت خايف من الأول، مضيت العقد ليه؟

ثم ابتسم ساخرًا، وقال وهو ينظر لـ«رامي» بنظرة استهانة:

- ست شخصيات راحوا للكاتب ووافقوا إنه يتحكم في حياتهم، متوقع إيه؟ أكيد كلهم فيهم بلاوي ومش ناس طبيعية، عشان كده راحوا له، وهو فيه بلاوي عشان كده طلب يتحكم فيهم!

نظر له «رامي» في استنكار أكبر، ليكمل «خالد» بهدوء أكثر:

- أنت ليه مضيت العقد؟

همَّ «رامي» بالرد، لكن «خالد» قال دون أن ينتظر إجابة:

- مضيت عشان الفلوس؟ عشان نفسك تعيش حياة تانية غير حياتك؟ عشان نفسك تسلم حياتك في إيد واحد هو اللي ياخد القرار، فتلاقي حد تلومه لو فشلت؟ أنت ليك أسبابك وأنا ليَّ أسبابي، بس في النهاية كلنا مضينا العقد وإحنا عارفين إننا بنسلم نفسنا وحريتنا وحياتنا لمدة ٣ شهور، جاي تشتكي ليه لما قصتك بقت وحشة؟

ثم ابتسم بسخرية مريرة مكملًا:

- طب لو كانت القصة فضلت جميلة؟ لو فضلت «سارة» دي عايشة لحد دلوقتي، وأنتو مزيطين في سهل حشيش؟ كنت هتشتكي وتحاول تثور على «كَتَخُدَا»؟ بالعكس، كنت هتفضل مسافر معاها وتقول إن «كَتَخُدَا» ده أفضل كاتب في الدنيا ولازم الناس كلها تؤمن بيه.

صمت «رامي» تمامًا، وهو ينظر لـ«خالد» نظرة غير مصدقة. مال «خالد»

عليه وقال بابتسامة رأى «رامي» حزنها:

- أنت مشكلتك إنك جاي لكاتب زيه، أنا بيبقى تحت إيدي أبطال روايتي وبحبهم جدًّا، بس أحيانًا باقتلهم عشان الدراما عاوزة كدة، يمكن بألِّف مواقف عشان تبرر موت البطل، باخلق واحد تاني يقتله أو مرض قاتل يجيله، لو فكرت فيها هتلاقي في النهاية إن أنا اللي قتلته! أنا اللي خلقت الشخص التاني اللي يقتله، وأنا اللي سِببته يتصاب بالمرض..

وأكمل ناظرًا لـ«رامي» كمن يُعطي درسًا لطفل صغير:

- هل عشان الشخصيات مش حقيقية بقيت تشوفني كاتب عبقري، وواقعي، عشان باخلي أبطالي يتقتلوا ويغتصبوا ويحبوا وينتقموا؟ هل لمجرد إن الشخصيات خيالية بقيت في نظرك مش مجرم؟

ثم أنهى كلامه بعين تقطر حزنًا وسخرية مريرة:

- احمد ربنا إنك كان عندك اختيار تمضي العقد أو لأ، أنا باخلق أبطالي باسمهم وسنهم ومشاكلهم النفسية وحياتهم كلها، من غير ما أخليهم يختاروا الحياة دي أو حتى يختاروا يمضوا عقود.

قال «رامي» بحدة، لا يصدق ما يسمعه:

- بس إحنا بشر، لحم ودم، مش هو اللي خلقنا عشان يحدد مصيرنا..

ليضحك «خالد» ضحكة جانبية ويقول باسمًا:

- يعني لو هو اللي خلقك، من حقه يعمل فيك اللي هو عاوزه ويبقى مافيش مشكلة؟

قال «رامي» بغضب مُتجاهِلًا سؤاله السفسطائي:

- لازم يبقى لينا حق الاختيار، المعرفة. مش من العدل أبدًا إن واحد يجبرني أعمل أي حاجة غصب عني.

هز «خالد» رأسه في يأس من أن يقنع «رامي». قال باستهانة قتلت «رامي»:

- أنت اخترت تحب، وتعيش قصة حب جميلة، أنا اخترت أغتصب بنت ماهاش أي ذنب، روح كمل قصتك وسيبني أكمل قصتي.

ثم حكَّ لحيته ونهض واقفًا. وضع عملات معدنية على المائدة وقال وهو يضحك:
- أنت أتفه قصة فينا على فكرة، بوس إيدك وش وضهر إنك ما اخترتش حاجة لحد دلوقتي، «كَتْخُدَا» لسة حنين عليك ومش راضي يوريك السواد اللي جواك!
ضاقت عينا «رامي» في غضب، لكن «خالد» لم يهتم وانصرف ببطء، نظر «رامي» لظهر «خالد» السائر ببرود واقتناع، شعر «رامي» بروحه تنسحب منه مع انصراف «خالد» الذي يصفع كل آماله صفعة هائلة..
لكن لا..
صاح «رامي» في محاولة أخيرة، وهو يقف على قدمه بقوة:
- أنت عارف إن هو اللي هرَّب «شيماء» بإيده؟ وكدب عليك وخلَّاك تلوم نفسك لحد ما هي رجعت.
توقف «خالد» تمامًا عن السير، نظر للأرض لحظات جعلت الأمل يدق قلب «رامي» فتراقصت ابتسامة مترددة على شفتيه، رفع «خالد» رأسه وهو يلتفت بجسده كلِّه إلى «رامي» مبتسمًا..
رفع يده اليسرى مشيرًا خلفه بإصبعه حيث فيلَّا «كَتْخُدَا» تقف شامخة، وقال بضحكة حزينة:
- هو الكاتب..
وأكمل صارخًا بغضب مفاجئ، شعر «رامي» منه أنه يصرخ في نفسه وليس فيه:
- هو حر، يعمل اللي هو عاوزه في روايته من غير ما حد يلومه!
ثم هدأ فجأة كما ثار فجأة، مشى بظهره في اتجاه الفيلَّا بخطوات بطيئة، ناظرًا لـ«رامي» البائس مُكملًا بابتسامة:
- وإحنا مش أكتر من أبطال مالهاش أي حق.. نتحرك حسب مزاجه هو بس.. وكل المطلوب منك إنك تسمع كلامه وتستنى نهايتك..
وصفق بيدَيْه ببُطء وهو يختم جملته الطويلة:

- وتشوف الناس في الآخر بتصقف له على عبقريته، وبتمجد في روايته.

وأعطى لـ«رامي» ظهره وانصرف مسرعًا دون كلمة أخرى، أمامه فيلَّا «كَنْخُدَا» التي بدت لـ«رامي» كصرح ضخم بارد يسحب كل البشر إليه ولا يعيدهم كما كانوا..

أبدًا..

مع اقتراب «خالد» من الفيلَّا، ابتسم ابتسامة اشتياق لأنه سيرى «شيماء» بعد طول غياب، ناسيًا كل شيء عن «رامي» ورغبته الحمقاء في الثورة..

* * *

لم يحتمل «طه»..

ما إن سمع كلمة «بلاغ» حتى رأى مستقبله كلَّه ينهار أمامه، سمع بكاء «آلاء» ليشعر أنه يبكي من داخله، لم يحتمل كل هذا وشعر بغضبه ينتقل لأطرافه كلها..

نهض عاريًا بسرعة، وانقض على «هاني» قبل أن يُكمل المكالمة..

لم يتوقع «هاني» هذا الهجوم المباغت، فتراجع خطوتين في خوف، لكن «طه» كان قد وصل إليه، وأمسك يده الممسكة بالمسدس وهو يرمي ثقله كله على جسد «هاني» ليقع الاثنان على الأرض..

أحكم «هاني» قبضته على المسدس، لكن الهاتف وقع بقوة، ظل «طه» جاثمًا فوقه وهو يبعد فوهة المسدس عنه ويحاول أن يضع يده الأخرى على رقبة «هاني»، صرخت «آلاء» في رعب مما ترى وتصلبت مكانها، فجأة نجح «هاني» في أن يدور بجسده ليجثم هو فوق «طه» الذي احمرت وجنتاه، عندما بدأ «هاني» في خنقه بيده الحرة..

شعر «طه» بأنه لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه، اضطر في قهر أن يحرر يده التي تبعد المسدس عنه، وحاول أن يبعد يد «هاني» التي تخنقه بيديه الاثنتين.

صرخت «آلاء» دون وعي:

- سيبه.

لم يلتفت لها أحد، فنظرت لـ«هاني» وقالت صارخة:

- ما توديش نفسك في داهية عشان واحد زيه.

كلمته ضربت وترًا في عقل «هاني» الغاضب، فخفف يده من على رقبة «طه» الذي التقط أنفاسه بصعوبة ووجهه المحتقن.

نهض «هاني» وهو يعدل من هندامه في غضب، معيدًا تصويب المسدس لـ«طه» الذي ظل يسعل على الأرض في عجز..

قال «هاني» لـ«آلاء» بغضب:

- شفتي وصَّلتينا لإيه يا بنت الـ.....

والتفت لـ«طه» مكملًا، وإصبعه تتحرك على الزناد:

- هتخليني أقتل واحد ما لوش ذنب غير إنك وسخة.

الثانية والعشرون

أكثر ما أعشقه في هذه الرواية

أن الدماء لها قيمة، ليست مجرد حروف وأسطر من الخيال

مَن سالت دماؤه في الرواية فقد سالت دماؤه في الواقع

فلا تكن بالحماقة أن تفعل شيئًا يجعل دماءك الغالية تسيل

نهاية الأسبوع الرابع من الشهر الثاني..

نظرت لي «ديما» في قلق..

كلما أتذكر ملامحها وقتها، أتأكد أنني كنت أحمق تمامًا..

كيف فاتني أن أسمعها؟ أن أعرف ما الذي يُقلقها هذا القلق؟ كنت مُنجذبًا تمامًا في أحداث الأبطال واقتراب الذروة، لم أنتبه لأي شيء آخر سوى عالمي.

كم أبغض عقلي في بعض الأحيان!

ربما أستحق فعلًا أن أظل وحدي ما تبقَّى لي من العمر.

لحظتها لم أكن أعرف لماذا أصبحت قَلِقة منذ أن تسلل «رامي» إلى المكتب وأخذ الرواية، كل تفكيري أن هذا رجل فقدَ حبيبته، يبحث بجنون عن سبب موتها ولا يريد أن يستسلم، ثم إن «رامي» هو واحد من أضعف الأبطال في الرواية: بَدِين، طيب القلب، سلبي لن يفعل شيئًا، يحاول أن يجعل الجميع يثورون ضدي لأنه عاجز عن فعل هذا وحده، غبي لا يدرك أن أقدامهم جميعًا أصبحت في المستنقع ولن يستطيعوا الخروج منه، فلماذا تخشاه «ديما» لهذا الحد؟

قالت لي «ديما» فجأة، وأنا أنظر للوحة في شرود كعادتي:

- هيَّ الرواية قربت تخلص؟

قلت لها بابتسامة مطمئنة:

- لسة بدري.

ثم التفت لها وقلت مازحًا:

- أول مرة تبقي خايفة كده، خوفك بيأثر على إبداعي على فكرة!

وغمزت ناظرًا لها نظرة خاصة مازحًا:

- وأنا مش عاوز إبداعي يقف دلوقتي، عشان أكمل كتابة من غير تشتيت.

زفرت هي في توتر ولم تضحك، عبثت بشعرها القصير في محاولة منها للهدوء، قالت في النهاية ناظرة لي وهي تعدل نظارتها:

ـ أنا بس خايفة يكون خد الملفات كلها، مشاريعك اللي جاية وأفكارك ورواياتك اللي ما اتنشرتش.

لم أفهم ما تُلمح إليه بغبائي وقتها، التفت لها وابتسمت ناظرًا لصورة «رامي» على اللوحة يبتسم في بلاهة، وقلت:

ـ حتى لو خدها، مش هيعرف يعمل بيها حاجة، هينزلهم على النت مثلًا عشان ينتقم؟ قوليلي آخره إيه عشان تخافي منه؟ ولا أي حاجة ممكن تئذيني.

لم يبدُ عليها الاطمئنان لكن بكبريائي لم أبالِ لحظتها، ضرب هاتفي بصوت خافت ووجدت اسم «خالد». استقبلت المكالمة بهدوء، كان من الواضح أنه يسير في الطريق، قال بسرعة:

ـ في واحد اسمه «رامي» لسة مقابلني، الراجل ده بيلمنا عشان نقلب عليك.

ابتسمت في ثقة وقلت:

ـ عارف.

أكمل وهو يحكي لي كل شيء؛ كل ما قاله «رامي» وردود «خالد» عليه. بعد أن انتهى قلت بلهجتي الآمرة:

ـ ما تقلقش من حاجة، الأمر اللي ليك دلوقتي إنك تسمع كلام «شيماء»، وشوف اللي أنت حاسه بجد واعمله.

وأغلقت المكالمة في هدوء، ثم التفت لـ«ديما» وأخذتها بين ذراعيَّ، لتسند هي رأسها على كتفي، وتزفر في قلق.

كل شيء يسير في الطريق الصحيح، أجمل ما في الأمر أن تطور الأحداث ملكهم هم، هم يتحركون وأنا أكتب، هذه أسهل رواية كتبتها في حياتي!

أحيانًا أريد أن أُسرع الأيام حتى أرى ما سيحدث في نهاية الشهر الثالث.

لكن لا بد من انتظار الواقع المُمل.

* * *

صرخة «هاني» الغاضبة جعلت «طه» ينتبه لما يحدث حوله..

كان «طه» راكعًا على الأرض في منتصف الصالة، أمامه «هاني» شاهرًا مسدسه، لا يستطيع أن يرى ملامحه من ضوء الشمس الذي يضرب في ظهره من الشرفة، كان يحارب من أجل أن يهدأ قلبُه ويأخذ أنفاسه قليلًا، يشعر بالضعف والهزيمة والقهر، حتى صرخ «هاني» في «آلاء»..

لم يفكر.. بل لم يفهم ماذا فعل..

شيء داخله جعله ينهض فجأة، بغضب لم يتخيل يومًا أنه قد يصل إليه، غضب عمره كله الذي مضى في فُرص ضائعة، غضب مواهبه التي دُفنت في عالم لا يفهم تميزه، غضب كتمه الأمل الزائف والمثالية الفارغة..

لن ينتهي عاري الجسد مقتولًا برصاصة ككلب أجرب..

ليس بعد كل ما مر به، ينتهي تلك النهاية القذرة..

لن ينتهي عمره الآن أبدًا..

هجم «طه» على «هاني» بقوة وهو يصرخ صرخة هادرة، هجمته فاجأت «هاني». ألقى «طه» بثقل جسده وغضبه المكتوم على جسد «هاني». حمله من وسطه ورفع جسده الضخم من الأرض ودفعه آملًا أن يكون هناك حائط ما خلفه. كي يصدمه به في قوة.

لكن خلف «هاني» لم يكن هناك حائط..

كان زجاج الباب المؤدي إلى الشرفة..

في ثوانٍ تشقق الزجاج، ثم لم يحتمل كمَّ الوزن الذي ارتطم به فجأة، فانهار مُصدِرًا صوتَ تهشُّم عاليًا..

ووجد «طه» نفسه يقع على جسد «هاني» بعد الصدمة، لكنه لم يفلته للحظة، مر كل شيء بالتصوير البطيء بالنسبة له، حتى لحظة الاصطدام النهائية بالأرض، و«هاني» يُطلق صرخة ألم رهيبة..

ثم يهدأ جسده بعدها تمامًا..

* * *

ما إن رأت «شيماء» «خالد» وهو يدلف للجراج بهدوء، ويهز رأسه مع دقات الأغنية التي تسمعها «شيماء» دائمًا: «متى يا كرام الحي عيني تراكم؟»، حتى ركضت نحوه في رعب، واحتضنته بقوة، فاحتضنها بحنان شديد، تركت نفسها تطمئن بين ذراعيه للحظات، ثم تذكرت ما حدث فقالت في ذعر:

- إحنا لازم نمشي من هنا.

نظر لها «خالد» في نظرة غير مُصدقة، هل تريد فعلًا أن تترك هذا المكان الحقير؟ قال متسائلًا:

- إيه اللي حصل؟

اتسعت عيناها وقالت بهمس:

- الشياطين عرفوا المكان هنا، نجسوه برجليهم الزبالة.

نظر لها بعين غير فاهمة، فأكملت هي:

- أول ما دخلوا المكان موهبتي راحت، ما بَقِتش عارفة أشوف اللي جواهم، عشان نجسوا المكان.

قال هو بقلق محاولًا استنتاج أي شيء عقلاني مما تقوله:

- في حد دخل عليكِ هنا؟

أومأت برأسها إيجابًا، توتر جسده بشدة، مَن الذي سيأتي؟ قالت «شيماء» تطمئنه:

- بس أنا حاربته، «كَتَخُدَا» هداني إني أهجم عليه وأخربشه في خده، شفت دمه المُقرف بعيني، وهرب.

حدق فيها متوترًا، ثم أدرك فجأة سر جرح «رامي»، تنهد في راحة واحتضنها ثانية وهو يقول:

- عندك حق، لازم نسيب المكان هنا.

ثم التفت لها في لحظة لا وعي، وهو يقول ما في قلبه:

ـ لازم نروح نتجوز.

نظرت له في ذهول لحظات، ثم لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام في فرحة. وقفزت تحتضنه في سعادة..

أخيرًا تطهر «خالد» وأصبح واحدًا من الملائكة.

* * *

طال انتظار «رامي» كثيرًا..

ظل أكثر من ثلاث ساعات جالسًا أمام العمارة التي يقطن بها «طه». لا يدري ما وصلت إليه قصته ولا يهتم، يريد أن يراه حتى يجد مَن يثور معه ولو مرة واحدة..

كيف تحكَّم «كَتَخُدَا» في عقول الآخرين لتلك الدرجة؟ كيف غسل أدمغتهم وجعلهم يخضعون بهذا الشكل؟

كان يعتقد في قرارة نفسه أنه ما إن يظهر ويحاول إنقاذهم، فسيشكروه على محاولته ويثوروا على «كَتَخُدَا» معه، بل وصل به الأمل أنه عرف ماذا سيطلب تحديدًا من «كَتَخُدَا». حرق العقود كلها كأنها لم توجد، مسح كل ملفات الرواية كأنها لم تكن، وليذهب الجميع في سلام بعدها..

لكن «شيماء» و«خالد» كانا سببَ إحباط غير طبيعي لكل ما كان في عقله..

حاول أن يقنع نفسه أنهما لم يعرفا «سارة»، لم يريا كمَّ براءتها وحنانها وإخلاصها، لم يُشاهدا قسوة «كَتَخُدَا» وهو يحكم عليها بالإعدام عندما طلب منها ألا تبحث عن علاج، لم يريا شيئًا من غضبه وغدره.

قاطع أفكاره ظهور «طه» و«آلاء» في بداية الطريق، كان يمسك يدها ويسيران بسرعة وتوتر، نفض «رامي» بنطاله من تراب الرصيف، وجهز ابتسامته التي يحاول أن يطمئنهما بها، لم يتوقع أن يراهما معًا لكنه شعر أن القدر يُسهل مهمته، مرَّا من جانبه بسرعة، ناداهما فتجاهلا النداء وصعدا السلم راكضَين، ركض وراءهما وصاح الكلمة السحرية التي تجعلهم جميعًا يتوقفون:

ـ أنا تبع «كَتْخُدَا».

توقفا كما توقع ونظرا له نظرة متوجسة، كل منهما يظن أن الكلمة له وحده. قال «طه» وهو في أعلى السلم:

ـ عاوز إيه؟

قال «رامي» بابتسامة كاذبًا:

ـ في رسالة لازم أوصلهالكم.

صيغة الجمع جعلتهما ينظران لبعضهما البعض في ذهول. صرخت «آلاء» فجأة بانهيار:

ـ ا..ا، أنت طلعت مع «كَتْخُدَا»؟

انفجرت في البكاء فجأة وانهارت على السلَّم ليحاول «طه» أن يمسكها قبل أن تقع. كيف تكون «آلاء» معه في الرواية؟ تجاهل أفكاره من ضغط الموقف، بكاء «آلاء» ووجودهما على السلَّم سيجعل أمرهما ينكشف، أسند «طه» «آلاء» على كتفه ليحملها، ونظر لـ«رامي» قائلًا بصرامة:

ـ تعالَ.

تنهد «رامي» في ارتياح رغم ارتباك الموقف، قبل أن يعلم أن «طه» في الدور الأخير ولا يوجد مصعد.

الثالثة والعشرون

والفارق الوحيد بين الحُر والعبد: أن العبد حين أتى الاختيار الحق انحنى ووضع القيود على عنقه وابتسم راضيًا خوفًا من جنون الحرية

أما الحُر

فركض بعيدًا

ثم ترك الحرية تضع قيودها على عنقه!

السؤال الثامن: في حياتك كلها، حاسس إنك عبد، ولّا حر؟

بدأت «سارة» ترتجف من برودة التكييف على جسدها العاري، نظرت لي ببسمة حزينة وقالت:

ـ عبد.

* * *

دخلتْ «شيماء» شقتها، على شفتيها ابتسامة سعيدة لا تستطيع أن تكتمها، انحنت وهي تفتح الباب لآخره قائلة:

ـ اتفضل يا أحلى عريس في الدنيا.

دلف «خالد» للشقة وهو يبتسم لها، متجاهلًا خوفه من عمارتها القديمة الآيلة للسقوط، شعر أنهما الوحيدان الحيَّان في تلك العمارة المقبضة. وقعت عيناه على الشقة فوقف ينظر للصالة بدهشة.

لو كانت هذه شقته لانتحر في أول يوم! صدمه كم الطاقة الكئيبة التي تسللت لروحه من هذا المكان المقبض، كان يأمل أنه سيذهب لمكان أفضل عندما تحرر من الجراج أخيرًا. حقيقة الأمر أن تلك الشقة أسوأ من الجراج بمراحل.

لم يكن يفكر، اشتعل قلبه بفرحة موافقتها على الزواج، قال له «كَتْخُدَا» أن يفعل ما يشعر به من داخله، وعندما عاد للجراج واحتضنته «شيماء» تيقن أنه يريدها جانبه دائمًا، يريد أن يطمئن أنها ستظل معه حتى لو ذهب للجحيم ذاته، ذهبا للمأذون شرعي وكتب كتابهما، نظر لعينيها التائهتين السعيدتين وأدرك أنه فعل الشيء الصحيح، اعترف لنفسه أنه المدمن الوحيد الذي اقتنى مصدر المخدر نفسه.

واعترف أنه سيظل مُدمِنًا ما بقي له من العمر..

لكن ما إن خطا داخل الشقة، حتى شعر بفتور مفاجئ ناحية «شيماء» التي أغلقت الباب وذهبت للغرفة مسرعة كي تحضِّر نفسها..

مشى بخطوات بطيئة يتأمل الشقة الفارغة، بحوائطها المتسخة وجوها

الكئيب، رأى بُرصًا يفر هاربًا لشقوق الحائط الكثيرة..

شعر أنه يريد أن يركض بعيدًا، ضربته الصدمة وأفاقته في وقت غير مناسب على الإطلاق..

ما هذا الذي فعله بنفسه؟

كيف يتزوج من تلك المجنونة؟

تذكر بيته المتواضع المُبهج، زوجته الحنون التي تُطيع كل أوامره، ابنه الذي بدأ سنواته الأولى في المدرسة، أمه وأباه اللذَيْن تركهما بالشهور دون أن يسأل عنهما، كتاباته وجمهوره الضئيل الذي ينتظر وهج الحروف من إبداعه، حفلات التوقيع والشهرة التي كان يحلم بها وينتظرها، كيف وصل به الحال لأن يسجن نفسه ذلك السجن البشع؟

كيف لم يعد يشعر بأي ذنب أو تأنيب ضمير، بعد أن أصبحت «زوجته» على سُنة الله ورسوله! يعلم أنها ستظل خادمة مُطيعة تتركه يفعل ما يشاء بها، لكن الآن أصبح من حقه أن يفعل ذلك، لا ذنب، لا إحساس بالقوة، لا شعور بالسيطرة العنيفة.

في ماذا كان يفكر؟

كيف يُقْدِم على تلك الخطوة البلهاء دون أن يفكر في عواقبها؟

تحرك بسرعة كي يهرب من الشقة، لكنه تجمد عندما وجدها واقفة في طُرقة الشقة الكئيبة، تنظر له في حيرة، ابتسم في ارتباك وقال:

- نسيت أجيب حاجة.

كانت واقفة وقد قيّدت نفسها بالحبال، نظر لها نظرة فاترة، لم تُثِر داخله أي شعور، لكنه لم يستطع أن يجرحها بتلك الطريقة، ذهب لها مبتسمًا في هدوء وأخذها من يدها لغرفة النوم..

شاعرًا أن قدمه أثقل من الجبال نفسها..

* * *

قالت «شيماء» دون أن تفكر للحظة:

ـ عبد.

* * *

لم يفهم «رامي» ماذا حدث لهما..

منذ أن دخل الشقة، و«آلاء» تجلس باكية، في حين ينظر «طه» للأرض من خلف نظارته شاردًا، تبدو على وجهه كآبة غريبة..

ثلاثة من أبطالي قد اجتمعوا معًا: بطل قاتل، بطلة خائنة، بطل أبله يحاول أن يثور..

ما أمتع العبث!

تنحنح «رامي» عسى أن ينتبه له أحد، لكنهما لم يلتفتا إليه، كأن كل واحد في عالمه الخاص..

«آلاء» تتذكر مشهد وقوع «طه» وزوجها المخيف على أرض الشرفة، صرخة «هاني» المتألمة وهو يقع، صمته الغريب عندما اصطدم بالأرض، ارتعاش جسده. نهوض «طه» بذراعين خضَّبتهما الدماء وشظايا الزجاج، تحديقه في «هاني» بنظرة ذاهلة.

ظلوا هكذا لدقائق كتماثيل حجرية..

ثم نفض «طه» رأسه وهو يلتفت لها صائحًا:

ـ البسي بسرعة.

لم تكن في حالة تسمح لها بأن تناقش، ذهبت راكضة لغرفة نومها وارتدت ملابسها وهي تبكي، أخذت حقيبتها ووضعت فيها رزمة من النقود، تذكرت فجأة أن ابنتها لم تعد من الحضانة مع المربية بعد، ارتبك كل شيء في خواطرها وهي ترتدي حذاءها وتخرج لـ«طه» مُسرعة، كانت حتى الآن لا تصدق ما حدث، هذا حلم سخيف وستستيقظ منه سليمة وكل شيء في مكانه.

خرجت لتجد «طه» قد وضع زجاجة من الخمر مفتوحة بجانب يد «هاني». سال النبيذ الأحمر على الأرض من الزجاجة. و«طه» يقف بعيدًا عنه قدر استطاعته، ما إن رآها حتى قال بسرعة:

ـ كلمي الإسعاف، قوليلهم جوزك كان بيشرب واتكعبل خبط في الإزاز وإنه مش بيتحرك.

أطاعته بلا إرادة، ليقول هو فجأة صائحًا:

ـ إستني، قوليلهم إنك الدادة أو المربية، ما تقوليش إنه جوزك، مش عاوزك تجيبي سيرة إنك كنتِ هنا أصلًا.

سالت دموعها وهي تكلم الإسعاف، كانت منهارة مما أعطاها مصداقية لمن تُحدثه، أعطته العنوان وأغلقت المكالمة. انتظرت ثواني حتى أتى «طه» من الداخل مرتديًا كل ملابسه، بعد أن غسل يديه من الدماء، قال بتوتر ناظرًا لها:

ـ الست اللي بتنضف جاية إمتى؟

نظرت لساعتها وأخذت ثواني حتى تستطيع أن تفهم ما تقرؤه جيدًا، قالت بسرعة:

ـ كمان ربع ساعة.

تنهد في ارتياح، أمسك يدها ليذهبا خارجًا، قالت وهي تبكي أكثر:

ـ بنتي، عاوزة أشوف بنتي وآخدها معايا.

نظر لها بغضب، ثم قال يطمئنها:

ـ ما تخافيش، هترجعيلها، بس إحنا لازم نمشي من هنا.

تذكرت كل هذا للمرة الألف وهي تجلس على المقعد في شقة «طه»، كل شيء يبدو بعيدًا للغاية، كيف حدث كل هذا منذ ساعة واحدة؟ في النهاية تعرف أن الرجل الذي اعتقدت أنه من اختيارها، مجرد لعبة أخرى في يد «كَتْخُدَا». حمدت الله أنها تذكرت أن تكلِّم الخادمة وتقول لها أن تُجاري ما يحدث في صمت حتى تقابلها، ووعدتها بحفنة ضخمة من المال.

أغمض «طه» عينيه حتى تهدأ دقات قلبه، أخذ نفَسًا عميقًا ثم زفره بعنف، عشوائية كل ما يحدث أفقدته القدرة على التفكير، نظر لـ«رامي» أخيرًا حتى يهرب من كل ما بداخله وقال:

ـ اتفضل اتكلم، إيه الرسالة؟

وكأنها «رامي» كان ينتظر إِذْنَ البدء، انطلق يحكي لهما بالتفاصيل، حتى مقابلته مع «شيماء» ومع «خالد» وما حدث فيها، حاول أن يضع بين الكلام صفات حقيرة على «كَتخُدَا» من يأسه، جلسا يُنصِتان له لمدة نصف ساعة كاملة حتى انتهى، وساد الصمت.

«آلاء» كفَّت عن البكاء من هول ما تسمع، في حين حدق «طه» فيه بلا شعور..

قال «رامي» سؤالًا غلبه فضوله فيه أخيرًا منذ أن قابلهما:

ـ هو أنتم إيه اللي حصل في قصتكم بالظبط مخليكم عاملين كده؟

أشعلت «آلاء» سيجارة، وقالت وهي تنفخ دخانها بلامبالاة مفاجئة:

ـ ولا حاجة، قتلنا جوزي..

نظر لها «رامي» مذهولًا من هول ما تقول، وصاح «طه» في «آلاء» بغضب:

ـ أنتِ اتجننتِ؟

ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت ببرود:

ـ ما قالك إنه مفشوخ معانا في ديك أم الرواية دي.. يعني ماضي معانا نفس العقد وممنوع يقول أي حاجة عنها..

بدا هدوءها مُريبًا لهما، كيف تحولت من الانهيار لهذا النوع من الجمود، تجاهل «طه» ردها وقال ملتفتًا لـ«رامي»:

ـ بعدين.. حضرتك عاوز إيه؟

نظر إليهما «رامي» بنظرة أمل وهو يقول، مُتجاهلًا فكرة أنه يجلس مع قاتلَيْن الآن:

ـ أنا مش عاوز حاجة غير إننا نوقف الرواية دي، نروحله كلنا ونطالبه بحرق العقود ومسح الرواية تمامًا.

لم تكن «آلاء» في حالة تسمح لها أن تفكر في أي شيء، كل ما في عقلها هو مصيرها، شعرت أنها تنتظر حكمًا عليها بالإعدام، تريد أن تعرف مصير زوجها حتى تستطيع أن تسأل عن ابنتها وتطمئن عليها..

كيف بدأ كل هذا؟ هل بقرارها أن تقابل «طه» لأنها بطلة الرواية؟

أم بسبب اختيارها بأن تشعر بكل شيء تفتقده معه؟ أم أن كل هذا بسبب «كَتْخُدَا» والمسئولية تقع عليه كما يقول «رامي»؟ هل يكون بسبب غشائها المطاطي الذي عرَّفها معنى زيف الدنيا كلها؟ جعلها تكره فكرة الامتناع عن أي شيء تريده، تفعل المستحيل كي تحصل على ما ترغبه دون أن تفكر في العواقب؟

أم هو موت أمها الذي جعلها تحب ذلك الشاب الأبله، الذي كان السبب في معرفة نوع غشائها؟

متى بدأ الانهيار بالضبط؟

لكن «طه» كان الأمر بالنسبة له بسيطًا. قال بهدوء لـ«رامي»:

- ومين قال لك إني عاوز الرواية تخلص؟

لم يصدق «رامي» أنه يسمع هذا الكلام للمرة الثانية، انفعل وقال بغضب:

- أنت مجنون؟ السؤال المفروض يبقى أنت عاوز تكمل في الرواية ليه؟

قال «طه» مُتذكرًا الفيديو الذي أهداه «كَتْخُدَا» له:

- حقي يرجعلي، أنا عمري ما قربت أوصل لحقي إلا لما بقيت جوَّة الرواية.

صاح «رامي» وقد فقد تماسك أعصابه تمامًا:

- حقك عمره ما هيرجعلك لو أنت مش حر.

* * *

أجاب «طه» ضاحكًا ضحكته المتفائلة:

- أنا حر طبعًا.

* * *

رد عليه «طه» وقد علا صوته:

- حُرية إيه يا ابو حرية؟ الحرية عملت لجنابك إيه؟ أنا كنت حر وخسرت كل أحلامي وفلوسي، كنت حر والقضاء بيحكم لعمي بحق أبويا وملكه اللي تعب فيه عمره كله، لو أنا عبد بس حقي هيرجعلي يبقى يلعن أبو الحرية.

نظر له «رامي» في حنق، قال محاولًا أن يأخذ الحوار لمنحنى آخر:
ـ ولو قلتلك إنك لو بقيت معايا، أنا اللي هارجعلك حقك من عمك؟
ابتسم «طه» وقال مُستهزئًا:
ـ كنت عرفت تاخد حقك أنت الأول، بدل ما أنت ضعيف وعاوزنا ناخد حقك معاك.
شعر «رامي» أنه يريد أن يلكمه في أنفه حتى يجعله يفيق من بلاهة ما يقول، حاول أن يهدأ وهو يلتفت لـ«آلاء» التي جلست تراقبهما دون اهتمام، عندما وجدته ينظر لها ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:
ـ مش هتفرق حاجة، عبد ولّا مش عبد، حُر ولا بتنجان، مش فارقة أي حاجة في الدنيا بنت الو... دي، كده كده هنتـ...

* * *

رفعت «آلاء» خصلة من شعرها وقالت بزهو:
ـ حُرة طبعًا.

* * *

قال لها «رامي» بنبرة غاضبة:
ـ حتى بعد ما روايته خلت جوزك يموت؟
ظهرت دموع في عينيْها، لكنها لم تتخلَّ عن جمودها الغريب، وهي تقول بابتسامة شاردة:
ـ يعني لو مسحنا الرواية «هاني» هيرجع؟ «سارة» بتاعتك دي هتعيش تاني؟ هو أنت مش فاهم الفرق بين الرواية والواقع ولّا إيه؟ دي مش رواية تمكن تتعدل أو تتمسح وكأن أحداثها ما حصلتش...
وأكملت بسخرية:
ـ يا ريت الواقع يبقى بالسهولة دي..
وقف «رامي» ناظرًا لهما بخيبة أمل..
لم يشعر «طه» بأدنى قدر من الخجل من نظرته، بل تعجب كيف يريدهم

هذا الأبله أن يخرجوا من عالم الرواية؟ أدرك أنه لا بد أن يتحرك ويطالب عمه بحقه وحق عائلته، لا بد أن يهدده بالفيديو بعد أن فشلت خطة «مها» تمامًا. نهض «طه» وهو يقول لـ«رامي» بهدوء:

ـ البقاء لله في «سارة».

نظر له «رامي» بنظرة احتقار لم يستطع أن يمنعها، قال بصوت مكتوم:

ـ أنت ما تعرفش حاجة عنها عشان تعَزِّيني فيها.

ثم انصرف وقد انسحق كل أمل داخله.

خلفه نظرات «آلاء» اللامبالية بكل ما يحدث حولها.

* * *

عاد «رامي» لبيته بلا روح..

ظل جالسًا قرابة الساعة دون أن يتحرك خطوة..

شعر باليأس من كل هذا العبث الذي يحدث..

لا أحد يريد أن يفهمه، لا أحد فيهم يرى جُنون «كَتْخُدَا»..

شعر بالعجز..

كم يفتقدها!

يشعر بروح «سارة» تحوم حوله. أراد أن ينام على صدرها ويبكي، يحكي لها عن عجزه التام من الانتقام لها، كلهم عبيد «كَتْخُدَا» المخلصون، كلهم لا يعرفون معنى الحرية الحقَّة، كلهم سلَّموا أرواحهم لخيال شيطان مجنون، وهو عاجز عن فعل أي شيء.

كيف لَمن يطلب الحرية طائرًا، أن يُقابَل بعَجْز العَبيد عن التحليق؟

لكنه لن يستسلم، ما دام في صدره قلب ينبض..

نهض أخيرًا محاولًا بث الأمل في نفسه ثانية، اتجه لحاسوبه، ليجد الملف موجودًا في جهازه، كان في عَجَلة من أمره وهو في مكتب «كَتْخُدَا» فنقل بالخطأ ملفَّ «عالمي» كلَّه، فتحه في هدوء وذهبت عيناه بتلقائية إلى «رواية دستور كَتْخُدَا»، وتوقف بالشارة عليه قليلًا.

تنقلت عيناه في محتويات الملف الأخرى محاولًا البحث عن أي شيء قد يفيده، مر عليها سريعًا بلا مبالاة، مجرد أسماء رواياته السابقة، لم يقرأ كل أعماله ولم يعد يهتم بقراءة الباقي، وجد ملفًا مكتوبًا عليه: «روايات لم تنتهِ بعد». فتحه في فضول ونظر لأكثر من اثني عشر ملفًا.

لن يطيق صبرًا أن يفتحها جميعًا، بل شعر أن ما يفعله هو نوع من أنواع الفراغ واليأس، كاد يضغط على زر «عودة» ويذهب للملف الرئيسي، لكن عينيه توقفتا عند اسم أثار انتباهه بشدة.

قرأ الاسم مرة ثانية غير مُصَدِّق..

هل يمكن حقًا أن يكون «كَتْخُدَا» بهذا الجنون؟

نطق الاسم ببطء حتى يستوعبه عقلُه قبل أي شيء آخر:

«رواية ديما»..

* * *

ضرب الهاتف بالرنة المُميزة لوصول رسالة. كان «خالد» نائمًا بجانب «شيماء»، كان يشعر أنه يختنق، نظر لجسدها الذي ظهرت عليه الكدمات الزرقاء من عنفه معها، هذه المرة أعنف من أي مرة مضت، كان يتظاهر بالإثارة، لم يكن يَشعرها على الإطلاق..

بل شعر باشمئزاز رهيب من نفسه..

امتدت يده في بطء للهاتف، فتح الرسالة ووجد اسم مَن يتوقعه، قرأ ما بها ثم اعتدل جسده رغمًا عنه..

نص الرسالة بسيط وصريح لدرجة مخيفة:

««رامي» دوره خلص في الرواية، ارتكب غلط إنه شاف الرواية، ارتكب غلط إنه ما رضيش يقتنع ويرضى، إخلص من «رامي» تمامًا».

* * *

أغمضت عينَيَّ في استمتاع، أسمع الأغنية التي أكتب عليها الموقف.

حان وقت الذروة..

فليبدأ العبث..

الرابعة والعشرون

في نهاية كل شهر ذروةٌ، تذهب إليها بقدميك في كل مرَّة

٦:٠٠ بعد المغرب

قالت «علياء» وهي واقفة أمام باب الغرفة:

ـ يلّا.

التفتّ لها في عدم فهم، لاحظت أنها وضعت زينتها كاملة وعدلت من هندامها، قالت بنبرة حانية:

ـ هنرُوح نزورها.

انقبض قلبي رغمًا عني، نظرت للحاسوب ثانية وقلت هاربًا مما تقول:

ـ لأ، أنا باكتب في حتة مهمة دلوقتي.

قالت وهي تأتي بخطوات حاسمة، تسحب الحاسوب مني:

ـ خده معاك واكتب في العربية.

نظرتُ لها بغضب، أكره مَن يجذب مني الحاسوب هكذا، لكني كنت أعرف سبب غضبي الحقيقي، نهضت مستسلمًا وذهبت لغرفة النوم، فتحت الدولاب لأجد عشرات من التيشيرتات الرمادية، وعشرات البناطيل الجينز بنفس الشكل ونفس اللون، تمنيت لو كان لديَّ أي شيء مختلف حتى أؤخر من دقائق نزولي، ارتديت كل شيء في خمس دقائق، مُخرِجًا القميص خارج السروال: بليزر رماديًا غامقًا، حذاءً رياضيًا لا ينتمي لما أرتدي بِصِلة.

خرجت لها بنظرة حانقة، لتتجاهلني هي وتسحبني من يدي، فسحبت يدي بعنف، غير مسموح لأي أحد سوى «ديما» أن يمسك يدي ويقودني، سِرت معها مُتباطئًا. ركبنا العربة وانطلقتْ بنا.

لأفتح أنا الحاسوب وأُكمل الكتابة.

* * *

Welcome To Your Life

مرحبًا بك في حياتك

There Is No Turning Back

لا يوجد عودة ثانية

* * *

أتى الأمر لـ«آلاء» في رسالة: «اذهبي لزوجك في مستشفى «...» وتظاهري بأنكِ لا تعلمين شيئًا مما حدث، لا تخافي».

أمسكت الهاتف غير مُصدقة، «هاني» لم يمت، صرخت في فرحة حتى إن «طه» أتى من الداخل مفزوعًا يسأل ماذا حدث. صاحت بفرحة وهي تنهض من كرسيها وتمسك حقيبتها:

ـ «هاني» عايش، أنا رايحاله المستشفى.

نظر لها لحظات مرتبكًا، قال:

ـ أنتِ هتروحي له بعد كل اللي حصل؟

أشارت لهاتفها قائلة بسرعة وقد شعرت بروحها تعود إليها:

ـ ده أمر من «كَتخُدَا»، قالي ما تخافيش.

ساوره شكٌ عنيف في كل شيء، في حين لم تُعطِه هي مهلة ليناقش، خرجت مسرعة من الشقة، لينظر هو للباب كالأبله لا يدري ماذا يفعل.

* * *

Even While We Sleep…

حتى ونحن نائمون...

We Will Find You

سَنَجِدُك

* * *

شعر «طه» بخوف مفاجئ، وأن «كَتخُدَا» قد يغدر به وبـ«آلاء». شعر أن الوقت أصبح ضيقًا، لو اكتُشفت «آلاء» فستعترف بكل شيء، لا بد أن يبدأ في التحرك الآن، أجَّل الأمر كثيرًا وتشتت بأمور فرعية.

نظر حوله في سرعة، ذهب لخزانته الفارغة من النقود، وأخرج منها الـ«فلاش ميموري»، وخرج من باب الشقة مسرعًا..

متخذًا قرارًا بلا رجعة في أن يذهب لعمّه..

أخيرًا..

* * *

فليبدأ العبث.

* * *

Acting On Your Best Behavior

تتصرف بأحسن سلوك لك

Turn Your Back To Mother Nature

تعطي ظهرك للطبيعة الأم

* * *

وقف «خالد» متوترًا لا يستطيع أن يمنع ارتجافة يديه، ضغط بيديه على الجرس، ضغطة طويلة بلا هدف سوى إفراغ توتره، سالت قطرة عرق على وجنته ببطء كأنها تستفزه أكثر.

شعر أنه يرفض ما ينوي أن يفعله بكل جوانحه..

لكنه كاتب..

يعرف جيدًا ما تحتاجه الرواية الناجحة، هو بطل مُطيع يُنفذ بلا رأي أو إرادة..

فتح «رامي» الباب، ابتسم بترحاب ودهشة وهو يرى «خالد» واقفًا، منذ أن ترك «رامي» «آلاء» و«طه» وهو يجلس في شقته يائسًا، رؤية «خالد» أعادت أملًا طفيفًا داخله، مد يده مُرحبًا، فسلَّم عليه «خالد» في ارتباك ليجد «رامي» يجذبه ويُقبله في طيبة ويحتضنه بقوة..

شعر «خالد» أنه يريد أن يبكي بين أحضانه لكنه قاوم بشدة، دعاه «رامي» للدخول في فرحة، فابتسم «خالد» بارتباك وهو يدخل الشقة الواسعة، متحسسًا بحركة لا إرادية الشيء الذي يخفيه في بنطاله..

مسدسه الصغير..

* * *

Everybody Wants To Rule The world

الجميع يريد أن يتحكم في العالم

* * *

قال «رامي» كلامًا كثيرًا مُرحبًا بـ«خالد»، لكن «خالد» لم يستطع أن يسمعه، يشعر بطنين في أذنه من كثرة الأفكار المضطربة، هناك صراخ في عقله يريد أن يُخرسه، تعرق جسده أكثر وبدأ يرتجف..

كيف يقتل روحًا بريئة؟

كيف يقتل ذلك الرجل الذي يتنفس ويحب ويضحي بنفسه كي ينقذهم؟

نظر له «رامي» في حيرة، لم يكن في عقله سوى أن «خالد» أخيرًا ثاب لرشده، وقرر أن ينضم معه ضد «كَتَخُدَا»، بل إنه كاد يخبره ما قرأه في رواية «ديا» والذي جعله يجد حلًا يحررهم جميعًا من مأساتهم..

لكن منظر «خالد» المُرتبِك وارتجافته يُظهران صراعًا عنيفًا داخله، مال عليه وربت على قدمه قائلًا:

- في حاجة يا «خالد»؟ أنت تعبان؟

سمع «خالد» صوت «رامي» كصدى يأتي من بعيد، من كثرة الأصوات داخل عقله..

قالت الأصوات إن «رامي» يرتاب فيه ولا بد أن يأخذ موقفًا سريعًا، لا بد أن يتحرك الآن، لكن جسده المرتجف تخشَّب في مقاومة عنيفة لما يرغب، زاد الصراخ في عقله لدرجة لا تُحتمل، نهض فجأة مُطلِقًا صرخة عالية يكسر بها تخشُّب جسده، ويخرس بها ضجيج عقله، أخرج مسدسه ليصوبه ناحية «رامي» الذي انتفض واتسعت عيناه في رعب وهو يصيح بشيء ما..

قال كأنما يقول لنفسه وليس لـ«رامي»:

- القواعد كانت واضحة، أنت اللي اخترت تعصى، أنت اللي اتحركت مش هو..

وبكى وهو يُكمل، مُحاولًا تهدئة ارتعاش يده كي يضبط المُسدس على رأس «رامي»:

- أنا رد فعل، أنا العقاب اللي أنت بدأته باختيارك.

وهز رأسه نافيًا، كأنه مستمر في الكلام مع نفسه:

- البطل عمره ما يرفض أمر الكاتب.

وصرخ:

- أبدًا.

* * *

Its My Own Desire

إنها رغبتي أنا

Its My Own Remorse

إنه ندمي أنا

* * *

ركضت «آلاء» في طُرقات المستشفى، حتى وصلت لغرفة زوجها «هاني».. كانت باكية منهارة، رغم اختلاف أسبابها، لكنها بدت كزوجة خائفة على حياة زوجها حقًا. وجدت الشرطي والطبيب يحدثان أهل «هاني» والخادمة والمُربية التي أمسكت يد ابنتها. انقبض قلبها خوفًا، لكن المُربية نظرت لها بطرف عينيّها، وأشارت لها بيدها المُمسكة بالطفلة أن تطمَئِن.

ارتاح قلبها لحظات وهي تُهرول لهم صائحة:

- إيه اللي حصل؟

نظرت لها أم «هاني» الباكية، واحتضنتها قائلة:

- «هاني» راح يا «آلاء».

صمتت «آلاء» من الصدمة وهي تنظر حولها، ليصيح أبوه بصوت قوي:

- إيه الكلام ده؟ ما الولد لسة عايش يا ست أنتِ.

التفتت «آلاء» في حيرة تنقل نظراتها بينهم، قال الطبيب بعد أن تنحنح ليُفهمها كل شيء:

- أستاذ «هاني» كان بيشرب، واضح إنه داخ فوقع على إزاز البلكونة.

ارتاح قلبها قليلًا لأنه قال القصة كما أرادته أن يقولها بالضبط، لكن الطبيب أكمل:

ـ بس مع واقعته في إزاز كتير اخترق ضهره ورقبته، منهم إزازة ضخمة جدًا، تسببت في قطع الحبل الشوكي، مما أدى للأسف لشلل كامل.

وجدت يدًا صغيرة تمسك قدمها، احتضنت ابنتها وهي تحدق في الطبيب الذي أكمل:

ـ المشكلة إنه فاقد النطق، عملناله تحاليل على المخ وكل حاجة سليمة، الشك الأكبر إنها حالة نفسية من الصدمة اللي حصلتله.

صمتت «آلاء» وضمت ابنتها إليها أكثر في صدمة حقيقية، ثم انهارت على الأرض وقد فقدَت الوعي..

* * *

Help Me To Decide

ساعدني لأقرر

..Help Me Make The Most Of Freedome

ساعدني كي أخلق أقصى ما في الحرية

* * *

أمامك وقتٌ كافٍ لتكرهني فيما بعد!

* * *

جلس «طه» متوترًا أمام نظرات عمّه الحادة..

ما إن ذهب للشركة الكبيرة، وأخبرهم أنه ابن أخ «صبري عبد العظيم»، حتى أدخلوه على الفور..

لم يصدق ضخامة المكتب وأثاثه الفاخر، كل هذا من مال أبيه، كل هذا من حقه هو، استقبله عمّه ببرود دون ابتسامة واحدة، جلس أمامه على المكتب الضخم الذي أشعره بضآلة كبيرة..

عمه يجلس ناظرًا له ببرود، ليتوتر «طه» ويذهب الكلام من عقله، ملَّ عمه من الصمت فقال بصرامة:

ـ عاوز إيه يا «طه»؟ وراك مصايب إيه تاني؟

لم يتخيل «طه» للحظة أنه سيكون خائفًا بهذا الشكل، كان يتخيل هذا اللقاء مرارًا في عقله، تخيل نفسه يصرخ في عمه بقوة أبطال الأفلام، كان يصل في خياله أن عمه تأثر من خطبته العصماء ويبكي مُعِيدًا الحق لأصحابه..

لكنه كان ساذجًا..

أدخل يده في جيبه، أخرج الـ«فلاش ميموري» وأعطاه لعمه دون كلمة، نظر له عمه قليلًا، ثم أدخل «الفلاش ميموري» في حاسوبه المحمول وفتحها ليجد ملفَّ فيديو بداخلها، فتحه في هدوء ثم احتقن وجهه وظهر غضب عارم على وجهه.

هنا فقط، هدأ «طه» قليلًا وابتسم في ثقة، وهو يرى عمه بهذا الضعف، قال بشماتة لم يُخْفِها:

ـ ده المصيبة اللي ورايا يا باشا.

ظلَّ الرجل ينظر للحاسوب وقد احمرَّ وجهه تمامًا..

أوقف الفيديو والتفَتَ لـ«طه» بعين تشتعل:

ـ عاوز إيه؟

هز «طه» كتفه في برود، وقال بثقة مَن ظفر بالمعركة:

ـ اللي أنا عاوزه من زمان، حق أمي وأخويا، عاوزك ترَجَّعلنا كل حاجة.

* * *

And Of Pleasure

وأقصى ما في المتعة

Nothing Ever Lasts Forever

لا يوجد شيء يستمر للنهاية

* * *

«أنت الوحيد اللي مش شايفاه شيطان».

رنَّ صوت «شيماء» في عقل «خالد» فتجمَّد إصبعه على الزناد..

ما إن سمع صوتها الرقيق، حتى بدأ يشعر بالموجودات حوله، نظر لـ«رامي» الذي يجلس مرتجفًا، تلفَّت حوله في دهشة كأنه لا يتذكر ما الذي أتى به إلى هنا، لاحظ «رامي» ما به فقال بسرعة محاولًا التماسك:

- أنت هتسيب «كَتَخُدَا» يخليك تقتل زيه؟

أغمض «خالد» عينيه وهو لا يعرف ماذا يفعل، ليقول «رامي» بصوت أكثر قوة:

- لحد دلوقتي أنت ما عملتش أي حاجة، لحد دلوقتي أنا وأنت ممكن نهرب من كل حاجة ونختار نبقى أحرار.

ما إن قال تلك الكلمة، حتى استعاد «خالد» غضبه والتفت له قائلًا وهو يضغط على أسنانه:

- أنت.. عمرك.. ما كنت.. ولا هتبقى.. حر.

انتفض «رامي» من الصرخة المفاجئة، لكن كلمة «خالد» استفزته فهبَّ واقفًا وهو يقول بغضب:

- أنا عُمري ما هاسمح لنفسي أبقى عبد لواحد مجنون زي «كَتَخُدَا»، أنا اخترت أبقى حر..

ضحك «خالد» ساخرًا، وقال بغضب لم يدرك أنه داخله:

- أنت اخترت اسمك؟ اخترت أبوك؟ اخترت دينك؟ اخترت أي حاجة من اللي بتحصل حواليك؟

لم يرد «رامي» وهو ينظر للمسدس المُصَوَّب نحوه، في حين أكمل «خالد»:

- إحنا زينا زي أبطال الروايات بالظبط، ماشيين في فلك المؤلف وبنسمع الكلام وخلاص، لا أنت عارف نهاية روايتك ولا أنا، هو الوحيد اللي يعرف آخرها إيه.

وأكمل بصرخة مجنونة:

- هو الوحيد اللي محدد مصيرنا من أول ما اتولدنا.

قال «رامي» بثبات وهدوء حسدته عليهما:

- في فرق بين إنك تسلِّم حريتك لواحد، وإنك تبقى مسلمها لربنا، ما ينفعش تقارن المقارنة دي أبدًا، أنت حر بس أنت اللي مش عارف تشوف.

رفع «خالد» المسدس ثانية بيد أكثر ثباتًا، وصرخ والرذاذ يتطاير من فمه:

- مافيش حاجة اسمها حرية.

ليُدرك «رامي» أن لحظاته في الدنيا أصبحت معدودة..

* * *

Everybody Wants To Rule The World

الكل يريد التحكم في العالم!

* * *

دخلت «آلاء» بقدمين مُرتجِفتَيْن غرفة زوجها في المستشفى.

أفاقوها من إغمائها، جلست تنتظر مع عائلته، حتى قال لها الطبيب إنه استفاق، لكنه لا يستطيع الكلام أو الحركة.

سارت نحوه ببطء شديد، ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها، ما إن رآها حتى اتسعت عيناه في رعب، المسكين، لم يعد يستطيع أن يحرك إلا عينيه، أمسكت يده وانهارت في البكاء جانبه، لم تحملها قدماها فجلست على الأرض، قالت وسط بكائها:

- أنا آسفة، والله ماكانش قصدي، أنا بحبك وهافضل طول عمري ليك.

ونظرت لعينيه المفزوعتين الرافضتَيْن، أكملت:

- أنت مسامحني صح؟ حتى لو مش مسامحني، أنا هافضل جانبك باعتذرلك طول عمري.

سالت الدموع من عينيه العاجزتين في رفض واضح، ليته يستطيع الكلام، تأكد الطبيب أنه لا يوجد سبب واضح لعدم كلامه إلا أسباب نفسية..

كم افتقدت صوته الحنون..
احتضنته بقوة ودموعها تسيل في ندم.

* * *

There's A Room Where The Light Won't Find You

هناك غرفة لن يجدك الضوء فيها

Holding Hands While The Walls Come Tumbling Down

ستُمسك أيدينا بأيدي بعض، عندما تتحطم علينا حوائطها

* * *

قال «صبري» عم «طه» باحتقار:

-أنا عمري ما هاسمح لكلب زيَّك إنه يهددني بأي حاجة.

قال «طه» رادًّا احتقاره ببرود كلماته:

-أنا عاوز حاجة واحدة بس أنت سارقها.

صرخ عمه:

-اخرس يا ابن الكلب، أبوك هو اللي سرق كل حاجة مني، دايمًا كنت أنا الفلوس وهو الشغل، أنا عشان منصبي كان كل البيزنس بتاعي باسمه هو، أول ما اتمكن ونجح، أنكر فضلي عليه وخد كل الفلوس ليه. ولولا إنه أخويا كنت سَجنته بالحاجات اللي ماضي عليها بإيده.

لم يصدق «طه» حرفًا، بالتأكيد عمُّه يكذب الآن حتى ينقذ نفسه من الفضيحة، قال «طه» حتى يعود لموضوعه:

-حتى ولو.. ده حقنا، ولو ما رجَّعتهوش هافضحك فضيحة تخليك طول عمرك بِتشحَت.

ابتسم عمه باستهانة، ثم رفع السماعة التي بجانبه وقال:

-هات الأمن حالًا، في واحد بيتهجم عليَّ في مكتبي.

هبَّ «طه» واقفًا وقد توتر جسده كله ثانية، نظر لعمه نظرة غاضبة وقال:

ـ افتكر إني عملت بأصلي وجيتلك لحد هنا، وأنت اللي رفضت.

قالها وركض نحو الباب وفتحه فجأة، ليرتبك رجال الأمن الواقفون خلف الباب، دفع «طه» أحدهم ومر راكضًا كأنه يفر من الجحيم ذاته. دفع باب الشركة مُكملًا ركضه في قوة، حتى اختفى عن أنظار الجميع.

* * *

When They Do, I Will Be Right Behind You

عندما تتحطم، فسأكون في ظهرك

So Glad We've Almost Made It

في قمة سعادتي أننا أوشكنا على الوصول لهدفنا

So Sad We Had To Fade It

وفي قمة تعاستي أننا اضطررنا لجعلها تتلاشى

* * *

صمتت الدنيا تمامًا وتوقف الزمن لحظات..

رأى «رامي» وجه «سارة» يبتسم له أمام عينيه..

للحظة تساءل لماذا يحارب كل تلك الحرب التافهة؟ لأي سبب كل هذا المجهود دون داعٍ؟

شعر بالهدوء يسري في أطرافه وباطمئنان غريب يتملك روحه.. تقدم ببطء ناحية «خالد» الذي نظر له نظرة غير فاهمة، ابتسم «رامي» لـ«سارة» التي لا يراها غيره في اشتياق..

لماذا يقاوم؟

أليس كل مَن افتقدهم في حياته في المكان الذي سيذهب له الآن؟

وقف «رامي» أمام يد «خالد» المُمسكة بالمسدس، مد يده وأمسكها بهدوء حيَّر «خالد» المُرتبك، قال «رامي» مُطمئنًا:

ـ ما تقلقش.. أنت مش بني آدم وحش..

ودمعت عيناه وهو يكمل بابتسامة فَرِحة لأنه سيرى حبيبة قلبه:

ـ أنت بس لسة ما عرفتش تمَن إن عقلك يبقى حر..

ولذهول «خالد» الصامت كصنم، رفع «رامي» يد «خالد» الممسكة بالمُسدس، حتى أصبحت أمام رأس «رامي» مباشرة. مال «رامي» قليلًا للأمام وألصق دماغه بفوهة المُسدس الباردة..

ثم أغمض «رامي» عينيّه في استسلام، مع ابتسامة لم يرَ «خالد» أكثر صفاء منها..

اهتزت يد «خالد» بقوة، لا يستطيع أن يكون بتلك القسوة، قلبه يتألم، هز رأسه في رفض شديد لما يريده «رامي» أن يفعله..

فهم «رامي» ما بداخله..

وضع إصبعه على إصبع «خالد» المرتجفة، بابتسامته الصافية المُستسلمة..

مرت لحظات أثقل من الدهر كلّه عليهما في هذا الوضع الغريب، صمت الكون كلُّه كأنها يراقب في حيرة منتظرًا النهاية، أغمض «خالد» عينيّه لتهبط دموعه..

فقط، اتسعت ابتسامة «رامي» الراضية وهو يقول:

-إبقى قول لـ«كَتْخُدَا» إنه عرف ينقي أبطاله صح..

وأكمل بقوة ودمعة تهبط على جبينه:

-بس غلط لمّا افتكر إني ممكن أبقى عبد.

تشنج جسد «رامي» فجأة كأنها أخذ القرار النهائي، حرك إصبعه ليُجبر «خالد» على ضغط الزناد الذي صرخ في عنف عاجز:

-لأ..

ليسمع كل مَن في المبنى، صوت الرصاصة الذي دوّى بصدًى يهز القلوب..

صدًى وصل للسماء، لتبتسم الملائكة في فرحة باستقبال روح شاردة تعود لخالقها..

صدًى أعلَن خسارتي لثاني بطل من أبطال الرواية..

ومعلنًا انتهاء العَبَث..

* * *

Everybody Wants To Rule The World

الكل يريد التحكم في العالم

* * *

الجزء الثالث

عن النهايات وما قبلها

الخامسة والعشرون

عندما تواجهني، استعد جيدًا

أنا لا أرحم مَن يظن في نفسه قوة المواجهة

السؤال التاسع: من منظورك الشخصي أنت بس، إيه موقفك، توجُّهك الفكري أو الديني؟

ردت «سارة» أنها مسلمة. فأوضحت لها أنني أريد منظورها الشخصي وليس بند الديانة. ردت «سارة» بهدوء بعد أن فكرت قليلًا:

-لسة شايفة إن كل حاجة بتحصل بسبب، شايفة إن الكون كله بالإبداع بتاعه لازم يبقى ليه إله، والإله قال لنا نعبده فإحنا بنعبده، كل حاجة بتحصل بمشيئته وكل حاجة مكتوبة لنا من أول ما اتولدنا لحد ما نموت.

* * *

قبل أن يذهب «رامي» لاحقًا بفَتاته، قرأ ما جعله يعرف الحل لإجباري على مسح الرواية..

وحتى تعلم يا صديقي أنني لا أحب أن أخفيكَ شيئًا، سأتركك تحزن على «رامي»، تلتقط أنفاسك قليلًا، وتقرأ ما قرأه هو قبل أن يموت، عندما فتح ملف رواية «ديما» وظل «رامي» يقرأ دون انقطاع:

تخطيط رواية «ديما»

بداية الكتابة أواخر عام ٢٠٠٤

* رغم جنون الفكرة، لكن بهذا السطر الذي أسطره في الشهر التاسع من عام ٢٠٠٤، أُعلن عن بداية روايتها، روايتها التي ستكون مشروع عمري أنا، كل ما سيأتي هو تخطيط الرواية، مجرد العناصر المهمة التي سأسجلها حتى يحين وقت الرواية ولا أنسى شيئًا. بسم الله الرحمن الرحيم، أبدأ رواية «ديما».

* أنا «حازم كَتَخُدَا» وأرى أنني السلطة المُطلقة على نفسي وعلى الدنيا التي أعيشها بتفاصيلها الصغيرة..

أنا مؤمن بشدة في قرارة نفسي أنني مَن أحكم نفسي بنفسي، لي قوانيني الخاصة البعيدة تمامًا عن أي تقاليد أو عُرف أو دين، وفي نفس الوقت لا ألتزم بأي قاعدة سواء إنسانية أو سياسية أو مجتمعية.

أنا بأبسط تعريف ممكن للكلمة:

حر..

حرٌّ طليق في أدق تفاصيل حياتي، لو كنت بالمزاج الرائق لأصدرت كتابًا عنوانه «قوانين حازم كَتَخُدَا»، وأجبرت كل البشر معاملتي بقوانيني الخاصة، لن أتقيد بأي نوع من أنواع القيود وأنا أكتب هذه الرواية، لن ألتزم بالتنقيح ولن أخاف على مشاعرك وتحفظك وأدبك، لا مكان للعقول المنغلقة في هذه الرواية، لا مكان لمَن يعشقون التقليدية ويُرددون كلامًا محفوظًا دون وعي..

* عام ٢٠٠٠ م، كنت في السادسة والعشرين من العمر وقتها، كنت في حفل توقيع لأول كتاب، جانبي تجلس «علياء الصواف» الناشرة المبتدئة وقتها، ولم يحضر سوى ثلاثة من أصدقائي. جاءت «ديما» وكانت لحظتها شابة في الثامنة عشرة من عمرها، في ثاني سنة دراسية لها بالجامعة، كانت في المكتبة لتأتي برواية ما، رأت حفل التوقيع ووجودي بجانب مَن يناقشني. لاحظت هي الحضور الضعيف فجلست معهم، كنت أنظر أنا لها معظم الوقت وأنا أتكلم، لأنها كانت الوجه الغريب الوحيد حولي، لم أكن أعرفها، كتبت لها توقيعًا على النسخة التي اشترتها من روايتي: «مبسوط إنك هتقري أول عمل ليَّ، هاستنى رأيك». ولأن وقتها لم يكن هناك «facebook»، فكتبت بريدي الإلكتروني.

* ٢٠٠١ م، بعثت لي رسالة بعد حفل التوقيع بسنة: «أنت روايتك حلوة قوي، أنا مش ندمانة إني حضرت حفل التوقيع لإنه عرَّفني بكاتب زيك». أجبتها مازحًا أنني أعرف أنني عظيم، لأجدها ترد مازحة، ونبدأ قصتنا الحقيقية معًا. صِرنا أصدقاء واقتربنا بسرعة لا نتخيلها، نتبادل الآراء والفلسفات، وكانت تُبهرني بنضجها الفكري. لم يمر وقت طويل إلا وحكينا لبعضنا البعض كلَّ شيء.

* تاريخ «ديما»: حكت لي ما جعلني أتيقن أنها مجنونة مثلي، اسمها الحقيقي «مريم محمد محسن»، شابة في التاسعة عشرة من عمرها، وأصغر مني بعشرة

أعوام كاملة، لكنها «حالة» لم أقابلها من قبل، هي رسَّامة رائعة ومصورة محترفة، طلَّق والدها والدتها وهي في الثالثة عشرة من العمر، عاشت مع أمها لكنها كانت تنتمي لوالدها وتذهب له يوميًا. كانت تجيد الفرنسية والألمانية والإنجليزية، والدها كان مدير تحرير لجريدة ألمانية تصدر في مصر، جريدة ليست منتشرة لكنها موجودة، وكانت ناجحة للقراء الألمان في فترة من تاريخ مصر.

كانت تعشق والدها، حكت لي أنها كانت تذهب معه للجريدة يوميًا منذ أن كانت طفلة، عرفت معنى كل شيء يتعلق بالإبداع، تعرَّفَت على رسامين كاريكاتوريين مشهورين، تعرفت على مشاهير كانوا يأتون الجريدة ليُجروا حوارات، عشقت التصوير عندما كان المصور يأخذها الاستوديو معه ويعلمها قيمة التصوير، فهمت الألمانية قبل أن تتعلمها من الصحفيين الذين كانوا يُعلِّمونها كل شيء.

عرفت معنى أن تخلق شيئًا من عدم، من بنات أفكارك فقط.

عرفت مثقفين بالمعنى الحقيقي للكلمة، عرفت معنى الإبداع وتأصل فيها، خاضت نقاشات كثيرة فلسفية مع كُتَّاب كبار من أصدقاء والدها، مرحلة الثانوية العامة كلها قضتها في نقاشات عن الديانات والتاريخ والفلسفة، انبهرت بكمٍّ وجهات النظر المختلفة في كل شيء في الدنيا، حتى المتشككون في وجود الله خاضت نقاشات معهم كثيرة، حوارات عن القدر والمصير، فأصبحت بطبيعة الحال دودة قراءة نهمة، قرأت روايات وكُتب عن كل شيء يشغلها، أصبحت أنضج من كل أصدقائها بمئات الأعوام.

لذلك كانت وحيدة.

وكانت في قمة سعادتها بذلك.

في الجامعة تخصصت في الإعلام، لم تحتمل جو الجامعة السطحي فقررتُ أن تظل في الجريدة تنهل من كل شيء تقع عيناها عليه، في تلك الفترة ظهرتُ أنا في حياتها، وكنا نتعامل كأصدقاء فقط، نتناقش وينصح بعضنا بعضًا

بالكتب الجيدة، نتحدث كل شهرين مرة وقد نغيب أكثر من هذا.

* آخر عام ٢٠٠١ توفي والد «ديما».

كان والدها مريضًا بالتهاب الكبد الوبائي «فيروس سي» سبَّب له تلفًا في الكبد وفشلًا كلويًّا، حاولوا جميعًا أن يقنعوه أن يُجري العملية الجراحية لكنه كان يرفض، عرضت أخته - عمتها - أكثر من مرة أن تتبرع بفص كبدها، بل إنها أثبتت في الفحوصات أنهما مُتوافقان، لكنه أبى بشدة أن تفعل هذا من أجله، ظلت حالته تسوء أمام عينَي «مريم» حتى أتتها المكالمة في عامها الرابع في الجامعة.

والدها يتقيأ دمًا.

عرضتُ أن أذهب معها لكنها رفضت، وذهبتْ مسرعة لطوارئ المستشفى ووجدتْ عمتها هناك باكية، ظلا ساعات مُترقبتَين، طمأنوهما في النهاية أنه خرج سليمًا متعافيًا، وينتظرون إفاقته.

لكنه لم يعد أباها أبدًا.

عندما استفاق في اليوم التالي، كان شخصًا آخر، لم يعرف ما حوله وأصبح عصبيًّا بشدة، يصرخ في كل الناس، حاولوا تهدئته لكن بلا جدوى، ففضَّل الطبيبُ أن يظل تحت الملاحظة لمدة يومين، لم يتحسن وضعه في اليومين فأخبرهما آسفًا أنه يتعرض الآن لشيء يُدعى «Pre-Hepatic coma»: «أعراض الاعتلال الدماغي الكبدي». وقال إنه لا بد أن يُجري العملية الجراحية لزرع فص في الكبد، ولا يوجد بديل في الوضع الحالي.

ولأن والدها ليس في حالته العقلية السليمة، فلا بد لـ«مريم» أن تأخذ القرار وتُوقِّع ورقة لأنها المسئولة عن حالته.

نظرت للورقة التي تُخلي مسئولية المستشفى تمامًا من كل النتائج السيئة، لم يكن في الورقة شيء واحد عن أبيها وحالته. نظرت لعمَّتها في حيرة من أمرها، قالت عمَّتُها الباكية بإخلاص:

- يلَّا يا بنتي مستنية إيه؟ أنا جاهزة.

قالت ببراءة عمرها الذي لم يتعدَّ العشرين عامًا وقتها:

- بس بابا كان رافض العملية تمامًا.

نظرت للورقة في حيرة، كانت أول مرة توضع في اختيار حقيقي لها، اختيار شبه محسوم لكنه سيُغير من كل شيء، قال لها الطبيب إنها لو رفضت العملية فسيظل والدها هكذا لمدة شهور بسيطة، يذهب في غيبوبة ثم يستيقظ لا يعرف مَن حوله وفي قمة العصبية.

وقّعت على الورقة في خوف.

ليأتيها الخبر بعد ساعات معدودة.

تُوفي والدها.

* انهارت «مريم». لم تُصدق للحظة أن الرجل الذي عشقته وتشعر بالأمان معه ذهب وتركها.

* لم تخرج من تلك الحالة إلا بعد عامَيْن، غابت فيهما عني لدرجة أغاظتني، كانت دائمًا لا تريد الحديث لكنها ظلت تطمئنني عليها من فترة لأخرى، رسبت هي في إحدى سنين الجامعة وانهار عالمها كلُّه، لم تكن تخرج من غرفتها إلا قليلًا، استمرت فقط في القراءة عن كل شيء، ثم عادت روحها إليها من جديد، وبدأت تعود للحياة خطوة بخطوة.

لكنَّ سؤالًا واحدًا ظل يؤرقها طوال الوقت:

هل قرارها بالتوقيع على الإقرار، هو ما عجَّل بموت والدها؟ هل كان مكتوبًا له أن يعيش ساعات أخرى حتى لو في غيبوبة؟

هل اختيارُها هو السبب؟

* * *

نظر «رامي» لي عندما سمع السؤال، وقال وقد ظهر الملل على وجهه جليًا:

- ما أنا قلتلك إني مش مؤمن بحاجة، حاسس إن في حاجة غلط في مصدر كل المعلومات اللي بتجيلنا.

ثم صمت فترة منتظرًا السؤال التالي، ثم قال بعد أن فكر قليلًا:

- ممكن أقولك إني سايبها ماشية، ماليش أي توجه فكري.

* * *

* عام ٢٠٠٣ م، عادت تحدثني باستمرار، سامحتها على ردودها المقتضبة طَوال عامَيْن تجاهلتني فيهما، بعد أن نجحت في العام الجامعي الرابع، لكن الخامس بعد رسوبها. عشقتها بالطبع، لو كنت أحلم بالفتاة المثالية لما أتى لي مثلها، اقتربت رُوحانا لدرجة أننا كنا جزءًا رئيسيًا في يومنا، حكيت لها كل شيء عني، عن فلسفتي ووجهات نظري وحياتي. اعترفت لها أنني أحبها.

* يوم ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٣، قالت لي إنها تحبني أيضًا. نفس يوم عيد ميلادها. أتمّت عامها الواحد والعشرين وقتها.

*عام ٢٠٠٤م، بعد أن تخرجت في الجامعة بامتياز، قلت لها إنني أريد أن أتقدم لها رسميًا، فضحكت وسخرت مني لأن كل كلامي عن الحرية وعن كراهيتي للقيود، قلت لها إنني مستعد أن أتزوجها فقط من أجل المجتمع السخيف، ونحيا معًا دون قيود الزواج الحقيقي، ورقة رسمية لكن نظل أحرارًا في كل شيء. رفضتْ تمامًا. لكنها ظلت معي لا نكاد نفترقان.

ثم كلمتني المكالمة التي جعلت كل شيء يبدأ.

منتصف عام ٢٠٠٤

* كان يومُ عيد ميلادها الثاني والعشرين، هاتفَتْني في صباح اليوم التالي، استيقظتُ على صوتها الرائع يقول في حماس:

- أنا تحت بيتك، يا تطلَّعني يا إما تنزل.

اخترت الاختيار الأول لأنني لم أستيقظ بالكامل بعد، ارتديت ملابسي وفتحت لها الباب، لتدخل مُتحمسة وتذهب على الفور لغرفة المكتب، كانت قد زارتني أكثر من مرة ولم نفعل شيئًا بالطبع، كنا نثق ببعضنا البعض ثقة عمياء، ذهبت للمكتب وجلست على مكتبي كما أحب ناظرًا لها بتساؤل، لتقول هي بابتسامة:

- أنت عاوز تديني هدية عيد ميلادي؟

قلت وأنا أتثاءب محاولًا أن أستعيد تركيزي:

- لسة ما جبتهاش أصلًا.

قالت مُبتسمة ابتسامة عاشقة:

- أنا عاوزاك تكتبني.

لم أفهم ما قالت، فكررَتْ جملتها بعين عابثة:

- عاوزاك تكتبني.

أسندتُ ظهري إلى المقعد، وأشعلت سيجارة من النوع الثقيل الذي أعشقه، في وقتها كنت أمتلك الصحة لذلك النوع الرائع من السجائر:

- أيوة يعني عاوزة إيه مش فاهم؟

ضحكت بشدة كعادتها عندما تستمتع بغبائي، ثم قالت:

- دلوقتي إحنا مش بنختار نسلِّم نفسنا لربنا صح؟ بتولد يقولولنا إن كل حاجة مكتوبة وكل حاجة محفوظة وإن ربنا موجود، قليل الناس اللي بتحاول تبحث، وقليل قوي الناس اللي بيدوروا في كل الأديان عشان يعرفوا مين الصح ومين الغلط، أنا دوَّرت، وشُفت إن أكيد في خالق موجود، بس مش مقتنعة إني مُسَيرة، مش مقتنعة إن فيه أي حاجة مكتوبة علينا أصلًا.

صمتُّ متابعًا بتركيز، لتُكمل هي وقد بدأت تتحدث بجدية:

- ف هاشوف أنا مُسيرة ولّا مُخيرة بجد، هاعمل أول تجربة حقيقية بالنسبة لي.

وأكملت بعين شغوفة أعشقها:

- أنا اخترت إني أسلِّم نفسي ليك أنت، أنت اللي هتكتبني، أنت اللي هتختارلي كل حاجة مصيرية في حياتي.

كنت قد اعتدت على جنونها، فقلت باسمًا:

- والهدف؟

قالت باقتناع:

- الهدف إن في إله، وأنا متأكدة إن في إله، لو الإله هو اللي بيحدد

مصيري، وبيكتب ميعاد ولادتي وموتي والأحداث القَدَرية، يبقى أنا المفروض مُسيرة ومكتوب مصيري، ما ينفعش يحاسبني على أي حاجة مهما كانت اختياراتي، لكن لو أنا مُخيرة فأنا باسلّم نفسي ليك أنت، ده اختياري اللي عملته حالًا، أنت اللي هتبقى صاحب القرار.

وحاولتْ أن تشرح بصوت هادئ:

ـ أنا هابقى مُسيرة معاك أنت عشان أبقى مُخيرة مع ربنا، فاهم؟ لو أنا فعلًا مُخيرة يبقى هافضل في اختياري إني أسلملك نفسي، وهاتحمّل عواقب الاختيار، لكن لو مُسيرة، هتحصل حاجة تمنع إني أسلملك نفسي أصلًا، أو هاتعاقب لمّا أموت!

صمت ناظرًا لها بتمَعُّن، مُفكرًا فيما تقول..

* * *

رد «خالد» ردًّا يحفظه:

ـ إن ميزان الظلم والسفة هو اللي مايل، لازم الناس اللي زيي، اللي ربنا أنعم عليهم بالاختلاف، هم اللي يعدلوه بإيدهم، لو ما مسكناش الميزان ورفعناه بكل الأساليب الممكنة، هيفضل الظلم سايد والقيامة هتقرب.

* * *

* قلت لها ما جاء في عقلي، إن ببساطة يمكن أن تعكس منطقها ويصبح ضدها، لماذا لا يكون مصيرها أن تسلّم نفسها لي وتموت كافرة مثلًا؟ ماذا لو كان مكتوبًا في لوحها المحفوظ أنها ستختار هذا الاختيار؟ قالت هي بثقة:

ـ أنا ما اعتقدش إن ربنا بيتدخل في اختياراتنا خالص.

وأكملت شارحة وهي «تُربع» ساقَيْها كعادتها:

ـ في حاجة جديدة اسمها اللعبة التفاعلية، تخيل معايا إنك مُبرمج إلكتروني، وبتعمل لعبة كبيرة قوي بتعتمد على اختياراتك أنت بس، اللعبة دي لما هتنزل السوق، فيه شاب هيمسك الدراعات ويلعب اللعبة، صح؟

أومأت برأسي إيجابًا في صبر، رغم كراهيتي للمحاضرات الطويلة،

قالت هي بنفس الحماس:

-المُبرمج مطلوب منه يعمل إيه؟ بيكتب قصة ليها بداية واحدة و١٠ نهايات مختلفة، كل نهاية ليها المسار بتاعها، اللي بيختاره اللاعب اللي ماسك الدراع.

قلت وقد بدأتْ تجذب اهتمامي:

-يبقى برضة مافيش نهاية غير واحدة من الـ١٠ نهايات، وبداية غصب عني مابدأ فيها، فين الاختيار؟

قالت هي بابتسامتها مُجيبة عن نصف جُملتي الأخير:

-عشان الـ١٠ نهايات دول فيهم كل الاختيارات المُتاحة، مثلًا: البطل خسر اللعبة ومات، البطل كسب اللعبة وفاز، البطل ما عرفش يعمل كل حاجة صح فخسر أكتر من مرة ناس غالية عليه... الـ١٠ نهايات دول نهايات عامة، مافيش حاجة هتتخرج عنها.

عندما يُحدثني أحد في نظرية جديدة أحب أن أسمعه كطفل يتعلم، أترك له الفرصة لإقناعي، أناقشه حتى أصل معه لنهاية الطريق، قلت معترضًا بهدوء:

-بس وقت نهايته موجود.

قالت ترد عليَّ بحماس:

-ما اعتقدش برضه.

وأكملتْ أمام نظرتي النافذة، وابتسامتي الهادئة:

-مثلًا لو المخدرات اختيار، يبقى بطل اللعبة هيتحط في اختيار، يشرب أو ما يشربش، لو شرب المخدرات هيترتب عليه كذا وكذا، وهيموت بدري عن ميعاده لو هوَّ صحته كويسة، لو ما شربش واختار الصح يبقى عمره هيطول شوية لإنه عرف يحافظ على صحته، قيس على كده كل حاجة تانية: اختياراتك في الأكل، في السجاير، في القهوة... كل حاجة بتعملها بترسم مستقبلك كله اللي قدامك وبترسم هينتهي إمتى وعلى إيه بالضبط.

وقالت وهي ترفع إصبعها:

-وإلّا ما كانش فيه قاعدة بتقول إن الدعاء بيغيَّر القدَر، معنى كده إن القدَر قيمة مُتغيرة مش ثابتة!

وأكملتْ مُستمتعة بما تقول، لدرجة جعلتني أصبر عليها قليلًا:

- عارف أنت قصة موسى والخضر؟ لما الخضر قتل الغلام، وسيدنا موسى سأله لحد ما فسّر له في النهاية. قال له: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾. عارف يعني إيه «خَشِينا»؟ يعني الغلام في أي وقت مُخير بس هو «ميَّال» للضلال. ربنا عارف هو ممكن يعمل إيه في أهله، بس الولد مُخير لآخر لحظة، وإلا كان ربنا قال «وكتبنا عليه الضلال». أو أي حاجة غير «خَشِينا»! عِلْم ربنا شيء لا يؤثر إطلاقًا على اختيارك في الحياة.

قلت لها مُجاريًا إياها رغم اعتراضي:

- أنتِ شايفة من الآخر إننا في لعبة تفاعلية، مرسوم لينا كل النهايات والاحتمالات وعلى حسب الاحتمال اللي بنختاره اللعبة بتبرمج نفسها تتكيف على الاختيار ده، وعشان تشوفي إذا كنتِ فعلًا مُخيرة ولَّا مُسيرة، هتسلمي كل اختيارتك في إيد لاعب تاني يحدد الحياة، وتشوفي في النهاية وقت الحساب، مين اللي هيتحاسب على الاختيارات دي، أنتِ، إنك سلمتيلي اختياراتك ولَّا أنا لأني اخترت لك حاجات معينة.

وأكملتُ في عدم تصديق:

- أنتِ بتعملي تجربة مش هتعرفي نتايجها غير بعد موتك!

أومأت برأسها إيجابًا وقالت وهي تنظر للسماء مازحة:

- هاضحي بنفسي في سبيل وجهة نظر، هاعمل «ريسك» وأستنى لحد ما أموت عشان أعرف، كل ده في سبيل مبدأ، زي كل الأبطال العظام.

ضحكتُ ساخرًا فضحكتْ معي، قلت معجبًا بعقلها الذي أعشقه:

- طب والبدايات؟ أنتِ مش بتختاري بدايتك، مش بتختاري أهلك ولا اسمك.

قالت هي كمَن فكرت في إجابة هذا السؤال جيدًا:

- دي نتايج اختيارات أهالينا مش إجبار من ربنا، لما أنت بتلعب لعبة تفاعلية واخترت تتجوز البطلة وبقت حامل، اللعبة بتسألك هتسمّي الطفل

إيه؟ أنت بتختاره، إحنا بنفضل عايشين تحت عيوب اختيارات أهالينا لحد ما بنوصل لسن الرشد، من أول سن الرشد بتبدأ الاختيارات تتعرض عليك في كل خطوة بتخطيها، حتى بيبقى ليك اختيار إنك تغير اسمك في السجل المدني وتعيش بالاسم اللي تحبه، ممكن تغير ديانتك لو أنت قوي وما بتخافش من حد!

ثم مالت عليَّ وقالت بحماس:

- هتديني هدية عيد ميلادي وهتكتبني ولّا لأ؟

* * *

ردت «شيماء» بهدوء:

- منظوري الشخصي إنك ما تعافرش عشان ما تتعبش.

* * *

قلت متجاهلًا سؤالها، ناظرًا لها نظرتي التي تنفذ لروحها مباشرة:

- أنتِ ليه بتعملي كل ده؟

زمّت شفتيها ونظرت لي، حاولت أن تبتسم لكن ظهر على عينيها دموع محبوسة:

- عشان بابا.

لم أعلق، في حين قاومت هي بكاءها وحاولت أن تقول بلهجة عادية، لكني لاحظت ارتجاف صوتها:

- عاوزة أعرف هو فعلًا مات عشان مكتوب له يموت في الوقت ده، ولّا عشان أنا مضيت على الورقة وعجّلت بموته.

قبل أن أنطق مواسيًا، قالت هي مُشيرة إليَّ ألّا أتكلم:

- كل الناس قالولي إن ده عمره، كل الناس القريبة لما حكيت لهم اللي أنا حسّاه، قالولي الجملة العبيطة دي، عاوزين يواسوني ويخلوني ما اشيلش الذنب، بيرموا الذنب على اللي خلقهم عشان ما يحسوش بوجع الموت، زي ما بيعملوا في كل حاجة غلط بيختاروها ويقولوا نصيبنا، وربنا كاتب لنا كده.

توتر جسدها وهي تضرب بظهر يدها راحة اليد الأخرى مُكملة بانفعال:

ـ بس الواقع بيقول غير كده، الحقيقة الصريحة والوقائع إنه كان ممكن يعيش حتى لو مش في وعيه، كان ممكن أودعه وأحضنه قبل ما يمشي، كان ممكن يفضل في الغيبوبة لحد وقت ما يلاقوا علاج، ممكن مليون حاجة كانت تحصل إلا إنه يموت.

شعرت أنني أريد أن أحتضنها عندما سالت دموعها، لكنها مسحتها بسرعة وقوة وقالت لي:

ـ عشان كده أنا هاسيبك تكتبني، هاستنى عمري كله لحد ما أقابل ربنا وأعرف.

ونظرت لي بقوة قائلة:

ـ موت أبويا كان قَدَره ومصيره، ولّا اختياري أنا؟

صمت كثيرًا ناظرًا لها ولإيمانها بما تقوله، لو كانت هي مجنونة فقد ذهبت لمن هو أكثر خبالًا منها. ابتسمتُ في حنان وقلت بنبرة هادئة:

ـ هاكتبك.

صفقت بيديها في جَذَل، وتركت دموعها تنساب وهي تنهض لتحتضنني حضنًا طويلًا. ربّتُّ على ظهرها في حنان، تركتها تُفرغ مشاعرها كلها بين ذراعيَّ، ثم تركتني وجلست أمامي ثانية، فقلت بهدوء:

ـ أول قرار يا أستاذة يا مُسيرة، هتغيري اسمك في البطاقة وتخليه «ديما»، «مريم» ده مش عاجبني.

ضحكت وقالت بمرح:

ـ عُلم، ويُنفذ.

* * *

قال «طه» بحماس:

ـ الحلم يستاهل أضحي بكل شيء من أجله، وأنا مؤمن إني لو تعبت في حاجة قوي، ربنا هيكرمني ويحققلي اللي نفسي فيه.

* * *

* بدأت أكتب «ديما» آخر عام ٢٠٠٤. جعلتها غيَّرت اسمها في البطاقة، عندما تتعرض لأي اختيار أختاره أنا لها. وهناك اتفاقية انسحاب في أي وقت أرادت أن يعود الاختيار لها، فقط تقول لي، وتصبح مُخيرة ثانية.

* أمرتها أن تُحبني، أن تظل معي عمرها دون زواج، حتى لو رجوتها أن تتزوجني لا بد أن ترفض، بالتأكيد وأنا أطلب منها هذا سأكون في حالة غير طبيعية.

* نفَّذت ما قلت بالفعل، مضى عام ونحن ما زلنا معًا، جعلتها تحضر رسالة الماجستير.

* أعشقها. أشعر أنني لا أستطيع أن أحيا لو ابتعدَتْ عني، اخترت لها أن تظل بجانبي تساعدني في كل رواياتي وأعمالي.

* ٢٠٠٦، مضى عامان. وأنا أعيش أجمل أيام عمري. بدأت رواياتي تنجح، بدأ الناس يعترفون بي ككاتب ويناقشونني في أفكاري. لولا مساعدة «ديما» لي ما كنت وصلت، أطاعت هي كلَّ أوامري واختياراتي لها بمحبة لم أرها في حياتي من قبل.

* ٢٠٠٩ م، مضت خمسة أعوام وروايتها لم تنتهِ بعد، اخترت لها أن تبدأ في رسالة الدكتوراه، أريد أن أستمر في كتابتها ما تبقَّى لي من العمر.

* ٢٠١١م، أكتب هنا لأُذكر نفسي بكل ما حدث، مرت سبعة أعوام، أختار لها وتُنفذ دون نقاش، أنا وهي نتناقش في كل الأمور العقلية والحياتية، لكن لا تناقشني أبدًا فيما أختاره لها. مر يوم صعب علينا عندما أعلنوا عن ظهور علاج للكبد الوبائي، بكَت مُتذكرةً والدها، احتضنتها وأخبرتها أن والدها لم يكن ليعيش كل هذه الفترة، لكن هذا لم يُخفف شيئًا مما يثقل صدرها.

* كل عام نحتفل بيوم ٢٧/ ٧؛ يوم أن اعترفنا لأول مرة بحُبنا، وهو أيضًا اليوم الذي أنارت فيه العالم بقُدومها؛ اعتدت أن أهديها هدية خاصة جدًا بنا، ولا يفهمها أحد سوانا.

* ٢٠١٣ م، أصبحت «ديما» في الواحدة والثلاثين من العمر وأصبحت

أنا في التاسعة والثلاثين، ما زالت بنفس الرقة والحنان، ما زالت متميزة في عملها وتساعدني بكل جوارحها، اخترت لها أن تصبح مُصورة محترفة، سعيدة في عملها جدًّا. ربما تكون هذه هي الرواية الوحيدة التي لا أرغب في أن تنتهي.

* ٢٠١٥ م، لا بد لي من أنهي روايتها قريبًا، أشعر أن ملامحها بدأ يعتريها الحزن والملل، أنا أعشقها، حتى لو أرادت أن تتركني لا بد أن أختار لها أنا هذا، وأنا لن أختار هذا ما حييت، لم أتخيل أن تمل «ديما» من كل شيء بهذا الشكل، أنا أفهمها، أفهم لمعة عينيها ولمساتها، مزاحها عندما يكون من القلب وعندما يكون مفتعلًا، لا بد أن أعيد لها حرية الاختيار ثانية. نجحت تجربتها وأثبتت أنها مُخيرة، أحد عشر عامًا تجربة طويلة المدى، لن أسجنها أكثر من هذا.

*أصبح تملُّكي لها أمرًا مزعجًا بالنسبة لي قليلًا، هل هي معي لأنها تحبني أم لأنها مجبرة؟ أسوأ ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أُخيرها، ستقول لي اختَرْ أنت! بدأ الجانب السيئ من تجربتها يظهر فينا وفي علاقتنا، لا بد أن أفعل شيئًا ما قبل أن ننتهي معًا.

*٢٠١٦م، في منتصف العام جاءت لي فكرة مجنونة، من وحي «ديما» وما فعلَته معي؛ رواية اسمها «دستور كَتْخُدَا»، من وحي روايتها. سأسجلها في الفقرة القادمة لأهمية الفكرة.

* * *

ردت «آلاء» بثقة:

ـ منظوري الشخصي «إذا أردتَ شيئًا بشدة، طلَّع ميتين أمه، هيفضل لازق فيك زي الكلب!».

* * *

* كنت دائم التفكير في حل لوضعي أنا و«ديما»، جالس في مكتبي، متناسيًا ذاتي، غائبًا عن إدراك ما حولي، كنت في خِضَم تأليف رواية أخرى، قد وصلت لنصفها تقريبًا، عندما خطرت لي الفكرة المجنونة فجأة،

نهضت من مقعدي مشدوهًا، وسمعت دقات قلبي تخفق مؤيدة بعنف.

* وأنت في رحلة البحث عن «حالة» مجنونة لم تقابلها من قبل، لا تتوقع أن تشعر أو تستمتع بأي شيء عاقل..!

* ١٠/ ٧/ ٢٠١٦، كتبت على الـ«facebook» منشورًا بسيطًا جدًا دون أن أفكر:

«أريد شخصًا جريئًا، مؤمنًا بي وبما أكتب، مجنونًا من الذين لا يعرفون معنى كلمة «حدود»، لا ينتمون لواقعنا بصلة، أريده لمساعدتي في كتابة روايتي الجديدة، الشروط بسيطة، وهي أن يكون مسئولًا عن نفسه تمامًا وفي السن القانونية، لا يفهم جملة «لا لن أستطيع»، ولا يعرف كلمة «ما يصحش»، أريده مختلفًا تمامًا. والأهم من كل ذلك أن يكون بالشجاعة الكافية ليثبت هذا الاختلاف!

الكلام ينطبق على الرجال والنساء. #ابعت_رسالة_بمعلومات_عنك».

* جلست مع «ديما» وسردت لها فكرتي، أعجبتها ولم تشك للحظة أن ما أفعله هو حل لوضعنا، حل عبقري لن يفكر فيه سواي، جلسنا نخطط لها، أول شيء فكرنا فيه هو وجود المحامي الشخصي لي، هو مجنون مثلي ولن يعترض على شيء، كارثة كهذه لا بد من تقنينها كي لا أذهب خلف القضبان فور بدء التنفيذ.

شرحت للمحامي فكرتي كاملة..

* المحامي مع إصراري العنيد - بعد ساعتين من تحذيري كي يُخلي مسئوليته - وضع بيانًا رسميًّا، أن كل مَن سيدخل المقابلة سيكون قد وقَّع على اتفاقية سِرية كاملة، لا تسمح لأحد بأن ينبس ببنت شفة بعد المقابلات الأولى، واتفاقية السرية مُلزِمة تَسري علينا وعليهم، لن توجد أدوات تسجيل صوتي أو مرئي لأي شيء سيحدث داخل المقابلة، «ديما» كانت المسئولة عن أخذ توقيعهم على هذا البيان قبل الدخول إليَّ..

ما أعلمه وتأكدت منه أن الأمر محكوم تمامًا ولن يستطيع أحد قول كلمة واحدة.

* جلستُ يوم المقابلات متوترًا، دخل أكثر من متقدم، ما إن أنهي بطلبي حتى يفعل ما أوصته به «ديما»، ويخرج دون كلمة. كِدت أصاب بالإحباط لولا أن ظهرت فتاة تُدعى «آلاء» أعادت الأمل ثانية. دخلت فقلت لها: «اقلعي»، لتسألني: «كله؟»، فأومئ لها بالإيجاب. ترددت لحظات ثم خلعت ملابسها. لتُعلن البداية الحقيقية للمقابلات.

* بعد «آلاء» وافق أكثر من متقدم أن يتعرَّى، مع مَن وافق فقط بدأت المقابلات. سأجمع بعضًا من الأسئلة هنا حتى أتذكرها عندما أبدأ في التخطيط للرواية الأخرى.

كلهم كانوا عرايا..

كلهم كانوا متوترين..

فليبدأ العبث!

* * *

السؤال الأول: رأيك في الدنيا وفي كل اللي حواليك في كلمتين تلاتة بس؟

«آلاء أبو العينين» ٢٥ سنة، ردت بابتسامتها وهي تحاول أن تهدأ:

ـ محتاجة صبر.

* * *

«رامي محمود راضي» ٣٦ سنة، لم يبتسم وقال بمنتهى الهدوء:

ـ .. أمها!

أنا كـ«حازم» لا أحب ذكر الشتائم!

* * *

نظر «خالد عبد السلام» ـ ٣٥ سنة ـ للسقف، في نظرة تأملية «فصلتني» قليلًا وقال بنبرة حالمة:

-وجع لا بد منه!

* * *

وقالت «منة أحمد» - ٣٠ سنة - وهي تبتسم ابتسامة رومانسية:
- في عيون حد باحبه.

* * *

وإجابات أخرى لا تستحق الذكر، الحقيقة أن كل هؤلاء مُدَّعون يحاولون تعميق إجاباتهم، فكرة هذا السؤال ليست لقول كلمات عميقة، هدفه أن تجاوب بلا فلسفة، دون أن تحاول إثارة إعجابي.

انتقلت للسؤال الثاني على الفور دون تعليق.

السؤال الثاني: لو كتبت رواية بتوصف قصة حياتك، هتسميها إيه؟

لتجيب «آلاء» بعد لحظات تفكير، ثم تنظر لنفسها وتقول بسخرية:

- عارية.

* * *

وينظر «رامي» لي باستخفاف شديد مجيبًا:

- الـ.. أم ذات نفسه!

* * *

وقال «خالد عبد السلام» الذي جعلني أشك أن هناك حشرة ما في السقف تعجبه:

- البُركان المستميت في دهاليز الصبر.

ونظر لي أخيرًا وقال في تأمل:

- عنوان جانبي بخط صغير: ذبذبة النفوس.

* * *

وقالت «شيماء صالح» - ٢٧ سنة - بهدوء:

- أسفلت.

أثار الاسم فضولي فتساءلت:

- إشمعنى؟

لتبتسم ابتسامة جانبية وترد:

- عشان أنضف نوع هو اللي بيفضل أطول وقت يتداس عليه من غير ما يتكسر أو ينهار!

* * *

وقال «طه أحمد» - ٣٣ سنة - بنبرة هادئة:

- رمادي.

سألته وقد شعرت بأمل ما:

- ليه؟

هز رأسه بلا مبالاة وقال:

- عشان مافيش فعلًا غير الرمادي، من ساعة ما اتخلقنا واحنا بنعيش في الرمادي، مافيش حق، مافيش باطل، مافيش أي حاجة ثابتة وليها قواعد واضحة، بالتالي كلنا «رمادي»، ميكس حلو بين الأبيض والأسود وينقضيها!

* * *

* فرزنا أنا و«ديما» كل المقابلات، واخترنا في النهاية ستة أشخاص فقط. حتى الآن لا تشك «ديما» للحظة أنني أفعل هذا من أجلها. أعشق تلك الفتاة أكثر مما تتخيل، سأكف عن تدوين أي شيء عن الرواية الأخرى حتى الانتهاء منها.

* سأدون هنا نهاية رواية «ديما» عندما تحدث.

* * *

كان هذا ما قرأه «رامي» كي تعرف أنني لا أحب أن أخفي عنك شيئًا يا صديقي، ولأصدقك القول، لم يكن هناك مكان آخر في الرواية أستطيع أن أخبرك فيه بقصتها..

انتهى «رامي» - رحمه الله من قراءة الملف بعين لا تُصدق ما تقرأ..

نظر حوله في دهشة، لا يدرك كم مرَّ من الوقت وهو يقرأ، بل لا يعرف ما الذي سيفعله بما قرأ..

لكنه تأكد من شيء واحد فقط:

«ديما» هي نقطة الضعف لـ«كَتْخُدَا»..

أدرك أن الأسلوب الوحيد للانتقام من «كَتْخُدَا» هو «ديما» التي ستُجبره أن يمسح الرواية..

أو «مريم» سابقًا..

سمع صوت جرس الباب، فذهب له مشدوهًا بخطوات بطيئة لا يعرف أنها آخر خطواته في الدنيا..

فتح الباب ووجد «خالد» المرتبك، فابتسم لموته مُرحبًا..

وأنت تعلم ما حدث بعد ذلك!

السادسة والعشرون

لا تيأس، لا تفقد الأمل يا بطل روايتي

تيقن فقط أن سُنة الكون في عالمنا، مبنية على فكرة واحدة:

كيف تكون عبدًا مُطيعًا لمن يعشقون استعبادك؟

٧:٠٠ مساءً

شعرت بتوقف العربة، قالت «علياء» ما لا يستحق القول:

-وصلنا.

نظرت للمبنى في توتر، أغلقت حاسوبي بعد أن حفظت الملف، ثم خرجت من العربة وقدماي ترتجفان رجفة غير ملحوظة.

كيف أصبحت بهذا الضعف البشري بعد أن وصلت في الماضي لجبروت إله؟

شعرت أن الموجودات حولي مجرد ضباب، سِرْت وراء «علياء» الماضية في المكان بثقة، تكلمت مع موظف الاستقبال كلامًا لم أسمعه، سارت «علياء» في اتجاه ما فمشيت وراءها، جلست في حديقة واسعة على مقعد كبير، فجلست جانبها كإنسان آلي.

شعرت بها تربتُ على قدمي، نظرت لعشب الأرض بلا هدف، مقاومًا نبضات قلبي العالية التي تصم أذني.

ثم شعرت بوجودها..

فوجودها سِحْر يغشى القلوبَ وتعشقه كائناتُ الكون..

رفعت عينيَّ ببطء، لأجدها واقفة أمامنا تنظر لنا بدهشة، ممسكة بيد ممرضة أتت معها..

قالت «علياء» وهي تكاد تبكي من حالة «ديما»، بصوت حنون كعادتها:

-إزيك يا حبيبتي عاملة إيه؟

كانت تعرف «علياء» لأنها زارتها أكثر من مرة، لكن ما إن رأتني حتى تراجعت للوراء قليلًا، عيناها التائهتان نظرتا للممرضة في خوف، شدت من مسكتها ليد الممرضة وهي تقول بصوت هامس مشيرة إليَّ:

-مين ده؟

ابتسمت في مرارة، وأنا أنظر للأرض في حزن..

جاء اليوم الذي تنتهي فيه حياتي عندما لا تتذكرني مَن أعشقها..

«ديما»..

* * *

أشعر أن عدد الصفحات سيقل مع كل جزء؛ لفقداني بطلَيْن في الأجزاء السابقة!

مر الأسبوع الأول في الشهر الثالث والأخير، أحداثه بسيطة..

عادت «آلاء» إلى بيتها مرهقة، لكنها ابتسمت وهي تدلف للشقة في اشتياق حقيقي، افتقدت بيتها بعد أن قضت كل الأيام الماضية بجانب زوجها، ترعاه ليلًا نهارًا دون تعب أو كلل، كانت مثالًا للزوجة المخلصة المتفانية، تشعر بزوجها العاجز ورفضه التام لوجودها لكنها لا تهتم.

شعرت أن القدر أعطاها فرصة أخرى بعدم قدرته على الكلام، حتى لو كان صمته هذا نفسيًا وقد يعود في أي وقت، لكنه أعطاها فرصة ووقتًا أطول حتى تجعله يسامحها.

لن يستطيع الكلام، لن يستطيع أن يفعل أي شيء سوى أن يتركها ترعاه.

تنحنح الممرض الخاص الذي يدفع كرسي زوجها المتحرك، نظرت لزوجها بأسف، ذلك الوجه الشاب الوسيم البائس. صدقت حماتها عندما أخبرتها أنه قد انتهى، بحالته هذه لن يصلح لأي شيء فيما بعد.

كم تكره كل ما حدث!

منذ الحادث، مسحت رقم «طه» من هاتفها ووضعته في نظام ما يدعى «اللائحة السوداء»، تجعله كلما يتصل يجد الرقم مغلقًا، شعرت براحة رهيبة وهي تجلس في الصالة، نفس المكان الذي كانت تجلس فيه منذ أسبوع واحد عارية وخائفة. عادت له وهي ما زالت ملكة متربعة على عرش بيتها.

قالت للممرض بلا مبالاة تملَّكتها فجأة:

- حُطه ع السرير جوة وجهز له الإجراءات كلها.

دفعه الممرض إلى غرفة النوم، ذلك الممرض الشاب الهادئ، الذي أصبح شغله الشاغل الآن أن يرعى زوجها وكل احتياجاته، كان يُكلفها نقودًا كثيرة لكنها لم تبالِ، لا بد أن تقدم لزوجها الرعاية الكاملة، ثم إن عضلات الممرض العريضة، ومؤخرته تروق لها، من الممتع أحيانًا أن تجد شيئًا جميلًا تنظر له فقط دون أن تلمسه.

وضعت قدمًا على قدم لا تستطيع أن تكتم الابتسامة المتصرة، أصبح موقف خياناتها له وضعفها أمامه وأمام نفسها في الماضي السحيق، لم تعد تتذكره من الأساس.

لقد عاد كل شيء لطبيعته.

* * *

ظل «طه» في بيته طوال الأسبوع، دون أن يجرؤ على الخروج، كان يخشى بشدة من ردة فعل عمِّه الحقير..

كلَّم «آلاء» أكثر من مرة، لكن هاتفها مغلق، لا يدري شيئًا عما حدث لها ولزوجها، هل انكشفت؟ هل هي في السجن الآن؟ توتره جعل وجوده في البيت محبوسًا يقتله.

نظر لشقته التي كانت ممتلئة بالحب في يوم من الأيام، اشتاق لزوجته بصراخها وإزعاجها له، افتقد الإحساس بروحها التي تنتشر في كل لمساتها في بيته، لم يتمالك نفسه وطلب رقمها، ووضعه على أذنه في لهفة منتظرًا..

سمع صوتها الذي افتقده يقول بحدة:

- عاوز إيه يا «طه»؟

أغمض عينيه مستمتعًا بصوتها، ثم قال بما يشعر دون كذب، بصراحته التي تصل لقلبها:

- كل حاجة في البيت وحشة من غيرك.

وهمس لها:

- أنتِ وحشتيني قوي.

يعلم تأثير كلامه عليها، يعرف أنها تحبه حقًّا كما يحبها هو، قد يكون انبهر بـ«آلاء» وخُبثها وجُرأتها، لكنه لم يفقد مشاعره ناحية زوجته لحظة، صفة في الرجال لن يفهمها النساء أبدًا يا صديقي. الرجل قد ينام مع نساء الأرض كلهن، لكنه لا يشعر بمشاعر صادقة ناحية أحد إلا من تزوجها وهو يحبها.

رقَّ صوتها قليلًا وهي تقول:

ـ وأنت كمان وحشتني.

ابتسم في سعادة صافية، لكنها عادت لحدتها المعتادة وهي تقول:

ـ أنت لسة هتعمل اللي في دماغك؟ ولَّا عملته خلاص؟

قال كاذبًا:

ـ ما عملتش حاجة، اكتشفت إن حتى لو حقي مسروق مني، لازم أرجعه وأنا لسة محترم نفسي.

تنهدت في ارتياح شديد، ثم قالت:

ـ طيب تعالَ بقى شوف مراتك اللي أنت راميها هنا دي.

ضحك وقال:

ـ عينيا، هاجيلك بعد بكرة عشان مش قادر أنزل دلوقتي.

ساد صمت لحظات، ثم قالت في قلق:

ـ ليه؟

ارتبك قليلًا، ثم قال:

ـ عشان أنا لازم أراجع نفسي الأول، لازم لما ترجعي تلاقي جوزك اللي أنتِ حبتيه مش حد تاني.

ثم ودعها بهدوء، وأغلقت هي المكالمة دون اقتناع حقيقي.

* * *

لم يعد «خالد» لشقة «شيماء» منذ مواجهته مع «رامي»..

بل عاد مُنهارًا لبيته..

عاد باكيًا لزوجته، يعتذر لها عن غيابه، احتضن ابنه بقوة..

ظل أسبوعًا كاملًا لا يتحرك من بيته، ينام على الفراش بجسد مرتجف من هول ما تعرَّض له..

سامحَته زوجته عندما أقنعها أنه يفعل كل هذا من أجل الرواية التي يكتبها، صدَّقته كعادتها البلهاء في تصديقه، شعر لأول مرة بكمٍّ راحة رهيب في بيته،

شعر أن البيت ـ رغم تواضعه ـ نعمة من الله عليه، ذلك الأمان والدفء اللذان يتخللان من بين جدرانه..

لكنه في نهاية الأسبوع الأول وجد نفسه يفكر في «شيماء» ويشعر بالقلق عليها، خشي أن عدم عودته قد يجعلها تفعل شيئًا تؤذي به نفسها، كان يعلم أنها فقدت عقلها، لديها عقدة «ستوكهولم» في أوضح صورها، تحول بعده لجنون مُخيف لا يدري هل كان موجودًا منذ البداية، أم أن كل ما حدث لها جعلها تفقد عقلها؟

ما إن ضبط نفسه يفكر فيها، حتى هز رأسه بسرعة نافضًا الأفكار عن رأسه تمامًا، كي لا يضعف ويذهب لها ثانية..

ولكنه شعر بآثار انسحاب المخدر من الجسم بدأت تظهر..

وكان هذا أكثرَ ما يخيفه..

السابعة والعشرون

لا تُحاكمني بما أصابك من الضرر

حاكِم نفسَك لأنك بالضعف الكافي أن تُصاب به!

٧:١٠ مساءً

نظرت لـ«ديما» وبداخلي مشاعر متضاربة.

هل لا تعرفني في المُطلق؟ أم أن وجهي المُشوَّه أخافها قليلًا؟

وقفت أمامها بعين تقاوم البكاء، وجسد يقاوم احتضانها، ملامحها التي أعشق أصغر تفصيلة فيها..

كم افتقدتك يا «ديما»!

لم تحملني قدمي المصابة، تهاويتُ على المقعد في إرهاق وأنا أنظر لها بعين مُتعبة، لم أرها منذ الحادث، لم أتخيل في أبعد لحظات حياتي أن أواجه نفس الشيء مرتين..

أقرب شخص إليك لا يتعرف عليك..

نظرت لـ«علياء» لتفهم أنني غير قادر على الكلام، رأت عيني المحتشدة فيها الدموع فربتت على كتفي، ثم التفتت لـ«ديما» ورحَّبت بها بابتسامة الأم التي تُتقنها..

طوال نصف الساعة، جلست «ديما» جانب «علياء» وتحدثتا، كانت «ديما» تخشاني لكن الممرضة طمأنتها، قالت لها إنني قريب لها، حاولت أن أحتمل الألم قليلًا لكنني لم أستطع، جلست مقاومًا رغبتي في الهروب من عينَيها الجاهلتَيْن ثم انهارت مقاومتي، نهضت آخذًا سلسلة مفاتيح «علياء» فجأة، نظرتا لي متسائلتَيْن، وقفت أمام «ديما» التي نظرت لي بابتسامة لبقة قتلتني، لم أدرِ كم مر من دقائق وأنا صامت، ثم خرج صوتي متحشرجًا ودمعتي تفر من عيني هاربة مع كلماتي:

-كل سنة وأنتِ طيبة..

عقدَت حاجبَيها لحظات ثم قالت مُبتسمة ابتسامة بريئة:

-شكرًا إن حضرتك افتكرت عيد ميلادي.

ابتسمتُ ودمعة ثانية تهرب من عيني، مددت يدي اليمنى ومسحتُ على شعرها، ثم أعطيتهن ظهري وانصرفتُ وأنا أكاد أركض..

خلفي نداء «علياء» الذي لم أبالِ به، أشعر بالاختناق الشديد، أريد أن أهرب من كمٍّ هذا الألم داخلي..

دخلت العربة وأنا آخذ نفَسًا عميقًا، أشعلت سيجارة وأنا أضع المفتاح وأدير العربة، وأشعلت التكييف..

أشعلت سيجارة وأخذت نفَسًا عميقًا، أخرجت حبَّة أخرى من شريط الترامادول وابتلعتها بسرعة..

عسى أن يهدأ الألم ولو قليلًا..

اليوم هو اليوم الثاني الذي أسمح لنفسي فيه أن أنكسر بسبب شخص آخر..

هدأت قليلًا بعد فترة، نظرت للمبنى نظرة أخرى، ثم أمسكت حاسوبي وأخذت أكتب..

عسى أن أنسى قليلًا..

* * *

نهاية الأسبوع الثاني..

ظلت «آلاء» تنظر للتلفاز في ملل شديد..

لم تعد تحتمل.

ما ظنت أنه فرصة ثانية لحياة جديدة، تبين أنه عقاب سخيف.

في البداية كانت نادمة حقًّا، ترعى زوجها بإخلاص. بعد مرور أسبوعين، أصبحت لا تحتمل الرائحة، أصبحت تتأفف من كل ما يحدث وتشعر بالاختناق.

كانت تعلم أنها مزاجية، أن بها تناقضات البشر كلهم، لكنها لم تتخيل للحظة أنها ستملُّ من مرض زوجها بعد أسبوعين فقط.

ثم إن عينيه ما زالتا تنظران لها بغضب واشمئزاز.

كيف لا يزال غاضبًا منها وهي من - حرفيًا - تجلس تحت قدمه طوال الوقت حتى لا يمل الجلوس وحده؟

كيف لم يغفر لها قلبه الأسود بعد ما فعلته معه؟ هل يريدها أن تطعن نفسها بسكين في ظهرها حتى تصبح مشلولة مثله؟ ماذا تفعل كي يسامحها

ويُشعرها أن كل ما تفعله من أجله الآن ذو قيمة ما عنده؟

هبطت دموعها رغمًا عنها..

كيف لا يعرف أنها تحبه؟ كيف تكون آخر كلمة من فمه لها هي سباب قذر؟ أخبره «طه» أنها كانت مجرد ضحية، أنها كانت تخونه وهي مجبرة، تعلم أنها كذبة لكنها صدقتها تمامًا، من المفترض أن هذه هي القصة التي سمعها «هاني» فأصبحت حقيقة بالنسبة لها.

أجل، نحن نضحك على أنفسنا لتلك الدرجة يا صديقي!

أغلقت التلفاز في عنف، عندما سمعت صوت الممرض يناديها، نهضت وهي تمسح دموعها ودخلت الغرفة، وجدت بحيرة من الماء البني على ملاءة سريرها تحت جسد «هاني». صرخت في الممرض هذه المرة:

ـ أنت إزاي ما خدتش بالك؟ فين القسطرة؟ فين القصرية؟

ارتبك الممرض لحظات، قال شيئًا عن أنه كان يُنظف القسطرة عندما حدث ما حدث، تأففت في قرف شديد، في حين تحرك الممرض في سرعة محاولًا تدارك ما فعله من خطأ.

* * *

مر أسبوعان ولم يعد «خالد» لبيت «شيماء»..

لم تعد «شيماء» قادرة على شيء، قلقُها على «خالد» وغيابه يقتلانها من الداخل، تعرف أن «كَتْخُدَا» يعاقبها لسببٍ ما تجهله، فعلت كل شيء كي يرضى عنها ولم يفعل، لا تعرف ما الجريمة التي ارتكبتها في حقه، تجعله يغيب عنها طوال هذا الوقت، سحب منها معجزتها وعادت عمياء لا ترى الشياطين، أخذ منها «خالد» وجعله لا يعود إليها..

عاد لها نفس السؤال الذي تسأله لنفسها طوال عمرها..

لماذا يحدث لها كل هذا؟

ترى «خالد» وهو جثة مقتولة للمرة الألف، تراه يبتعد عنها ولا يعود ثانية، تبكي، ترجو «كَتْخُدَا» أن يعيده لها وستفعل أي شيء من أجله، تجد صمتًا مطبقًا من حولها، تنهار في البكاء ثم تنام من إرهاقها..

نفس الشيء يتكرر في كل يوم منذ غياب «خالد»، حتى أتت لها الفكرة..

عرفت من قراءتها فيما مضى شيئًا ما يسمى «التضحية»: أن تقدم دمك كتضحية لسيدك. اتجهت دون أن تتعمق في الفكرة وأخذت سكين المطبخ وعادت للفراش في صمت، أمسكت «شيماء» سكين المطبخ ونظرت له نظرة متأملة..

كانت تجلس على الفراش متربعة، تنظر للسكين في هدوء واستكانة..

وبمنتهى الهدوء، كشفت قدمها، وحركت نصل السكين الحاد عليها في قوة..

لتقطر الدماء من الجرح السطحي بسرعة، مستجيبة لرغبة «شيماء» في تقديم نفسها فداءً له..

عسى أن يرضى «كَتْخُدَا» ويعفو عنها، ويرجع «خالد» إليها..

* * *

«أنا جيت آخري ومافيش حد غيرك ممكن يساعدني».

نظرت «مها» لـ«طه» في ريبة، لكنه ظل ينظر لها وعلى ملامحه أعتى علامات الصدق، لم يكن يكذب أو يُمثل عليها لأول مرة في حياته، وهي نقطة قوة في «طه»، عندما يكون صريحًا، يستطيع أن يجعل الجميع يُصدقه..

فاجأها بانتظاره لها أمام باب الجامعة، حاولت أن تتجاهله لكنه ركض وراءها وأقسم لها إنه لا يريد منها أي شيء سوى أن تسمعه.

نظرت له فقال لها أن يذهبا للمقهى، قالت إنها تُفضل أن تظل واقفة هنا أمام الجامعة، لم يبالِ وحكى لها كل شيء.

حكى لها عن ظروفه، عن حياته، عن احتياجه الشديد للمال، قال إنه ذهب لعمه منذ أسبوعين كي يستعطفه ويجعله يدفع مبلغًا شهريًا لعائلته - لم يخبرها بموضوع الفيديو - وأن عمه رفض تمامًا وطلب له الأمن، قال لها إنه أصبح خائفًا من أن يؤذيه أبوها بأي شكل من الأشكال، أصبح غير قادر على الحياة، عادت زوجته للبيت أخيرًا، لكنه لا يجد من المال ما يكفي لإطعام بيته.

أنهى كلامه بالجملة، لتصمت «مها» قليلًا، ثم تقول وهي تبتسم في هدوء:

ـ أنا مصدقاك، أنا هاتكلم مع بابا وأخلص معاه الموضوع.

لم يصدق ما يسمع فقال بدهشة:

ـ بجد؟

ضحكت من قلبها هذه المرة، وقالت بهدوء:

ـ أنا هاكلمه وإن شاء اللـه كل حاجة هتبقى كويسة.

لم يعد يُبالي بكرامته، لم يعد يُبالي بالانتقام، كل ما كان يهمه الآن هو المال فقط، عاش كثيرًا مؤجِّلًا لكل أحلامه من أجل الآخرين، حان الوقت كي يأخذ حقه كاملًا من الدنيا، وبأي شكل من الأشكال.

* * *

الثامنة والعشرون

أنا بشرٌ مثلك، لكني لستُ بحماقتك
أنا اخترت أن أعرف..
حتى لو احترقتُ بنيران المعرفة..
لكنكَ اخترت أن تسبح في بحور جهلك وتستمتع بها!

ضرب جرس هاتف «طه»، ابتسم وهو يرى اسم أمه، استقبل المكالمة وقال باشتياق:

-وحشتيني يا حبيبتي.

ليسمع صوتها الحنون يقول:

-ربنا يباركلك يا ابني ويسعد قلبك دنيا وآخرة.

اشتاقت أذنه لسماع صوتها وأدعيتها المستمرة، قالت هي مُكملة:

-أنت راجلنا بجد يا «طه»، مين يصدق إنك بعد العُمْر ده تعقل وتروح لعمّك وتعرض عليه الصلح؟

لم يفهم «طه» من كلامها شيئًا، فصمت تمامًا وهي تُكمل وفرحة صوتها تظهر:

-عمّك بنفسه كلّمني، قالي إنك روحتله المكتب وعرضت عليه الصلح، قالي إنه اتفق معاك على شوية حاجات.

ثم قالت بلوم طفيف:

-كان نِفسي تاخد رأينا، بس مش مهم يا حبيبي، المهم إن أنا راضية عنك وعن الاتفاق اللي انت عملته.

لم يعرف «طه» أن يرد بأي شكل من الأشكال، لكن أمه - كعادة الأم المصرية - كانت تتحدث دون أن تنتظر ردًا:

-هو لسة قافل معايا، بيقولك روحله عشان تمضوا على الاتفاق مع بعض، بكفاية خصام وعداوة يا ابني، أنت صح.

وبكت وهي تتذكر أباه. تحامل «طه» على نفسه وأخذ يواسيها، حتى أغلقت الهاتف..

ما هذا الجنون؟

أمسك هاتفه وطلب رقم «مها»، ليسمع صوتها تقول بشقاوة صِغر سنها:

-أي خدمة يا معلم.

قال لها بدهشة:

ـ أنا مش فاهم حاجة.

قالت له وهي تمزح، وكانت أول مرة تظهر أمامه بشخصيتها المَرِحة الحقيقية:

ـ قعدت معاه وكلمته وملَّصت له ودانه، وبعد ما فهّمته غلطه اعتذر لي وقالي إنه هيرجَّع اللعبة لصحابها، أنت عارف بقى أبهات اليومين دول، جيل غريب.

لم يكن طه في بال رائق للمزاح، فصمت، لتتنحنح هي وتقول في إحراج لأنه لم يضحك:

ـ أنا اتكلمت معاه أنا وأختي الكبيرة، أنت عارف إني ليَّ دلال عليه من بعد ما ماما الله يرحمها ماتت، فضل معاند كتير لحد ما وافق على الاتفاق اللي اتفقناه معاه، شرطه الوحيد إنك تروحله عشان تمضيله على تنازل أو عقد، حاجة كده، بموجب العقد ده أنت خدت حقك خلاص ومش هتطلب حاجة تاني ولا هترفع قواضي تاني.

ثم قالت مازحة مزاحها غير المناسب:

ـ زي ما قال يعني عاوز يؤمن نفسه ـ لا مؤاخذة يعني ـ من قلة أصلك.

ضحك «طه» هذه المرة في هدوء مُجامِلًا، يعرف جيدًا أن كل ما يفعله عمه هو بسبب الفيديو. حتى الآن «طه» لم يرفع الفيديو على الإنترنت، وظل محتفظًا به.

سمع صوتها وهي تقول ضاحكة:

ـ يلّا روح يا ابني اخلص، هو مستنيك في الشركة.

وقالت بلهجة شعر بحنانها:

ـ ومبروك عليَّ أخ جديد، ومبروك عليك بنت عمّ وأخت زي العسل زيي.

* * *

جلست «آلاء» بجانب زوجها الراقد على الفراش، تمسح بيدها على شعره في حنان.

كان ينظر لها بدموع عاجزة، نظرة كراهية عنيفة كانت تقتلها، لكنها اعتادتها، أصبحت لا تؤثر فيها ولا تؤلمها، ظلت تمسح على شعره بحنان وقالت هامسة:

- مشكلتك إنك لازم تسامحني.

كانت الشمس تدخل من النافذة، منيرة الغرفة بشعاع دافئ، يضرب ظهر «آلاء» ليُحيطها بهالة من النور على شعرها الذهبي. أكملت وهي تبتسم:

- أنا حاولت أقولك كتير قوي إني زهقانة، إني محتاجة أجرب حاجة جديدة، إنك بقيت بتحترمني زيادة عن اللزوم من ساعة ما بِتنا جت، وانت عملت نفسك مش سامع، سنين باحاول أقولك وأنت فعلًا مش في دماغك.

ثم همست ثانية بعد أن قبّلته في وجنته، ورفعت فمها لأذنيه:

- لو فكرت هتلاقي أنك أنت السبب في اللي أنا عملته، أنت اللي دايمًا تقلل مني قدام الناس، عشان تهرب من جناني بقيت بتقول عليّ وحشة وإنك قرفان مني، عمّال تقارن بيني وبين الممثلات والسكرتيرات كأني فردة جزمة قاعدة معاك.

عيناه ما زالتا تنظران لها باحتقار، لم تعبأ، لم تعد تبالي، أكملَت وهي تمسح شعره بحنانها:

- خُنتك؟ إيه يعني؟ ما انت أكيد خُنتني مرة ولّا مرتين ولا عشرة.

وهمسَت:

- فاكر لما كلمتك وبِنت اللي ردت عليّ وقالتلي إنك في الحمام، أنت في الشغل مستحيل تسيب موبايلك لحد، ومش مسموح لحد يرد حتى لو نسيته، أكيد البنت اللي ردت عليّ واحدة من اللي خُنتني معاهم، بس أنا كبّرت دماغي عشان أنا عاقلة.

وأبعدَت فمها عن أذنه قليلًا وهي تُكمل:

ـ حتى لو خُنتني ستين مرة، أنت راجل، والراجل لو معاه ملكة جمال الكون هيبص على واحدة تانية ويعوزها، مش هاتضايق منك، طبع الرجالة كده، مستحيل تقنعني إنك مُخلص ليَّ طول الفترة اللي فاتت، أنت ليك احتياجاتك وأنا ليَّ احتياجاتي، ومدام مش عارفين نرضي احتياجات بعض يبقى إيه المشكلة إن كل واحد فينا ينبسط بطريقته؟

عيناه تدوران حوله كأنه يبحث عمَّن ينقذه، دموعه تسيل من عينيه غزيرة. قالت هي مُكملة كأنها تُكلم نفسها من الأساس:

ـ عاوزة أقولك إني بحبك فعلًا، قلبي بيحبك وبيعشقك، بيحترم فيك كل تفصيلة، بس مين قال إن الجنس ليه علاقة بالحب؟ ليه بندي للرجالة حق إنهم يفصلوا الجنس عن الحب، ويعملوا كل اللي همَّ عاوزينه، وشايفين الست حُبها في الجنس غلط وقلة أدب وقذارة؟ أنا بحبك بس أنت مش مكفيني، الموضوع بسيط قوي.

والتفتت لعينيه قائلة:

ـ وعشان بحبك اخترت أبقى جانبك وأرعاك لحد ما أموت.

تحس به، تشعر أنه يريد أن يركض بعيدًا عنها، لُكنها لا تبالي، أكملت:

ـ وعارفة إنك بمنطق الرجالة مش هتسامحني، وأكيد عندك حق، بس أنا مش عاوزاك تسامحني على اللي فات.

وأكملت وقد ارتجف صوتها كمن يوشك على البكاء:

ـ عاوزاك تسامحني على اللي جاي.

ونظرت لجسده مُكملة حوارًا من طرف واحد:

ـ أنت ما بقتش قادر على أي حاجة من الناحية الجنسية، وأنا ليَّ احتياجات أكبر مما تتخيل، فسامح من دلوقتي وافصل بين الجنس والحب، أنا هافضل تحت رجلك عشان ألبّي كل احتياجاتك.

وأكملت بعد أن قبَّلته في وجنته:

تحت راجل تاني عشان ألَبّي احتياجاتي أنا.
ـ وهافضل
ثم تساقطت دمعة من عينيها تُشاركه دموعه وهي تُكمل:
ـ ويرضة أنت السبب، أنت اللي مش عاوز تسامح، أنت اللي لسة شايفني
وسخة لمجرد إني ضربحة، ف خلاص مش فارقة بقى.
ساد صمت طويل، قالت بعده بيأس:
ـ لو كلامي ده ما خرَّجكش من الحالة النفسية وخلَّاك تتكلم، يبقى
مافيش أي حاجة تاني ممكن تخليك تتكلم..
ونهضت بهدوء، قبَّلته في رأسه ومسحت دموعه الغزيرة، وهمسَت:
«بحبك».
وانصرفت من الغرفة، مرتديه فستانًا مُغريًا، عاريًا كروحها..
ذاهبة للممرض ذي المؤخرة الجميلة..

* * *

بدأ «خالد» يعود لحياته التقليدية بعد فترة..
يستيقظ في الصباح، يرتدي ملابسه ويذهب لوظيفته في المدرسة الحكومية، ينتهي وقت عمله، يذهب للقهوة في وسط البلد، يجلس مع أصدقائه من الكُتاب، يظل هناك حتى منتصف الليل ثم يعود لبيته، ينام بصعوبة من كوابيسه..
ماذا حدث لـ«خالد» القديم الذي كان يعشق كل ما يفعل!
«خالد» ذو الأفكار المتآمرة والسعي وراء السيطرة الشاملة..
الآن يضع النارجيلة في فمه منذ أن يذهب للقهوة حتى منتصف الليل، حوله أصدقاؤه يتحدثون كعادتهم في مواضيعهم المُحبِطة التي تنعَى زمن الأدب الجميل، وأنهم العباقرة الذين لم يأخذوا حقهم بعد..
أصبح لا يستمتع بكل تلك التفاصيل..
في أوقات شروده يرى «رامي» وهو يتقدم نحوه مبتسمًا في صفاء لمسدسه القاتل..
«أنت بس لسة ما عرفتش تمن إن عقلك يبقى حر..».

تُدوي الكلمة في عقله فتجعله يشعر بألم غريب في روحه..

كيف ترك نفسه يصل لتلك الدرجة من البؤس؟

منذ أن نظر لعين «رامي» المُستسلمة وابتسامته الصافية عندما ألصق رأسه بفوهة المسدس، انكسر داخله شيء في روحه ولم يعد ثانية..

لم يَرُد على مكالمات «كَنْخُدَا» رغم فداحة ذلك، ظل أسبوعَيْن يرفض أن يرد أو يتحرك، يعلم أنه خذله، هرب من بيت «شيماء» التي أصبحت زوجته الآن، قصته سيئة وأحداثها أسوأ، طوال الأسبوعين الماضيين ينتظر مكالمتي التي سأخبره فيها بأمر جديد، أو لألومه أنه لم يعطِني قصة رائعة، يستيقظ كل يوم في النهار منتظرًا أسوأ التخيُّلات الممكنة، كثرة التفكير والترقب تجعله يرغب في العودة إلى «شيماء»، يريد جزءًا بسيطًا من المُخدر حتى لو كان فاسدًا وأصبح بلا قيمة.

لكنه ما زال يدمنه..

كم يتمنى أن يعود!

تُرى ماذا فعلت «شيماء» في نفسها الآن؟

حاول أن يتناساها للمرة الألف، ليجد فجأة ذكرى مواجهته مع «رامي» - التي يتجاهل تذكُّر نهايتها كي لا يكره نفسه - تُسيطر على عقله، نهض فجأة متنفضًا وهو يدرك شيئًا لم يدركه إلا الآن فقط..

«كَنْخُدَا» أرسله لقتل «رامي»؛ لأن «رامي» خالف الأوامر وأصبحت قصته بلا قيمة..

ما الذي سيمنع «كَنْخُدَا» من فعل نفس الشيء معه؟!

ارتجف جسده وهو يدرك الآن فقط أن حياته وحياة «شيماء» قد تكونان في خطر، سؤال يأتيه يجعله يشعر بخوف مُبهَم، هل عدم رده على مكالمات «كَنْخُدَا» كل هذا الوقت يُعتبر رفضًا لأوامره؟ هل معناه أن «كَنْخُدَا» يُخطط الآن لموته في الرواية؟

ترك النارجيلة وانطلق راكضًا بسرعة، جعلَت كلَّ مَن في القهوة ينظرون له بتعجب..

التاسعة والعشرون

ابحث عن التكرار وابتعد عنه

لو وجدتَ مسار قصتك يمضي في طريق معتاد

فافعل شيئًا مجنونًا يُغير من واقعك ذاته

٤:٠٠ ظهرًا

قالت «علياء» فجأة وهي تهزني من كتفي:

ـ أنا زهقت.

دون التفات كعادتي أشرت لباب الغرفة وقلت بشرود:

ـ امشي لو عاوزة.

وهززت كتفي وأنا أكمل:

ـ أنا ما اعرفش إيه اللي جابِك أصلًا!

قلتها رغم أنني من داخلي أريدها أن تظل معي، مضى وقت طويل كنت وحدي تمامًا ووجودها له دفء ما في قلبي، زفرت هي في ملل، لم تنهض كما توقعت، نظرتُ لها لحظات، لاحظت أنها لا تُمسك محمولها كعادتها، فتساءلت:

ـ موبايلك فين؟

قالت وعلى ملامحها علامات المَلل:

ـ بِيشحن.

ابتسمت في إدراك، لهذا ملَّت وتريد التحدث الآن، هي أنثى في النهاية وتريد الكلام الدائم، سألتها كي أُسليها قليلًا:

ـ إيه أخبار الشغل الجديد؟

قالت وهي تعتدل في حماس:

ـالمفروض أنت طبعًا لما تخلص البلوى اللي معاك دي، وفي رواية جديدة لكاتب شاب اسمه «حسام عبد الله»، ورواية لـ«أحمد عباس»، وفيه ديوان شعر لـ«هشام حسن»، و«فريدة» أخيرًا خلصت روايتها التالتة..

سألتها دون اهتمام حقيقي، وأنا أراجع ما كتبت بسرعة:

ـ وحلوة؟

قالت ماطَّة شفتيها علامة على عدم المعرفة:

ـ ما أعرفش، هي كئيبة زي عادتها، «فريدة» طول عمرها جمهورها قليل بس بيعشقها، كل المرضى النفسيين تقريبًا بيحبوها.

بأي رجل ويرقص معها قليلًا، تنظر له نظرتها الأنثوية الخبيرة. لا يعجبها فتعطيه ظهرها رافضة وتستمر في رقصها ضاحكة بلا مبالاة للعالم كلّه..

كانت - كعادتها - تشع جمالًا أخّاذًا..

رغم جموع البشر الراقصة حولها، لكنها تتفرد وسطهم، وحدها تخلب الأنظار كلّها..

هكذا كانت «آلاء»، وستكون دائمًا..

تشعر بنظراتهم دون أن تراها، تشعر بلمساتهم الملتهفة، تشعر بقهرهم وهي ترفضهم بجبروتها..

فجأة شعرت بيد تُمسك ذراعها في قوة آلمتها بشدة..

التفتت بغضب شديد كي تسب هذا الوقح، لكنها وجدت ذلك الشخص يجذبها ساحبًا إياها بقوة غريبة، لم تستطع أن تراه من الإضاءة المنخفضة، صرخت وهي تدرك أن هناك مَن يختطفها، لكن وسط لهو الراقصين المجنون لم يسمعها أحد..

أخرجها خارج المكان ووقف ينظر لها وهو يلهث، ضيقت عينيّها حتى تراه جيدًا وهي تشعر أن ملامحه مألوفة نوعًا ما..

قال الرجل ناظرًا حوله بتوتر:

- أنا «خالد عبد السلام»..

سُكْرها جعلها لا تستوعب معنى ما يقول، ثم أدركت فجأة فصاحت بصوت عالٍ:

- «خالد» اللي معانا في الرواية..

لم تكن في وعيها، كانت في بالٍ رائق تمامًا وتريد أن تمرح، قالت وهي ترفع إصبعها في حالة مبالغ فيها من المرح:

- أنا من أشد المعجبين بيك، كان نفسي أقابلك من ساعة ما الواد حكالي قصتك. بقالي كتيييير ما شفتش حد زيي كده وسخ عن مبدأ واقتناع.. مش مجرد غلطة زي بقية الناس!

نظر لها «خالد» غاضبًا، أبعدها قليلًا عن المكان وتجمُّع الناس، نظرت «آلاء» لبذلته الفخمة التي لا تليق على المكان، لحيته المشعثة وملامحه النبيلة الخادعة، قالت مبتسمة:

ـ أنت اللي اغتصبت البت صح؟

كان يعرف أنها سكرانة. قال لها محاولًا الحفاظ على أعصابه كي يُفهمها ما يريد أن يقول:

ـ ممكن ما تتكلميش عن الرواية؟

وضعت يدها على صدره وقالت ببسمة عابثة:

ـ أنا على فكرة مش كارهاك.. بالعكس حبَّاك جدًّا..

وأكملت بتعب كأنها تقول كلامًا حزينًا يرهقها:

ـ قِصصنا كلها قصص سيس كده.. ما لهاش لازمة.. فاهمني؟

وتبدلت لهجتها ليرتفع حاجباها مُكمِلة:

ـ أنت بقى برنس في نفسك كده.. بتغتصب وبتربُط ويتاع، مزاجك قوي في الحاجات دي.

ثم ضحكت ضحكة عالية، جعلت «خالد» يتلفت حوله في خوف، ثم قال لها بغضب:

ـ فوقي شوية وركزي معايا. أنا حاولت أوصل لـ«طه» ما عرفتش ومافيش قُدامي غيرك. فوقي عشان مافيش وقت أضيعه.

حركت إصبعها على صدره في حركة دائرية وقالت مازحة:

ـ أروح أجيبلك حبل؟

أمسكها «خالد» من ذراعَيْها بقوة آلمتها، صمتت تمامًا وهي تنظر لعينَيْه المخيفتَيْن، قال بصوت خفيض:

ـ هتركزي معايا ولّا لأ؟

ظن أنه أخافها، لكنها ابتسمت ابتسامة جانبية عابثة وهي تسأله بجدية شديدة كأنها تريد إجابة فعلًا:

-أنا لازم أترعب عشان أكيّفك صح؟

وبالفعل، مثّلت له برقة، ظهر الخوف عليها وقالت بصوت خائف، يحمل رنة إغراء:

-أبوس إيدك ارحمني.

زفر في غضب ولم يتمالك أعصابه، رجّها بقوة وصرخ فيها:

-باقولك اسمعي.

تأوهت ثم أومأت برأسها أن نعم في قلق حقيقي تلك المرة، أفرج عن ذراعيها وتركها، لتلتصق هي بالحائط في عدم قُدرة على الوقوف ثابتة. أخرج من جيبه «فلاش ميموري» وأعطاها إياها قائلًا:

-الفلاشة دي فيها كل اللي كتبته في حياتي. فيها عنوان «شيماء» وقصتها. فيها كمان كل اللي عمله «كَتَنْخُدَا».

في عالمها المخمور، ظنت أن «خالد» يريد أن يتمرد، تذكرت «رامي» ومحاولاته للتمرد على «كَتَنْخُدَا»، زمّت شفتيْها في ملل وقالت:

-أنت هتعمل زي... زي الواد اللي أنا مش فاكرة اسمه ده! يخرب بيت الملل.. كده الراجل هيفضل يكتب في نفس المواقف والرواية هتبقى عبارة عن شوية أبطال بيتمردوا عليه! إيه الرواية الزبالة دي؟

ووضعت إصبعها على رأسه قائلة كمن يُحدث طفلًا:

-لازم تُبدع شوية، بلاش تقلد صحابك التانيين.

لم يحاول «خالد» أن يشرح لها شيئًا، قال متجاهلًا ردها بجدية:

-ما حدش ضامن عمره، زي ما «كَتَنْخُدَا» بعَتني لـ«رامي» عشان أقتله، ممكن يبعت حد عشان يقتلني. أبوس إيدك افتكري الفلاشة دي لو حصل لي أي حاجة.

نظرت له لحظات في قلق، لم تكن تعرف أي شيء عن موت «رامي»، حاولت أن تستجمع تركيزها وقالت وقد بدأت تخاف بالفعل:

-أنت قتلت «رامي» بجد؟

نظر لها لحظات في حزن، ثم ابتسم وهو يقول بطيبة:

- «شيماء» دلوقتي في رقبتك أنتِ.. إبقي اطمني عليها عشان ممكن تعمل أي حاجة في نفسها.

قالها، وانصرف مُبتعدًا، خلفه نظرات «آلاء» المُتثاقلة..

* * *

جلس «طه» متوترًا للمرة الثانية أمام نظرات عمه الحادة.

ساد صمت طويل، جعل «طه» يبتسم في النهاية ويقول، محاولًا أن يصطنع الود بكل قواه:

- «مها» وأمي قالولي إن حضرتك كنت عاوزني.

ابتسم «صبري عبد العظيم» عمه، وقال بهدوء بلهجة رجل الأعمال الذي يضمن انتصاره:

- أنت هيبقي ليك ٢٠ ألف جنيه شهريًّا أنت وأهلك، هكتبلك بيهم عقد، وهكتبها في وصيتي عشان الورثة يفضلوا يبعتوا المبلغ ده.

لم يبهر المبلغ «طه» كما توقع العم. قال «طه» بهدوء وهو يبتسم:

- أنا مبسوط إن حضرتك قررت تتفاوض...

قاطعه عمه بصرامته:

- مافيش أي نوع من أنواع التفاوض، ده عرض لمرة واحدة بس.

ارتبك «طه» لحظات، يعلم أن المبلغ ليس بقليل، لكن بعد نسبة أمه ونسبة أخيه لن يتبقى له ما يكفي أحلامه البعيدة. قال محاولًا استرداد قوته:

- أكيد في حل وسط، المبلغ كويس أكيد، بس مش كفاية.

صمت عمّه، وأطرق برأسه لحظات مُفكرًا، ثم قال دون أن ينظر له:

- تعجبني.

ورفع رأسه ببطء، وهو يقول ببطء:

- أنا ممكن أتفاوض معاك، بس آآمن شرَّك، أضمن إنك مش هتغدر بيَّ.

قال «طه» بسرعة ليثبت حُسن نواياه:

-الفيديو هيتمسح قدامك، ومش هيبقى فيه أي نسخة تانية منه.
ضحك «صبري» بسخرية، وقال وهو يهز رأسه بهدوء:
-مش كفاية.
نظرة عينيه أخافت «طه». هذا رجل لا ينوي خيرًا أبدًا كما يُبدي، قال «صبري» بلهجة قاطعة:
-أنت هتمضي على العقود، وهصورك مع واحد جدع قوي وهتسيبه يعمل فيك اللي هو عاوزه، بكده هاضمن إنك عمرك ما تغدر مهما بقى معاك فلوس واشتهرت وبقيت مُغني ولّا ممثل، هتفضل طول عمرك خايف مني ومن الفضيحة.
وقال بنبرة محتقرة:
-أنا عمري ما هآمن تاني لحد من صلب «أحمد عبد العظيم».
نظر «طه» للأرض وهو يشعر باختناق، صعدت دموعه لعينيه رغمًا عنه، قال له عقله إنه بدأ الطريق ولا بد أن يكمله، في حين تقززت مشاعره وكرامته مما قاله عمه، لكن عقله يعترف بأن عمّه لعب اللعبة بطريقة محترفين، وضع الكرة في ملعب «طه» تمامًا.
ورغمًا عن كل التقزز والاشمئزاز بداخله، رفع عينَيه الصلبتَين تُخفيان قهره، وقال بصوت قوي:
-٥٠ ألف جنيه في الشهر.
صمت عمّه ونظر له بابتسامة مقيتة قائلًا:
-موافق.
وأكمل وهو يكتب الرقم على العقد:
-هاخليهم ٦٠ كمان عشان خاطرك.
أعطى الورق لـ«طه» في حركة بطيئة، ليأخذ «طه» العقد ويقرأ بنوده بحرص، اعترف لنفسه أن عمّه لا يخدعه. العقد يعاقبه هو لو لم يلتزم، البند الوحيد الخاص بـ«طه» هو اعترافه أنه لن يرفع أي قضايا أو يحاول ابتزاز عمه ثانية مقابل المبلغ المكتوب.

أمسك القلم بيد ترتعش، شعر أنه يوقع على وثيقة إعدامه، عقله يواسيه ويخبره أنه يفعل هذا من أجل أمه وأخيه، ضميره وكرامته يصرخان فيه أنه رجل قذر، باع نفسه من أجل بضعة جنيهات، عقله يخبره بصرامة أنه لا بد أن يُضحي من أجْل أحلامه.

لعن الله الأحلام كلها..

انتهى من التوقيع، ونظر لعمه الذي رفع السمَّاعة قائلًا:

ـ تعالي لو سمحتِ، كلمي «فادي» خليه يجيلي وهاتي الكاميرا معاكِ.

قال «طه» بذعر وقلبه يخفق بسرعة:

ـ أنت مش هتمضي؟

قال «صبري» بابتسامة خبيثة:

ـ لأ طبعًا، أنا مش ابن امبارح، بعد الفيديو هامضيلك على كل حاجة.

قال «طه» بغضب:

ـ وأنا إيه اللي يضمن لي؟

نظر له «صبري» وقال ضاغطًا على حروف كلماته:

ـ أنا بانام مع رجَّالة آه، بس أنا مش«...» زي أبوك.. أنا كلمتي سيف على رقبتي عمري ما بارجع فيها..

سرت قشعريرة اشمئزاز في جسد «طه»، تعجَّب من تلك السكرتيرة التي تعلم بكل شيء بل وتصورهما أيضًا، تذكر فيديو الغلام واكتشف أن الصورة كانت من بعيد، كان هناك مَن يصورهما معًا...

قاطع أفكاره دخول رجل أربعيني، يبتسم في لزوجةٍ كأنما يعرف تمامًا ما سيفعله..

* * *

الثلاثون

أسراري لا تخصك، حياتي لا تعنيك، أنا أنا وأنت أنت

استيقظتْ «آلاء» وهي تشعر بصداع رهيب، اعتادت عليه من كثرة شُربها مؤخرًا..

كانت نائمة على الكنبة، ولا تتذكر لماذا نامت هنا..

نظرت للممرضة الجديدة وهي تذهب بحماس للحمّام، نامت مع المريض أكثر من مرة حتى ملّته، رغم مؤخرته الجميلة لكنه عصبي ويُنهي شهوته بسرعة مثل «هاني». رفتته وأتت بهذه الممرضة فقط لأن أداءه لا يعجبها..

نهضت مترنحة وهي تُمسك رأسها، أمسكت زجاجة النبيذ الأحمر وشربت منها مباشرة، وجدت «فلاش ميموري» يسقط على الأرض، كان على حجرها دون أن تفهم لماذا، لم تستطع أن تنحني وتلتقطها، فشاطتها بقدمها بعيدًا حتى لا يدوس عليها أحد..

لا تتذكر أي شيء عن وصول هذه الـ«فلاش ميموري» إليها..

ثم تذكرت «خالد» وما قاله فجأة، عادت مُسرعة وانحنت وأمسكتها لتنظر لها، لا تدري ما الذي يجب أن تفعله بها، لماذا ائتمنها «خالد» بتلك المصيبة المدعوّة «شيماء»!

وضعتها على السفرة في سَلة رقيقة..

قالت لنفسها إنها لا بد أن تتعقل في الشُّرب قليلًا حتى لا تحدث مصيبة لها دون أن تدري..

* * *

خرج «طه» من شركة عمه، حاملًا نسخة من العقد.

كان يبكي مما حدث له بالأعلى، يشعر أنه يريد أن يقتل نفسه وألا يرى وجهه في المرآة ثانية.

لم يستطع أن يحتمل أكثر من هذا، مشاهد مما حدث تأتي أمام عينيه رغمًا عنه، انهار جسده خارج سور الشركة، ركع باكيًا كطفل صغير، بكى بكاءً عاليًا متقطع الأنفاس.

شعر أنه يريد أن يستحم، أن يحرق جسده كله حتى يشعر أنه تطهر،

كان يظن أنه قادر على الاحتمال، كان يظن أنه بالقوة الكافية ليُضحي بكل شيء من أجل أهله وحلمه.

نصف ساعة كاملة لم يتحرك «طه»، استند على سور الشركة وظل يبكي حتى هدأ تمامًا، ظل ينظر للطريق بلا معنى أو هدف، أمسك هاتفه وطلب رقمًا آملًا أن يرد عليه، ضرب الجرس فشعر ببعض الأمل، ليرد صوتها الحنون الذي يعشقه:

-شيلتك من «البلاك لِست» عشان ما تزعلش.

ما إن سمع صوتها حتى انفجر في البكاء ثانية، تساءلت «آلاء» في قلق:

-«طه»؟ في إيه يا «طه» مالك؟

قال بصعوبة من وسط بكائه:

-محتاج أشوفك يا «آلاء».

صمتت لحظات، ثم قالت بهدوء:

-تعالَ البيت، أنا مستنياك دلوقتي.

قال بتساؤل وصوت متهدج:

-وجوزك؟ أنا ما اعرفش إيه اللي حصلك أصلًا من ساعتها.

ردت بسرعة:

-هتعرف لما تيجي، ما تخافش من أي حاجة.

* * *

«أنا بس حبيت أقولك إني عمري ما هارجع يا ماما».

قالتها «شيماء» في هدوء ممسكة سماعة الهاتف، اعتادت آلام جروحها فلم تعد تتألم، ضرب جرس الهاتف الذي كانت قد نسيته تمامًا، سمعت صوت أمها الذي يصرخ فيها، لترد عليها هذا الرد البارد..

صرخت فيها أمها:

-وآخرة اللي بتعمليه إيه؟ حرام عليكِ نفسك يا بنتي، أبوكِ من ساعة ما سيبتِ البيت وهو تعبان.

قالت وهي في حالة شرودها الدائمة:

ـ أنا عمري ما هارجع يا ماما..

سمعت صوتًا غريبًا يدل على تحرك السماعة، ثم سمعت صوت أخيها التوأم يقول بغضب:

ـ هو أنتِ مافيش حد يلمك يعني؟

ابتسمت وهي تسمع صوت أخيها، رأت في فيلم وثائقي يومًا أن هناك طائرًا نادرًا أوشك على الانقراض، لا تبيض أنثاه إلا بيضتَيْن فقط، لكنه لا يكتفي بهذا، عندما تفقس البيضتان وترى طفلَيْها، لا تُطعم إلا الأقوى فيهما جسديًّا، تاركة الآخر ليموت وحيدًا لأنه لا يستحق الطعام النادر!

تمنَّت وهي ترى ذلك الفيلم أن يفعل أهلها المِثل، لكن أهلها كانت عقولهم مختلفة، فهم يُهملون الأنثى سواء كانت أضعف أو أقوى من أخيها الذَّكَر..

صرخ ثانية عندما لم تَرُد عليه:

ـ أنا هجيبك من شعرك، أنتِ فاكرة إنك مستخبية؟ أمك هي اللي مانعانا عنك، أقسم بالله لو ما رجعتِ يا «شيماء» لـ...

أغلقَت السماعة في هدوء، تعلم أنه ضعيف عاجز مائع، لا يستطيع أن يفعل شيئًا، أغمضت عينَيْها ونامت على الأرض، سترتاح قليلًا ثم تقدم دمها لـ«كَتْخُدَا» ثانية.

الحادية والثلاثون

اكذب.. اقتل... ازنِ.. افعل ما تشاء

لكن إياك وتزييف حقيقتك بقناع الملائكة!

١٠:٠٠ مساءً

انتهيت من كتابة أحد الفصول، أغلقت الحاسوب، وخرجت من العربة بعد أن أطفأت مُحركها، وذهبت بخطوات أكثر ثقة للمبنى الذي أعرفه أكثر مما تتخيل «علياء».

دخلت لموظف الاستقبال، سألته في هدوء مداريًا عاصفة التوتر داخلي:

ـ كنت عاوز أسأل على غرفة ٤٠٧، هي فاضية دلوقتي ولّا فيها مريض؟

نظر لي الموظف متعجبًا من السؤال، لكن منظري جعله يبحث بسرعة على حاسوبه، ثم قال بهدوء وهو يبتسم لي:

ـ الغرفة فاضية يا فندم.

قلت كاذبًا بهدوء:

ـ ممكن أبص عليها عشان والدي حالته النفسية مش مظبوطة، والدكتور رشَّح المكان هنا.

ابتسم الموظف ونادى أحد الممرضين ليصطحبني معه للغرفة..

كأنني لا أحفظ الطريق إليها..

ابتسمت وأنا أذهب مسرعًا للدور الرابع، تجاهلت ترددي وتناقض مشاعري الذي يقتلني، أقسمت على نفسي إنني لن أقع ضحية هذا الضعف ثانية، قسمٌ نفذته منذ أن كنت مراهقًا في الخامسة عشرة، الآن فقط تسلل الضعف داخلي منذ أن رأيت «ديما»..

«اركض».

دوى صوتها داخلي وأنا أنظر لباب الغرفة، وعادت بي الذاكرة لسنين طويلة مضت..

فتح الممرض الباب في هدوء، نقدته ما كان في جيبي، فابتسم وتركني وحيدًا..

دخلت الغرفة النظيفة، نفس الأثاث لم يتغير..

تخيلت أنني سمعت صوتًا هادئًا مرتجفًا يقول:

- ادخل.

عادت بي الذاكرة للوراء، إلى سنين طويلة في نفس الغرفة، كانت جالسة على كرسي متحرك، تنظر للطريق من النافذة الواسعة، التفتت لي وعلى ملامحها علامات الدهشة، ابتسمت وأنا أحث الخُطى ناحيتها، أمسكت يدها نافرة العروق على جلدها الرقيق المُتجعد، قلت مبتسمًا ابتسامة حنون، ناظرًا للعين التي تشبه عيني:

- إزيك يا أمي؟

* * *

فتحت «آلاء» الباب لـ«طه» ليرتمي بين ذراعيها باكيًا..

كانت تشرب نبيذها الأحمر المفضل، في فستانها الذي تلبسه كلما شعرت بعدم ثقة..

بدا من الزجاجة أنها قد شربت كثيرًا لدرجة لا تتخيلها هي، ضرب جرس الباب فنهضت لتفتحه، ووجدت «طه» الباكي، لم تفهم ما به، احتضنته في قلق، أجلسته على مقعد وثير في الصالة، فوضع رأسه على صدرها واستمر في البكاء..

مسحت على شعر «طه» في حنان لم تكن ترغب في الشعور به، قالت بهدوء:

- معلش يا حبيبي، إيه اللي حصل بس؟

هدأ بكاؤه بعد فترة، التفت لها ولم يستطع أن يقاوم، حكى لها كل ما حدث له منذ أن أغلقت هاتفها ولم تعد تكلمه، بكى ثانية وهو يحكي لها ما حدث مع عمه، قال لها إنه فعل كل ذلك من أجل عائلته، قال إنه لم يشعر بمهانة في حياته كما يشعر الآن، صوّره عمّه والرجل يفعل فيه ما يشاء، كأنه بديل للغلام الذي كان في الفيديو القديم.

لم تصدق «آلاء» ما تسمعه منه، شعرت أنه مر بأكثر مما يحتمله أي رجل في الدنيا، قال لها إنه يشعر أنه انتهى، يشعر أنه لم يعد رجلًا في نظر نفسه، بل مجرد كلب حقير يسعى للمال.

احتضنته في قوة وربتت على كتفه. كان «طه» يعلم أنه لن يفهم ما مر به سوى «آلاء»؛ تلك الفتاة التي ذاقت في حياتها مرار المهانة عدة مرات، الفتاة التي عرفت الرجل على حقيقته. في فترة عنادها وانتقامها من المجتمع رأت أشكالًا من الرجال من أقذر الأنواع، مَن يصورها ويهددها بنشر الصور، مَن ينام معها ثم يتهرب من علاقة بعد أن يملّ، كانت تعلم كل شيء يفعلونه لكنها كانت تريد أن تنتقم، لن تدَّعي أبدًا أن قلبها قد جُرح، لكنها رأت قذارة الرجال الحقيقية، رأت أن أقذر نوع منهم، هو مَن يتعامل على أن هذا حق من حقوقه الطبيعية، ولكن لا يرضى أن يتزوج مَن نام معها.

قبّلت رأسه في اشتياق، ورفعت رأسه لتجعله ينظر إلى عينيها، قالت بحنانها:

ـ أنت أعظم راجل عرفته في حياتي.

واستطردت وهي تضع يدها على قلبه:

ـ أنت رغم كل اللي فيك بس أصلك مش وسخ، أنت قلبك نضيف.

نظر لها، شعر أن كلامها قد برَّد من نيران قلبه قليلًا، نهضت هي ببطء وأمسكت يديه لتسحبه خلفها لغرفة النوم، ما إن دخل ورأى زوجها حتى انتفض جسده وتراجع بقوة، لكنها التفتت له ومالت على أذنه قائلة:

ـ من زمان باتحايل عليه إننا نجيب واحدة تالتة معانا بس رفض، خليه يعرف طعم الرفض.

نظر «طه» بشفقة لـ«هاني» الذي نظر له بغضب الدنيا، قال بابتسامة مرتبكة:

ـ ألف سلامة.

ضحكت «آلاء» ضحكة عالية من عبث الموقف، ثم قالت لـ«هاني» بنبرة متشفية:

ـ شفت؟ لو كنت سامحتني ما كنتش هتشوف أي حاجة تجرحك، بس أنت قلت عليّ إني وسخة، أنا هاوريك الوساخة على أصولها..

* * *

ضاق صدر «خالد» بكل شيء حوله..

منذ أن قابل «آلاء» وهو في بيته خائفًا من عقاب «كَتْخُدَا»..

لم يعد يذهب لمجتمعه المزيف في القهوة، لم يعد ينزل من بيته من الأساس..

حتى بيته يشعر أن حوائطه تنكمش لتضغط على صدره المنقبض.

يريد أن يذهب لـ«شيماء» ويحارب تلك الفكرة بكل قواه، يعلم أنه لو ذهب لن يستطيع العودة، حاول أن يُلهي نفسه بكل شيء، مارس الجنس مع زوجته مرارًا، حاول أن يعيد مجده ويعود لأي من عشيقاته هاتفيًّا، لكنه فقدَ الكثير من سحره وثقته بنفسه، لم يعد يغازلهن بنفس الرغبة، تأففن منه جميعًا ولم يوافقن على مقابلته.

جحيم مستعر في جسده كله..

بات ينفعل على كل مَن حوله بلا رحمة، يتشاجر مع زوجته على أتفه الأسباب، يضربها ضربًا مبرحًا كي يخفف ما في صدره من نيران، تصبر هي وتحتمل ثم تعود لتطلب منه أن يسامحها وأنها آسفة، ضرب ابنه كثيرًا رغم أنه طفل أبله، انفعل على أبيه في مرة كان يزوره في منزله بسبب نقاش سياسي، سبَّه ونعته بالحماقة وقال له سبَّة كانت منتشرة لمن في موقفه السياسي، نهض والده غاضبًا ودون كلمة أخذ أمه وانصرف، مُقسِمًا بأغلظ الأيمان أنه لن يدخل بيت ابنه ثانية..

لم يحاول حتى أن يصالحه..

لا بد من نهاية لكل ما يشعر به..

لا بد أن يخرج من هذا السجن اللعين..

صرخ في غضب فجأة، ضرب بيدَيْه على الدولاب في عنف أكثر من مرَّة، ثم ارتدى ملابسه في سرعة، جاءت زوجته للغرفة مفزوعة وهي تسأله:

-إيه اللي حصل؟

صرخ فيها:

ـ وأنتِ مال أمك.

انتفضت من صراخه، في حين كان انتهى من ارتداء حذائه، فانصرف غاضبًا، صافعًا باب الشقة خلفه بعنف. قائلًا في نفسه إنه لن يخاف ثانية..

وليذهب «كَتْخُدَا» بعقابه للجحيم..

* * *

جرحت «شيماء» أكثر من مكان في جسدها.

هذه المرة كانت جالسة في الصالة الكبيرة التي امتلأت ببقع دمائها السائلة على الأرض، تنظر للأرض بشعر مبعثر، عيناها الجامدتان بلا أي شعور.

ثم سمعت صوت هاتفها الأرضي.

نهضت مسرعة آملة في أن يكون «كَتْخُدَا» قد استجاب للتضحية وأعاد لها «خالد»، رفعت السماعة في لهفة لتجد صوتي الهادئ يقول بابتسامة:

ـ «شيماء».

ارتعش جسدها من الفرحة، لم تصدق أذنيها، قالت وهي تبكي من الفرحة:

ـ أنا كنت عارفة إنك هتكلمني لما أثبتلك إني بتاعتك أنت بس، كنت عارفة.

قلت بهدوء:

ـ أنتِ أكتر واحدة مطيعة يا «شيماء»، عشان كده هاديلك جايزة وأحكيلك حكاية.

أحب أن أجعل من أمامي يفهم ما أقول، حتى لو كان بجنون «شيماء».

قلت مستعرضًا معلوماتي:

ـ حكاية كتبها زمان «لينين الرملي» في مسرحية، كان واخدها من قصة عالمية مشهورة اسمها «جامع الفراشات» لكاتب إنجليزي اسمه «جون فاولز».

لم تصدق أنني سأحدثها فترة طويلة وأحكي لها شيئًا، فكرَت أنني بالتأكيد سأترك لها رسالة ما في حكايتي..

وكانت ـ لأول مرة ـ مُحِقة..

قلت أنا مبتسمًا، وأنا أستمتع بما سيحدث:

ـ بس حكاية «لينين الرملي» اسمها «الحادثة المجنونة».

الثانية والثلاثون

سيأتي يوم ما بعد انتهاء كل شيء، لن تصدق أنك فعلت ما فعلته

لن تتخيل أنك وصلت إلى هذا الحد من البشاعة

لا تقل لي لحظتها إنني مَن أجبرتك

لا تُلقِ بقذارتك الدفينة عليَّ!

١٠:١٠ مساءً

جلست في الغرفة الفارغة أنظر حولي، محاولًا أن أتخيلها..

وابتسمت مُتذكرًا..

كانت أول مرة أراها منذ أن أدخلها أبي ذلك المستشفى..

كانت أمي وقتها قد تغضَّن وجهها، لكنها لم تفقد عينيها اللتين ورثتُهما عنها، بُنيتان في ضوء الشمس، سوداوان في عتمة الليل. نظرت لي متسائلة:

- أنت ابني؟

كانت مريضة «ألزهايمر» مزمن، كانت مُقعدة بعد أن أنجبتني، أصيبت بشلل نصفي في حادث غادر، كنت طفلًا بين يديها فاختارت حمايتي وأعطت ظهرها للعربة المسرعة، كنت أنا أصغر إخوتي، لكن كنت الأقرب لها.

«اركض يا ولدي ولا تكن أبدًا من السائرين».

كنت وقتها شابًا في العُشرين من عمري، قلت لها يومها وأنا أُقبل يدها:

- أنا بس حبيت أقولك إنك وحشتيني قوي.

قالت مُبتسمة في حيرة لأنها لا تتذكرني:

- وأنا كمان بحبك قوي. الله يباركلك.

دمعت عيناي رغمًا عني، نهضت مُنتزعًا نفسي من ذكرياتي ونظرت للنافذة الزجاجية الكبيرة لأجد الحديقة الرئيسية للزيارة. ميزت جسد «علياء» و«ديما»..

وضعت يدي على الزجاج وابتسمت متأملًا «ديما» التي أعادتني لأسوأ ما عِشته في حياتي من ألم..

لأرى في انعكاس الزجاج وجهي المشوه ينظر لي دامعًا..

لا أحد يعرف معنى الخسارة الحقيقية، إلا عندما ينظر لنفسه جيدًا في المرآة، ويدرك كيف رسم الزمن تجاعيد الحزن على وجهه..

أمٌّ قعيدة وأب قاسٍ، ما إن بدأ مرضها في الظهور حتى حجز لها غرفة دائمة في هذا المستشفى، لأدرك أنا ما فعل وأهرب من البيت تمامًا، مكثت طوال سنين دراستي عند خالتي الطيبة كأمي، أركض دائمًا كما أوصتني

أمي الغالية، أسابق الزمن وأسبق كل مَن حولي وأتفوق عليهم، حتى يصبحوا رمادًا محترقًا خلفي..

ما إن أرى القيد حتى أركض بعيدًا عن قيود الدنيا كلها..

كنت شابًا عندما جئت هنا، كنت أودعها لأنني أعلم أنني لن أراها ثانية، احتضنتها دون أن أبكي، في حين ربتت هي على كتفي في حنان، نهضتُ من حضنها مسرعًا قبل أن يقتلني اشتياقي إليه، وقلت بهدوء:

ـ أنا ماشي يا أمي.

كنت لحظتها أودع أمي التي أعرفها وأعشقها، لم تعد موجودة داخل تلك السيدة الحزينة التي لا تعرف نفسها، فقدت أهم ما يميز أي إنسان عن الآخر: بصمة الروح..

كما فعلت «ديما» الآن..

قالت أمي بلهجة مستعطفة، كمَن تلهَّف ليجد من يؤانس وحدته ولو قليلًا:

ـ بسرعة كده؟

ابتسمتُ ودمعتي تهبط على وجنتي، قلت بهدوء:

ـ هاجيلك تاني.

وانصرفت مسرعًا قبل أن ترى كذبتي الواضحة..

كما كانت تفعل دومًا..

ابتسمتُ وأنا أخرج من الغرفة في حزن، متذكرًا أنها كانت آخر مرة أرى فيها أمي قبل أن تموت..

* * *

أزال «طه» فستان «آلاء» بهدوء شديد، لتقف أمامهما عارية تمامًا.

قبَّل كتفها برفق، عيناه رغمًا عنه تنظران لعينَي زوجها الباكيتين في قهر، في البداية كان يستنكر الأمر بشدة، لكن بعد ما حدث مع عمّه، نظرة «هاني» العاجزة أمامه أشعرته بقوته وسيطرته، تذكر عندما كان «هاني»

يحاول أن يقتله وكاد أن ينجح، ها هو الآن يراه يُمتع زوجته ويشاهد عاجزًا ككلب أجرب.

تأوه «آلاء» الساحر جعله ينسى الوجود كلّه.

شعر أن كل شيء يسير بالتصوير البطيء من كثرة استمتاعه بكل تفصيلة.

لم يعد يعبأ بأي شيء، لم يعد يتذكر ماذا حدث له منذ قليل، هو الآن رجُلها، ولا بد أن يُروضها.

وكانت «آلاء» مختلفة.

كانت تنتقم.

لذلك كانت تفعل كل شيء باستمتاع رهيب، كانت تتأوه بصوت أعلى من كل المرات السابقة وهما وحدهما، تتمايل وتتثنى كراقصة تعرف كيف أن كل حركة صغيرة ستُلهب تصفيق الجمهور، بل إنها كانت بالجرأة أن تنحني و«طه» خلفها، لتستند على قدم زوجها وتنظر لعينيه مباشرة.

كانت تُعطي كما لم تعطِ من قبل.

كانت تحسر قلب زوجها على تقليله الدائم منها، كانت تريد أن تريه ما خسره، كأنها تُذيقه عذابَ أنه لم يعرف كيف يُروضها، هكذا كانت «آلاء» وهكذا ستكون، مَن يروضها تصبح له إلى الأبد، مَن فشل في احتوائها ستُذيقه من العذاب مرارًا.

وكان «طه» هو مَن يروضها الآن.

تصاعد إيقاعهما معًا كما اعتادا، يفهمان لغة جسد كل واحد منهما جيدًا، أمسكت يداها قدمَي زوجها بقوة أكبر وهي تصرخ كما لم تصرخ من قبل، زادت سرعتهما لدرجة الجنون، جنون يشعران لأول مرة به معًا، جنون انتقام «طه» من كل ما حدث له، وجنون انتقامها البشع من زوجها.

تداخلت صرخاتهما، أغمضت عينيها من فرط النشوة، ثم هدأ كل شيء فجأة.

ابتسمت «آلاء» ابتسامة واثقة، وهي تفتح عينيها الغارقتين في اللذة،

تنظر لـ«هاني» الذي صارت وسادته بحرًا من الدموع.

اعتدلت وهي تترك قدميه، التفتت لـ«طه» الذي احتضنها بقوة ذراعيه وحملها، ضحكت رغمًا عنها، ثم همست في أذنه:

ـ أنت أرجل من أي حد عرفته في حياتي قبل كده.

ابتسم ابتسامة واثقة.

في حين احتضنته هي بقوة أكبر.

خرجا معًا، في غمرة نشوتهما لم يُفكِّرا حتى بالنظر لـ«هاني» العاجز..

* * *

ظل «خالد» يسير في الشوارع لا يلوي على شيء..

كل ما يريده أن يشعر أنه حرٌّ ولو قليلًا..

انتظار العقاب أبشع من العقاب ذاته..

ضرب جرس هاتفه فجأة وهو جالس على رصيف ما يرتاح قليلًا، انتفض وهو يرى اسمي على شاشه هاتفه، نهض بسرعة كمن لدغته عقرب، استقبل المكالمة وهو يقول بترقب:

ـ اتأخرت عليَّ في المكالمة.

جاوبه صوتي الهادئ دون تحية:

ـ عملت إيه مع «رامي»؟ ما كلمتنيش قولتلي.

انعقد حاجبا «خالد» في دهشة لجهلي بمعلومة ما، أكملت أنا متسائلًا في صوت يحمل تهديدًا له:

ـ أنا عرفت أنك مشيت جري من غير مُسدسك، بس شقة «رامي» مضلمة لحد دلوقتي وما حدش خرج ولا رجع منها، المفروض دلوقتي ريحته تكون طلعت! أسبوعين كتير قوي على إن ما حدش ياخد باله. وأنت برضه ما كلمتنيش من ساعتها.

شعر «خالد» بتوتر، فقد كان آخر ما في عقله أنني لا أعرف ماذا حدث بالضبط، آمن أنني المؤلف وبالتأكيد أعلم كل شيء، ينسى للحظات أنني

مجرد كاتب يحتاج إلى تقاريرهم المستمرة، أغمض عينيه لحظات وهو يتذكر المواجهة، شعر أنه لا يستطيع أن يقولها، لماذا لا يكف «كَتْخُدَا» عن تعذيبه؟

سألته بصبر نافد، لا أحتمل الآن أزماته النفسية وصعوبة اعترافه بأنه قاتل:

- يا ابني أنت طمني. عملت إيه؟

وسالت دموعه وهو يخبرني بالإجابة القاسية، التي ظل يهرب منها كثيرًا..

* * *

ما إن فتحت «ديما» باب شقتها، حتى هجم عليها من الخلف شخص ما ووضع يده على فمها حتى لا تصرخ، أدخلها بقوة داخل الشقة، حاولت فتاتي أن تقاوم لكن من هجم عليها أحكم قبضته عليها حتى أغلق الباب، ثم تركها دافعًا إياها على أحد المقاعد وقال وهو يُشهر مُسدسًا في وجهها، بلهجة غاضبة:

- إزيك يا «مريم»؟

نظرت له «ديما» لحظات، عدَّلت ببرود خصلات شعرها القصير التي تناثرت من هجومه العنيف، ابتسمت في دهشة وهي ترى ذلك الوجه الطفولي والجسد الكروي يقف أمامها..

كان كل شيء فيه كما هو، الاختلاف الوحيد فيه كان في عينيّه..

تغيرت عيناه الحزينتان السلبيتان الكئيبتان..

تحولت نظرته إلى نظرة ميتة، تحولت لنظرة مُصرَّة تعرف جيدًا ما تريد أن تفعله..

عين باتت لا تخشى شيئًا..

عين فَقدت روحها..

ابتسم «رامي محمود راضي» وقال بنبرة ظافرة:

- أنا عُمري ما كنت هاسمح لنفسي إني أموت قبل ما آخد حق «سارة»!

* * *

الثالثة والثلاثون

أنتَ أجهل من دابة.. لا تحاول أن تُفكر للحظة في أمور لا تستطيع أن تفهمها.. أنتَ ضعيف لا ترى إلا ما أجعلك أنا تراه...

فلا تظن للحظة أنك ترى الحقيقة..

لأنك لا ترى إلا من خلال ضوء عيني أنا فقط!

١١:٠٠ قبل منتصف الليل

توقفت العربة بنا تحت فيلّتي الكئيبة المظلمة، زفرت في ملل وأنا أغادر العربة آخذًا حاسوبي معي، لأجد «علياء» تخرج هي أيضًا وتسير خلفي، التفتُّ لها متسائلًا، فقالت بسرعة:

ـ مش هاسيبك النهارده. عاوزة أبقى جانبك.

أعجبني أنها كانت باللباقة الكافية لتقول إنها هي مَن تحتاجني، لم أكن في حالة تسمح لي بالجدال، قلت مازحًا وأنا أتجه لشقتي:

ـ هتباتي معايا؟ هتسيبي الشيطان يبقى تالتنا؟

فتحت باب الشقة، ودخلتْ هي خلفي دون أن ترد، لم أبالِ وذهبت مسرعًا لغرفة المكتب، أمامي فصل أخير أكتبه وينتهي كل شيء.

* * *

قال «خالد» بصوت مُهتز، خائف من إثارة غضبي وهو يجيب:

ـ أنا ما قدرتش أقتله، أنا أوسخ واحد ممكن تعرفه، بس عمري ما اقتل.

صمَتُّ تمامًا، فانطلق يحكي لي ما كنت أسمعه وقتها لأول مرة..

* * *

ما لم أكن أعرفه أن «خالد» جبان!

«أنت بس اللي مش عارف تمَن إن عقلك يبقى حر».

عندما وضع «رامي» فوهة المسدس على رأسه وأغمض عينَيه مُستسلمًا، أغمض «خالد» عينَيه ولم يستطع التنفيذ، ليتطوع «رامي» ويجعل إصبعه يضغط على الزناد. لم يستطع «خالد» أن يفعل، صرخ بعنف: «لا»، وأبعد يده بقوة عن رأس «رامي»، لتنطلق الرصاصة بصوت رهيب، بجانب أذن «رامي» بالضبط..

انتفض جسد «رامي» من صوت الرصاصة وهو يتوقع آلامًا رهيبة، شعر بصفير أذنه المزعج من دويِّ الرصاصة بجانبها، ثم سمع همسة «خالد» وهو يبكي قائلًا:

-بس أنا مش هاسمح لنفسي أرجع شيطان تاني.

لم يفهم «رامي» كلمة، فتح عينيّه دهشة، ليجد «خالد» قد ألقى المسدس على الأرض، وذهب راكضًا ليفتح الباب ويُغلقه خلفه في عنف.

* * *

وصمت «خالد» تمامًا بعد أن حكى لي قصة تخاذله وضعفه..

جاوب «خالد» صمتٌ استمر لدقائق، لن أسمح لنفسي بالانفعال، مر وقت طويل كنت أظن «رامي» قد قتل، وأعرف الآن فقط أنه كان طول هذا الوقت مختفيًا عن أنظاري يُدبر شيئًا ما، قلت بهدوء له:

-يبقى استحمل عقابك، عملت حاجة عكس رغبة الكاتب يبقى هتضحي بحاجة بالمقابل.

أغمض عينيّه وحاول أن ينطق، لكنه سمع صوت انغلاق المكالمة، فنظر للشاشة ورغمًا عنه بدأت يده في الارتجاف خوفًا. نظر حوله لا يدري ماذا يفعل، ثم أوقف سيارة أُجرة فجأة. ركبها واتجه للمكان الوحيد الذي يستطيع أن يذهب له بعد كل ما حدث..

ما إن وصل بعد نصف الساعة حتى هدأت النيران في صدره قليلًا..

نظر للعمارة المتهالكة التي تقطن بها «شيماء» وهو يعلم أنه سيندم أشد الندم..

شعور دفين يُخبره أنه لن يعود ثانية لحياته الطبيعية، يدرك أنه مدمن وما يفعله الآن هو الهبوط إلى القاع. لكن «كَتْخُدَا» سينتقم بالتأكيد...

لم يعد لديه شيء ليخسره..

صعد السلم ومع كل درجة يتأكد أنه يصعد إلى نهايته، دقات قلبه تتصاعد كلما اقتربت شقتها في الدور الأخير..

لماذا يعود لها؟

لا يوجد سبب منطقي واحد لعودته، حتى مُتعته الجنسية فترت تمامًا بعد الزواج، لأنها لم تعد مجبرة، لم تعد ضحية مسكينة بلهاء، مجرد زوجة مُطيعة تفعل ما يريده منها زوجها..

لكنه بعد رد «كَتْخُدَا» شعر أن نهايته اقتربت لدرجة مُخيفة..

كان لا بد أن يطمئن عليها؛ لأنه لا يثق أن «آلاء» بسُكْرها ستتذكر أي شيء قاله من الأساس..

سأل نفسه مرارًا كيف لا يستطيع أن يتحكم في نفسه، كيف يعود إليها بقدميْه، هل هو الشعور بالذنب؟ هل أحبها حقًّا؟ هل يندم على ما أوصلها إليه من جنون مُطلَق؟

لا يدري..

ولم يعد يهتم بالإجابة..

وصل لباب الشقة ليجد أنها أضافت باب الحماية الحديدي ذا القضبان..

أخذ نفَسًا عميقًا من صدره، ثم ضغط زر الجرس في هدوء.

* * *

نظرت «ديما» لـ«رامي» في صمت الذي أخذ يتذكر كل ما فعله حتى وصل إلى هنا..

عندما تركه «خالد» راكضًا، توقف مشدوهًا للحظات، ينظر للثقب الصغير الذي أحدثته الرصاصة في الحائط خلفه، ثم ينظر للشقة حوله في دهشة كأنما لم يتخيل أنه سيراها ثانية..

لم يصدق أنه نجا من الموت المُحقق!

أدرك فجأة أنه يجب أن ينصرف قبل أن يأتي الجيران ليعرفوا ما الذي حدث من صوت الرصاصة، ذهب مسرعًا لغرفته وأخذ سجائره وحاسوبه وساعاته وملابس كثيرة وضعها في حقيبة سفره بسرعة دون ترتيب، ثم خرج وهو يغلق خلفه باب الشقة بالمفتاح..

لكنه لم يهبط ليخرج من العمارة..

صعد السلم بسرعة حتى آخر دور، ثم جلس مستندًا على باب السطح وهو يلهث بقوة..

استنتج أن «كَتْخُدَا» له أعين تنقل له ما يحدث من تحركات، وإلا فكيف

عرف ما حدث لـ«شيماء» عندما عادت لبيتها وذهبت للمدرسة؟ كيف علم تفاصيل حميمية لم يحكِها «رامي» له عنه وعن «سارة»؟

انتظر وقتًا طويلًا، لم تحدث جلبة كما توقع، ربما ظن الجيران أنه صوت أحد الصواريخ التي يُشعلها الأطفال في الشارع طَوال الوقت. ظل مكانه لا يتحرك فترة طويلة، ثم خرج قبل الفجر متسللًا، ترك عربته مكانها وأخذ سيارة أجرة وهو يلف كوفية على رأسه كمجرم هارب..

ذهب لبيت صديق عمره، لم يكن هذا الصديق مهمًّا في أي أحداث، فلن أحكي لك عنه شيئًا يا صديقي، كل ما أريدك أن تعرفه أنهم أصدقاء لدرجة أن «رامي» طلب منه عربته لبضعة أسابيع، وأن صديقه هذا ترك العربة دون اعتراض..

ربما لو حققت على «رامي» في شيء، فهو أصدقاؤه الذين يفعلون كل هذا من أجله. يظن هذا الأحمق أنه دائمًا في دور صديق البطل ويدور في فلكهم كدور ثانوي، ولا يعلم أنه بطل في حياتهم جميعًا!

هل استنتجت إلى أين هرب بالعربة؟

أجل يا صديقي، سافر إلى سهل حشيش!

حيث قبرها!

وظل هناك طَوال تلك المدة، يذهب لقبرها، يجلس بجانبها ويقرأ مذكراتها، ويشعل أغاني جديدة كي تسمعها معه كما اعتادا..

لكنه لم يكتفِ بهذا..

ظل أسبوعَيْن كاملَيْن يخطط للانتقام، ويتأكد من أنني لم أعرف أنه على قيد الحياة بعد..

في بداية الأسبوع الثالث عاد للقاهرة، مكث في بيت صديقه، لا يفعل إلا شيئًا واحدًا..

يتابع فتاة في كل تحركاتها عندما لا تكون في منزلي..

يراقب «ديما»..

ذاتي التي عشقتها أكثر من ذاتي..

* * *

اتصف الأسبوع الرابع والأخير لكل الأبطال إلا «رامي» و«ديا»..

اقتربَت النهايات..

عادت «آلاء» لبيتها وقد ظهرت على ملامحها علامات الصدمة، كيف تسمح بخطأ أحمق كهذا أن يحدث؟ أمسكت هاتفها وكلَّمت «طه» للمرة العاشرة، لتجده يرد عليها بعصبية وبصوت هامس:

-يا بنتي أنا مش قايلك إن مراتي رجعت وما ينفعش تكلميني في أي وقت كده؟

قالتْ بلهجة جامدة، دون أن تبالي بما يقول:

-«طه» أنا حامل.

ضحك بشدة، ثم قال مبتسمًا:

-حملتِ في أسبوع واحد؟ ده أنا معجزة وأنا ما اعرفش.

قالت بعصبية من غبائه:

-من قبل كده يا غبي، من ساعة ما كنا مع بعض.

صمت لحظات ثم قال مُتسائلًا بجدية:

-متأكدة إنه مش من جوزك؟ أنتو سافرتوا مع بعض في النص.

قالت بغضب:

-يعني أنا هارمي بلايا عليك مثلًا؟ جوزي من ساعة أول طفلة وهو يلبس واقي، مستحيل أكون حامل منه.

قال وقد بدأ صوته يرتبك:

-ما يمكن يسرّب عادي، حصلت كتير قب...

صرخت فيه هذه المرة:

-باقولك مش من جوزي.

كانت تعلم استحالة حدوث الحمل في الأوضاع التي تفعلها مع

زوجها، فرصة ضئيلة جدًا أن يحدث هذا، «طه» هو الذي لم يكن يحب أن يرتدي أي شيء، وأهملت هي أن تأخذ أي نوع من حبوب منع الحمل، طوال الطريق لا تصدق أنها كانت بهذا الغباء، جزء من عقلها صدق أنها كانت في عالم الرواية؛ فبالتالي لن تحدُث أي عواقب على أرض الواقع، استسخفت نفسها من هذا التفسير الواهي لكن هذا ما جعلها تُهمل من البداية حقًا.

ارتبك «طه» لحظات، ثم قال:

- طيب هنعمل إيه؟

أراحها أنه جمعها معه في جملة واحدة للمرة الثانية، قالت وهي تجلس على مقعدها المفضل في الصالة:

- أنا ممكن أطلب الطلاق ونتجوز بعدها بعد شهور العدة و...

قاطعها «طه» وصدى صوته يدل أنه يكلمها من الحمّام:

- إهدي بس، طلاق إيه وجواز إيه؟ أنا ما صدقت مراتي ترجع البيت وحقي يرجع لي، أنا لأول مرة في حياتي الدنيا بتضحك لي.

صمتت تمامًا ليُكمل هو:

- فاضل أربعة أيام ونخلص من «كَتْخُدَا» كمان، أعتقد إن أنا أحلى نهاية فيكم!

سالت دمعة من عينيها وهو يقول بصراحته المعتادة:

- لو الطفل ده مني...

قاطعَته بصرامة:

- من غير «لو»، قلتلك إنه منك أنت.

قال هو بلهجة آسفة:

- مش قصدي والله، أنا باقول إن عمر الطفل ده شهرين صح؟ يعني مافيش أي خطر على حياتك لو عملنا إجهاض.

صمتت تمامًا، احمرَّ وجهها من الغضب وهي تقول:

- واضح إن عمك لما نام معاك خلَّاك... زيه.
وفي أبلغ رد ممكن، أغلقت الهاتف في وجهه.

* * *

فتحت «شيماء» الباب، ما إن رأت «خالد» يقف بارتباك، حتى صرخت في سعادة ورمَت نفسها في أحضانه. احتضنها «خالد» ورائحة الشقة العطنة الآتية من خلفها تزكم أنفه، أمسكت هي ذراعه وجذبته للشقة وهي تبكي من الفرحة، قالت كلامًا كثيرًا لم يفهم منه «خالد» حرفًا واحدًا.

شعر بالندم فور أن دارت عيناه في المكان، هالته بُقع الدم التي انتشرت على الأرض في مناطق كثيرة.

أغلقت كل النوافذ بإحكام، ما تعجب منه أنها وضعت أقفالًا على الشبّاك الخشبي، فكّت كل مقابض الشبّاك ووضعت مكانها أقفالًا حديدية ضخمة، لا يوجد منفذ هواء واحد في الشقة.

هدأت «شيماء» قليلًا وهي تذهب به لغرفة نومها، كان قد وصل لمرحلة من الاشمئزاز جعلته يريد أن يركض، كان يعلم من البداية أن عودته كانت خطأ كبيرًا، وجد الدماء تملأ الفراش أيضًا، فقال لها بعد أن فاض به الكيل:

- إيه كل الدم ده؟

ضحكت وهي تخلع رداءها أمامه:

- عشانك يا حبيبي، عشان ترجع لي.

اتسعت عيناه في ذهول وهو يرى كمّ الجروح التي التأمتْ في هذا الجو الملوث على جسدها، ذراعيها وقدميها وبطنها وظهرها، قال بغضب شديد:

- أنتِ عملتِ إيه في نفسك يا مجنونة؟

ضحكت وهي لا ترى شيئًا من غضبه:

- قدمت دمي تضحيةً عشان ترجع لي.

صرخ فيها وهو لا يفهم شيئًا:

- تضحية لمين؟

انتبهت لصراخه هذه المرة، فقالت بخوف كطفلة لا تفهم شيئًا:

- لـ«كَتْخُدَا»، ونجحت فعلًا، لاقيته كلمني من أسبوع ويقول لي إنك هترجع، وسابلي وساب لك رسالة.

تحفز «خالد» حذرًا، لم يتوقع هذا على الإطلاق، كيف استنتج «كَتْخُدَا» عودته إليها؟ قال لها بصوت تسلّل إليه الخوف:

- إيه هي الرسالة؟

ابتسمت لأنه هدأ وقالت:

- ثانية واحدة وأجيبها لك، اقعد بس عشان خاطري وما تزعلش.

نظر لها «خالد» لحظات، ثم استند على الحائط بهدوء وهو ينظر للغرفة الكئيبة، قرر أنه ما إن يعرف رسالة «كَتْخُدَا» حتى يهرب بعيدًا ولن يعود ثانية مهما حدث، كان دربًا من الجنون أن يظن أن عودته قد تُصلح من أي شيء.

سمع صوت الباب الحديد يُغلق، التفت في دهشة ليجد «شيماء» في آخر الطرقة تُغلق الباب بالمفتاح جيدًا، لم يفهم لأول وَهْلَة، ثم أدرك كل شيء مرة واحدة، فركض ناحيتها صارخًا:

- بتعملي إيه يا بنت الـ....

نظرت له نظرتها الفرحة، وبكل قواها ألقت بالمفتاح من القضبان خارج الشقة تمامًا، وصل «خالد» في نفس اللحظة فوجد المفتاح يسقط في الفجوة بين السلالم ويسقط للدور الأرضي، سمع صوت رنته البعيد وهو يرتطم بالأرض، فصرخ صرخة عالية في ثورة.

نظر لـ«شيماء» التي كانت تضحك في سعادة لا تستطيع أن تكتمها، وأمسكها من كتفيها وهو يصرخ فيها:

- عملتِ كده ليه؟

لم تخف من صراخه هذه المرة، لقد أصبح ملكها للأبد، قالت وهي

تضحك ضحكة لا تمت لواقعها بصلة:

-رسالة «كَتْخُدَا»، حكى لي حدوتة شبه حكايتنا قوي، وقال لي إن البطلة في الآخر عملت نفس اللي انا عملته، وبكده ضمنت إن حبيبها هيفضل معاها طول العمر.

صرخ فيها وهو يكاد يصبح بنفس جنونها:

-إحنا هنموت هنا.

قالت وهي تضحك:

-مش مهم، المهم إن إحنا نموت مع بعض ونسيب العالم النجس ده.

لم يحتمل أكثر من هذا فصفعها صفعة جبارة، سقطت منها أرضًا بقوة، ركض على النوافذ ووجدها كلها مُغلقة بالأقفال فصرخ فيها:

-فين مفاتيح الأقفال دي.

قالت وهي تنظر له نظرة متألمة بعد أن ضربها:

-رميتها كلها من أول ما ركّبت الأقفال.

أمسك رأسه وهو يحاول أن يتماسك، ركض في جميع أنحاء الشقة، لا يوجد منفذ واحد تركته دون أقفال، لم يعد يدري أي مصير ينتظره، أصابه ذُعر مفاجئ من كل شيء، ركض للباب وأمسك القضبان وأخذ يصرخ بأعلى ما في صوته..

لكن ما من مُجيب.

* * *

وقف «رامي» أمام «ديما» صامتًا..

لم تُبدِ «ديما» أي رد فعل، نظرت له بعينيها الماسيتَيْن اللتين أعشقهما، عينَيْن واسعتَيْن تحتويان أي شيء ينظر لهما، قال «رامي» بعَرَقه الغزير:

-مش بتردي ليه يا «مريم»؟

وضعت قدمًا على قدم، استنتجت أن ما تخشاه قد حدث وأن «رامي» قرأ روايتها، ابتسمَت وقالت ساخرة بثبات:

- المفروض إني أخاف إنك عارف اسمي القديم؟ أنبهر وأقولك: عرفت إزاي؟

وأكملَتْ بابتسامة مستهزئة يُتقنها مَن عاشرني طويلًا:

- قولي إيه المطلوب مني بس كرد فعل عشان أعملهولك عادي!

اتسعت حدقتا «رامي» مُحاولًا أن يخيفها وهو يقول:

- مش مطلوب منك أي حاجة ما تقلقيش..

ولوَّح بمسدسه أمام وجهها الثابت وصرخ:

- هاخد حقي من «كَتخُدَا» وأقتل أكتر حاجة بيحبها في الدنيا.

ابتسمت «ديما» لـ«رامي» المُتعرق. قالت مُشيرة للمسدس باستهانة مستفزة، لدرجة أنني ظننت أني أرى روحي داخلها:

- سيب المسدس، أنا عارفة إنك أول مرة تمسكه في حياتك.

كان صدر «رامي» يعلو ويهبط من المجهود الذي فعله، عرف كل شيء عن «ديما» من مخطوطة الرواية، يعلم أنها لن تقاوم، يعلم أنها تريد أن تُحدثه كما يريد هو أن يتكلم معها، أنزل مسدسه في هدوء، وجلس على مقعد أمامها، قالت بابتسامتها الواسعة في ترحاب حقيقي:

- تحب أعملك حاجة تشربها؟

قال بهدوء، مُغيرًا من أسلوبه ومقتحِمًا الموضوع مباشرة:

- أنتِ لازم تساعديني. لإني مش هاعرف أعمل حاجة لوحدي.

نظرت له نظرة طويلة كأنها تُقيمه، فأكمل بثقة افتقدها طويلًا:

- ما حدش منهم فاهم اللي ممكن يحصلهم لو رواية زي دي نزلت، ما حدش مستوعب إنه لو اتنشر عنه حرف واحد هيعيش طول عمره يقرأ أبشع صفات فيه، همَّ فاكرين إن «حازم» هينزل الرواية بأسماء مُستعارة، بس حسب ما أنا قريت كل الأسماء موجودة زي ما هي، الاسم الثلاثي والشغل، «سارة» الوحيدة فينا كلنا اللي قرت كل تفصيلة في العقد وعرفت إنها ممكن تغير الاسم، ما حدش طلب منه ده غيرها.

وأكمل بألم يعتصر قلبه:

ـ وغيرت اسمي أنا بس، ونسيت تقوله يغير اسمها.

هزت «ديما» كتفيها وقالت بتركيز غريب كأنها عالمة في تجربة عن القرود، تنتظر وتراقب رد فعله:

ـ همَّ موافقين، أنت إيه اللي مضايقك؟

صاح بغضب:

ـ بلاش أم الكلمة دي، كل شوية حد يقولي إحنا موافقين إيه المشكلة؟ المشكلة في حرية الاختيار، المشكلة إنه راح لناس مش فاهمة أبعاد الموضوع وأوهمهم إنه هيعيشهم قصة كويسة، وفي الآخر بيوديهم في داهية.

وأكمل وقد علا صوته منفعلًا، حتى إن «ديما» ضيَّقت عينيها:

ـ المشكلة إنه لخبطهم، بقوا مش عارفين الفرق بين الواقع والخيال، فاكرين إن فعلًا تصرفاتهم في الرواية مالهاش أي تأثير على حياتهم الطبيعية، ناسيين إنهم بشر وكل وجع هيحسوه هيأثر على حياتهم كلها.

وحاول أن يهدأ وهو يقول:

ـ ما حدش يقنعني إني أسيب طفل يحط إيده في الشاي وأقول ده اختياره، الطفل مش عارف، الطفل مش فاهم أبعاد أي حاجة.

قالت بثقة وهي تبتسم:

ـ وتفتكر هو ما حذركمش؟ وكل الكلام في العقد ده إيه؟ مش تحذير؟

وقبل أن يرد، قالت وهي تعتدل في مقعدها، تعدل نظارتها بوقار عمرها الثلاثيني الآن:

ـ أحلى حاجة في الرواية دي إنهم اختاروا، ما تحاولش تقنعني أنت إنهم مُجبرين أو مش فاهمين! كل واحد مسئول عن اختياره ومسئول عن عواقبه!

نظر لها «رامي» وقال بصرامة:

ـ وأنتِ؟ حرة في اختياراتك برضه؟

نظرت له صامتة، كانت تعلم أنه سيتطرق إلى هذا الأمر، قالت بهدوء

شديد، وثقة رائعة أعشقها:

- أنت اللي ما فهمتش إن أنا عكسكم تمامًا.

قال «رامي» بابتسامة ساخرة أمام نظرة «ديما»:

- أنتِ عكسِنا؟ ده بمنطق اللالا لاند!

قالت وهي ترفع حاجبها بإيمان لم يمتلكه سواها:

- أنا اخترت أسلم له نفسي.

وأكملت وهي تعدل خصلة من شعرها القصير الذي أعشقه:

- أنا اخترت أبقى مُسيَّرة، عشان أثبت لما أموت إني كنت مُخيرة، لكن «حازم» معاكو بيثبت إنكم مُخيرين في كل خطوة.

ونظرت له بابتسامة مَن يُكلم طفلًا:

- أنت عمرك ما هتفهم اللي بيني وبين «حازم»، وعمرك ما هتعرف تقلبني على مشروعه.

قال «رامي» بابتسامة ساخرة محاولًا محاربتها في محرابها:

- منطقك أصلًا غلط، كلام من برَّاه بيان كبير بس من جواه كلام فاضي.

ومال بجسده للأمام قائلًا:

- كل الحوادث الرئيسية مكتوبة في لوح محفوظ من قبل ما تتولد: ولادتك وموتك وعيالك واسمهم.

وأكمل كأنه يفحمها:

- يعني تعبك ومرضك ده إيه؟ لو اتولدتِ مثلًا برحم ضعيف ما بيشلش طفل؟ لو ماشية في الشارع لاقيتِ لوري جاي يشيلك ويموتك، كل ده اختيار؟

قالت حبيبتي شارحة بابتسامة مَن تعشق ما تشرحه:

- ده اسمه ابتلاء لوحده كده، ما انت مش هتمشي في حياتك تفضل تختار بس، هتحصل حاجات حواليك تختبر إيمانك، بس ولا حاجة من

الابتلاءات دي بتحدد مصيرك أنت، ولا حاجة من دي بتقولك هتمشي في حياتك إزاي وهتموت إزاي وهتعيش إزاي، لو لاحظت وعاوز تدقق فيها، هتلاقي إن الأمراض الحديثة كلها بسبب لعب البشر في الكون: هرمونات على تجارب على نووي على لعب في كل حاجة، واحد شذ وجاله إيدز، هتقوله ربنا كاتبلك كده؟ هتلاقي الأمراض الطبيعية كلها ليها دوا، الابتلاءات مش بتحدد مصير.

وأكملت بقوة مَن يدافع عن قضية عُمره:

- والحوادث دي حاجة بشرية جدًّا: اختيار شخص تاني إنه يتكلم في الموبايل فيخبط فيك إنت، اختيار سواق اللوري إنه يحشش مثلًا، عشان تحط أنت في اختيار، هتسامح ولا هتتخانق، لو اتخانقت ده اختيار، لو سامحت يبقى اختيار تاني، لو مت من الحادثة يبقى عبء موتك شاله اللي اختار إنه يمسك الموبايل أو يحشش، كلنا بنعاني من اختيارات غيرنا لما بتخش في حياتنا، بس دايمًا عندنا سكّة تانية ممكن نختارها.

تأمل «رامي» ملامحها وهي تتحدث، إنها تتحدث بعقلها فقط، أول فتاة يراها تسيطر على مشاعرها بهذا الشكل..

لكن بخبرته الطويلة يعرف أن لكل فتاة نقطة ضعف..

عاطفتها..

لا بد فقط أن يجد المفتاح الصحيح في الوقت الصحيح، وهو بخبرته مع الفتيات أسرع مَن يعرف كيف يدق على نقاط الضعف، قال رافعًا حاجبيه مُطلِقًا رصاصة اختباره الأولى:

- ما هو الابتلاء ده ممكن يكون موت حد قريب منك، يعني مثلًا ربنا كان عاوز يبتليكِ فموّت والدك، موته ده بقى مكتوب ولا اختيار؟

وشعر مَن عينيها أنه أصاب هدفًا..

* * *

الرابعة والثلاثون

قف أمام كل ما يحدث كبطل يهتز القُراء من مشاعره

تحمّل نتائج اختياراتك كاملة ولا تبكِ مع اقتراب النهاية نادمًا

أجمل ما في تلك الرواية أن نهايتها لن تُعاد، لن تُمسح،

لا وقت فيها للأسف والندم

أجمل ما في تلك الرواية أن نهايتها مستمرة استمرار القدَر نفسه!

بدأت قدم «ديما» في الاهتزاز، قال «رامي» وهو يعلم أنه يؤلمها لكن لا بديل له:

ـ اللي حصل في باباكِ ده ابتلاء ولّا اختيار؟ ربنا اللي خده ولا أنتِ اللي قتلتيه؟

حدقت فيه «ديما» وقد بدأ الغضب يظهر على ملامحها، لدهشة «رامي» هدأت ملامحها سريعًا واغرورقت عيناها بالدموع. قالت بثبات غريب وابتسامة حنونة:

ـ ده اللي اخترت إني أفهمه، وضحيت بعمري كلّه عشان أعرف إجابة السؤال ده.

ثم أكملَت بابتسامتها:

ـ أنت بتتكلم في حاجة أعقد بكتير من إنك تفهم تفاصيلها. موت البني آدم هو اختياره الشخصي تمامًا، وفي نفس الوقت ابتلاء لكل اللي حواليه زي بيته وشغله، لو الموت غير مقصود زي الحوادث، فهو ابتلاء للمسئول عن الحادثة.. سلسلة متواصلة من العلاقات مستحيل تحدد فيها إيه اللي ابتلاء وإيه اللي اختيار.

ثم أكملت وهي تحاول إثبات تماسكها، لكن اهتزاز قدمها يفضحها:

ـ بس المؤكد إن مافيش أي حاجة مكتوبة بالنص على البني آدم.

ليرد «رامي» على الفور، مُستغلًا ضعفها اللحظي:

ـ تقومي ما تختاريش حاجة تاني في الدنيا بعد موت باباكِ؟ ده حلّك العبقري لكل حاجة؟

كانت تدري ما يحاول أن يفعله، لكن جزءًا منها وافقه رغمًا عنها، قال هو ضاغطًا على الجرح بقسوة تعمدها:

ـ أنتِ ما سألتيش نفسك كنتِ هتوصلي لإيه لو أنتِ اخترتِ؟ كنتِ هتكملي مع «كَتَخُدَا»؟ كنتِ هتبقي رسّامة ولّا مُصورة ولّا كاتبة؟ كنتِ هتبقي متجوزة وعندك أطفال ولّا لأ؟ عمرك ما سألتِ نفسك الأسئلة دي؟

اهتزت قدمها أكثر وهي تنظر لـ«رامي» الذي أكمل بصدق:

- أنتِ أثبتِّ إنك مُخيرة، أنتِ عيشتِ باختيارات واحد تاني، يعني مهما كان مكتوب لك أكيد اتغير، عشر سنين كاملة عايشة حياتك كلها بمزاج واحد تاني، مش عاوزة ترجعي لحياتك؟ مش عاوزة ترجعلك قوة الاختيار تاني؟

صمتت تمامًا، كان «رامي» يعلم أنه يتدخل فيما لا يعنيه، لكنه كان يحارب بلا شيء يخسره، وأجمل شيء في ذلك هو أن كل مَن يواجهك سيصبح هو الأضعف على الفور، لأنه لديه ما يخاف أن يفقده!

قال بصدق كي تدرك أنهم ليسوا بأعداء، بلهجة فيها من الرجاء أكثر من أي شيء آخر:

- لازم تساعديني إني على الأقل أختار إني أمسح روايتي أنا و«سارة». أنتِ مدركة أهلها لما يعرفوا إنها هربت معايا وماتت هناك هيحصلهم إيه؟ فاهمة يعني إيه أهل «شيماء» يعرفوا إنها اتعمل فيها أوسخ حاجة في الدنيا وإنها اتجوزت اللي اغتصبها؟ «خالد» اللي ممكن يتسجن لما يتعرف اللي عمله، و«طه» و«آلاء» اللي قتلوا واحد بريء ظلم!

ونظر لها وقال بلهجة أقرب إلى التوسُّل:

- كل دي جرايم يعاقب عليها القانون في الحقيقة، في أرض الواقع اللي كلهم نسيوا إنهم لسة عايشين فيها، فاكرين إنهم عشان ماضيين عقد، من حقهم يعملوا اللي همَّ عاوزينه..

قالت لكن بنبرة بدأت في أن تهتز:

- جوز «آلاء» لسة عايش.

نظر لها نظرة ساخرة من تفاهة ردها، نظرت للأرض صامتة، سألها السؤال القاتل الذي كانت تخشاه منذ أن التقيا:

- مش عاوزة تعرفي «كَتَخُدَا» مختارك ولّا لأ؟ أنا حبيت «سارة» واخترتها، وهافضل عايش بقية عمري مختارها، لكن أنتِ حَرَمتِ «حازم» اختيار إنه يسيبك.

نظرت له متسائلة، فأخرج هاتفه المحمول وقرأ بصوت عالٍ ما كتبته أنا في روايتها:

«أصبح تملُّكي لها أمرًا مزعجًا بالنسبة لي قليلًا، هل هي معي لأنها تحبني أم لأنها مُجبرة؟ أسوأ ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أُخيرها، ستقول لي: اخترْ أنت! بدأ الجانب السيئ من تجربتها يظهر فينا وفي علاقتنا، لا بد أن أفعل شيئًا ما قبل أن ننتهي...».

ولمح في عينيْها الذي كان يريده بالضبط..

دموعًا غير مصدقة..

* * *

لم يستطع «طه» النوم منذ تلك الليلة.

كلما ينام، يرى عمه وكل ما حدث بسببه، فينهض مفزوعًا.

منذ أن عاد لبيته وهو لا يستطيع النوم.

لم يعوضه أنه أصبح البطل في العائلة، زغاريد أمه العالية الفَرِحة، احتضان أخيه له في فخر، ابتسامة زوجته التي تملأ وجهها كلّه، عاملوه معاملة الملوك.

«طه» الذي أعاد حق العائلة.

لكنه لم ينسَ ما حدث أبدًا.

يشعر باشمئزاز رهيب، يكره نفسه في كل لحظة تمر، حاول أن يشغل نفسه بكل ما كان يتمناه طوال عمره، تبقّى له مبلغ أكثر من رائع بعد أن وزّع باقي الأموال لأمه وأخيه بالعدل، فتح حسابًا في البنك باسمه، ذهب لاستوديو كان يتمنى فقط أن يدخله، أجّر فيه يومًا كاملًا له وحده، دخل الاستوديو ووقف أمام المكروفون، لم يشعر بالحماس، كان المُوزّع يجلس أمامه وقد حضَّر له أغنية من الأغاني المركونة في الدرج، ابتاعها منه بعشرين ألف جنيه، كانت أغنية رائعة، يستطيع أن يفرد فيها مساحات صوته كما يشاء.

لكن صوته صعد في التسجيلات أسوأ ما يكون.

مهزوزًا، ضعيفًا، نشازًا في كل نغمة وكل لحن. قال له المُوزِّع مُواسيًا إن أول مرة تكون دائمًا صعبة، دخل ثانية للاستوديو المُكيف، حاول أن يندمج مع الأغنية.

ليفشل فشلًا ذريعًا، تُلاحقه ابتسامة المُوزِّع الساخرة التي يحاول ألا يُظهرها.

عاد لبيته مُحبَطًا، استقبلته زوجته المتحمسة أن تسمع، لكنه قال لها إنها كانت تجربة سيئة.

لم يعد يحتمل.

داخله غضب مكتوم.

عندما كلَّمته «آلاء» منذ يومين، كان عاجزًا لدرجة أنه قال ما قاله، حاول أن يُصبر نفسه بقول كلمات متفائلة، أنهت هي المكالمة بعد كلمتها الحقيرة، وأغلقت هاتفها، لا يعرف، لكنه.كلما كلمها وجد الهاتف مغلقًا، لم يكن سيُغير من كلامه، لكنه كان سيعتذر عن أسلوبه السخيف فقط.

وكان سيطلب منها اعتذارًا على كلمتها التي آلمته.

بل إن كلمتها هي ما جعلته يعترف أن نهايته ليست أفضل نهاية في الرواية، كما قال لها.

بل أحقرهم.

جلس على حاسوبه يائسًا من كل شيء.

عندما حقق كل شيء يتمناه، اكتشف أنه في رحلة العثور على الحلم.. فقد روحه.

فقد كل ما يميزه.

دائمًا ما يبدو الحلم براقًا من بعيد، دائرة بيضاء نقية تشغلك ليلًا نهارًا، لكن ما إن تقترب وتلمس الدائرة، تشعر بكل شيء فيك يحترق ببطء شديد.

جلس على حاسوبه المحمول، ونظر له فترة طالت.

كل ما داخله يرغب في شيء واحد فقط:
أن يستعيد روحه ثانية.

ودون أن يفكر كثيرًا، فتح أحد المواقع الإباحية، اشترك فيها باسم مزيف حتى أصبح له حساب يستطيع أن يحمّل عليه ملفات الفيديو، فتح ملف عمه بهدوء شديد، وضغط على زر رفع.

راقب العمود الأزرق وهو يسير ببطء، ومع اقترابه للوصول للنهاية، شعر أن روحه تعود له ثانية.

لم يعد يبالي بشيء.

فليحترق الجميع.

وصلته رسالة أنه تم تحميل الفيديو بالكامل، كتب العنوان: «فضيحة صبري عبد العظيم نائب مجلس الشعب ورجل الأعمال الشهير». ضغط زر الموافقة، ليرى الموقع قد وضع الفيديو على شاشته الرئيسية.

ولم يكتفِ بهذا.

دخل على الـ«facebook» وأنشأ حسابًا جديدًا مزيفًا، نسخ الرابط وأرسله في رسالة مجمعة لكل وكالات الأخبار والجرائد المصرية التي تركض وراء الفضائح ركضًا.

وانفجر كل شيء.

انتشر الخبر بسرعة نارية، لم تمر أكثر من خمس دقائق حتى وجد عناوين الجرائد الإلكترونية تشارك الفيديو على صفحاتها، ضحك عندما وجد أنهم من عَجَلتهم لم يُشفِّروا أي شيء من الفيديو، تركوه بما فيه من مشاهد جنسية مشينة واكتفوا بوضع كلمة «للكبار فقط: محتوى غير لائق».

ضحك ضحكة ساخرة وقد أعجبته الكلمة، عمّه، «صبري باشا عبد العظيم»، أصبح محتوى غير لائق.

ظل يضحك ضحكة بلهاء وهو يشعر بنيرانه تبرد ببطء..

فليحترق الجميع..

لم يعد يبالي بأي شيء قد يحدث له..

وأنا أيضًا يا صديقي العزيز..

سأجعل هذه نهاية قصته!

* * *

عادت «آلاء» لبيتها للمرة الثانية بوجه مُتجهم.

كانت عند طبيبة النساء، قالت لها إن عملية الإجهاض لها أضرار خطيرة على رحمها وصحتها، قالت إنه كلما زاد عمر الطفل في رَحِمها كانت خطورة إجهاضه على صحة الأم أكبر. قالت لها كلامًا كثيرًا عن أن رحمها غير مستقر من الأساس. تذكرت أنها منذ ثلاث سنوات اضطرت لفعل أشياء كثيرة حتى تستطيع أن تحمل في ابنتها.

شعرتْ أن كل شيء يذهب بها في الاتجاه الأسوأ دائمًا.

تعرف أن كل الناس سيعتقدون أنه طفلها من زوجها، بالتأكيد قبل شلله كان ينام معها، لكن شيئًا ما داخلها يرفض أن ينسب الطفل له، هل هو بسبب مشاعرها تجاه «طه» اللعين؟ ذلك الحقير الذي تسلل لقلب دهسته كل الأقدام فقط ليدهس عليه ثانية؟ تُحبه لدرجة أنها الآن تكرهه كراهية بشعة، لماذا رفضها؟ لقد عرضت عليه نفسها وقالت إنها تريده، تريده زوجًا لها يعيشان معًا أجمل أيام عمرهما.

لكنه رفض، واختار زوجته وحياته التقليدية البلهاء!

شعرت بشيء غريب، البيت ساكن تمامًا كأن لا أحد فيه، كانت دائمًا تُشغل التلفاز لزوجها في غرفته فيظل صوته مسموعًا في الشقة، ذهبت لغرفتها مُسرعة لتجد الفراش خاليًا تمامًا.

شهقت في عنف، نادت على المربية فلم يجبها أحد، أمسكت هاتفها المحمول وكلمت والده لتجده أغلق المكالمة، كلمت والدته وهي تدور في الشقة في قلق غريب لتجد أمه فعلت نفس الشيء! نظرت لساعتها، لقد ذهبت للطبيبة في التاسعة صباحًا، الآن الساعة الثالثة عصرًا، ماذا يمكن أن يحدث في ست ساعات فقط؟

سمعت الباب يُفتح بمفتاحه، ركضت ناحية الباب في لهفة وقلق، ثم رأت ما جعلها تتوقف تمامًا.

كانت الممرضة الجديدة تدفع زوجها على الكرسي المتحرك، وخلفهما والده وأمه اللذان ينظران لها بغضب رهيب. نظرت لتجد ذلك الشرطي ينظر لها بتحفز، قالت متوترة:

-في إيه؟ حصل حاجة؟

جاوبها صوت لم تسمعه منذ فترة:

-... أمك.

نظرت لـ«هاني» الذي قالها بدهشة، هل عاد يتكلم ثانية؟ دون حرف أخرج والده هاتفًا تهشمت شاشته، ثم ضغط على زر تشغيل الفيديو، ووضعه أمام عينيها.

سمعت تأوهاتها قبل أن ترى جسدها على جسد «طه» وهما معًا. لقد سجل «هاني» كل شيء، للحظات نظرت للهاتف مذهولة ثم انهارت على الأرض وقدماها لا تستطيعان حملها، دخل الشرطي مُسرعًا مُستغلًا انهيارها وأمسكها من يدها ليضع الأغلال المعدنية على معصمها ثم يربطها على معصمه، قالت وهي ناظرة لهم بنظرة غير مصدّقة:

-بتعملوا إيه؟ أنا ما عملتش أي حاجة.

جاوبها صمت زوجها ونظرة عينه القوية الشامتة، مع ابتسامة لم ترَ أكثر راحة منها، تشيعها نظرات عائلة زوجها المحتقرة، سمعت زوجها يشكر الممرضة، فهمت كل شيء دفعة واحدة، استعاد القدرة على الكلام وقال للممرضة كل شيء كي تساعده.

شعرت والشرطي يجذبها أن حياتها كلها تختفي من أمامها بالتصوير البطيء..

بكت عيناها وهي تنظر لهم تستنجد بهم..

لم تودع حتى ابنتها..

لعنكَ الله يا «كَتْخُدَا»..

شعرت بذعر مفاجئ عندما ظهر اسمي في عقلها، تذكرت أغرب شيء يمكن أن تتذكره الآن. صرخَت بأقصى قوتها في ثورة مفاجئة:

ـ «هاني».. أبوس إيدك عاوزة أقولك حاجة.. أبوس إيدك ومش هتشوف وشي تاني..

نظر لها «هاني» متعجبًا مما تفعله، كان الشرطي يسحبها باتجاه السلم وهي تقاومه بشراسة، وصل بها الأمر أنها ألقت بجسدها على الأرض وأخذت تتوسل لـ«هاني». لم يرها بهذا الضعف والهستيرية من قبل، قال فجأة يعطيها آخر فرصة في حياتها:

ـ إستنى..

توقف الشرطي على حافة السلم، جذبته «آلاء» لتقترب من «هاني» حتى توقفت أمام مقعده، نظرت له لحظات تستعيد أنفاسها قليلًا وتهدأ، ثم قالت بجدية شديدة ما لم يتوقعه على الإطلاق:

ـ أنا مش عاوزة حد ينتهي النهاية دي.

لم يفهم شيئًا، قالت له بطيبة لم يرها فيها منذ سنوات:

ـ في فلاشة موجودة على السُّفرة. الفلاشة دي فيها عنوان بنت اسمها «شيماء». أبوس إيدك إبقى روح اطّمن عليها. البنت دي أنضف من كل حاجة بتحصلها في حياتها..

وأمسكت بطنها وقالت بعين آملة:

ـ أمانة عليك ما تنساش.. حالتها النفسية صعبة جدًّا.. مافيش حد يستاهل اللي حصلها ده..

نظر «هاني» لها في دهشة مما تقول، انحنت على رأسه وقبّلته في حب حقيقي لا يفهم أبعاده في العالم سواها، ثم نظرت للشرطي وسارت معه دون خوف هذه المرة وفي استسلام غريب، كأنها يأسها زادها قوة..

هبطت مع الشرطي في هدوء، ممسكة ببطنها كمن لديه ما يكفيه من الدنيا..

ولأنها «آلاء أبو العينين» واحدة فقط، ابتسمت في ثقة وعناد، وهي تعدل خصلة من شعرها المتناثر..

كأن المستقبل كلّه أمامها..

مُعلنة نهايتها في رواية «كَتْخُدَا»..

روايتي.

* * *

نظَرَت «ديا» لـ«رامي» بعين دامعة لأول مرة..

مالَه أنه جعل ملاكًا مثلها يبكي، كانت تفاصيل وجهها مثالًا للرقة والحنان، أدرك فجأة لماذا وقع «كَتْخُدَا» في حبها..

إنها الكمال مُجسدًا في امرأة..

هبطت دموعها لحظات، ثم قالت ما لم يكن يتوقعه:

- أنا مش عاوزة الاختيار يرجع لي تاني إلا عشان حاجة واحدة بس.

نظر لها متسائلًا، فقالت هي ودمعتها تهبط:

- عشان أعرف هو لسة مختارني ولّا لأ، لسة عاوز يبقى معايا بجد ولّا خايف يسيبني عشان أنا مصيري كله في إيده!

بُهت من الجواب..

لم يرَ في حياته كمَّ هذا الحُب والإخلاص والجنون في قالب واحد..

صدَّق أنها و«كَتْخُدَا» لم يُخلقا إلا لبعضهما البعض.

قال هامسًا وهو يقترب منها ويربت على كتفها مواسيًا:

- وأنتِ ممكن تعرفي، ممكن ترَجَّعي حريتك وتختاري تاني، تتجوزيه وتخلّفي منه، من غير ما حد يكون مُجبر على أي حاجة.

وسأل لآخر مرة بلهجة حنون:

- أنا اخترت إن اسم حبيبة عمري يفضل متصان طول عمره، اخترت أمسح الرواية وأحافظ على سرّها، حتى لو مت وأنا باحاول.

وهمس:

ـ أنتِ اخترتِ إيه؟

ظلت صامتة تمامًا تنظر لعينيه في حيرة شديدة..

لكن «رامي» ابتسم رغمًا عنه، لأن حيرة شخص بعقلية «ديما» وشخصيتها القوية، هي أول لمحة أمل منذ أن بدأت تلك الرواية اللعينة.

* * *

قال «خالد» بعين تلمع في المقابلة منذ ثلاثة أشهر كاملة:

ـ عشان هاعمل معاك صفقة.

وأكمل وهو يعتدل في جلسته رغم عُريه:

ـ أنا هاعمل كل حاجة أنت هتطلبها، قصاد حاجتين بس.

تأملته لحظتها في إعجاب، ليُكمل هو بإصرار حياته كلّه:

ـ أنا باكتب، لغتي أقوى منك بمراحل بس أفكار رواياتي معتادة، وأنت حد ضعيف جدًا في اللغة بس أفكارك مختلفة، لو أنا وأنت اتجمعنا هنخلق كاتب كامل مافيهوش غلطة.

وأكمل بحماس:

ـ أول حاجة هي أنك تعيشني في فكرة رواية أكتبها أنا، تدخلني في كل تفاصيلها، مش مشكلة فكرتها قديمة ولّا جديدة، بس عايز أعيش في دور بطل من الأبطال عشان لما أكتب كل حاجة عنه أبقى حسيتها وعيشتها.

ابتسمت للحظات، الفكرة في حد ذاتها ظريفة، وأكمل هو:

ـ الحاجة التانية أنك هتكتب لي تعهد إنك مالكش دعوة بالموضوع، عشان أضمن بعد ما الرواية تنزل وعليها اسمي وأفضل أشتم فيك، ما تطلعش تقول إنها فكرتك أو من تأليفك.

ضحكت ساخرًا مما قال، ثم قلت بهدوء:

ـ اتفقنا.

تذكر «خالد» ابتسامتي الواثقة في قهر..

تذكّر حياته كلها قبل الثلاثة أشهر..

ويكي بقهر لم يشعره في حياته البائسة كلها..
أدرك أن «كَتْخُدَا» كتب نهايته قبل حتى أن يعرف بتخاذله عن قتل «رامي».. أدرك أن هذا هو مصيره سواء كان بطلًا مطيعًا أو متمردًا معاقبًا..
أن «كَتْخُدَا» بخبثه نفذ الاتفاق تمامًا، لكن بطريقته هو..
أدرك أنه عَقَد صفقة مع الشيطان ذاته..

في حين لم تفهم «شيماء» لماذا يفعل «خالد» كل هذا!
ظل واقفًا بذعر، ممسكًا في القضبان ويصرخ بأعلى ما في صوته..
ألا يعلم أنها الوحيدة القاطنة في تلك العمارة البالية؟
سالت دموعها من ألم الصفعة وهي تنظر له راقدة على الأرض..
كيف لا يفهم حبها له؟ كيف لا يستطيع أن يدرك أنها فعلت كل هذا من أجله؟ فترة غيابه أعادت الشيطان داخله ولا يجب أن تسمح بذلك أبدًا..

لقد أصبح ملكها..
لكن شيئًا ما في ضعفه جعل شعورًا غريبًا يتسلل داخلها..
هي الآن أقوى..
هي الآن تستطيع أن تُطهره من ذنوبه..
شعرت بعد مكالمة «كَتْخُدَا» الطويلة، أنه أعاد معجزتها لها ثانية..
نهضت ببطء، ذهبت للمطبخ وعادت بالسكين الطويل الحاد، عادت له لتجده ما زال يصرخ كطفل تائه، كصياد يهجم على فريسته أحاطت عنقه بيدها وغرزت نصل السكين في رقبته، توقف هو تمامًا عن الصراخ وتصلب جسده وهو يقول برعب:
- بتعملي إيه؟
همست في أذنه:
- تعالَ معايا.
لم يكن «خالد» في حالة عقلية تسمح له بالمقاومة، تملك الخوف منه

وشعر أنه عاجز تمامًا، شعور أنه مسجون معها إلى الأبد جعله في حالة ارتباك، استسلم لها وهو يسير معها إلى غرفة النوم، شعر بخيط من الدماء الساخنة يسيل من رقبته، إنها لا تمزح.

ما إن دخلا الغرفة حتى همست «شيماء» بلهجة آمرة هذه المرة:

ـ نام على السرير.

كفاقد الإرادة والعقل، ذهب للفراش دون أن يفهم، أغمض عينيه وهو يبكي للمرة الألف، ليشعر فجأة بحبل غليظ يلتف حول يديه، فتح عينيه مذعورًا وقد استعاد إدراكه ثانية، فصرخ:

ـ بتربطيني ليه؟

كانت قد لفت الحبل حول معصم واحد، ما إن صرخ وبدأ يقاوم حتى وضعت نصل السكين على عنقه ثانية، فنظر لها مذعورًا..

كيف أصبحتْ لها تلك الهالة من القوة؟

عينها المجنونة الآمرة، قوة يدها التي تغرز السكين في عنقه، ماذا حدث لها؟

استسلم لها تمامًا وهو يرى الحبال كأصفاد من الحديد لا مفر منها، حتى ربطت جسده كلّه بالحبال، بدا مصلوبًا وكل أطرافه في اتجاه وقد قُيدت يداه وقدماه في عواميد الفراش الضخم..

وشعر بجسده يرتجف كأن روحه تتسلل من بين أصابعه ذاهبة إلى تلك الحبال..

روح تتركه معترفة أنه بهذا القيد أكثر قيمة من دونه..

قالت «شيماء» بعين سعيدة، لامعة:

ـ أنت لما مشيت الشياطين عرفوا يرجّعوك ليهم تاني، وأنا لازم أطهرك من نجاستهم.

نظرة الرجاء والتوسل التي ينظر بها إليها جعلتها تشعر شعورًا طاغيًا،

عيناه اللتان تستجديانها لترحمه، خلعت ملابسها الداخلية ببطء وشعور غريب يجتاحها.

شعور أن نظرته توقظ ذلك الحيوان البدائي داخلها..

الخامسة والثلاثون

كن بالإبداع الكافي حتى تعطيني نهاية مُميَّزة، النهاية تعتمد عليك أنت فقط

ملَّ الناس من النهايات الضعيفة المُعتادة

كنتَ تقليديًّا طوال حياتك، فلا تكن تقليديًّا في نهايتك

أريدك أن تُبهرني!

١٢:٠٠ منتصف الليل

نظرتُ لـ«علياء» بعد انتهائي من الفصل الأخير، كانت قد أتت بمِقعد من السفرة، وجلستْ عليه بجانبي، قلت بهدوء وأنا أشعر ببعض الراحة:

-أنا خلّصت.

حاولتْ أن تمزح فقالت باسمة:

-آجي أشَطّفك؟

لم أضحك ونظرتُ لها نظرة ملولة، قالت هي بجدية امرأة الأعمال:

-هتسميها إيه؟

قلت مبتسمًا:

-«عالم «كَتَخُدَا»»..

مطت شفتيها وقالت مستنكرة:

-إيه عنوان عالم سمسم ده؟ إختار اسم حلو بجد..

قلت بجدية هذه المرة:

-«أنتَ»، أو: «فليبدأ العبث».

تذوقَت الاسم لحظات، ثم قالت باسمة:

-ماشي، الاسمين مش بطّالين..

ثم قالت بلهجة قاطعة لا تقبل نقاشًا:

-بس مش هتنزل باسم «حازم كَتَخُدَا» ، ده اسم من أسوأ الأسماء اللي اخترتها لبطل رواية.

هززت كتفي بلا مبالاة، لم أعد أهتم بأي شيء، قلت وأنا أسند رأسي على الحائط من التعب:

-سمِّيه أي حاجة مش فارقة، مش مهم الاسم اللي على الغلاف يبقى «حازم»، ممكن يبقى أي حاجة تانية، واسم «حازم» يبقى جوة الرواية، المهم ما يكونش اسمي في الآخر.

صمتُّ قليلًا، ثم قلت وأنا أرفع سبابتي بهدوء:

ـ سمِّيه «محمد» أو «أحمد» وحطي بعديه أي اسم فاعل: كامل، صادق، عادل، أي حاجة، الأسماء دي أكتر أسماء متبعترة في مصر وما حدش هيدور وراها.

همَّت بالاعتراض، فقلتُ بصرامة هذه المرة:

ـ الرواية دي مش هتنزل باسمي، ده قرار نهائي ومش هارجع فيه..

زفرتْ في غضب، نهضت وسحبت مني الحاسوب، وعادت للمقعد مُسرعة، كنت أعلم أنها تريد أن تقرأ، قبل أن تكون ناشرة لأعمالي فهي واحدة من أقدم جمهوري.

رأيت فرحة عينيها وهي تقرأ، فابتسمتُ رغمًا عني، وأغمضت عينيَّ، عسى أن أرتاح قليلًا.

* * *

آخر يوم في الشهر الثالث.

يوم انتهاء الصفقة، آخر لحظات روايتي وانتهاء العقد..

يوم الخلاص..

دخل «رامي» غرفة مكتبي فجأة، كان يرتدي ملابس رثّة وحقيبة يد يرتديها كحزام الأمان، نظرت له نظرة متعجبة من كيفية دخوله للمنزل من الأساس، تحركت شفتاي بالكلام، لكنه لم يُمهلني فرصة وصوَّب مسدسه نحوي وأطلق رصاصته.

وضعت تخيلات كثيرة لصوت الرصاص، لكن صوت رصاصته كان أعلى مما توقعت بكثير.

انتفض جسدي رغمًا عني مع صوت الرصاصة الذي دوَّى كانفجار صغير، ثم سمعت صوت تهشم زجاج الأباجورة جانبي وهي تتحطم، عندما اخترقتها رصاصة تحذيرية هدفها إثبات وجهة نظر!

تأملت فوهة مُسدسه الصغير التي تصاعد منها دخان خفيف، نظرت لعينيه اللتين تلمعان بغضب وبرود..

قال بصوت قاسٍ، محوّلًا فوهة المسدس إلى صدري مباشرة:
- خليك فاكر إني مش خايف، وإنك لأول مرة من ساعة ما قابلتك..
وأكمل بقوة ليث مُتحفز للانقضاض:
- تحت رحمتي أنا.
أعجبني أنه يحاول أن يبدو قويًا ومتماسكًا، يجتهد أن يبث الرعب في قلبي حتى أطيعه، لا يعلم أنني أحتقر معظم المشاعر البشرية ولا أسمح بعبثها داخل عقلي!
دوائر العرَق تحت إبطيه، يده المهتزة هزة لا تلحظها إلا عيناي الخبيرتان، قطرات العرَق التي بدأت تظهر ببطء على جبينه، لغة جسده المتحفزة، هل رأيت قطًا خائفًا من قبل؟ يتقوس ظهره ويقف شعر فروته، هكذا كان أمامي رغم كل ما يحاول إثباته من تماسُك.
مسكين!
قطعتُ الصمت اللزج كجيلاتين بسكينِ صوتي الواثق وابتسامتي العابثة:
- ممكن آخد سيلفي بس قبل ما نبدأ؟ بقالي كتير قوي مستني المواجهة دي، عاوز أفتكرها بعد كده لما أكتبها.
لمحت الدهشة في عينيه، تحركت وأنا أعلم أنه لن يطلق رصاصة ثانية، نهضت من جلستي خلف المكتب وأعطيته ظهري، رافعًا يدي بهاتفي المحمول وأنا أبتسم. ظهر هو على شاشة الهاتف، يقف خلفي كالأبله وينظر لما أفعل بعدم تصديق، ضحكت وضغطت على زر التصوير لأسجل أغرب لحظة في تاريخ الصور.
لحظة مواجهة بطل الرواية، بكاتب الرواية!
لحظة تستحق - من نشوتها - أن أموت بعدها ولا أبالي!
أخذت الصورة ونظرت إليها بفخر، ثم جلست ثانية على المكتب ونظرت له باستهانة..

ليحتل الغرفة صمت تام يتخلل ذراته توتر عنيف..

الضوء غير المباشر في مكتبي يعطي انطباعًا هادئًا في المكان عكس نفوسنا المضطربة، نفس متحفزة وأخرى متحمسة. موسيقتي الهادئة التي أكتب عليها رغم أن الموقف الآن يستحق موسيقى عنيفة يصرخ فيها الكورال في جو كئيب، موسيقى الحروب عند اقتراب انتصار البطل في النهاية، أي موسيقى إلا تلك النغمات الهادئة التي تصدرها السماعات الكبيرة الآن.

«رامي» يقف أمامي، مُصوبًا مُسدسه ناحيتي، لم يعد يبالي بشيء..

هو هنا ليقتل..

فقط..

النهاية التي انتظرتها بفارغ الصبر، ثلاثة أشهر أنتظر أن يكتبوا نهايتهم بأنفسهم، ها هي الآن تكتب حروفًا ثم أسطرًا ثم صفحات كاملة، الجنون الحقيقي الذي لا يعرف الفرق بين شعرة المنطق واللامنطق..

العبث في أبهى صوره..

كل شيء هو الواقع لكن لا شيء حقيقي..

الطفل العابث داخلي مستمتع بأنني أواجه بطلًا من أبطالي، أخيرًا..

كان شهرًا رائعًا بالنسبة لي..

قلت له بعين تلمع من النشوة:

ـ أنا هاسجل الحوار بينا عشان أفتكره لما أكتبه.

قال لي بصرامة وأنا أضغط على زر التسجيل الصوتي في الهاتف:

ـ مافيش رواية هتتكتب من أساسه.

قلت مبتسمًا ببرودي المستفز، وأنا أهز كتفي بلا مبالاة:

ـ يبقى مش هتخسر حاجة، نسجله ونشوف بعدين إذا كان في رواية ولّا لأ.

صمت لحظات طويلة، قلت مُستحثًا إياه لبدء المواجهة:

ـ مش هتتكلم؟ يعني عملت الشو والرصاص والليلة دي وجاي تسكت؟

ثم أكملت كي أستفزه أكثر:

- أنا عندي نهايات بتتكتب دلوقتي، ما ينفعش تعطلني عنها.

كان قد نبتت شعيرات على ذقنه من الإهمال، بدا شكله مزريًا حقًّا وقد صار أكثر نحافة مما كان في وقت المقابلة، ما زال بدينًا بالطبع، لكنه أكثر نحافة من قبل، أشرت له أن يجلس في المقعد النبيتي الوثير الذي يواجهني، اتجه له وجلس واضعًا قدمًا على قدم ونظر لي في ثقة أعجبتني، أحب أنه بالبلاهة الكافية كي يتحداني، يمسك نفس المسدس الذي هدده «خالد» به، يسند يده بإهمال على المقعد، لكنه يضع فوهة المسدس في اتجاهي مباشرة..

قال «رامي» ببطء، وصوت هادئ:

- إيه النهايات اللي بتتكتب دلوقتي؟

هززت رأسي وأنا أقول ببسمة لا مبالية:

- ما باحبش أحرق رواياتي لحد.

نظر لي لحظات صامتًا، ثم قال بابتسامة أكثر ثقة من قوتي المسيطرة:

- السؤال المنطقي اللي بيتقال للشرير في نهاية كل الأفلام والروايات! أنت ليه بتعمل كل ده؟ إيه الهدف؟

أسندت ذراعي على المكتب ممسكًا قلمي الحبيب، ضايقني قليلًا أنه شبّهني بشرير الروايات، نظرت له نظرة ساخرة وقلت مجيبًا على سؤاله:

- الزهق، الملل، باحب اللعبة الحلوة. ها، بسرعة.. السؤال التاني.

لاحظَ استهزائي به فنظر لي بحدة، قلت بنفس الابتسامة:

- هتفرق معاك الإجابة في إيه؟ يعني أنت عملت كل اللي عملته ده عشان تعرف هدف؟

أومأ «رامي» برأسه إيجابًا ببطء، بدا أمامي كجثة بلا روح، قلت كي أقطع تلك الوصلة المملة، وقد كانت إجابتي لأول مرة جادة، أقولها باستمتاع:

- إني أشوف، إني أفهم أكتر، أعرف عقلية العبد وعقلية سيده، فكرة التسليم التام لإرادة حد تاني.

ثم ابتسمت ساخرًا وأنا أقول:

ـ إني لو أوهمت حد إنه مالوش أي اختيار، هيعمل إيه بحجة إنه مش هو اللي محدد مصيره!

عيناه مُتعبتان، جُفونه مُتثاقلة كأنها لا تجد روحه القوةَ الكافية لتفتحها، وجهه الطفولي أصبح تعيسًا، قال «رامي» بهدوئه القاتل:

ـ أنت فعلًا ما سبتش أي اختيار ليهم.

ابتسمت وأنا أنظر له، كم هو أعمى لا يرى شيئًا، يتكلم عنهم كأنه الحر الوحيد فيهم، لم يفهم بعد أن وقوفه أمامي مكتوب منذ بداية الرواية..

قلت بهدوء وأنا يعجبني إحساس أنني أشرح له عبقريتي:

ـ مافيش حد فيهم إلا وكان مُخير في كل حاجة بيعملها.

* * *

السؤال العاشر والأخير: إيه اللي نِفسك تعيشه في الرواية دي؟

أجابت «سارة» بابتسامة حنون:

ـ نِفسي أحس بكل حاجة عمري ما حسيتها قبل كده، نِفسي لما أموت الناس تفتكر آخر فترة في حياتي على إنها أسعد فترة في حياة «سارة محمد عبد المنعم».

* * *

نظر لي «رامي» ساخرًا بعد جملتي الأخيرة، أسعدني قليلًا أن سخريته بقت داخلة وسط كل ما فقده، قال كأنها يُفحمني بسؤال عبقري:

ـ «شيماء» ما كانش عندها أي اختيار في كل اللي حصلها..

كم أكره الغباء والسذاجة، يجعلاني أرغب في إلقاء أي شيء في وجه مَن يحدثني، أخذت نفَسًا عميقًا وقلت:

ـ «شيماء» أكتر واحدة كان عندها اختيار فيكم.

ودون أن أنتظر منه ردَّ فعل، فتحتُ الحاسوب وبحثت عن الصفحة التي أريدها، ثم قرأت بصوت عالٍ ما كتبته في الفصل الثالث بالضبط:

«بدأ جسدها في التحرك ليقطع أفكاره ويتنفض جسده في خوف، نظر للفتاة التي اعتدلت بسرعة على ملامحها رعب شديد، نظرت الفتاة للحبال وحركت يديها في قوة ودهشة، ظلت تنظر للحبل فترة طويلة أدهشته، ثم رفعت عينيها فجأة»:

لم أكمل الجملة، ونظرت لـ«رامي» الذي استقبلني بنظرة باردة متسائلة.

فقلت مبتسمًا:

ـ اختيارها كان هنا.

لم يبدُ عليه أي رد فعل، قلت له مباشرة رغم أنني أكره المباشرة:

ـ الحبال ما كانتش مربوطة، كانت لفّة حوالين إيديها بس، أنا نزلت بنفسي وفكيت الحبل وخليته ملفوف حوالين إيدها.

نظر لي «رامي» عاقدًا حاجبيه وهو يميل بجسده للأمام، فأكملت كلامي بشعور زاهٍ بالانتصار:

ـ طول الأسبوعين اللي هي بتُغتصب فيهم كانت مش مربوطة، بس كان عندها وهم إنها مربوطة، أول ما صحيت وبصت للحبل وحركت إيدها، اكتشفت أنها ممكن تخرج إيدها بسهولة جدًّا، بس هي فضلت مخلية إيدها جوة الحبل وبصت لـ«خالد»، اختارت إنها تشوف مين اللي خطفها. بعد ما هو خلص وسابها أقنعت نفسها إنها متقيدة، إنها مستحيل تبقى حرة.

وأكملت بابتسامة واثقة، أمام عينيّه اللا مباليتَيْن:

ـطول الأسبوعين كان قدامها اختيار إنها تمشي، كان قدامها اختيار إنها تهرب، بس هي فضلت قاعدة عشان هي حبست نفسها بنفسها، اختارت قيدها، عقلها اختار إنه يشوف الحبال مربوطة وإنها مستحيل تفكهم، صدقت إنها مجبرة وضحية، ومش قادرة تعمل حاجة عشان هي ضعيفة.

وأكملت ناظرًا لـ«رامي»، رغم كراهيتي الشنيعة للتفسير المباشر:

ـ «أشياء» في منها كتير قوي، بالذات البنات في مجتمعنا، بيبصوا على

الحبل ويوهموا نفسهم إنه مربوط، سواء الحبل ده بقى أهلهم، علاقتهم الزوجية، العادات والتقاليد، أي حاجة.

وأكملت بحماس، لربما فهم ما أقصد:

- مع إنهم لو حركوا إيدهم هيلاقوا إنه سهل قوي يتفك، كل ثانية عندهم اختيار إنهم يتحرروا، بس بيوهموا نفسهم إنهم ضعاف، بيوهموا نفسهم إن كل اللي مُوقَّفهم عن حياتم هي القيود، دور ضحية مُتقن بتصديق أنهم الأضعف، الضحية اللي مستنية دايمًا حد يخلصها من كل اللي هي فيه.

ساد صمت بعد كلامي، لم تختلف نظرة «رامي» اللامبالية، توقعت أن ينبهر قليلًا أو يدرك صعوبة ما أفعله معهم، لكنه بدا كصنم بلا روح وهو يقول متجاهلًا كلَّ ما قلت بنبرة باردة:

- وأنت أصلًا مين ادَّاك الحق إنك تعمل كده فيها؟ مين ادَّاك الحق إنك تخلي واحد ييجي يقتلني في بيتي؟ إيه الجبروت اللي يخليك تقتل بشر من لحم ودم؟

نظرت له مستنكرًا تفاهة سؤاله، ثم قلت ببساطة ما ظننت أنه مفهوم من البداية:

- أنتو طبعًا!

* * *

مُجيبًا عن السؤال العاشر قبل ثلاثة أشهر، قال «رامي» بابتسامة متفائلة:

- إنني أفهم حاجات كتير عن نفسي.

وضحك مُكملًا:

- وأبقى بَطَل مرة في حياتي بدل دور صديق البطل اللي عايشه عُمري كله ده.

* * *

قال «رامي» بسخرية، وهو يحاول أن يستعيد هدوءه:

- هتقولّي إحنا اللي ادّناك الحق لما مضينا على العقود، صح؟
أومأت برأسي إيجابًا، لينظر لي «رامي» قائلًا بحدة:
- إحنا لما مضينا العقود، كنا مِسلمين نفسنا لواحد عاقل، كاتب كبير، كاتب يقدر يخلي حياتنا كلها أحسن، مش مجنون سادي بيعذب أبطاله ويستمتع باغتصابهم وقتلهم، يستمتع إنه يعاقب بطلة إنها ما تاخدش علاج، ولا إنه يخلي زوجة تخون جوزها على سريره، إحنا سلمنا نفسنا لواحد ممكن يعرفنا إن فيه قيمة ما في حياتنا، هدف، يخلينا نشوف الدنيا أحلى، يرحمنا من العذاب اللي إحنا أصلًا عايشين فيه ويعيشنا قصة حلوة.
ثم أكمل باشمئزاز:
- لكن إيه الرواية المكتوبة دي؟ كم البشاعة والقرف والصياعة وقلة الأدب، لا أسلوبك ولا طريقتك في الكتابة من الأساس، ليه اخترت تعمل فينا إحنا بالذات كِده؟ ليه ما عملتش كده في أي بطل تاني من أبطال رواياتك الخيالية اللي قبل كده؟
نظرته تقول إنه يُلمح لشيء أبعد من هذا، لكني تجاهلته، أكمل هو بابتسامة مريرة ساخرة:
- بأي منطق ترحم اللي من خيالك وتفشخ اللي في الحقيقة!
قلت ردًا على جملته:
- وأنت فاكر إني حابب أكتب القرف اللي بتعملوه ده؟ ليه ما تقولش إن أنا اللي كان نفسي أبطالي يبقوا أنضف من كده! أوسخ بطل ألّفته في خيالي ما وصلش لرُبعكم!
وأكملت وأنا لا أدري ما الذي لا يفهمه:
- يا ابني باقولك أنتو اللي عملتوا كده، «خالد» كان ممكن يضحي ويقولي مش هاخطف البنت، زي ما «سارة» عملت ورفضت إنها تسيبك، بس هو من جواه رفض يضحي بحاجة كبيرة وخطف «شيماء»، كان عنده اختيار ما يغتصبهاش، كان عنده اختيار إنه يسيبها بعد ما يغتصبها، الحاجة الوحيدة اللي اخترها صح إنه ما يقتلكش!

وقلت بابتسامة جانبية ساخرة:

- صح بالنسباله هو طبعًا، بالنسبالي كنت أتمنى إنه يقتلك عشان الرواية تبقى أحلى.

قال «رامي» بغضب:

- مش أنت اللي أمرت؟ مش أنت اللي قلتله يخطف؟ أنت اللي أمرته يقتلني؟ أنت أمرتني أروح لـ«سارة» في المستشفى، فين الاختيار وأنت اللي بتؤمر بكل حاجة؟

صمت لحظات طالت..

لا أحد يحق له أن يعرف إلا في الوقت المناسب..

كنت سأخبرك بالطبع يا صديقي لكن في الوقت المناسب، نظرت للمسدس الذي لا يُخيفني على الإطلاق، قررت أن أريح عقله ولو قليلًا:

- الحاجات دي برضه من اختياركم أنتم، عشان كل واحد فيكم اختار رقم.

وصمت قليلًا، ثم نظرت له قائلًا ببرود:

- أرقامكم هي اللي عملت فيكم كده.

* * *

قال «طه» بابتسامة سعيدة هادئة، مُجيبًا عن السؤال:

- نِفسي أعيش في الرواية حالة مختلفة عن حياتي، أنا طول عمري مثالي وباحب أعمل الحاجة بالطريقة الصح جدًّا، دي أكتر حاجة مضايقاني، دايمًا الناس بتقولّي إني أنا اللي مِضَيع حياتي وأحلامي بإيدي، عشان باتمسك بالصح قوي.

وتحولت بسمتُه لبسمةِ شجن قليلًا وهو يُكمل:

- عاوز أعرف إجابة السؤال اللي بيطاردني طول عمري، لو أنا عملت كل حاجة بطريقة مختلفة، هاوصل للي أنا عاوزه ولّا لأ؟

* * *

ما زال الجو مشحونًا في المكتب بطريقة تُثير حماسي..

ساد صمت طال و«رامي» يتأمل فيما قلت، ثم قال وهو يبتسم، مُضيقًا عينيه كأنما وصل أخيرًا لما يريد أن يعرفه:

ـ الأرقاااام!

صوت التكييف الهادئ، الإضاءة غير المباشرة، الموسيقى التي بدأت أن يعلو إيقاعها كأنها تشعر بنا، كل العناصر التي تجعل من «رامي» شيئًا صغيرًا جدًّا بالنسبة لخيالي الذي يتحقق أمام عيني الآن.

مال عليَّ بكُرسيه وقال متسائلًا:

ـ يعني إيه بقى الأرقام دي؟

قلت له الإجابة في بساطة، كأنني أقول شيئًا عاديًا:

ـ حبكات.

نظر لي في عدم فهم، فنظرت له لحظات أُقيم إذا كان سيفهم جنوني أم لا، هل يستوعب عقله الصغير ما أفعله؟ قلت ببطء كأنني أفهم درسًا صعبًا لطالب أبله:

ـ في واحد اسمه «جورجيس بولتي»، كتب أن كل الحبكات أو التيمات الدرامية مكونة من ٣٦ حبكة، وكتب كل حبكة بالرقم بتاعها.

أشرت بيدي للرسمة التي تحدثت معها من قبل، تأملها «رامي» في عدم فهم، كانت رسمة لـ«جورجيس بولتي» نفسه، قلت وقد بدأت أتحمس قليلًا في الشرح:

ـ تخيل معايا إن كل الأدب لحد دلوقتي ما خرجش برة الـ٣٦ حبكة دول، مافيش حد عرف لحد دلوقتي يخرج برَّاهم، في ناس حاولت تختصرهم لعشرين، وناس تختصرهم لأرقام تانية، بس ما حدش عرف يزود حبكة واحدة زيادة على الـ٣٦ حبكة اللي كتبهم «بولتي».

وهذه حقيقة لو تعرف كم هي مستفزة بالنسبة لكاتب مثلي لأشفقت عليَّ، لأن «بولتي» فصَّل بدقة كل المواقف الدرامية، وكلما حاول أي كاتب

مهما كان أن يخرج منها، يكتشف في النهاية أنه دخل في قائمة الـ٣٦ حبكة.

لو أنك لا تفهمني، تخيل معي أن هناك مَن قال لك إن البشر كلهم عشرة أنواع، ومهما فعلت أنت فستقع ضمن هذه القائمة، ستشعر أن هناك مَن يربطك من قدمَيك ويجعلك مجرد رقم ما في قائمة، ستشعر أنك عادي بلا أي ميزة مهما فعلت.

سترغب في التمرد الدائم وإثبات أنك النوع الحادي عشر..

أكملت بهدوء لـ«رامي» الذي أصبح تركيزه كلُّه معي الآن:

- كل رقم اخترتوه بيساوي رقم في قائمة «جوريس بولتي». من الآخر كده، كل واحد فيكم اختار حبكة، وأنا كان كل دوري إني أخليكم تعيشوا الحبكة دي، وآخد ردود أفعالكم، وأكتبها.

قال «رامي» وقد بدأ صوته يحتد ثانية:

- وإزاي تخلينا نختار أرقام إحنا ما نعرفش هي إيه؟ أنت بتسمي ده اختيار؟

قلت فلسفتي التي يكرهها جميع مَن أعرف:

- ما إحنا كلنا اخترنا أرقام وإحنا مش عارفين هتودينا لفين!

ونهضت من مقعدي، لأبدأ السير في الغرفة كما أحب وأنا أتكلم، رفع «رامي» مُسدسه في تحفز، فأشرت له ألا يَخَف باستهانة، وقلت مُكملًا غير عابئ بكل ما يفعل:

- الحاجة المستفزة في قايمة «بولتي» إنها مش بس بتحدد حبكات الدراما والروايات والأفلام.

ونظرت له عسى أن يفهم:

- مشكلتها بالنسبالي أنك لو بصيت أبعد شوية، هتلاقيها بتحصل لينا إحنا، الـ٣٦ حبكة بنعيشها بنفسنا في أرض الواقع، وبيعيشها كل اللي حوالينا.

وأكملت بغيظ ناسيًا نفسي:

- إن كل قصص اللي حوالينا في العالم كله، ما خرجتش عن الـ٣٦ حبكة دول.

قال «رامي» اعتراضًا سخيفًا:

- وأنت إيه اللي يعرفك إن مافيش قصة خرجت فيهم عن الـ٣٦ حبكة دول، ما يمكن فيه بس أنت مش عارف؟

قلت وأنا أرغب في تحطيم رأسه من أسئلته البلهاء:

- اقرأ التاريخ، اقرأ حتى في الديانات، في قصص الأنبياء، هتلاقي أحداثهم عبارة عن حبكات، حبكات متقنة وبتتكرر كل شوية وما حدش واخد باله، ييجي اللي يقولك التاريخ بيعيد نفسه، لأ، التاريخ مش بيعيد نفسه، التاريخ مفروض عليه حبكات وما ينفعش يخرج عنها، فلازم تتكرر، فاهمني؟

نظر لي في عدم فهم، فقلت مُشوِّحًا بيدي في عصبية:

- مش مهم.

وأكملت شاردًا فيما أشرحه، وقد أخذتني الجلالة تمامًا:

- معنى كده إن كل بني آدم ليه حبكات بيمشي فيها، هو بيختار أرقامها طول ما هو ماشي، أكيد بيجيلك وقت بتلاقي فجأة كل اختياراتك بتيجي عليك بذروة ونهاية، لازم نتفق مع بعض على مبدأ ثابت إن الإنسان مُخير من ساعة ما بيتولد لحد ما بيموت، هاديك مثل بسيط قوي يمكن تفهم.

وأكملت وأنا أمسك قلمًا وأكتب على حائط الغرفة دون أن أبالي:

- أنت بتتولد وأنت عايش في حبكة أبوك وأمك ونهاية قصتهم، وجودك إنتَ شخصيًا هو نتيجة اختياراتهم هم على فكرة، يعني مش مكتوب ولا حاجة!

وأخذت أرسم ما أقول على الحائط:

- بتتحمل اختياراتهم سواء صح أو غلط، بتخش المدرسة وتبدأ حياتك، فجأة بعد رحلة الدراسة واختياراتك فيها بتطلع «النتيجة»، «النتيجة» دي نهاية الحبكة الأولى والرقم الأول اللي اخترته أنت، النتيجة ليها كذا اختيار، إنك تختار كلية معينة مثلًا من وسط كذا جامعة، ده كده اختيارك للرقم

التاني في الحبكات، بتعيش وتحب وتسيب وتنجح أو تسقط، نجاحك حبكة، سقوطك حبكة تانية، الشغل حبكة ثالثة...

وقطعت كلامي وأنا أنظر للرسمة التي أصبحت دوائر كثيرة متداخلة:

ـ تفضل سنين عمرك حبكة ورا حبكة، تتحط قدام اختيار، تتعامل مع العواقب اللي بعدها بتنقلك على اختيارات تانية، لحد قصة ارتباطك أنت ومراتك، تتجوزوا، توصلوا لنهاية حبكتكم مع نهاية عمركم، عشان يعيش ابنك وبنتك مساوئ الحبكة اللي أنت اخترتها، لحد ما يبدأ ابنك يخش في حبكته اللي بيختار رقمها.

لاحظت أنني قلت كلمة «حبكة» أكثر من عشرين مرة تقريبًا في كلامي، لكني لم أبالِ، نظرت لـ«رامي» الذي عقد حاجبيه وبدأ يفهم قليلًا مما قلت، أعلم أن كلامي ليس مُعقدًا، وأعلم أنه يفهم الكلام لكنه لا يفهم منطق المجنون الذي يتكلم أمامه. أكملت بحيرة كأني أسأله:

ـ يبقى كلنا عايشين في حبكات، السؤال اللي محيرني هو إزاي أختار الرقم؟ كلنا بنتعاقب على أول اختيار حصل في تاريخ البشرية من «آدم» عليه السلام. هو اختار إنه ياكل التفاحة رغم كل التحذيرات، شال نتيجة تصرفه غير المسئول، بشرية كاملة...

وأكملت مقاطعًا تسلسل أفكاري، كي أثبت نقطةً ما ليس أكثر:

ـ أنت عارف إن قصة «آدم» هي الحبكة رقم ١٧؟ بعدها قصة قابيل وهابيل هي الحبكة رقم ١٣؟

قال «رامي» باستهانة:

ـ بس حبكات اللي اسمه «بولتي» دي مش قرآن نمشي عليه، ممكن تطلع غلط.

لا يعلم أني سألت نفسي كل تلك الأسئلة. جاوبته في إحباط من سؤاله:

ـ أنا عارف إنها مش قرآن طبعًا، هو جمع حبكات كل الروايات والأفلام اللي شافها، وقال إن «الأدب» ما بيخرجش عن الحبكات دي، طبيعي جدًا

إني أطبق الحبكات على الواقع، لأن الفن بيسرق قصصه من الواقع.

وأكملت أطول حديث خضته مع بشري آخر في حياتي:

- أنا بانجداك تدوَّر في كل قصص اللي حواليك، هتلاقي ما حدش فيهم خرج عن الحبكات دي في الواقع.

قال «رامي» بهدوئه الذي يجعلني أشعر أنه يُقيمني إذا كنت مجنونًا أم عاقلًا:

- طب أنت عاوز إيه في الآخر من كل الكلام ده؟

اعجبني سؤاله أخيرًا، قلت وأنا أشعر بقشعريرة تسري في جسدي كله:

- إني أبقى أول واحد في التاريخ يكتب حبكة زيادة.

وأكملت مُنتشيًا، ناسيا عالمي كلّه وأنا أنظر لأعلى:

- إني أكتب الحبكة الـ٣٧.

* * *

منذ ثلاثة أشهر كاملة، أجابت «آلاء» عن السؤال العاشر بابتسامة واثقة:

- أنا باقرالك كل رواياتك، عارفة إنك هتفشخنا كلنا، هتخلينا نشوف جوَّانا حاجات ما شوفنهاش قبل كده.

وأكملتْ وهي تهز قدميها وتنظر لعينيَّ مباشرة:

- بس أنا نِفسي في روايتك أعيش مشاعر ما شوفتهاش قبل كده، أنا محظوظة وعارفة كده كويس قوي، عملت كل حاجة غلط وفي الآخر لاقيت النهاية السعيدة اللي كل بنت بتحلم بيها، نِفسي تعيشني حاجة احسها لأول مرة، حاجة عمري ما عملتها قبل كده، حاجة أفضل فكراها طول عمري.

وأكملت بعينيَّن تلمعان:

- نفسي تغيّرني وتخليني حد أحسن.

* * *

أكملت جملتي والنشوة تتملكني:

- الحبكة اللي ما حدش كتبها قبل كده.

نظر لي منتظرًا باقي كلامي، فقلت بنفس الحالة ووجوده أصبح غير ملحوظ بالنسبة لي:

- رواية بتحكي عن كاتب مشهور، خد ناس حقيقية من لحم ودم، وعَيشهم كلهم في الـ ٣٦ حبكة اللي كتبها «بولتي»، دخَّلهم في الـ٣٦ حبكة اللي بيمر بيها البشر كلهم من ساعة ما اتخلقنا.

ثم هززت كتفي وأنا أرفع إصبعًا واحدة، وقلت بسخرية:

- حبكة واحدة بس مش موجودة في روايتي، رقم «٦»: الكارثة، بس قلت لما هاكتب إننا في ٢٠١٦، وإن إحنا في مصر، الناس هاتفهم الكارثة لوحدها.

قال «رامي» الذي بدأ أن يتذكر ما قرأه في روايتي:

- إحنا ما عشناش ٣٦ حبكة في روايتك.

أشرت إلى اللوحة وقلت في حماس:

- كل واحد فيكم عاش حبكاته.

نهض «رامي» بحرص يقرأ المكتوب في اللوحة الخشبية الكبيرة، أخذ يقرأ بتركيز شديد، سألني وهو يشير لأول اسم:

- أنت كاتب نفسك؟

أومأت برأسي أن نعم. فأخذ يقرأ في صمت..

زمَّ شفتيه في سخرية وقال دون أن يلتفت لي:

- بسم الله ما شاء الله، كاتب لنفسك كل الحاجات بتاعة المجانين.

لم أرد عليه من سخافة ما قال، فأكمل هو قراءة في صمت..

أشار «رامي» لصورة «طه» واسمه، وقال معترضًا:

- يعني «طه» بالصدفة اختار رقم يناسب تاريخه؟ ثم عرفت إزاي إن في حقيقة مشينة عن أحد الأقارب؟

قلت مستمتعًا بما يحدث، بابتسامة مُنتصِرة:

- «طه» فعلًا اختار الرقم ده عشوائي، ولو أي حد فيكم كان اختار العداوة بين الأقارب كنت هالاقيها بسهولة، إحنا في زمن مافيش عيلة واحدة إلا وبينها وبين بعض مصايب الدنيا والآخرة..

وأكملت بثقة:

- وكلنا في حياتنا عملنا حاجة زي الزفت ولو اتكشفت هنروح في داهية، بالتالي لو قريب لينا عاوز ينتقم عرفها هيتقم بيها. وأي «هاكر» مُحترف يجيب لي كل حاجة أنا عاوزها، إحنا في الوقت اللي كل واحد يخزن فضايحه على موبايل وكمبيوتر!

وأكملت مثبتًا ما قلته سابقًا:

- دي حبكة كلنا بنقع فيها، ما بتتغيرش، نعمل حاجة لو اتكشفت، صورتنا اللي راسمينها قدام الناس هتبوظ.

لم يعلق «رامي»، وأكمل قراءة دون توقف..

ما أن وصل لإسمه وقرأ حبكته الأولى، التفت لي وقال رافعًا أحد حاجبَيْه في سخرية:

- الحماقة المُدمرة؟ الله يكرمك.

لهذا لا أحب أن يرى أبطالي أي شيء عن وجهة نظري فيهم. قلت له بهدوء:

- حبكة الحماقة المُدمرة هي الشخص اللي بيعمل غلط وهو وغيره يتحملوا مسئوليتها، أنت حياتك كلها سلبي، طاقة سلبية ويتمتص كل اللي حواليك في الدايرة دي، حبيت واتعلقت بواحدة هتموت، عاوز إيه أكتر من كده؟

نظر لي لحظات دون رد، ثم أكمل قراءة بصوت عالٍ كي أسمعه هذه المرة:

- الرقم الذي اختاره: «٣٦» فَقد الأحباب.

نظر لي ثانية لحظات مفكرًا، فقلت بسخرية:

- أنت هتبصلي في كل جملة عنك؟ مش هنخلص كده.

قال لأول مرة بغضب، وهو يدرك الحقيقة التي جعلت قلبه يحترق:

- أنت خليتني أتعرف على «سارة» عشان عارف إنها هتموت؟

أومأت برأسي أن نعم مبتسمًا رغمًا عني..

* * *

أجاب «خالد» بثقة شديدة:

- أنا طول عمري نِفسي أكتب عن القيود، إزاي كل حاجة حوالينا بتقول لنا إن إحنا لازم نبقى أحرار مع إننا مُسيرين في كل خطوة، هي القيود اللي ربطانا في الأرض دي ومنعانا نطير بأحلامنا وتخيلاتنا، القيود دي مكتوبة علينا ولّا إحنا اللي مختارينها؟

* * *

قلت له بنبرة حاولت أن أجعلها هادئة، حتى لا يبكي كالنساء ويضيع عليَّ متعة المواجهة:

- ما تضحكش على نفسك، أنت عارف إن أنت اللي اخترت الرقم من غير أي تدخل مني، ثم أنت طول عمرك عايش في الحبكة دي من قبل ما تجيلي، من ساعة ما أبوك وأمك ماتوا.

وأكملت أمام نظرته النارية:

- وكمان أنت اللي اخترت تكمل وأنت عارف إنها هتموت، أنت اللي اخترت تتعلق بيها وتحبها والنهاية سودة.

قال في حيرة والحقيقة تؤلمه ولا ترحمه، ودموعه تظهر على عينيه:

- يعني لو أنا كنت اخترت أي رقم تاني...

أكملت له الجملة بنفاد صبر:

- كنت عمرك ما هتعرف حد اسمه «سارة» أصلًا.

ثم قلت في فضول حقيقي وأنا أرفع حاجبيَّ:

- أنت اخترت الرقم ده ليه أصلًا؟

هبطت دموعه رغمًا عنه، لا يعرف كيف يُفكر، قال بصوت خفيض متألم وهو ينظر لي:

ـ عشان عندي ٣٦ سنة.

وأكمل متسائلًا:

ـ شُفت سبب أتفه من كده؟

أعلم أنه شارد في كل شيء الآن، هل هو مَن اختار أم أنا مَن أجبرته؟ هل يندم على معرفة «سارة» أم يعشقها حتى النخاع ويعشق كل أيامه معها؟ نظر لي في حيرة ودمعته تهبط، بدا كطفل يفتقد أمه، التفت إلى اللوحة ليكمل قراءة، حمدت الله أنه لم يسألني عن كل هذا، جذبه الاسم الذي يليه فذهب إليه في لهفة وقال وهو يقرأ بتركيز ويتأمل الصورة باشتياق..

مد يده العاشقة ليتحسس صورتها، بكى أكثر عندما قرأ آخر رقم، لقد ضحَّت بكل شيء كي تظل معه..

صمت تمامًا وهو يعطيني ظهره، جلست وفردت قدميَّ على المكتب، ووضعت يديَّ خلف رأسي كي أسنده، أغمضت عينيَّ قليلًا حتى ينتهي من الحالة التي أصابته..

عقليتي ككاتب تجعلني أملُّ بشدة من كل ما يحدث..

أريد الانتقال للفصل الآخر من الأحداث..

أريد أن أعرف نهاية تلك المواجهة سريعًا..

* * *

ردت «شيماء» بعد لحظات من الشرود التام، ثم قالت:

-نِفسي في روايتك أعرف حاجة واحدة بس أعيش عشانها، أنا حاسة إني بقيت صنم، ماليش ميزة وماليش هدف، من ساعة ما ابني مات وأنا مش لاقية حد أعيش عشانه، مش لاقيه هدف أعيش عشانه، نِفسي أشوف الدنيا على حقيقتها وأعرف أنا المفروض أعمل فيها إيه.

وأكملَت ناظرةً لي بعينٍ ضعيفة:

ـ أنا عاوزة أعرف هو القدر هو اللي غلط؟ ولّا أنا اللي مجنونة ومش فاهمة حاجة!

* * *

السادسة والثلاثون

آخر القواعد: اعلم يا بطلي أنك مَن اخترت أن تكون بطلًا لي

اعلم أنني لن أعاملك إلا بالعدل الذي تستحقه، اعلم أنك في يد روائي ماهر

عندما تقرأ روايتك فيما بعد، لا تندم على ما تقرؤه، عِش مرفوع الرأس

لأنك جعلت

الملايين بعدك يعرفون قيمة الاختيار الحقة

في النهاية، أنا أعشق كل أبطالي، وبالتالي أنا أحبك

شكرًا لأنك كنت جزءًا من روايتي

وداعًا

٤:٣٠ قرب الفجر

نظرت لي «علياء» دامعة العين، لم تكن تعرف حتى الآن السبب الحقيقي وراء ما حدث لي..

قالت لي بصوت مبحوح:

ـ اللي مكتوب ده حقيقي؟

أومأت برأسي إيجابا في صمت..

* * *

ظل «رامي» يبكي بدموع صامتة بعدما عرف كل شيء..

زفرت في ملل ونظرت لساعتي، أعلم ما يدور داخله وأُدرك أنه في مرحلة فاصلة، سينفعل عليَّ الآن ملقيًا بكل عجزه على كاهلي، سيقول لي إنني السبب وإنني مجنون، وكل هذا الكلام المعتاد. كل هذا أشعره ولكن الفضول يساورني في كيفية إنهائه للأمر، هل سيقتلني؟ هل سيفعل أي شيء ذي قيمة؟ أم سيفر هاربًا بسلبية كما يفعل طوال عمره؟

استعدت نفس الشعور السخيف عندما تقف أمام «ميكروويف» منتظرًا عداد الدقائق أن ينتهي، دقائق تكون بطول العمر ذاته..

كما توقعت، قال لي «رامي» بعد أن هدأ، دون أن يلتفت إليَّ:

ـ و«ديما» حبكتها إيه؟

للحق لم أتوقع تلك الكلمة! قلت له ببسمة هادئة، لكن بنبرة واثقة، مُحذرة:

ـ «ديما» اسم مش مسموح لواحد زيك ينطقه أصلًا.

ابتسم كأنما أسعده أنه استفزني. قال بهدوء وهو يستعيد قوته ثانية:

ـ ليه؟ طب تحب أقولها «مريم»؟

اعتدلت لحظتها في غضب لأول مرة، لم أكن أعلم أنه قرأ شيئًا عن روايتها..

سألته رغم أنني أعرف الإجابة، محاولًا أن أستعيد هدوئي:

ـ أنت عرفت اسم «مريم» ده منين؟

قال «رامي» مستخدمًا أسلوبي المستفز الساخر، حتى إنه حاول أن يُقلد صوتي وطريقتي:

ـ أنا «رامي محمود راضي»، باعرف كل حاجة لوحدي!

يسخر مني ويصمت كما أفعل أنا بهم، أشعر بالضيق لأنه يقلد سيطرتي دون أن يملكها فعلًا، شعرت أنه فارغ ويحاول أن يفرض شيئًا لا يمتلك أدواته، صمتُّ ناظرًا له، قلت مُستعيدًا سيطرتي عليه بنبرة هازئة:

ـ أنت عارف المشكلة في إيه؟

التفت لي بعين متسائلة، لأكمل أنا معاقبًا إياه على تطاوله بذكر «ديما»:

ـ إن البشر أضعف من إنهم يعترفوا إنهم السبب في كل حاجة بتحصلهم..

نظر لي بعين ملولة، لم أهتم، فرفعت إصبعين قائلًا:

ـ الجهل، والكِبر.

لم يفهم «رامي» على الإطلاق ما أريد أن أقوله، أسعدني هذا وأنا أُكمل:

ـ الجهل بكل المصايب اللي عملوها في حياتهم، هو أبشع شيء ممكن، إنهم فاكرين نفسهم ملايكة، الجهل والكبر همَّ أسوأ الخطايا..

عقد «رامي» حاجبَيْه، وقال باستخفاف ساخرًا:

ـ كلام لطيف، استفدت منه أنا إيه في الآخر؟

قلت مُتجاهِلًا سُخريته عن عمد:

ـ ده اللي حاصل معاك دلوقتي، أنت بتتكلم عنهم كأنك مش منهم، كبرياؤك وجهلك مخليينك رافض الاعتراف إنك جزء من اللعبة، أنت شايف إنهم غلابة ومساكين وإني أجبرتهم على حاجات، وإنك البطل الوحيد المُنقذ اللي جاي تخلصهم.

وقلت ببطء كي يسمع كل حرف:

ـ أحب أقول لك إنك أقذر واحد فيهم.

انفعل أخيرًا ولمحت في عينَيْه غضبًا أنتظره، لم أُبالِ وأكملت وأنا أنظر لعينيه مباشرة:

- أنا وأنت عارفين إن «سارة» لو فضلت عايشة كنت هتبقى عايش أجمل أيام حياتك، أنت أكتر واحد أناني فيهم، مش عايز تتحمل مسئولية اختيارك! لو «خالد» هو اللي جالك يقنعك تسيب «سارة» وتثور ضدي، كنت هترفض وكانت «سارة» هترفض، أنت بتتهرب من كل اختياراتك وعايش ترمي المسئولية على موت أبوك وأمك، على ظروفك، عليَّ أنا، وعلى ربنا.

ومقلدًا سخريته السخيفة قلت:

- عامل زي اللي بيسوق عربية بسرعة وأول ما يعمل حادثة ويتعور، يقول وهو بيعيط: «ليه كده يا رب».

وابتسمت بثقة مُكملًا في تدميره:

- الفرق الوحيد بينهم وبينك إنهم فهموا، عرفوا إنهم اختاروا كل حاجة، اختاروا مسار قصتهم بإيدهم، أنت الوحيد اللي مش عاوز تفهم، خايف تصدق إنك إنت اللي عملت في نفسك كل حاجة وصَّلتك للي إنت فيه.

وأغمضت عيني وصمت قليلًا حتى أرتاح من الكلام، قلت بعد فترة دون أن أفتح عيني:

- بتكلمهم عن الحُرية وإنت أكبر عبد فيهم. عبد لخوفك. لرُعبك إنك تشيل مسئولية كل وجع اتوجعته قبل كده.

* * *

٤:٣٠ قُرب الفجر

تركَت «علياء» دموعها تتساقط وهي تنظر لي، أدركت الآن فقط كل ما مررت به، أدركت لماذا انكسر الكاتب الذي عاشرَته عمرها كله صلدًا لا ينكسر، نظرت للأرض وقلت بابتسامة حزينة:

- الرواية عندك أهِه..

ونظرت لها بعينَيْن دامعتَيْن، مبتسمًا نصف ابتسامة وأنا أقول:

- أظن دلوقتي عرفتِ ليه ما ينفعش تنزل باسمي..

* * *

أشرت لحاسوبي مُكملًا بابتسامة واثقة:

- إقرا الرواية كلها، وشوف مسار كل قصة، هتعرف إني ما ادَّخلتش في أي حاجة، باجهز الحبكة اللي همَّ اختاروها، وباكمل القصة معاهم باختياراتهم!

قال مُحارِبًا في منطق أقوى من ضعفه:

- أنت اللي عاقبت «سارة»، أنت اللي قُلتلها ما تتعالجش.

قلت بعصبية وقد مللت من التكرار:

- ما هوَّ ده اللي قلت عليه «وَهْم الإجبار»! أنا كنت هاعملّها إيه لو راحت اتعالجت؟ كنت هموّتها مثلًا؟ «سارة» الوحيدة اللي اختارتك رغم إرادتي، إيه اللي يمنعها تتعالج غصب عني؟

ونظرت له مبتسمًا، قائلًا ما لا يريد إدراكه:

- «سارة» عنيدة، عمرها ما كانت هتسمع كلامي إلا لو كانت هي نفسها عاوزة نفس الشيء، «سارة» من جوّاها ما كانتش عاوزة تتعالج، أنت اللي مش عاوز تفهم ده، «سارة» كانت عاوزة تموت وترتاح من مستقبل مرضها الصعب.

دمعت عيناه، بدا أنه سيضغط زناد المُسدس، ارتعشت يداه وأنا أقول بجدية شديدة:

- إيه آخري لو خالفتوا الأوامر؟ هاقتلكم؟ ما «خالد» ما قتلكش وانا ما عملتش فيه حاجة.

وقلت وقد بدأ صوتي في الارتفاع:

- كان لازم أوهمكم إنكم مُجبرين، عشان أشوف نتيجة الكِبر وعدم تحمُّل المسئولية.

ساد صمت طويل بعد جملتي، بدأت المواجهة تدخل في إطار المعتاد،

الإيقاع هدأ ولم تَعُد تثير حماسي، لماذا لم يكن «خالد» أو «آلاء» هما مَن تمرَّدا وقررا مواجهتي؟ كان الحوار سيصبح عظيمًا، لكن هذا الشاب العاطفي البدين، بضعف منطقه جعل كل شيء بالنسبة لي.. مُملًا..

وضعت يدي على المكتب، وزفرت في إحباط، قلت بصراحة مُطلقة:

- كان نِفسي مواجهتنا تبقى أحسن من كده، كان نِفسي تبقى حاجة لما أكتبها في الرواية أبقى فخور بيها، حاجة عبقرية كده تغير من الناس.

والتفتُّ له باحتقار قائلًا:

- بس أنت أسئلتك غبية ومكررة وسطحية، أنا زهقت.

وأشرت للباب قائلًا باستهانة، أمام نظرته المندهشة:

- إطلع برّة.

ضحك «رامي» ضحكة غاضبة، وهو يقول باستهانة:

- أنت مش عارف ما تبقاش نرجسي؟ بتطردني وأنا معايا المُسدس؟

قلت له بصرامة وأنا أكرر:

- إطلع برّة.

شهر مُسدسه في اتجاهي ببرود، قال بقسوة لا تليق على ملامحه البريئة:

- إنت اللي شكلك مش فاهم وضعك دلوقتي!

وقال آمِرًا:

- امسح الرواية.

رفعت حاجبيَّ في استهزاء وأنا أقول ببسمة جانبية:

- مستحيل طبعًا. لو مسحتها هتختفي من قدامي.

لم يفهم الدعابة، قال بغضب أكثر حتى يُخيفني:

- باقولك امسح الرواية، امسح كل حاجة عندك ليها علاقة بينا.

يا لَلملل! أشعر أننا في نهاية فيلم ساذج إنتاج الثمانينيات، لماذا بعد كل هذا الجهد تخرج النهاية بتلك الكارتونية، قررت أنني سأكذب في كتابتها وأجعلها أكثر جدية، كررت كلمتي للمرة الأخيرة وأنا أضغط على كل حروف الكلمة:

- إطلع برّة.

وجدت مَن يفتح الباب مع نهاية جُملتي الصارمة لـ«رامي»..

وظهرَتْ مَن وَزَنت المعادلة بوجودها الساحر..

«ديما»..

* * *

٤:٣٥ قُرب الفجر

تركَت «علياء» مقعدها، اقترَبت مني وجلسَت على الأرض، مدت يدها لتواسيني، فرفعت يدي السليمة في إشارة صارمة ألّا تفعل، نظرت لعينها الحنونة وقلت ما كنت أريد أن أقوله منذ بداية اليوم:

- كان نفسي ألحق أخلصها قبل ما نروح لـ«ديما»...

وأكملت وأنا أتنهد كي أحافظ على قوة صوتي:

- النهارده عيد ميلادها، واليوم اللي قلنا لبعض فيه إننا بنحب بعض، وأنا متعود أديها هدية خاصة، ما حدش يقدر يديهالها غيري..

قالت «علياء» بحنان:

- كنت هتديها الرواية عشان تفتكرك؟

تنحنحت حتى أستعيد تماسكي، وقلت ببرود:

- كنت ناوي أعمل كده..

وأكملت أمام نظرتها المتسائلة:

- بس دلوقتي قررت إني مش هاديهالها..

* * *

ابتسمت وأنا أنظر لها بحنان، غابت عني لمدة أسبوع كامل، نهضت كي أحتضنها كعادتنا لكنها وقفت بجانب «رامي» في صمت، نظرتُ لها في دهشة، ثم سألها «رامي» وهو ينظر لي شامتًا:

- خلصتِ مشوارك يا «مريم»؟

نظرت «ديما» له نظرة لائمة، ثم قالت بهدوء:

ـ المحامي فسخ كل العقود بموجب التوكيل العام اللي معايا.
ثم استطردت قائلة بصرامة:
ـ واسمي «ديما».
لم أبالِ بتنهيدة «رامي» وارتياح قلبه، وتحديقه الشامت فيّ..
ونظرت لها متسائلًا في صمت..
ثم ابتسمت بهدوء رغمًا عني، وأنا أدرك كل شيء دفعة واحدة..
فتاتي الملائكية تريد أن تختار ثانية..
لقد نجحَت خطتي أخيرًا..
كعادتها: رقيقة، طيبة، مجنونة. عندما اختارت، اختارت صف الضعفاء..
قالت وعيناها تقولان لي ما أقرؤه دون جهد. كانت تقاوم شيئًا عنيفًا داخلها:
ـ أنا لو مكانهم مش هاختار إن الرواية تنزل.
أشرت لـ«رامي» وأنا أقول لها بهدوء:
ـ همَّ اللي اختاروا، همَّ مش فاهمين أي حاجة، لازم يترعبوا، مش عاوزين يشيلوا مسئولية القرف اللي عملوه، بس قيمة الرواية أهم.
هزت رأسها أنْ لا في عنف، شعرت بشيء غريب في رفضها، سنوات كثيرة لم تقل لي لا أبدًا، شعرت فجأة بكل قوتي تنسحب من تحت قدميَّ، هل عندما أرادت أن تختار، اختارت أن تتركني أنا؟
لأول مرة أشعر بالخوف يتسرب لقلبي من فكرة أنها قد ترحل. لأول مرة أشعر بالغيرة من «رامي» لأنه عرف أن يقنعها، جاء في خاطري فكرة أنها قد تكون أحبَّته، لم أضع هذا في حسباني على الإطلاق، أجل لم يكن اتفاقنا نهائيًّا، لم يكن للأبد، كان بيننا شرط دائم أنه من حقها اختيار العودة متى تشاء، لكنها ظلَّت معي لمدة جعلتني أظن أنها ستكون مِلكي للأبد..
قلت لها في لهجة غير مُصدقة:
ـ «ديما»؟!

أومأت برأسها ثانية وعيناها تدمعان في صمت، يقتلني بكاؤها لكنها لا ترحم، قلت بقوة محاولًا استعادتها ثانية:

- بس دي الحبكة السابعة والثلاثين، دي رواية ما اتكتبتش قبل كده، أنتِ مستوعبة أنتِ بتقوليلي أمسح إيه؟

قالت بقوة وهي تحاول أن تتماسك:

- ممكن تألف نفس الرواية، بس ما تستخدمش ناس حقيقية وتحكي قصتهم. الناس دي ليهم أهل وممكن يتحاسبوا. أنت شخصيًا ممكن تروح في داهية لو نزلتها باسمك الحقيقي. أنا كنت فاكرة إنك بتكتبها كده «درافت» وبعد كده هتغير أسماءهم. ما حدش فينا كان عارف إنك هتنزلها بأسماء حقيقية.

قلت بعناد:

- همَّ اللي اختاروا ما يقروش العقد، همَّ اللي ما طلبوش إني أغيَّر اسمهم..

تحركت نحوي في هدوء برقتها المعتادة، نظرت لعينيها شاردًا وتركتها تقترب مني لأشعر بدفء قُربها، أمسكت ذراعي وربتت عليه مُهونة كأنها تريد أن تُقنعني بتقبُّل الأمر، فأزحت ذراعها بعنف وصِحت بغضب من عدم فهمها، ردًّا على جملتها:

- يبقى كأني ولا عملت أي حاجة، الحبكة عشان تبقى الحبكة الـ٣٧، لازم تطبَّق على ناس حقيقيين، لو أنا كتبت ناس من تأليفي يبقى كأني ولا عملت أي حاجة، وهابقى دخلت في أي حبكة تانية من الـ٣٦ حبكة، أنتِ مش فاهمة اللي أنتِ بتقوليه.

لماذا أشعر أن هناك شيئًا سخيفًا في كل ما يحدث؟ لماذا لا يفهمني أحد؟ اعتدت وجودها بجانبي فظننت كل البشر يفهمونني مثلها، كيف لا تفهم قيمة الاختيارات والتضحية في سبيل الاختيارات، هي مَن أقنعتني من الأساس أننا مُخيرون منذ البداية، كل أفعالنا وتصرفاتنا ملكنا نحن فقط،

كل ما يحدث حولنا هو نتيجة لتلك التصرفات، كيف الآن تريد أن تُجبرني على شيء أيًا كان ما هو؟

قالت «ديما» بجدية شديدة، وهي تنظر لي نظرتها الحنونة:

ـ «حازم»، أنت مش واخد بالك أنت بقيت عامل إزاي! من بداية الرواية دي وأنت عمَّال تتغير، أنت بقيت فاكر نفسك إله، تحكُّمك في حياتهم وحياة اللي حواليك خلّاك تقسا قوي.

لم أصدق ما أسمعه منها، لكنها أكملت بقوة:

ـ الرواية دي بتاخد منك كتير مش بتديك زي ما انت متخيل.

قلت وأنا غضبي يتصاعد لأنها لأول مرة لا تفهمني:

ـ أنا كل اللي عاوزه إني أفهم، عاوز أعرف إزاي كل حاجة حوالينا بتمشي، الكون ده كلّه بينهار كل ثانية عشان إحنا بنختار. القيامة لو قامت مش هتقوم عشان ده قدرنا، القيامة هتقوم عشان إحنا بنختار نروح لها برجلينا، أنا مش إله، أنا واحد عاوز يفهم، أفهم إزاي كل اختيار أي بني آدم بياخده بيأثر على مسيرة الكون كلّه وممكن يمشيه في طُرق مختلفة.

استغل «رامي» انشغالي بحديثي وعدم رؤيتي له وأنا أحدث «ديما»، أخرج من حقيبته الصغيرة زجاجة كحول وألقاها على اللوحة وأخرج ولّاعته ليحرق اللوحة، لم أستوعب ما فعل إلا عندما شممت رائحة الشياط، نظرت للوحة التي بدأت تحترق بسرعة وصرخت فيه:

ـ ابعد عن اللوحة.

صرخ فيَّ هو دون أن يخاف، ليرد لي الصاع صاعَيْن:

ـ اختياري، إتحمّل نتايجه بقى.

ذهبت للوحة مُسرِعًا، لكن النار كانت قد أكلت منها ما أكلت.

نظرت له بغضب، لم أتمالك نفسي وانقضضت عليه بثورتي كلّها..

مُعلنًا وقت النهاية لكل البدايات..

* * *

نهضت من على الأرض بعد جُملتي الأخيرة، شعرت أن مؤخرتي تخشبت من كثرة الجلوس، فردت ظهري وأنا أتثاءب، كانت «علياء» تنظر لي صامتة لا تدري ما تقول، أفهم ما تشعر به، هناك مواقف أكبر من أن يقال فيها الكلام المعتاد السخيف، الذي يجعلني أكره الذهاب للعزاء هو كلمة «البقاء لله» التي تُقال دون أدنى قدر من الإحساس..

قالت «علياء» وهي تنهض لتقف أمامي، تحاول أن تبتسم:

-بس أنت إزاي كتبت اللي أنا هاقولهولك قبل ما أكتبه؟

قلت ببسمة مازحة:

-أنتِ قريتيه خلاص، غيَّريه بقى وخليكِ ناصحة.

نظرَت لي نظرة طويلة أفهمها؛ نظرة تحمل تساؤلات الدنيا، بالطبع يا صديقي تعلم الآن أن «علياء» ليس اسمها الحقيقي، ولا «ديما» أيضًا اسمها «مريم». لا يوجد اسم حقيقي واحد في هذه الرواية. قلت آخِذًا قراري النهائي، كي أجاوب عن أسئلة عينيّها:

-أنا مش عاوزها تفتكرني.

صمتت لحظات، ثم دمعت عيناها، تجاهلتُ كل هذا وأنا أقول ببسمة:

-هي اختارت وهي مش عارفة، وأنا معاها في قرارها.

ونهضتُ ساحبًا إياها من يدها، أسير معها ببطء حتى باب الشقة، لم تعترض أو تناقش هذه المرة، قلت بهدوء شديد ناظرًا لها بابتسامة راضية:

-أنتِ كان عندك حق.

وأكملت وأنا أربت على كتفها بحنان:

-أنا كل اللي بيقرب مني بيتحرق.

وفتحت الباب، لتنظر هي لي نظرة طويلة. ربتت على كتفي، قبّلتني في خدي قُبلة أم لابنها، وانصرفت..

لأذهب أنا للدولاب بهدوء.

* * *

انقضضت على «رامي» بغضب لم أشعر به من قبل، انتفض جسده ورفع مُسدسه، انطلقَت من المسدس رصاصة من فزعه، اخترقت كف يدي اليسرى وأنا أمد يدي وأندفع بجسدي الضخم ناحيته، لأسمع صوت تحطُّم عظامها ويغمرني ألم رهيب..

لكني أكملت وانقضضت عليه أوقعه أرضًا..

وقعت أنا وهو بجانب اللوحة المحترقة، أمسكت رقبته البدينة بين يدي اليمنى وقد أصابني جنون لَحظي جعلني لا أفكر. مَن هذا الحقير كي يحرق لوحة استغرقت مني شهورًا، حتى أستطيع أن أكتبها بهذا الشكل؟

اللوحة على الأرض مشتعلة بالنيران، مُحرِقة كل ما بداخلها من أوراق، أعلم جيدًا أن كل شيء عندي مُسجل في حاسوبي لكن رؤيتي للوحة المحترقة أشعرني بأن شيئًا ما يحترق داخلي أنا، لن أسامحه أبدًا على تدخُّله، ألا يعلم هذا الأحمق أنني مَن سمحت له بأن يتمرد؟ أنا مَن تركته في مكتبي كي يسرق الرواية؟ حبكته كانت تتجه ناحية الثورة فتركته يثور، كيف يعاقبني على أنني احترمت اختياراته حتى لو ستؤذيني.

أكره ضعفه وبلاهته ورومانسيته الحمقاء..

ألم رهيب في يدي اليسرى جعلني لا أستطيع أن أحركها، احتقن وجهه وأصبح غير قادر على التنفس، ضغطت على رقبته أكثر، لكن لحظة تعقُّل جعلتني أفكر قليلًا، وأتوقف عن كل شيء..

لماذا لا تصرخ «ديما» كأن شيئًا لا يحدث هنا؟

التفتُّ للغرفة لأجدها واقفة أمام حاسوبي تفعل شيئًا ما بتركيز شديد، صرختُ فيها ونهضت راكضًا نحوها، أمسكني «رامي» اللعين من قدمي كأنه يحارب على حياته، وقعت أرضًا بقوة وأنا أصرخ في «ديما» ألّا تمسح أي شيء، لكنها تجاهلتني تمامًا ودموعها تهبط، بدأت النيران تمسك في المقعد الوثير جانب اللوحة لكنني لم أعبأ، نظرت لـ«رامي» وصرخت فيه أن يتركني، لكن نظرته الصارمة ردَّت عليَّ، ركلته في وجهه مرة فتفاداني،

ظللت أركل «رامي» في وجهه بقدمي الأخرى بجنون مستندًا على ذراعي اليمنى فقط..

كل ما في عقلي هو أن ألحق بـ«ديما» قبل أن تمسح الرواية..

بدأت النيران تأكل في كل شيء ببرود، الدخان الخانق يُحيطنا من جانب ويجعل الرؤية عسيرة، تصاعد الألم رهيبًا من يدي اليسرى المصابة، سعلت وأنا مستمر في ركل ذلك اللعين..

استسلم أخيرًا بعد الضربة العاشرة، حرر قدمي من يديه وأخذ يسعل وقد امتلأ وجهه بالدماء، نهضت وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة من كثافة الدخان، نظرت لـ«ديما» لأجدها ناظرة للحاسوب بعين مُصِرَّة. دفعت «ديما» بقوة من أمام الحاسوب فارتطمت بالحائط بعنف شديد، لم أبالِ من صرختها المتألمة وأنا أنظر للشاشة في لهفة..

وتوقف قلبي للحظات..

بل توقف كل شيء. عندما رأيت ما فعلته «ديما»..

«ديما» لم تمسح الرواية فقط..

كانت شاشة الحاسوب زرقاء، ومكتوب بالإنجليزية «جارٍ عملية إعادة الحاسوب إلى حالة المصنع»..

كانت آخر ثوانٍ في التحميل عندما رأيته، وقبل أن تمتد يدي بلحظة واحدة لأضغط على إلغاء، اسودَّت الشاشة تمامًا أمام عينيَّ.

واسودَّت معها حياتي كلها..

ظللت أحدق في الشاشة السوداء لا أتنفس..

حياتي كلها كانت على هذا الجهاز..

لم أكن أؤمن بتلك المواقع التي تجعلك تُخزن كل شيء في مكان ما على الإنترنت، بل لم أكن أثق بأي شيء له علاقة بالإنترنت، لم أثق بكسلي في أن أحفظ أي شيء في وحدة تخزين إضافية لأنني كنت أعلم أنني سأضيعها.

كان كل ما على هذا الحاسوب هو النسخة الوحيدة من كل حرف.. وفكرة.. ورواية كتبتها.

لأول مرة منذ فترة بعيدة أشعر بالدموع تتجمع في عينيَّ..

كل ذكرياتي مع «ديما».. كل صورنا.

عشر سنوات لا أريد أن أغير من هذا الحاسوب القديم لأنه جزء مني ومنها. أمتلك أجهزة أخرى لكني لا أكتب إلا على هذا الجهاز، الوحيد الذي أخزن عليه عالمي أنا و«ديما»، لأنها أهدتني إياه..

سقطت دموعي رغمًا عني..

لم أعد أهتم بالنيران، لم أعد أهتم أن يحترق المكان كلّه..

أريد أن يعود لي هذا الجزء الذي فُقد من روحي..

وجدت «ديما» تَرْبِت على ذراعي مُهوِّنة، التفتُّ لها بغضب لم أستطع أن أكتمه، ظلَّت سنوات ملكي حتى تمسحني من حياتي كليًّا في النهاية؟ أول اختيار لها منذ سنوات أن تخون ثقتي أنا! أمسكتها من ذراعها بقوة أخافتها، هي الوحيدة التي تعلم لماذا أفعل كل هذا، هي الوحيدة التي ائتمنتها على أدق أسرار قلبي، كيف أقنعها طفل ساذج كـ«رامي» أن تنقلب عليَّ..

بدأ الدخان القاتل يغمر كل شيء، لم أبالِ وقلت وأنا أنظر لعينيها مباشرة:

ـ أنتِ إزاي تمسحي روايتك؟ إزاي تمسحي كل ده من حياتك؟

لم تستطع أن تتظاهر بالقوة أكثر من هذا، سالت دموعها كالمطر وهي تقول صارخة:

ـ أنت اللي مش فاهم إني عشان أرجع اختياري ليَّ تاني، آمنت إن أنا اللي قتلت أبويا!

نظرت لها في عدم فهم، فقالت هي صارخة:

ـ روايتي وروايتهم كانت هتفضل تفكّرني بالحقيقة دي عمري كلّه.

نظرت لها لحظات في صمت، نظرتي الحارقة التي تنظر لعينيها الحنون الباكية..

نهض «رامي» مُسرعًا وخرج من الغرفة لأن النيران كانت قد وصلت لمرحلة مُخيفة، لقد فعل كل ما يريده، فلا داعي لأن يضيع عمره أيضًا..

فليحترق كلُّ شيء..

السر في شيء نسيته، أو تناسيته منذ زمن.

لا نُبالِ..

أغمضت عينيَّ فجأة، مُتذكّرًا كل لحظة عشناها معًا..

كل ثانية أضاعتها من عمرها كي تجعلني سعيدًا..

شخص مثلي لا يستطيع أن يرتبط بالبشر، بل يرتبط بالأشياء، يعشق الجماد ويجعل كل ما حوله تفاصيل تخُصه هو فقط، النيران تأكل كل شيء الآن، الدخان الخانق المنتشر والنيران التي تنتشر ببطء مُستفز، لم يعد هناك ما تبقّى من روحي لأستمر..

صدر القرار داخلي في هدوء..

فتحت عينيَّ، ونظرت لها مبتسمًا ابتسامة حانية لم تتوقعها، احتضنتها وأنا أقول:

- أنا بحبك.

لم تُصدق ما تسمع، نظرت لي بعينيها الماسيَّتَيْن الدامعتَيْن، عيناها الماسيَّتان اللتان تحتوياني حتى وأنا في قمة غضبي، كانت عيناها تقطر حُبًّا وهي تقول بسرعة كي تُطمئنني:

- أنا اخترت، اخترت أفضل معاك عمري كلّه، بس من غير ما يِئذي حد بجنانِنا.

قلت لها بيسمتي التي تداري كل ما يعتمل بداخلي الآن:

- وأنا أكتر حاجة مفرّحاني إنك اخترتِ.

وقلت مُعلنًا لها إنها لم تعد ملكي:

- يا «مريم».

لم تفهم معنى ما قلت من ارتباك كل شيء حولنا، مالت بجسدها كي تحتضنني ثانية، لكني أمسكتها من ذراعها ودفعتها بقسوة أمامي. بدأ خشب المكتب في الاشتعال وأصبح الدخان كثيفًا لدرجة لا تُصدَّق، صرخت هي من آلام ذراعها..

ثم صرختُ أكثر عندما أدركتُ ما أريد أن أفعل..
دفعتها خارج الغرفة بأقصى قوتي وأنا أقول لها لآخر مرة:
ـ بحبك.
قوة دفعتي جعلتها ترتطم بـ«رامي» بقوة خارج الغرفة، نظرتْ لي «ديها» صارخة وهي تحاول أن تعود مسرعة، لكني سبقتها وأغلقت الباب بعنف، أغلقت المزلاج بقوة حتى لا يستطيع أحد أن يفتح الباب من الخارج..
ووقفت في منتصف الغرفة أحدق في غرفة مكتبي في هدوء، مُمسكًا يدي اليسرى التي تنزف دمًا..
ذلك الرف الطويل على الحائط، الذي وضعت فيه «ديها» كل أعمالي حتى أراها دائمًا أمامي، تُحفزني كي أكتب روايات جديدة..
برواز كبير تجتمع فيه معظم صورنا خلال حياتنا، ذكريات أسعد سنوات في حياتي..
لم أستطع أن أكتم دموعي وأنا أرى النار تمسك في البرواز وتحرقه في نهم..
نظرت للوحة «بولتي» التي أمسكت النيران في أطرافها، وابتسمت بحزن، وبلحظة طفولة، وبعنادي الشديد، أخرجت له لساني، ناسيًا كل ما حولي من دمار شديد..
لم أعد أشعر بآلام يدي اليسرى النازفة..
لم أعد أسمع دقات «ديها» وصراخها على الباب تريدني أن أفتح لها..
لم أعد أسمع شيئًا..
حاسوبي الذي فَقَدَ كل ما يُميزُني فيه يحترقُ مؤكِّدًا أنه لن يعود ثانية..
قلمي الذي لا أتركه إلا نادرًا..
نظرت لمكتبتي الكبيرة التي أخذتْ حائطًا كاملًا كي تكفي الروايات التي أعشق قراءتها، روايات اقتنيتها عمري كلّه..
تذكرت دائمًا نظرة «ديها» اللائمة كلما اقتنيت كتابًا جديدًا، تذكرت ترتيب الكتب في المكتبة بأيدينا..
الكتب التي تحترق الآن وقد أمسكَت النيران فيها..

كل ما يُمثلني..
كل ما ساهم في تكويني..
كل شيء مر بي حتى أُصبح أنا أنا..
كل شيء يحترق..
حتى أنا..
أغمضت عينيَّ مُتجاهلًا صرخات «ديما» الباكية بالخارج، تنادي باسمي في انهيار حقيقي..
فليحترق كل شيء..
لا أبالي..
أنا.
...

الْحَبْكَة
السابعة والثلاثون

نهاية.. خاتمة.. أي شيءٍ تُحبه!

...ه فجرًا

ارتديت ملابسي الرياضية، ووضعت سماعتي الكبيرة التي أحبها على رأسي، وضعت «الكابيشو» على رأسي، وهبطت إلى الشارع في بطء.

استقبلني الطريق بسكونه وزقزقة العصافير الدءوبة، نسمة باردة تخللت شعيرات رأسي النابتة في إهمال، أغمضت عينيَّ وأنا أستنشق رائحة الفجر التي أحبها.

أعشق الصمت، أعشق أن يمتد أمامي الفراغ حتى تنتهي حدود بصري.

نظرت لهاتفي المحمول، وابتسمت في استمتاع وأنا أختار واحدة من أغانيَّ المفضلة..

بدأت الأغنية الكئيبة الهادئة، فاتسعت ابتسامتي، وبدأت أركض.

* * *

And there's a stirring in this head of mine

وهناك حركة في ذلك العقل الذي أملكه

I can't find the things I'd known

لا أستطيع أن أجد الأشياء التي عرفتها

And there's a shadow where I used to shine

وهناك ظِلٌّ في المكان الذي اعتدت التألق فيه

That tries to hide behind the smoke

يحاول الاختباء خلف الدخان

* * *

أنت تعلم أنني لم أمُت بالطبع..

حتى لو تمنيتَ هذا بشدة..

لكنني لم أمُت..

الإصابات كانت عنيفة، احتراق من الدرجة الثانية في يدي وقدمي اليسرى، احترقتْ لحيتي ووجهي من الجانب الأيسر تمامًا، فقدت الوعي

من الدخان، قالوا لي إنني سقطت وأمسكَت النار في نصفي الأيسر كلّه تقريبًا..

حكوا لي أن الإسعاف كانت قد وصلت، كسروا الباب بسهولة وأطفئوا النيران الممسكة في جسدي، ثم أخرجوني محمولًا من ثلاثة أشخاص لضخامة جسدي.

استيقظتُ متألمًا لأجدني على قيد الحياة في المستشفى. كانت «علياء» واقفة بجانبي تنظر لي باكية، لم أفهم على الفور ما حدث، سألتها عن «ديما»، لتقول إنها انهارت فاقدة الوعي، عندما ظنت أنني أموت بالداخل..

شعرتُ بانقباض في قلبي..

بكاء «علياء» له أكثر من مدلول..

* * *

Through the storm, angels sleep

من خلال العواصف، تنام الملائكة..

When I'm miles from home, counting days and weeks

عندما أكون على بعد أميال من موطني، أعد الأيام والأسابيع

If I'm never lost in your dreams

لو لم آتهِ أبدًا في أحلامك

When I lose my heart, bring it back to me

عندما أفقد قلبي، أعده إليَّ ثانية

* * *

زادت سرعة ركضي قليلًا، والطريق يبتلعني بسحره..

بعين الخيال أرى ذكرياتي كلها تحترق خلفي، تاركة ذيلًا من النيران تحاول أن تلاحقني بإصرار..

لكني أركض دون أن أبالي..

دمعتْ عيناي رغم هدوئي النفسي وأنا أتذكرها..

بالطبع كنت سأسامحها على ما فعلَته، كنت سآخذها في حضني وأشعر بدفء روحها يتسلل قلبي، لكن «ديما» لم تترك لي الفرصة لأفعل أيًا من هذا، تركتني وحيدًا بعد أن وعدَتني أنها لن تذهب أبدًا، اختارت أن تبدأ حياتها ملاكًا طاهرًا دون وسوسة أفكاري..

«علياء» حكت لي ما حدث، وأنا على فراش المرض، لا أُطيق صبرًا حتى أعرف أخبارها..

عندما أفاقت «ديما»، كانت فحوصاتها سليمة في البداية، ثم بدأ القلق عندما لم تتذكر «علياء». «علياء» التي رأتها مئات المرّات لا تتذكر حتى اسمها، أبلغت الممرضة بخوف، ليأتي الطبيب النفسي في المستشفى ويكشف عليها، وفي النهاية أتى بالخبر اليقين.

قال إنها مصابة بفقدان ذاكرة انتقائي..

ينتقي العقل بعض المواقف البشعة، ويمحوها تمامًا من الذاكرة..

لم يتحمل عقلها فكرة أنها ستفقدني للأبد، فمحا كل ما يتعلق بي من ذاكرتها..

تتذكر والدها، تتذكر مَن هي، تعرف أن والدها مات وأنها درست في إعلام القاهرة، وأنها مصورة محترفة، تتذكر شخصيتها وثقافتها.

لكنها لا تتذكر أي شيء عن «حازم كَتَخُدَا» وكل ما له علاقة به..

ظللتُ طريح الفراش في المستشفى أسبوعًا كاملًا، في آخر يوم لي ذهبت لأزورها، لتنظر لي باشمئزاز من منظر وجهي المُحترق، ولم تتعرف عليّ..

عُدت لفيلّتي التي فقدَت روحها، نظرت لغرفة مكتبي التي احترقت تمامًا كصاحبها..

طلبت أن ينقلوا «ديما» للمستشفى النفسي الخاص الذي كانت تُعالَج فيه أمي، واحدًا من أفضل المستشفيات النفسية، تكفّلتُ أنا بكامل إقامتها.

لكنني لم أذهب لأراها إلا منذ قليل عندما أخذتني «علياء»..

استمررت في الركض..

أتريد أن تعرف ما حدث لأبطال الرواية في الحقيقة؟

في الحقيقة واقعهم لا يهمني، من البداية وأنا أُريدهم في روايتي فقط..

أنت عرفت يا صديقي أن كل الأسماء مُزيفة، لا يوجد لديَّ دليل مادي واحد على ما حدث، اختفت العقود التي وقَّعوا عليها، واختفت «ديما»، لم يتبقَّ إلا شهادتي أنا؛ وهي مشكوك في أمرها، ولو نشرت الرواية بأسمائهم لعرَّضت نفسي لمتاهات القضاء وأنا لا أتحملها نفسيًا الآن، سيُنكرون جميعًا ما حدث لهم..

السؤال هنا: هل تُصدقني أنت؟

لك مُطلق الحرية يا صديقي العزيز..

فقط، أريدك أن تعلم وتعترف لنفسك، بأننا داخلنا جميعًا سَوَاد ينتظر الانطلاق في أي لحظة، أنت داخلك «خالد» أو «آلاء» أو «طه»، ينتظر لحظة يأسٍ واحدة كي يقتنصك ويتحكم فيك طَوال عمرك..

أريدك أن تبتعد عن الفاسدين، عن السواد الذي يحتل نفوسهم، هؤلاء الذين يأمرونك أن تقبل بالوضع الراهن وترضى بما كُتب لك، وأن تبقى كما أنتَ دون أن تُغير من شيء..

أتعلم ما هو المدخل الرئيسي لهذا السَّواد؟

وَهْمُ أنك مُسيَّر يا صديق..

* * *

Like a feather never on the ground

مثل ريشة، لا تسقط أبدًا على الأرض

I carry on this empty road

أكمل طريقي في هذا الطريق الخالي

Who do you follow when there's no one else around you?

فمن يمكنك أن تتبعه، ولا يوجد حولك أي إنسان آخر؟

Tell me where I need to go

فلتخبرني أين أحتاج أن أذهب

* * *

إصراري أن أكتب الرواية ليس للعِناد..

أنا كتبتها لأنها لا تخرج من عقلي أبدًا..

رغبتي في التحرر من الفكرة فاقت كل المحاذير الأخرى، لا أستطيع تحمُّل ألم وجودها في عقلي، «ديما» لو مسحت ما في الحاسوب، فإنها لن تمسح أبدًا ما سجَّلته ذاكرتي من التفاصيل..

وأنا لا أنسى شيئًا أبدًا..

لم أدرك إلا مؤخرًا أنني مثل كل أبطالي، اخترت القيد الذي كان يسجن حياتي طوال الفترة الماضية..

قيد الكتابة..

والآن فقط.. تحررت.

فأنا خَلقت شيئًا جديدًا!

فكرت في أسماء كثيرة، فكرت في أن أُطلق عليها اسم «الحبكة التفاعلية»، فكرت أيضًا في «حبكة التحكم»، لكن في النهاية وصلت لاسم أعجبني ولا أهتم إذا كان ساذجًا أو مبتذلًا، أنا أحببته ويكفيني هذا.

«حبكة الحياة».

لو كان «بولتي» على قيد الحياة، كنت سأذهب له فخورًا وأقول له «إن هذه هي الحبكة السابعة والثلاثون التي لم يفكر فيها قط». حبكة تعتمد على استخدام أناس حقيقية والتحكم فيهم، وتطبيق كل حبكاته عليهم، ومراقبة ردود أفعالهم وصراعهم النفسي والشخصي مع كل حبكة.

الحبكة السابعة والثلاثون هي حياتنا نحن!

* * *

When I'm in the den, a lion's roar

عندما أكون في العرين، يصرخ أسد..

When I need to fight, be my shield and sword

عندما أرغب في القتال، كُوني حمايتي وسيفي

Cause I'm never lost in your dreams

لأنني لن أتوه أبدًا في أحلامك

When I lose my heart, bring it back to me

وعندما أفقد قلبي، أرجعيه إليَّ ثانية

* * *

هذه هي آخر رواية أكتبها يا صديقي..

فقدت سبب حياتي ذاتها..

«ديما».

كل ما أردته أن أضع نهاية لروايتنا معًا..

أردت أن أجعلها ترغب في استعادة نعمة الاختيار لها، كنت متأكدًا أن أحد الأبطال سيتمرد عليَّ، أظهرت لهم «ديما» على أنها نُقطة ضعفي الوحيدة، توقعت أن يضغط عليها أحد الأبطال كي تساعدهم، كنت أعلم أنها ستستعيد الاختيار في النهاية عندما تشعر بضرورة أن تختار.

ضغطت عليها أن تُنهي ذلك الهوس بقضية موت والدها، أردتها أن تتقبل اختيارها بكل مساوئه، ونجحت في ذلك، لتمحيني هي من ذاكرتها تمامًا..

لا بأس، لا بأس..

هي بالتأكيد سعيدة الآن من دوني..

أنا خُلقت كي أظل وحيدًا..

لأن كل مَن يقترب مني.. يحترق..

وداعًا يا صديقي..

أخذَتِ الكتابةُ من عُمري الكثير، وأخذت فلسفتي من روحي أكثر، تلك الرواية جعلتني - كما قالت «ديما» - شخصًا آخر لا أعرفه، جعلتني أخسر أكثر مما كسبت.

قد أتجه لكتابة السيناريو، قد أجلس بجانب «ديما» أرعاها حتى أموت، لا أعرف.

ولا أهتم بأن أعرف الآن.

بعد أعوام سأصبح في الخمسين من عمري، لا بد أن أرتاح قليلًا واستمتع..

سأفتقدكَ يا صديقي بشدة، سأفتقد آراءك ومحبتك الصافية، سأفتقد أن أرى عينيك تلمعان وأنت تنظر لي قائلًا اسمي بانبهار، وداعًا يا أعز مَن رافقني رحلة الأعوام الماضية..

وداعًا يا مصدر الحلم وسبب استمراره..

وداعًا يا آخر قيود حياتي..

أعرفتَ الآن لماذا أنت بطلٌ معي في الرواية، وأُحدثك داخلها طَوال الوقت؟

لأنه الوداع الذي تستحقه..

أعرف أنك تقرأ روايةً باسم كاتب مزيف.. أنك لا تعرف اسمي الحقيقي، لكنك ستعرفني، عندما أختفي ستعرف مَن أنا جيدًا..

أعلم أنك تريد أن تعرف أكثر، ويمكنك أن تسألني على صفحتي الرسمية، لكن احذر وأنت تتعامل مع شخص مثلي. أنا مجنونٌ كما تعلم، فإن أردتَ أن أثق بك، فقد تجدني أقول لك بمنتهى البساطة:

- اقلع☺

* * *

أجابت «ديما» بابتسامتها المُشرقة التي افتقدتها، عن السؤال العاشر، السؤال الوحيد الذي سألتها إياه، كُنا على الفراش، فأجابت في ثقة وهي تحضنني، إجابة لها أكثر من معنى:

- كان نِفسي في اللي انت عملته بالظبط؛ إني أعرف!

* * *

ما زال خيالي يُسليني في ركضي، بدأت النيران الوهمية تأكل كل شيء خلفي، لكني أشعر بلهيبها وهي تركض ورائي كوحش كاسِر يريد أن

يقتنص ضحيته، ذكرياتي المتساقطة مني تشتعل وتحرق الكون خلفي،
بدأت قدماي تئنَّان، العَرَق يُلهب عينيَّ.
لكني لم أبالِ..
لأول مرة أركض دون أن تطاردني ذكريات الرواية اللعينة، بل تتركني
محترقة وتريح روحي من خيوط قيدها..
ضحكت رغمًا عني بصوت عالٍ، وأنا أركض كالأطفال بأقصى
سُرعتي، وشعرت بالطريق يبادلني الضحكة المستمتعة..
وزادت سُرعتي أكثر..
«ربما أكثر شيء أكرهه الآن أنني سمعت كلام الدنيا ولم أركض في
أوقات كثيرة كان يجب فيها أن أفعل،
أريدك يا ابني أن تركض طوال حياتك».

* * *

I'm a broken man; help me breathe

أنا رجل محطم، ساعديني لأتنفس

Cause I've lost my heart, so bring it back to me

لأنني فقدت قلبي، فأعيديه إليَّ

Oh, I'm feeling lost in my dreams

أوه، أشعر أنني تُهت في أحلامي

Oh, I've lost my heart, so bring it back to me

أوه، لقد فقدت قلبي، لذا أعيديه إليَّ

* * *

بدأت لا أرى علامات الطريق، كل شيء يهتز أمامي من سُرعتي،
ضحكت ثانية وأنا أضغط على جسدي حتى أركض بأسرع ما يمكنني،
أتخيل النيران خلفي تحرق ذكرياتي التي تحررت منها أخيرًا..
ثم تذكرت فجأة..

«استمتع بكل لحظة،
واجه كل ما سيأتي من قيود بضحكة ساخرة، وقلب دافئ، وعينين مُغمضتَيْن،
وساقين تتركان نفسهما للرياح».

اكتشفت الآن فقط أنني طوال عمري، لم أنفذ أبدًا آخر جزء من وصية أمي.

لذا، بتلك السرعة، أغمضت عينيَّ فجأة..

تركتُ ذراعيَّ، رافعًا رأسي لأعلى، وابتسمت بصفاءٍ غريب داخلي..

وركضت بأقصى قوتي..

وعندما أغمضت عينيَّ، شعرت أنني أطير ذاهبًا للسماء، مُطلقًا خيطًا من النيران المشتعلة خلفي..

أنا أحلق..

لم تمر أكثر من ثوانٍ معدودة، تعثّرت قدمي في شيء ما لم أره، سقطت بسرعتي تلك بقوة وزحفت على الأرض وأنا أتدحرج حتى توقف جسدي المتألم عن الحركة تمامًا..

وساد الصمت..

تقلّبت واستلقيت على ظهري وكل جسدي يؤلمني، نفَسي المتسارع من كثرة الركض..

«لما بننام كده، السما بتبُص علينا وبتبقى شايفانا أحسن، مش مجرد نقط سودة وشعر طويل..».

دوّت كلمة «ديما» بصوتها الحنون في عقلي، عندما كنا نائمَيْن على أرض الغرفة منذ فترة، نظرت للسماء الصافية، تُرى هل تراني أمي الآن؟ أريد أن أخبرها أنني نفَّذت وصيتها المؤلمة وكانت النتيجة ألمًا رهيبًا، إن مَن ينصح طفلًا أحمق أن يركض مغمض العينَيْن لهو شخص غير مسئول، فلتحمد الله أنني نفَّذتها الآن فقط..

شعرت أن سقوطي أعاد لي جزءًا من أيام الطفولة المؤلمة، قلت ناظرًا للسماء كأني أحدثها مبتسمًا بسخرية:

-ما هو مش معنى إنك كنتِ مشلولة تودينا في داهية بنصايحك!

وضحكتُ من قلبي فجأة بصوت عالٍ وأنا مستلقٍ على ظهري غير قادر على الوقوف الآن..

سأتألم كثيرًا حتى تُشفى جراحي، سأتألم أكثر حتى أستعيد قلب «ديما» التي خُلقتْ لي وخُلقتُ لها..

لكن ليذهب عمري فداءً لمن أُحب..

وليذهب كل شيء فداءَ الجنون..

فلولا الجنون يا صديقي..

ما كان الشغف..

* * *

تمَّت بحمد الله

٩/ ١١/ ٢٠١٦

مُحمد صادق

لوحة الحبكات لمن يهمه الأمر

* «حازم كَتَخُدَا»: «٩» المشاريع الجسورة، «٢٠» التضحية من أجل المبدأ، «٢٢» التضحية بكل شيء في سبيل الشغف، «٢٣» الحاجة المُلحة للتضحية بالآخرين، «٢٤» التنافس بين الجيد والأكثر جودة، «٣٠» الطموح، «٣١» الصراع مع الآلهة.

* «ديما»: «١» الرجاء والتوسل. «٥» الملاحقة. «٣٥» استعادة شخص مفقود.

* «طه أحمد»: تاريخ شخصيته: «١٤» التنافس بين الأقارب، «١٣» العداوة بين العائلة، «٣٣» المعاناة من أحكام ظالمة. الرقم الذي اختاره: «٤» الانتقام بين الأقارب، مستقبله: «٢٧» اكتشاف حقيقة مشينة عن الأقارب.

* «آلاء أبو العينين»: الرقم الذي اختارته: «٢٥» الخيانة الزوجية، مستقبلها: «٣٥» الغيرة في غير محلها، «١٥» جرائم نتيجة لخيانة زوجية.

* «خالد عبد السلام»: تاريخ الشخصية: «٧» الوقوع فريسة سوء الحظ، الرقم الذي اختاره: «١٢» الظفر أو المكسب، مستقبله: «٢٦» آثام في سبيل الحب، «٣٤» الندم.

* «شيماء المحمدي»: تاريخ الشخصية: «١٩» قتل قريب دون قصد، الرقم الذي اختارته: «١٠» اختطاف، مستقبلها: «١٦» الجنون، «٢٩» الوقوع في حب العدو.

* «رامي محمود راضي»: تاريخ الشخصية: «١٧» الحماقة المُدمرة. الرقم الذي اختاره: «٣٦» فَقْد الأحباب. مستقبله: «١١» اللغز «مَن فعلها؟»، «٢» الانتقام «جريمة يتبعها الانتقام»، «٨» الثورة.

* «سارة محمد عبد المنعم»، تاريخ شخصيتها: «٧» الوقوع فريسة سوء الحظ، الرقم الذي اختارته: «١٨» آثام الحب اللا إرادية، مستقبلها: «٢٨» عقَبات في وجه الحب، «٢١» التضحية بالنفس من أجل الآخرين.

وبهذا اكتملت كل حَبْكات «بولتي» في رواية واحدة.

شكر خاص

ما زال الطفل بداخلي يُحب كتابةَ الشكر الخاص كأنه قصيدةٌ عَصْماء، أعلم أن الكُتاب المحترفين يكتبون بعض الأسماء بوقار.. لكني أعترف أني لم أصل لتلك المرحلة من الوقار بعد.

«مروة مجدي»

كالمعتاد، زوجتي التي سأظل أُهدي كلّ رواياتي لها، وسيظلُّ أولُ إهداء دائمًا محجوزًا باسمها، سعيدٌ أن هذه الرواية يشاركني إبداعكِ فيها بصورة من تصويرك☺ شكرًا على «وجودك» في كل تفصيلة، شكرًا على اعتنائك بطفل كبير اسمه «مُحمد صادق»، جعلكِ الله ذُخرًا للوطن.

«نُهى أحمد صادق»

وجودكِ كان علامةً فارقة في كل شيء، لا تغيبي عنا طويلًا.

«سُها أحمد صادق»

الأخت الكبيرة التي علَّمتني معنى عشق الموسيقى، شكرٌ خاص جدًّا على مجهودك الرائع معي في تلك الرواية الصعبة.

والعائلة الكريمة:

أبي «أحمد صادق»، وأمي «ماجدة الباز»، وأختي الحبيبة دعمكم الدائم ومحبتكِم الصافية هما سر كل شيء جميل يحدثُ لي. ابقوا بجانبي حتى أستمتع بكل الأشياء الجميلة ☺

الأصدقاء:

«حُسين هاشم»، أولًا وأخيرًا، أخي الذي لم تلده أمي، لكن بالتأكيد أجدادنا القدماء تشاركوا الجينات في وقتٍ ما، أحبك يا صديقي.

«أحمد نشأت»، متعة صداقتك ومحبتك تجعل من كل شيء ممكنًا، بمعدل فقدان الأصدقاء المستمر أدعو الله أن أهدي لك روايتي الخامسة والعشرين.

«أحمد عبد المجيد»، الكاتب الذي أعشقُ روحه قبل أن أعشقَ ما يكتبه. شكرًا على تحليلك وصراحتك وانتقاداتك المهمة، أنتَ إضافة إنسانية لكل مَن يعرفك، «ربنا يخليك ليِ».

«شيماء المارية»، الأخت التي سأظلُّ بجانبها مدى الحياة، والتي أعلمُ أنها ستفعلُ المثلَ راضية. الكاتبة التي أعلم أنها عبقرية وتكتب بإحساس من أجملَ ما يكون.

«عادل العَجَواني»، الصديقُ الجديدِ الذي عوّض أماكنَ الأصدقاء كلهم، أتمنى أن نظل أصدقاءَ حتى أخبر ابنك ما قلته عن « كيميائي».

والكبير بأخلاقه وشخصيته الجميلة «أحمد مُراد»، شكرًا على آرائك وملاحظاتك وتعبك معي، أنتَ تساعدُ كلَّ مَن حولك دون مقابل، أتمنى من الله أن يُديم المحبة دائمًا.

الكبير بثقافته واحترامه، أستاذي «عماد العادلي»، شكرًا على قراءتك وملاحظاتك الثمينة.

والأصدقاء: «كريمان جمال»، «نور الصوّاف»، «مُنى عوض»، «أحمد

محمود»، «أحمد جمال»، «أيمن شمس»، و«عمرو موسى». صداقتكم شرف لي.. شكرًا لدعمكم المستمر وصبركم على جنوني.

للمستقبل البعيد.. «أحمد الصاوي»، «جَنَى الصاوي»، «مريم موسى»، «ياسين موسى»، «سارة وهَنَا موسى»، و«ميرا محمد مجدي». قد تقرءون تلك الرواية عندما تصلون لعمر الثامنة عشرة، أرجو عند انتهائكم من القراءة أن تفتخروا بخالكم ☺

في النهاية، شكرٌ خاصٌ لكل أبطال تلك الرواية، شكرًا لكل إنسان قابلته وترك علامةً في روحي تجعلني أستمرّ في الكتابة دائمًا.

وأخيرًا.. الشكرُ المعتادُ للقارئ الذي من دونه أنا بلا أي قيمة.. في انتظار رأيك ونقاشك.. أرجو ألا تكرهني بعد تلك الرواية القاسية☺

وإلى اللقاء - إن شاء الله- في رواية جديدة ☺

محمد صادق



أجل، أنا أحدّثك أنتَ...

بين يديك الآن رواية لا تحب المترددين...

حكاية مكتوبة لعشّاق الجنون وهواة كسر القواعد... قصة كتبتُها بروحي وجسدي حتى احترقا... كتبتُها بيدٍ واحدة، مُصرًا أن تصل إليك، مُعاندًا كل الصعوبات، وكل ما واجهتُه، وما اضطررتُ أن أضحي به؛ في مقابل أن تقرأ أنت رواية لم تقرأ مثلها من قبل...

رواية عني... وعما حولك...

وعنك أنت...

سؤالي إليك الآن يا صديقي...

ماذا تريد أكثر من هذا؟!

"حازم كنعان"

للنشر والتوزيع